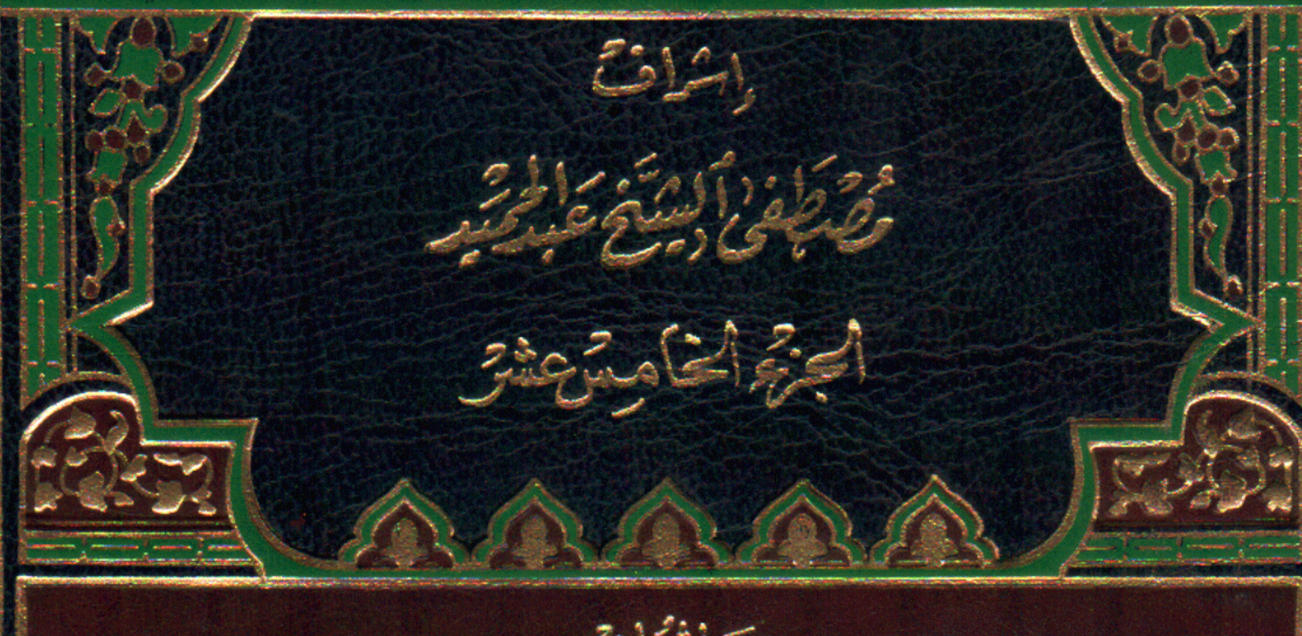
محاضرات الوائلي



منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث



رحمه الله

إشراف

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد

الجزء الخامس عشر

منشورات
شركة دار المصطفى لإحياء التراث

مصطفى آل الشيخ عبد الحميد آل مرهون

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م

يطلب من:

لبنان ـ بيروت ـ جادة السيد هادي ـ مفرق الرويس ـ بناية اللؤلؤة ط١ ـ

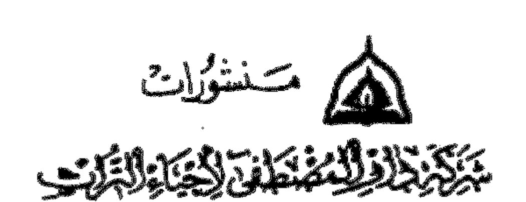
هاتف: ٠٠٩٦١١٥٤٠٦٧٢

سوريا ـ ص.ب: ٧٣٣ ـ السيلة زينب محمول: ٠٠٩٦٣٩٤٤٣٥٦٥٨٤ و٠٩٩٤٠٧٣٥٥٤

مؤسسة المصطفى: إيران ـ قم ـ خ سمية ـ ١٦ مترى عباس آباد بلاك ٢٤

تلفاكس: ٧٧٣٨٨٥٥ ـ ٠٠٩٨٢٥١

البريد الإلكتروني: E-mail: mnmnmn3@hotmail.com



﴿٢٣﴾

الإسلام ودور المرأة في الحياة العامّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: القرآن مائدة السماء

إن من أبرز سمات الفرد المسلم التي تطبعه بطابع كونه مسلماً أن يكون مطيعاً لله عزّ وجل، وسائراً في المنهج الذي رسمه له وإلّا فإنه لا يمكن لنا أن نعبر عن إنسان بأنه مسلم ما لم يكن مطيعاً لأوامره تبارك وتعالى ومنتهياً عن نواهيه؛ ذلك أن الإسلام له مفهوم واحد ومعنى واحد هو الامتثال لما أمر الله سبحانه وتعالى به والانتهاء عما نهى عنه، والأخذ بمضامين القرآن الكريم كتاب الله الذي أُنزل ليُعمل به، وبالسنة النبوية المطهرة.

إذن فنحن إنما نسمي فلاناً مسلماً أو ننعته بأنه كذلك؛ فلأنه يكون دائماً في موقف هو كلّه طاعة لله جلّ وعلا بحيث إنه لا يترك أمراً أمره به، ولا يفعل أمراً نهاه عنه. فإن كان كذلك كان مسلماً بما أن الإسلام هو الانقياد إلى الله تبارك وتعالى،

(١) التوبة: ٦٧.

والطاعة لأوامره جلّ شأنه.

المسلمون والقرآن

وبناء على أن الإسلام هو الانقياد إلى الله سبحانه، والعمل على ضوء كتابه الكريم، فإن على الناس جميعاً أن يعوا حقيقة أن الله تعالى إنما أنزل القرآن الكريم كما ذكرنا ليعمل الإنسان به ويسير على مضمونه، بحيث إنه يتقيّد بكل القوانين والقواعد الواردة فيه؛ سواء كانت هذه القواعد أخلاقية أو أدبية أو تشريعية أو اقتصادية أو غير ذلك ممّا يتعلّق بالفقه والعقائد والأحكام، وما إليها ممّا يدخل تحت نطاق الكتب التشريعية أو الدساتير التي تنظّم للإنسان حياته كاملة، ووجوده بشكل كلي في هذه الدنيا، وتقنّن له تصرّفاته وأخلاقيّاته وكلّ أفعاله، وما يمكن أن يقوم به.

غير أننا نرى أن البعض لا يلتفت إلى هذه النقطة؛ فلا يتوجّه إلى حقيقة أن القرآن الكريم هو عبارة عن منظومة متكاملة من القوانين والنظُم ذات المضامين العالية والمفاهيم السامية التي تحاول أن ترقى بالإنسان إلى فضاء الأخلاق والمعرفة، وأن تسمو به إلى عالم فسيح رحب من الوجود الواعي المنظّم، والانطلاق إلى عالم حرية الفكر والعلم والكمال، وتخرج به إلى دنيا الوجود الحر وإلى دنيا الكرامة والعمل السليم والصحيح، بل إنهم يفرغونه من محتواه السامي ذاك وينظرون إليه على أنه كتاب للبركة فقط.

وهذا تصوّر مخطوء حول القرآن الكريم، ونظرة باهتة وغير صائبة إليه، وتصوير ساذج في المقام له ينبئ عن عقم في التفكير، ومحدودية في الأُفق المعرفي؛ تؤدّي إلى مساهمة سلبيّة في فهم مضامين القرآن الكريم، وإلى إسباغ صبغة مشوّهة ومشوّشة على أجوائه التربوية الشريفة عند التوجه إليه للتعامل معه

ومحاولة فهمه. هذا مع أنه كتاب أُريد له أن يكون دستوراً وأداة لتمرير منظومة التشريعات السماوية إلى الناس. فالقرآن لم ينزل لمجرد البركة وإن كان كلّه بركة، لكن الله تبارك وتعالى أراد منّا أن نستفيد من كلّ ما فيه من قوانين ونظم وسُنن، وتشريعات وأحكام، وعِبَر ومواعظ، وما إلى ذلك مما تكتنفه دفتاه من عطاء ضخم لا يمكن أن يرقى إليه عطاء، ولا يمكن أن يصل إليه أحد في مثل ذلك الوجود الضخم العظيم المبارك الذي أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفيد منه أقصى غايات الإفادة.

إن التعامل الصحيح مع القرآن الكريم هو أن يكون بهذا اللون، أما أن يقتني أحدنا قرآناً ويضعه على أحد رفوف بيته؛ لكي يحفظ بيته، أو لكي يجلب له البركة، دون أن يقرأ فيه، ودون أن يعمل به، فهذا مفهوم مخطوء وغير صحيح، ونظرة سلبية إلى هذا الكتاب العظيم؛ بما أنها تبتعد عن مراده وبيئته وأجوائه.

إن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن دستوراً ليعمل به، وهو دستور يضع القواعد العامة لكل جوانب الحياة التي يحتاجها الإنسان، ويدرس السنن التي يمكن أن يستفيد منها الناس في حياتهم العملية، ويعطينا النتائج التي يخرج بها عند دراسة تلك السنن؛ سواء كانت نتائج سلبية، أو إيجابية؛ لكي يستفيد الإنسان منها؛ فيترك السنن التي تكون نتائجها سلبية، ويأخذ بالسنن التي تكون نتائجها إيجابية.

أي أن المراد من ذلك هو أن يستفيد الإنسان من هذا الكتاب المقدس في كلّ ما فيه، وبكل جوانب الإفادة التي يمكن أن يلمسها أو يتناولها منه؛ فهو مائدة الله تبارك وتعالى التي لا تنضب، وعطاؤه الذي لا ينفد.. المائدة التي يمكن أن توفّر للإنسان الحلول الناجعة لكل ما يعترضه من مشاكل في الحياة على الأصعدة

والمستويات كافة، فينهل منه متى شاء، ويأخذ منها غذاءه في أي وقت شاء، ولأي حاجة شاء.

المبحث الثاني: المنافقون في زمن الرسول الأكرم ﷺ

كما أنه في الوقت نفسه يصف لنا قضايا معينة ويأمرنا بالإيمان بها، ونحن بدورنا يتوجّب علينا الانقياد له فيها، دون تردّد أو إثارة تساؤلات، وذلك من قبيل العقائد التي تتعلق بالتوحيد والعدل، ومقامي النبوة والإمامة، وكذلك ما يتعلق بالحشر، أو فيما يتعلق بالصفات الإلهية وما إلى ذلك مما يتوجّب علينا الإيمان به.

الناس في المنظور القرآني ثلاثة معسكرات

فكل هذه الأُمور بأجمعها من عطاء القرآن الذي نلاحظ أنه كذلك يصنّف حال الناس يوم القيامة بلحاظ أعمالهم إلى ثلاثة معسكرات، هي:

الأول: المنافقون

فهذا الكتاب الكريم، والدستور الشامل يتضمن سورة كاملة يسميها سورة (التوبة)، أو سورة غيرها يسميها سورة (المنافقون)، وهاتان السورتان وأمثالهما ممّا تضمّ بين طرفيها تعالج المجال نفسه[1] تتضمّنان وقائع عن جماعة كانوا معاصرين للنبي الأكرم ﷺ، ويوصفون بأنهم صحابة له ﷺ، لكنه ـ القرآن الكريم ـ يعبّر عنهم بأنهم منافقون، وأنهم على غير نهج النبي ﷺ، وأنهم يضمرون الحقد والعداء له ﷺ وللدين الإسلامي الحنيف، وللمسلمين جميعاً.

---

(١) قال جلّ شأنه: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ الواقعة ٤١ ـ ٤٦.

الثاني: المؤمنون

في حين أننا في الوقت نفسه نجد أنه ـ القرآن الكريم ـ يصف جماعة أُخرى بأنهم أصحاب اليمين، ويعطيهم منازل كبيرة عند الله تعالى، كما وصفها جلّ وعلابقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً﴾[١].

وهو تعالى فوق هذا يعطيهم عطاءً كبيراً ضخماً.. عطاء ليس فوقه عطاء، وهو ما تعبّر عنه الآية الكريمة بقولها: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[٢].

الثالث: أصحاب الأعراف[٣]

فهذان معسكران وصفهما القرآن الكريم وصفاً صريحاً واضحاً، فكان أمرهما بيّناً، وهناك معسكر آخر أمره بين بين، وهو لجماعة وصفهم القرآن الكريم بقوله:

---

(١) الواقعة: ٢٧ ـ ٣٧. (٢) التوبة: ٧٢.

(٣) يشار إلى أن هناك روايات أُخرى عن أهل بيت العصمة عليهم السلام تفسّر الأعراف بغير هذا التفسير، فعن أبان بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله تبارك وتعالى، فدخل عليه سفيان بن مصعب العبدي، فقال: جعلني الله فداك ما تقول في قوله تعالى ذكره: ﴿وعلى الأعرافِ رِجالٌ يَعْرِفونَ كُلّاً بسِيماهُم﴾؟ قال: «هم الأوصياء من آل محمد صلى الله عليه وآله الاثنا عشر، لا يعرف الله إلّا من عرفهم وعرفوه». قال: فما الأعراف جعلت فداك؟ قال: «كثائب من مسك عليها رسول الله صلى الله عليه وآله والأوصياء، يعرفون كلّاً بسيماهم». فقال سفيان: أفلا أقول في ذلك شيئاً؟ فقال من قصيدة:

أيا ربعهم هل فيك ليْ اليوم مربعُ ... وهل لليالٍ كنّ لي فيك مرجعُ

إلى أن يقول:

وأنتم ولاة الحشر والنشر والجزا ... وأنتم ليوم المفزع الهول مفزعُ

وأنتم على الأعراف وهي كثائب ... من المسك ريّاها بكم يتضوعُ

ثمانية بالعرش إذ يحملونه ... ومن بعدهم في الأرض هادون أربعُ

مقتضب الأثر: ٤٩..

﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[1].

الثمرة من التقسيم

وبملاحظة هذا التقسيم القرآني لهذه المعسكرات التي يتحدّث عنها يمكن لنا أن نخرج بأكثر من ثمرة لهذه القسمة تستمدّ منها عبر ومواعظ تغنينا في حياتنا، وأن نجزم بأن هذا هو مراد القرآن الكريم منها. فمن خلال الرؤية الواقـعية لهـذا التقسيم الذي وضعه الله تعالى للناس. ونحن سوف نذكر منها هنا ثمرتين هامّتين إن شاء الله تبارك وتعالى، هما:

الأولى: حسن الإفادة من السنن الإلهية

فهذه المجتمعات التي يرسمها لنا القرآن الكريم، إنما يرسمها لأنـه يـريد أن يحدّد لنا معالم المجتمع الصالح والمجتمع الطالح منها عبر تأكيده على إظهار أبرز سماتهما وخصائصهما من خلال تلك اللوحة الناصعة التي يـضعها بـين أيـدينا عنهما. وهو بهذا إنما يريد منا أن نقتدي بالصالح، وأن نبتعد عن الطالح منهما، بعد أن يشير لنا إليهما كليهما.

الثانية: ضرورة تقييم الإنسان على ضوء القرآن الكريم

كما أنه في الوقت نفسه يريد منا أن نقيّم هذه المجتمعات تقييماً عقلانياً منهجياً خاضعاً لقانون السماء وللرؤية القرآنية الكريمة التـي تـخضع عـادة للـمقاييس السماوية التي لا يمكن أن تميل لأحد على حساب أحد نتيجة تأثير عامل معيّن، أو ميل أو هوى، أو ما إلى ذلك.

---

(١) التوبة: ١٠٢.

إذن فالقرآن الكريم يريد منا أن نقيم هذه المجتمعات، وأن نميّز السابقين للإسلام الذين هم الروّاد الأوائل من المؤمنين الذين اتبعوا النبيﷺ بإحسان وصدّقوه إذ كذبه الآخرون، والذين هم أئمتنا، وينبغي علينا أن نعتبرهم قدوتنا، ومثلاً أعلى لنا نسير على هداهم، ونخطو على خطاهم، ونحذو حذوهم في كلّ ما كانوا عليه.

كما أنه ينبغي علينا أن نجعل منهم موضع تقديرنا واحترامنا ومودّتنا؛ لأن مودّتهم مودّة لله ولرسوله.

أما أُولئك الذين نعتهم القرآن الكريم بأنهم منافقون، فالذي ينبغي علينا حينئذٍ أن نحذر منهم[1]، وأن نضع عليهم ألف علامة استفهام؛ كيلا ننساق وراءهم ـ وهو الأمر الذي يعني أنّا إنما نقود أنفسنا إلى النار ـ بدعوى أنهم صحبوا الرسولﷺ. وهذا يعني أنه ينبغي علينا ألّا نجعل من هؤلاء موضع تقدير، وألّا يكونوا كذلك من أحد؛ لأنهم إنما كانوا عالة على الإسلام، بل إنهم كانوا يريدون أن يقضوا على الإسلام ويقضوا على صاحبه الرسول الأكرمﷺ بشتى الوسائل التي كانوا يتبعونها، والتي حدثنا عنها القرآن الكريم وكتّاب التواريخ والسير.

القرآن وتقييم الآخرين

إذن فمن الواجب أن نعطي لكلٍّ من أبناء هذه المعسكرات الثلاثة حقّه من التقييم على طبق ما تقتضيه المسؤولية الشرعية التي ينبغي أن نخضع لها وفقاً لما تمليه علينا القواعد الأخلاقية الإسلامية، والقوانين القرآنية التي يجب أن نذعن

---

(١) قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ المنافقون: ٤.

لها في مثل هذه الأمور؛ لأن مسألة تقييم الآخرين هي مسألة حساسة للغاية ودقيقة جداً؛ ولذا كان ينبغي أن تخضع لدراسة معمّقة جداً، ولتأمّل كبير بعيد الغور، بحيث إننا لا نمدح من هو أهل للقدح، ولا نقدح فيمن هو أهل للمدح؛ بل إننا نمدح ونقدح وفق الضوابط والمعايير القرآنية، ووفق المقاييس الأخلاقية الإسلامية التي قنّنها لنا كل من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

قال الله، وقال فلان

فهذه هي الموازين العقلانية التي ينبغي أن تُتّبع. ونحن طبعاً مع كلّ هذا، لكن أن يأتي أحد ويقول: «قال الله، وأقول»، فهذا ممّا نعتبر أنه غير معقول وغير مقبول أبداً؛ ولذا فإنه يؤسَّس على هذه المقولة أن كلّ الذين عاصروا النبي الأكرم ﷺ لا يمكن أن يمسّهم أحدٌ بسوء أبداً؛ لأن صحبتهم له ﷺ عاصمة لهم عن ألسنة الناس وعن أقلام النقد والتقييم الواقعيّين اللذين كما ذكرنا يستمدان مشروعيتهما من قوانين القرآن الكريم، وقواعد السنة النبوية المطهرة، وضوابط العقل التي أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعها وتعبّدنا بها.

الواقعية في التقييم

وعليه فإن قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ﴾ نعت لهم على الحال التي كانوا عليها، وهو في الوقت نفسه تقييم واقعي لهم. وهذا يعني أننا حينما نقيّم أحداً فإننا لا نخرج عن هذا الإطار الذي وضعه لنا القرآن الكريم، ولا نخرج عن إطار السنة النبوية المطهرة؛ لأن القرآن الكريم نفسه هو الذي قيّم هؤلاء، وأعطاهم تلك الصفات التقييمية التي تضع تصرفاتهم وأعمالهم تحت مجهر التقييم؛ لدراستها دراسة دقيقة على ضوء

القانون القرآني، وميزان معرفة سلوك الإنسان في سيرته الحياتية العملية، وما إذاكان هذا الإنسان مستحقاً لأن يُمدح أو مستحقاً لأن يقدح فيه قبل أن نقول فيه ما لا يستحقّه، وقبل أن تنساق وراء عواطفنا تجاه البعض.

ومن هذا فإننا نستنتج أنّ ما ورد في هذه الآية الكريمة وفي غيرها من الآيات الشريفة التي تناولت هذا الموضوع مركّزة على هذه الجنبة الحساسة والهامة في تاريخ الإسلام هي إشارة إلى أن منهجهم في الحياة هو منهج مَرَضي غير مَرْضي، بل إنه منهج مرفوض؛ لأنه يخالف بشكل صريح وفاضح المنهجَ الإلهي والتعاليم الربانية وتبتعد عن القواعد السماوية المقدسة التي وضعت لتقنن للإنسان حياته ولينتهجها ويسير على هديها، أما أن يسير على منهج غير منهجها فهذا يعتبر منهجاً غير صحيح وغير مقبول، بل إنه مرفوض؛ لأنه مخالف مخالفة صريحة للإسلام الحنيف، ولقواعده الشريفة.

إذن فالذي ينبغي أن يكون هو أننا يجب أن نسير على منهاج القرآن، ولا نخرج عن الإطار الذي رسمه لنا، ولا الإطار الذي رسمته السنة النبوية المشرقة، وألّا نحيد عمّا قننته السماء فيما يختص في كلّ أُمور حياتنا من صغيرها إلى كبيرها. ونحن إذ نقول: السنة النبوية المطهرة؛ فذلك لأنها قد أشارت بشكل صريح وواضح وبما لا يقبل اللُّبس والتأويل إلى أن هنالك جماعة من الأصحاب هم غير مرضيٍّ عنهم، وأنهم قد أحدثوا في الإسلام وفي هذا الدين بعد الرسول ﷺ ما أحدثوا، وخالفوا صراحة القواعد الإلهية أو الأوامر السماوية المقدسة. ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم[1] والنبي الأكرم ﷺ وآله الطاهرين عليهم السلام قد أخبرانا أن

---

(١) كقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي

هناك جماعة من أصحابه[1] يكونون موضع رعاية الله تبارك وتعالى ورحمته

التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ الفتح: ٢٩.

(١) بل وتابعيهم أيضاً؛ فقد ورد في دعاء الإمام السجاد﴿ع﴾ في الصلاة على أصحاب نبيّنا الأكرم﴿ص﴾، وأصحاب الرسل﴿ع﴾ ومصدقي الرسالات: «اللهم وأصحاب محمد﴿ص﴾ خاصة الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه، وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوّته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبّته، يرجون تجارة لن تبور في مودّته، والذين هجرتهم العشائر وتعلقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات إذ سكنوا في ظل قرابته. فلا تُنسِ لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك، وبما حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم، وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم. اللهم وأوصِ إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] خير الجزاء، الذين قصدوا سمتهم، وتحروا وجهتهم، ومضوا على شاكلتهم، لم يثنهم ريب في بصيرتهم، و لم يختلجهم شكّ في قفو آثارهم والائتمام بهداية منارهم، مكانفين وموازرين لهم، يدينون بدينهم، ويهتدون بهديهم، يتفقون عليهم، ولا يتهمونهم فيما أدوا إليهم. اللهم وصلّ على التابعين من يومنا هذا إلى يوم الدين، وعلى أزواجهم، وعلى ذرياتهم، وعلى من أطاعك منهم صلاة تعصمهم بها من معصيتك، وتفسح لهم في رياض جنتك، وتمنعهم بها من كيد الشيطان، وتعينهم بها على ما استعانوك عليه من برّ، وتقيهم طوارق الليل والنهار إلّا طارقاً يطرق بخير، وتبعثهم بها على اعتقاد حسن الرجاء لك، والطمع فيما عندك، وترك التهمة فيما تحويه أيدي العباد، لتردّهم إلى الرغبة إليك والرهبة منك، وتزهّدهم في سعة العاجل، وتحبّب إليهم العمل للآجل، والاستعداد لما بعد الموت، وتهوّن عليهم كلّ كرب يحلّ بهم يوم خروج الأنفس من أبدانها، وتعافيهم مما تقع به الفتنة من محذوراتها، وكَبّة النار وطول الخلود فيها، وتصيّرهم إلى أمن من مقيل المتقين». الصحيفة السجادية الكاملة: ٣٩ ـ ٤٢ / الدعاء: ٤.

وقد مدح الصحابة أمير المؤمنين﴿ع﴾ بقوله: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ﴿ص﴾ فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ؛ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ

في حين أن هنالك جماعة يكونون على خلاف ذلك كما يرويه أصحاب الحديث من قوله ﷺ في جماعة من أصحابه يحشرون يوم القيامة يختلجون دونه ـ يعني تأخذهم الملائكة ـ فيقول ﷺ: «أصحابي». فيقال له: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك»[1].

فمثل هؤلاء حتماً سوف يذهب بهم إلى نار جهنم في حين أن هناك جماعة ينعمون برَوح الله وريحانه؛ لأنهم صدقوا الله سبحانه وتعالى، وصدقوه ما اهدوه عليه، وعبدوه حقّ عبادته، وأطاعوه أحسن الطاعات؛ لمعرفتهم بما سيؤول إليه أمرهم يوم القيامة من رَوح وريحان، وتيقّنهم الكامل بحصول ذلك؛ بناء على عدة الله تبارك وتعالى لهم بهذا، وتصديقهم بها.

المسلمون والموازين القرآنية

وبناء على هذا نقول: إننا كمسلمين يجب علينا ألّا يغيب عن بالنا كلّ هذه الصور التي يضعها القرآن أمامنا، بل إن علينا أن نضعها نصب أعيننا دائماً وفي مقاييسنا؛ حتى لا نحيد عن الحق حينما نقيّم الآخرين، وحتى لا نخرج عن الإطار القرآني الشريف في معالجة أحوال هؤلاء، وفي محاولة التعامل معهم تقييماً؛ قدحاً، أو مدحاً، أو توقّفاً.

فالواقع الذي لا محيد عنه ولا محيص منه يملي علينا أن نقيّم هؤلاء وهؤلاء

جِبَاهِهِمْ خُدُودِهِمْ؛ وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ؛ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكَبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ؛ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبَهُمْ؛ وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ؛ وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ». نهج البلاغة / الخطبة: ٩٧.

(١) مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٤ / ٣٢١٥، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها.

وفق المنهج القرآني، وأن نبقى ضمن النهج القويم له، والذي يحتم علينا أن نكون واقعيين ومنطقيين وخاضعين لأحكام السماء في عملية التقييم هذه دون أن نضطر إلى أن نرسم صورة بلهاء غير متّزنةٍ عن الآخرين خاضعة للهوى وميل النفس، والاحتكام إلى الموروث؛ انسياقاً وراء التقليد الأعمى والأهوج لما عليه الأسلاف وإن كانوا على غير هدى؛ فنقدّس ما ليس بمقدّس، ونمجّد ما هو غير ممجّد. وهو ما يؤول بنا إلى القدح فيمن يستحقّ المدح، والمدح لمن يستحقّ القدح.

ونتيجة هذا المخاض الّذي تعالجه هذه النفوس الموبوءة تعني حقيقة واحدة غير خاضعة للتشكيك بحال، هي تعويم الحقائق والمفاهيم، وتغييب الحقّ والتعتيم عليه، وخلق جوّ من التشكيك الذي يعوم في ضبابية المفاهيم المشوّشة والممسوخة التي يراد لها أن تحقن في ذاكرة الشعوب والأجيال لإشباع مطامع النفوس عبر تحقيق الرغائب الكامنة وراءها، والصيرورة إلى طريق يبتعد بنا عن العدل، يُسلب فيه حقّ ذي الحقّ، ويمنح فيه من لا يستحقّ ما لا يستحقّ؛ نكاية بالحقّ، وعزّة بالإثم.

وكل ذلك ـ كما لا يخفى ـ عن قصد وإصرار؛ لإبعاد كلّ كلمة حقّ يمكن أن تقال في المقام، وزحزحتها عن مقامها.

إننا نعرف سلفاً أن بني الإنسان فيهم الصالح وفيهم الطالح وفيهم من هو بين ذلك، وبناء على هذا فينبغي أن يعطى كلّ أحد حقّه من التقييم دون أن يصادر ذلك الحق من صاحبه؛ فلا يمدح مقدوح فيه، ولا يقدح في ممدوح كما ذكرنا.

هذا على مستوى النظرية والقانون اللذين أُمرنا بالخضوع لهما، أما على مستوى التطبيق والعمل فإننا حينما ندقق في تاريخنا وفي تراثنا فإننا سوف نجد

فيه ثغرة بيّنة فاغرة فاها تريد أن تزدرد كل الحقائق بعد أن أتت على ما كان منها؛ ذلك أن الذي يحصل فيه هو خلاف كلّ ذلك، فما من تقييم خاضع لمقاييس الدين والعقل، ولا من قدح في شخص أو ذمّ أو مدح له ويكون ذلك القدح أو المدح أو الذم وفق التعامل العقلاني الذي يخضع صاحبه لإطار السماء الذي قيّدنا ووجّهنا وجهة ثابتة نسير عليها ونحن نقيّم الآخرين.

مفارقات في تراثنا

ولذا فإن البعض ـ بناء على هذا النمط من التفكير ـ يعطي الآخرين فوق ما يستحقونه مع أنهم لا يستحقون ذلك الحقّ، في حين أنهم في الوقت نفسه ينزلون بآخرين إلى الحضيض مع أن من حقّ هؤلاء أن يُرفعوا فوق الأنجم. يروي أصحاب كتب الأدب طرفة تقول: إن أعرابياً صاد سنوراً فلم يعرفه، فتلقاه رجل، فقال: ما هذا السنور؟ وتلقاه آخر، فقال: ما هذا الهر؟ وآخر فقال: ما هذا الضيون؟ وآخر فقال: ما هذا القط؟ فقال الأعرابي: إني أحمله وأبيعه، فسيجعل الله لي منه يسراً.

فلما حمله إلى السوق قيل: بكم؟ قال بمئة. فقيل: إنه يساوي نصف درهم. فرمى به وقال: لعنه الله؛ فما أكثر أسماءه وأقل نفعه[1]!

وهذه القصة في واقع الأمر تصوّر لنا الحالة التي نحن في صدد الحديث عنها تصويراً حيّاً، وتبين لنا أن هناك نمطاً من الناس هم من هذا النوع عينه، فإننا نجد أن في تاريخنا من لا تبلغ قيمته مثقال ذرة لكننا نجد أن البعض حينما يتناول شخصيته فإنه يعطيه ألقاباً ضخمة كثيرة وعناوين مبالغاً فيه كبيرة، وكل ذلك على

---

(١) محاضرات الأدباء ٢: ٧١٩.

حساب العقل وعلى حساب الموازين والأقيسة. وهذا التوجّه لا يعدو أن يكون أحد أمرين:

١ـ أنه مؤشّر فاضح ينمّ عن بله صاحبه.

٢ـ أنه نفاق منه لمن مدحه أو أعطاه تلك الألقاب؛ لأنه يريد أن يتقرّب منه، أو أن يتزّلف إليه.

وأُولئك الّذين يعطون هذا النمط من الناس تلك العناوين والألقاب الضخمة نجد أنهم أنفسهم حينما يمرّون بقمة من القمم التي لا يمكن أن تطالها الأنفس الوضيعة يندفعون ليحاولوا أن يقدحوا فيها بكل ما أُوتوا من قابلية ومن قدرة على الكذب والافتراء، وبكل ما يملكون من قوّة في تزييف الحقائق، حتى يصل الأمر بأحدهم أن يصف الإمام علي بن أبي طالب﴿﴾ بأنه﴿﴾ قد وُضع في لحده وهو لا يعرف من كتاب الله آية.

ضرورة الخضوع للحق

وهذه المفارقات التي نراها في تاريخنا وتراثنا هي حافز لنا على أن نقيم الآخرين وأقوالهم في زيد وعمرو وفي بكر وخالد، كما أنها تبعث في أدمغتنا نشاطاً يحثّنا ويأخذ بأيدينا إلى عملية التقييم هذه؛ لأننا نريد أن نعرف طريق الحقّ فنتّبعه من طريق الباطل فنجتنبه. أمّا أُولئك الذين يحاولون أن يموهوا تلك الحقائق فلابدّ من كشفهم وكشف زيفهم وكذب ادعائهم في مدحهم ثلة هي من أحطّ الناس، وفي تغييبهم أو توهينهم وتحجيمهم لمجموعة هي عبارة عن قمم ونجوم متألقة في سماء الدين وفي سماء الإسلام وفي حياة المسلمين كافة.

فالواقع يُملي علينا أن نعرف طريق الحق من طريق الباطل، وأن نميز بينهما، وأن نتبع منهج الحق وأن نترك منهج الباطل؛ لأننا بهذا نكون قد امتثلنا لكل ما

رسمته لنا السماء، ولا نخرج عن ذلك الإطار الإلهي المقدس الذي يريدنا أن نكون ضمن دائرته، والإطار الّذي يبيّن لنا المنهج الواضح الذي ينبغي أن نسير عليه.

إذن ليس من الصحيح أن نعمد إلى مبدأ «قال الله سبحانه وتعالى وأقول» ونعمل به، مع ما يتضمنه من معاندة صريحة للأوامر الإلهية، وما ينطوي عليه من مخالفة واضحة للمقاييس الشرعية؛ ذلك أننا نجد مثلاً وفق المقاييس الشرعية أن القرآن الكريم يعبّر عن ثلّة من الصحابة بأنهم منافقون ومنافقات، أما وفق مبدأ «قال الله تبارك وتعالى وأقول» فإننا نجد أن هناك الكثير ممن يسبغ على هؤلاء المنافقين صفة التقديس، ويحلّهم موضع التكريم والاحترام، بحيث إنه يكفّر من ينالهم بالقول، أو ينال منهم أو يوجه إليهم أقلام النقد المبتني على المقاييس الشرعية، وعلى المنهج القرآني.

إن مثل هذا الكلام، ومثل هذه التصرفات يجب أن يُنأى بها عن حضرة الشرع الحنيف، وأن تطرح عن دائرة المعقول، وأن يرجع القائلون بها إلى ضوابط السماء، وأن يعملوا على ضوئها وهم يتعاملون مع هذه الظاهرة، وإلّا فإنهم سيصبحون مصداقاً للمروق عن تعاليم الدين، والتقيّد بها.

المبحث الثالث: نظرة القرآن الكريم إلى المرأة

تقول الآية الكريمة: ﴿الْمُنَافِقَاتُ﴾، وهنا نقطة ينبغي التنبيه إليها، وهي أن القرآن الكريم قد وضع المنافقات مع المنافقين، ونصّ عليهنّ في هذه الآية الكريمة، مع أن المجتمع العربي الذي نزل فيه القرآن كان مجتمعاً بدوياً جاهلاً لا يعطي للمرأة مساحة أكثر من تلك المساحة التي يركنها فيها بين الجدُر وخلف السُتُر؛ ذلك أن المرأة عندهم دائماً تكون في موضع اشمئزاز. وهذا ما نلتمسه من

خلال مأثوراتهم الأدبية التي وصلتنا، والتي تصور لنا تلك النظرة التي كانوا عليها إزاء المرأة، وتترجم لنا بدقّة وتفصيل كيف كان موقفهم السلبي منها، يقول أحد الشعراء:

القبر أخفى سترةٍ للبناتْ ... ودفنهنّ يُرى من المكرماتْ

ألم ترَ الرحمن عزَّ اسمه ... قد وضع النعش بجنب البناتْ[1]

في إشارة إلى المجموعة الكوكبية التي تسمى بنات نعش. وهذا تصوير منهم صريح بأنهم لا يريدون للمرأة أن تعيش، بل إن الواجب هو قبرها في ملحودتها حتى يُتخلّص من عارها الّذي تصوّره لهم أوهامهم وموروثاتهم[2].

إذن فهؤلاء كان موقفهم من المرأة موقفاً سلبياً، وعلى هذه الشاكلة التي أبرزناها، بحيث إن الأمر يصل عندهم إلى مرحلة هي أن المرأة إذا حصلت لها العادة الشهرية فإنهم كانوا ينبذونها وراء البيوت، ويبعدوهنّ عن ممارسة نشاطاتهن وواجباتهن في الحياة العامة تماماً؛ بحيث إنها لم يكن لها أي دور عندهم في تلك الحياة أبداً.

وهذا هو الذي جعل من القرآن الكريم يقف منهم تلك المواقف المشهودة في

---

(١) ديوان الباخرزي ١: ١٠٠، وانظر: ذيل تاريخ بغداد ١٨: ٢٩٨، السيرة الحلبية ٢: ٤٣٦، المقاصد الحسنة ٢: ٣٤٧، التيسير بشرح الجامع الصغير ١: ٥٠٨، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨.

(٢) وبناء على ما أسلفنا من تعلّق البعض ـ ممّن لا يرضيه الرجوع إلى قوانين العقل ـ بالموروث، فإننا نجد أن هناك من ينسب روايات تتضمّن هذا المعنى بنصّه عن رسولنا الأكرم؛ حيث يُنسب إليه قوله حينما دفن ابنته رقية: «الحمد لله؛ دفن البنات من المكرمات». المعجم الكبير ١١ :٣٦٦، مسند الشاميين ٣ :٣٢٥، مسند الشهاب ١ :١٧٢، ١٧٣، السيرة الحلبية ٢: ٤٣٦. مع أن هذا الحديث يمكن توجيهه بغير ما ذهبوا إليه كما هو واضح ممّا يحتمله من معانٍ أُخرى غير هذا.

محاولة تصحيح هذه النظرة المغلوطة إلى المرأة، وليخرج بالمرأة من هذه الصورة القاتمة التي يحددّ البعض معالمها فيها، وليرسم لها مجالاً واسعاً في الحياة وإن كان المجال الّذي تتكلم عنه آية المقام الكريمة حيالها. والصورة التي رسمها القرآن الكريم لها هنا صورة ومجالاً سلبيين؛ لأنها كانت تقف إلى جانب المنافقين، في إشارة إلى تلك الثلة المنافقة من النساء التي كانت تعمل إلى جانب المنافقين من الرجال على هدم الإسلام والقضاء عليه.

الأثر الحقيقي للمرأة في الحياة الاجتماعية

إن هؤلاء النسوة المنافقات اللواتي كن يعملن على هدم الإسلام هنّ مسلمات كما هو معروف، وهذا يعني أن الإسلام الحنيف قد أعطى للمرأة حقّ التحرّك وحريته، وحرية التعبير عن رأيها بشكل كامل. ومن هنا نستدل على أن النساء في الإسلام كنّ يلعبن دوراً مميزاً وهاماً في ميادين الحياة كافّة؛ سواء كان هذا الدور سلبياً أو إيجابياً كما ذكرنا.

تاريخ تجنيد المرأة في المنظومات الاستخبارية

وهذا الدور حاول المشركون واليهود استغلاله بكل أبعاده؛ ومن هنا فإننا نجد أن قريشاً حينما رأت المستوى الضخم الذي بلغته الدعوة الإسلامية، ورأت المبلغ العظيم التي بلغته ووصلت إليه؛ حيث إن هذه الدعوة أخذت تشقّ طريقها بتراتبية تصاعدية ووتيرة متسارعة إلى القلوب وإلى المجتمعات العربية وغيرها في ذلك الوقت.. المجتمعات التي كان الظلم ينخر فيها، وكان القوي فيها يأكل الضعيف ـ وهو ما حاول القرآن الكريم محاربته؛ بحيث إنه توعّد الظالمين وهددهم بأنهم سوف يتعرضون إلى أشدّ الحساب، وإلى نار جهنم جرّاءه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا

بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾[1] ـ لأن ذلك المجتمع قد رأى فيها الدين الذي يحقّق له العدل، والّذي ينشر المساواة بين الناس، والذي ينتصف للمظلوم من الظالم وإن كان المظلوم إنسانا عامّياً ومن الرعيّة، وكان الظالم إنساناً معروفاً، أو ملكاً، أو سيّداً.

ومن هذا، إضافة إلى عملية استقراء التاريخ، واستنطاق حقائقه التي سطرها القرآن الكريم والكتب المختصّة بتدوين تاريخ المسيرة البشريّة نستنتج ثلاثة أُمور في غاية الأهميّة هما:

الأول: أثر التوازن الاقتصادي في إرساء الاستقرار في المجتمعات

إننا نعي حقيقة أن للتوازن الاقتصادي في المجتمعات البشريّة عامّة أثراً كبيراً وهامّاً في إرساء دعائم الاستقرار على أصعدته كافّة فيها؛ سواء كان استقراراً معاشياً، أو أمنياً، أو حتى على مستوى مسيرة التطوّر عندها، كما أن له أثراً واضحاً بيّناً في تدعيم قواعد بناء البنى الأساس لتلك المجتمعات.

الثاني: أن المجتمع الجاهلي مجتمع غير متوازن

إن المجتمع البدوي الجاهلي كان مجتمعاً غير متوازن؛ فمن خلال ما مرّ نستطيع أن نقول: إن المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم كان مجتمعاً يضمّ ثلة لا تجد حتى الرغيف الّذي تأكله، كما أن في مقابل ذلك كانت هناك ثلة أُخرى تأكل من الطعام بمقدارٍ لا تتّسع له بطونهم، بل إلى الحدّ الّذي كانوا يصابون معه بالبطنة من كثرة ما يأكلون وما يشربون، الوقت الذي يدركون فيه أن من حولهم أُناساً غرثى لا يجدون ما يأكلون.

---

(١) الكهف: ٢٩.

ولذا فإن رسولنا الأكرمﷺ حينما أُنزل عليه القرآن الكريم كان قد وضع نصب عينيه هدفاً محدّداً من ضمن مجموعة الأهداف السامية التي سعى إلى تحقيقها، وأراد أن يرصد لها حركته التغييرية والإصلاحيّة العارمة، وهو أن يعدّل من ذلك التوازن إن لم نقل: يوجده، وأن يعيد توزيع الثروات التي أُسيء توزيعها واستعمالها فيه، فجهّز مساحة عريضة من الأحكام المختصّة بهذه الجنبة في تلك المرحلة الهامّة والحرجة، ولما بعدها من مراحل زمنية، وقنّن الكثير من التشريعات المتعلّقة بهذا الجانب الحيوي والحسّاس في حياة المجتمعات البشرية؛ لما له من دخل كبير في أمنها الاقتصادي، •واستقرارها السياسي. وهذا ما صرحت به بعض آيات الذكر الحكيم، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

إذن فالقرآن الكريم وأمينه رسولنا الأكرمﷺ بدأا رحلة عسيرة الوطء، طويلة المخاض تتزلزل لها الخُطا في عملية تعديل ذلك التوازن في تلك المجتمعات، وإعادته إليها من خلال حثّ المسلمين على الإنفاق، وتشجيعهم عليه برصد ما وصف لهم من الجنة إزاءه، ووعده إيّاهم بها بما فيها ممّا لم ترَ عين، ولم تسمع أُذن، ولم يخطر على قلب إنسان.

الثالث: أن الحركات التحرّرية أسرع انتشاراً في المجتمعات المسحوقة

وبما أن الأغلبية الساحقة كانت طبقة مسحوقة محرومة، ومزدراة، وفقيرة معدمة، فإن الإسلام أخذ ينتشر فيها انتشاراً كبيراً، بحيث إنه كان ينطبق عليه

---

(١) البقرة: ٢٧٤.

المثل القائل: «كانتشار النار في الهشيم»؛ لأن هؤلاء رأوا فيه الوسيلة الوحيدة للقضاء على ما كانوا يعيشونه من بؤس وظلم وازدراء واحتقار في المجتمع الذي كانوا ينتمون إليه.

وقريش حينما رأت أن هذا الدين الجديد قد أخذ ينتشر بين الناس انتشاراً كبيراً، وأن رقعته بدأت تتسع بشكل كبير وقياسي راحت تفكّر في شتى الطرق للوقوف في وجهه، فكان أن استعملت ـ للوصول إلى ذلك ـ كلّ ما تملك من طاقات وقوى وقابليات لردعه، ولمحاربة المسلمين ومحاصرتهم، وتضييق الخناق عليهم؛ كي يمتنع الناس في نهاية المطاف عن التهافت على الدخول في هذا الدين.

وبعد تأمل اهتدوا إلى حقيقة أن عنصر المرأة يمكن أن يلعب دوراً هامّاً وبارزاً في هذا المجال الذي يريدون أن يوظفوا المرأة له؛ لأنها من الممكن أن تكون عنصراً فاعلاً ومؤثراً فيه، بحيث إنها تبلّغهم مآربهم وأمانيهم في النيل من الدين الإسلامي الحنيف.

وهذه النظرية لا تخلو من وجه صحّة؛ فمن البديهي والمعروف أن المرأة لها دور مهم وكبير في التأثير على الرجل وإلى حرفه عن الطريق الصحيح السوي، وإلى تغييره، وبالتالي إمكانية التأثير عليه وفق ما تمليه عليه تلك المرأة التي أخضعته لسحرها وتأثيرها.

المرأة في التاريخ الإنساني وجذور تأثيرها على الرجل

ونحن حينما نرجع إلى تاريخ الإنسانية نجد أن الإنسان من الممكن أن يصمد أمام كثير من المؤثرات التي تعترضه، والتي ربما يبلغ الحد معها أن تصل إلى التعذيب وإلى تقطيع الأعضاء، فمن الممكن أن يقف الإنسان في وجه تلك

المؤثرات ويصمد دون أن يتراجع أو دون أن يتخلى عن مبدئه أو معتقده، لكننا نجد أن البعض لا يمكن أن يصمد أمام تأثير المرأة وأمام إغوائها وسحرها. وهذه الظاهرة استغلتها المجتمعات البشرية في كلّ مكان حتى بتنا نسمع ونقرأ عن كثير من الأدوار التي لعبتها المرأة في الحروب وفي تغيير مسارها، وفي عمليات التجسس التي كانت تقوم بها.

نماذج من دور المرأة وتأثيرها في الحياة

وهنا سوف نتطرّق إن شاء الله تعالى إلى بضعة نماذج ممّا يمكن أن يتّسع له المجال حول تأثير المرأة في المسيرة البشرية، وما كان لها من دور ملموس وملحوظ فيها، وهي:

الأول: سارة مولاة أبي عمرو ومحاولة استغلالها في فتح مكّة

والذي يظهر أن قريشاً أيضاً ممّن التفت إلى هذه الظاهرة كما ذكرنا، وحاول استغلالها عن طريق تسخير مجموعة من النساء تقوم بوظيفة ما يمكن أن نسميه الاستخبارات التي تمدّهم بأخبار المسلمين وبأخبار النبيﷺ وبخططهم للانتشار والتوسع وفي خططهم الحربية وفي الدفاع وما إلى ذلك. ومن هذا ما يرويه المفسرون وغيرهم من كتاب السير من أن النبيﷺ حينما عزم على فتح مكّة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه الخبر، وبعث به مع سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام التي كانت قد أتت رسول اللهﷺ من مكّة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، وكانت قريش قد أرسلتها لتتجسّس لها أخبار المسلمين؛ لأنهم عرفوا أن الرسولﷺ سيغزوهم بعد أن خرقوا اتّفاقهم معهﷺ. وقد حدسوا بأن سيكون على إثرها نوع من التحرّك الذي سيقوم به الرسول الأكرمﷺ.

فلما جاءت رسول الله قال لها: «أمسلمة جئت؟». قالت: لا. قال: «أمهاجرة جئت؟». قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟». قالت: كنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهب مواليَّ، واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني. فقال لها: «فأين أنت من شبّان مكّة؟». وكانت مغنية ونائحة، فقالت: ما طُلب مني ذلك بعد وقعة بدر.

فحثّ رسول الله بني عبد المطلب على إعانتها، فكسوها وأعطوها نفقة.

وكان رسول الله يتجهّز لفتح مكة كما ذكرنا، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، وأعطاها ذلك الكتاب إلى أهل مكة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها برداً على أن توصله إليهم، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم.

وخرجت سارة من المدينة، فنزل جبرائيل، فأخبر النبي بما فعل حاطب، فبعث رسول الله لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك. فعادوا إلى النبي فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر والزبير وطلحة، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[1]؛ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها».

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله لهم، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها،

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، بقرب حمراء الأسد من المدينة. معجم البلدان ٢: ٣٣٥ ـ خاخ.

فلم يجدوا معها كتابه، فهمّوا بالرجوع، فقال الإمام علي عليه السلام: «والله ما كَذبنا، ولا كُذبنا». ثم سلّ عليه السلام سيفه وقال لها: «أخرجي الكتاب وإلّا والله لأضربن عنقك». فلما رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبّأته في شعرها. فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فأرسل صلى الله عليه وآله وسلم إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟». قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟». قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلّا وله بمكّة من يمنعه، وهم عشيرته، أمّا أنا فكنت غريباً، وكان أهلي بين ظهرانيهم، فخشيت عليهم منهم، فأردت أن أتّخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً.

وحاطب بن أبي بلتعة هذا كان بدرياً، وكان للبدريين مكانة كبيرة في قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفي الإسلام، ولذا فإنه حينما برر موقفه بأنه لم يكفر بعد إسلام ولم يشك بعد إيمان، لكنها لحظات ضعف مرت به حيث إن عائلته كانت عند قريش وكان يخاف أن ينكّلوا بها فعمد إلى هذا الفعل وإلى هذا الأُسلوب؛ لأنه يريد أن تكون له يد عند قريش وصنيع بحيث إذا ما تغلبوا على جيش النبي صلى الله عليه وآله وسلم فإنهم سوف يحفظون له ذلك الصنيع؛ فلا يؤذون عائلته.

الأنظمة الحديثة وقضية التنكيل بذوي أصحاب العلاقة

إن هذا الأُسلوب الذي تحدث عنه حاطب بن بلتعة ـ وهو أنه كان يخشى على عائلته من تنكيل قريش ـ لهو أُسلوب عامّ تستخدمه جميع النظم التي تدعي أنها نظم ثورية على مرّ التاريخ، حيث إنها تعمد إلى من يخالفها في الرأي وفي الرؤية وفي العقيدة أو المتبنيات الفكرية على أي مستوى كان إذا لم تتمكن من الإمساك

به والقضاء عليه بأن تقتله أو تنفذ فيه حكم الاعدام فإنها تعمد إلى القبض عليه من خلال يده التي تؤلمه، فيعمدون مثلاً إلى أبنائه وبناته، أو إلى أُمّه وزوجته فيقبضون عليهم، ويحاولون إهانة كرامة ذلك الإنسان عبر إهانة متعلَّقيه أُولئك؛ حتى يتمكنوا من أن يصلوا إليه، أو أن ينتزعوا منه اعترافاً فيما لو وقع بعد ذلك في قبضتهم، أو كان أساساً تحت قهرهم وسلطانهم دون أن يستطيعوا أن ينتزعوا منه ذلك الاعتراف الذي تطلبه منه تلك النظم التي تدّعي أنها نظم ثورية جاءت لمصلحة الشعوب من أبناء الإنسانية.

وفي واقع الأمر إن هذا اللون من التصرف هو تصرف يبرهن على أن الإنسانية لازالت حتى الآن تعيش في مستنقعٍ ضحل من القيم في ظلّ هذه الأنظمة، وتقبع في حضيض من التعامل مع الإنسان الذي ينبغي أن يرفع وأن يعامل معاملة حرة كريمة، لا أن يُنظر إليه على أنه حثالة أو سلعة للبيع في أسواق مزاد رغبات الحكام الجائرين والمتسلّطين على رقاب الناس، والذين يدّعون أنهم أصحاب حقّ في تعاملهم مع أبناء شعوبهم كيف يشاؤون، سيما أُولئك الذين يتميّزون بأنّ لهم فكراً،أو بأنهم علماء، أو أصحاب اختراعات، أو ما إلى ذلك مما يعود على مجتمعاتهم بالفائدة.

فمثل هؤلاء بدلاً من أن يعاملوا بذلك اللون المنحطّ من المعاملة المزرية المشينة، وبدلاً من أن تهدر كراماتهم بالاعتداء على ذويهم، فإنهم يجب أن يكرموا وأن يوضعوا في مكان يليق بهم؛ لأنهم يمثلون نقطة إضاءة متألّقة حيث يكونون، ويشكّلون مجد الأُمّة وعنوانها المتوهّج، وواجهتها المشرقة، وتاريخها الحافل بالمفاخر، وليس تلك النظم المستبدة التي تعمد إلى قتل العلم وإلى قتل ذويه، والقضاء على الفكر عند هؤلاء، أو عند أبناء مجتمعاتها كافّة؛ كي تتمكّن

من أن تحكم السيطرة عليها.

رجع

وعلى أي حال فإن النبي الأكرمﷺ حينما سمع من حاطب ما قدّمه له من اعتذار في محاولة تبرير موقفه، صدّقهﷺ وعذره على فعله ذاك ثـم قـال له: **«وكلتك إلى إيمانك، وقد عفوت عنك، فاستغفر ربّك ولا تعد إلى مثلها»**[1].

وفعلاً فإنهﷺ لم يرتب عليه أثراً حيال فعله ذلك، مع أن أحد الصحابة طلب من النبيﷺ أن يقتله، غير أنهﷺ رفض ذلك لأنه كان بـدرياً كـما ذكـرنا، والبدري له مكانته غير المحدودة عند النبي وعند المسلمين وفي الإسلام.

وعلى أية حال فالنبيﷺ أخذ بعين اعـتباره وبـنظرته الشـفيقة والرحـيمة الظرف النفسي الذي مر به حاطب هذا، حيث إنهﷺ عرف بأن الظرف النفسي الذي كان يعيشه والضغوطات التي كانت تحاصره نتيجة وجود عائلته في مكـة تحت رحمة المشركين الذين حدثنا التاريخ عمّا كانوا يفعلونه بعوائل المؤمنين، وبتعذيبهم وتقتيلهم كما فعلوا مع عمار بن ياسر ومع أبيه وأُمه (رضوان الله عليهم) معذّر له، ولذا فإنهﷺ قد عذره لذلك سيما إذا ضـممنا إلى ذلك أمـراً هـو أن حاطباً هذا لم يكن يقصد تلك الخيانة مطلقاً، بل كان واقعاً تحت تلك الضغوط النفسية والظروف التي كان متأثراً بها إلى حدّ ما كما ذكرنا، وإلّا فـإنه ليس مـن المعقول أن يعفو عنه رسولنا الأكرمﷺ لولا أن كان الأمر كما قلنا.

---

(١) انظر قصة حاطب هذا في الإرشاد ١: ٥٧ ـ ٥٩ مجمع البيان ٩: ٤٤٥، كشف الغمة ١: ٢١٦ ـ ٢١٧، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٨٥ / ٢٩، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٥٠، تاريخ المدينة ٣: ١٠٨٣.

وعلى أية حال فالذي يهمنا من هذه القصة هنا هو أن عنصر المرأة كان عنصراً فاعلاً في المجتمعات، وكان له تأثير كبير على أن يوصل من يجنده إلى مبتغاه بما تملك تلك المرأة من قابلية على التأثير ومن سحر، وبالتالي فإنها تنجح في استخلاص المعلومات التي تريدها وفي سحبها ممن توظّف للايقاع به.

وهكذا فاننا نعرف أنهم قد أخرجوا هذه المرأة من كونها عنصراً غير فاعلٍ ووضعوها في دور تكون فيه عنصراً فاعلاً ذا أثرٍ وتأثير كبيرين يعودان عليهم بالنفع؛ لأنهم وجدوا أن لها قابلية كبيرة على القيام بذلك الأمر وتحقيقه، فكان أن جندوها في وظيفة يمكن أن نسميها في وقتنا الحاضر وظيفة استخباراتية كما ذكرنا في أكثر من مكان.

الثاني: جواري النضر بن الحارث وتأثيرهن على البعض

وأبرز مصداقٍ ودليلٍ على ذلك ـ وهو أن للمرأة تأثيراً على الرجل باستعمال الغرائز والسحر الأُنثوي ـ ما كان يفعله النضر بن الحارث مع المسلمين مستخدماً جواريه، والّذي يقول عنه المؤرخون: إنه كان يشتري الجواري المسبيات اللائي يجاء بهن من أفريقيا أو الخزر أو النبط أو من جهات أُخرى من مختلف الجنسيات، ثم يأمرهن بمعاشرة المسلمين ليصرفهم عن دينهم، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلّا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنّيه. ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه، فنزلت فيه هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1]...[2].

---

(١) لقمان: ٦.

إذن فالنضر بن الحارث كان يمارس هذا الدور مع المسلمين في ذلك الوقت، فكان يأمر جواريه بأن يخضبن أكفهن بالحناء، بعد أن يشتريها لهن ويوفر لهن كلّ وسائل الغواية، فيأخذن الحنّاء ويضربن بهن أيديهنّ مستعملات ما يمكن لهنّ من أدوات الزينة، ويخرجن يطفن في شعاب مكـة وأزقّـتها وهـنّ يـتغنين بـهجاء النبي ﷺ. ونحن نعرف أن الرأي العام هو بسيط سريع الانخداع سرعان ما يتأثّر وينخدع بمثل تلك المؤثرات؛ لأنه عادة يفكر بأذنه وليس بعقله.

وكان من أمر النضر هذا الذي كان يغطي تلك النفقات التي كان يصرفها على أُولئك الجواري اللواتي كنّ يطفن في شعاب مكة وأزقّتها متغنّيات بهجاء رسولنا الأكرم ﷺ قد وقع أسيراً بيد المسلمين بعد أن خرج لقتال النبي ﷺ في سرية من السرايا، فجاؤوا به أسيراً إلى النبي ﷺ، فقدموه بين يديه ليضرب عنقه فقال له: يامحمد، استبقني للصبية والعائلة. فقال له ﷺ: **«إن استبقيتك لهم، فهل ترجع عمّا أنت فيه؟»**. فقال: نعم.

فعفا عنه رسولنا الأكرم ﷺ وأطلق سراحه، لكنه لم يحفظ العهد، بل عاد إلى ما كان عليه بأشدّ ممّا كان، وراح يمارس طريقته تلك بشكل أكبر، لكن القـدر شاء أن يُجاء به أسيراً مرّة ثانية في معركة بدر، فأدخلوه على رسول الله، فقال له: **«ألم أعفُ عنك؟»**.

فالنبي الأكرم ﷺ يريد أن يقول له: لماذا تشتمنا بهذا الشكل مع أنك تعلم أن الشتم ليس من شيم الرجال؟ ثم إنك حينما تشتمنا فإنما تشتم نفسك لأننا مـن المجتمع نفسه ومن المكان نفسه الذي نعيش فيه غير، أنه كما رأينا بعد أن أطلق

---

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤: ٥٢، روح المعاني ٢١: ٦٧.

النبي ﷺ سراحه في المرّة الأُولى، عاد إلى مزاولة تلك المهنة نفسها وإلى السير على تلك السيرة التي كان عليها قبل أسره، بل إنه أخذ ينفق على تلك الأُمور بشكل أكثر حتى إنه حشّد لفيفاً كبيراً من الجواري والنساء اللواتي رحن يدرن في مكة ويتغنين بهجاء النبي ﷺ وبشتمه (صلوات الله عليه).

وهنا طلب من النبي الكريم ﷺ أن يستبقيه لصبيته قائلاً له: استبقني للصبية. فرفض النبي ﷺ ذلك قائلاً له: «تريد أن ترجع وتقول: هزِئت بمحمد مرتين؟ قدّمه ياعلي واضرب عنقه». فجذبه أمير المؤمنين ﷺ، ثم اخترط سيفه فقتله.

فلما بلغ خبر قتله أُخته قتيلة ـ أو ابنته ـ التي يبدو أنها كانت أديبة ومن نمط غير عادي كتبت إلى النبي ﷺ هذه الأبيات ـ وذلك قبل إسلامها ـ وهي أبيات من الشعر رائعة، كونها قطعة أدبية فيها نصوعٌ وأداء مباشر، وهي قولها:

يا راكباً إن الأثيل مظنّة ... من صبح خامسة وأنت موفّقُ
أبلغ به ميتاً فإن تحيّة ... ما إن تزال بها النجائب تخفقُ
مني إليه وعبرة مسفوحة ... جادت بواكفها وأُخرى تخنقُ
هل يسمعن النضر إن ناديته ... بل كيف تُسمع ميتاً لا ينطقُ
ظلّت سيوف بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقّقُ
صبراً يقاد إلى المنيّة متعباً ... رسف المقيّد وهو عانٍ موثقُ
أمحمد ولدتك صنو نجيبة ... من قومها والفحل فحل معرقُ
ما كان ضرّك لو مننت وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
النضر أقرب من أسرت قرابة ... وأحقّهم إن كان عتق يعتقُ
لو كان قابل ندية لندبته ... بأعزّ ما يغلى به أو ينفقُ

فلما وصلت هذه الأبيات إلى النبي الأكرم ﷺ وهو المعروف بعطفه وشفقته

هزّته من أعماقه، وتألّم كثيراً، وبكى حتى اخضلّت بالدموع لحيته الشريفة، وقال: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه»[١].

والشاهد هنا هو أن النضر هذا وغيره من عتاة قريش قد حشدوا المرأة في ميدان الدعاية ضدّ النبي الأكرمﷺ؛ لما عرفوا لها من تأثير بالغ في ميدان الدعاية هذا.

الثالث: تجنيد المرأة في حروبهم ضدّ الرسول الأكرمﷺ

كما أنهم كذلك جنّدوها في ساحة الحرب حيث أخذ أبو سفيان مثلاً الجواري ودفعهنّ في حربه مع الرسول الأكرمﷺ حتى وصلت الحالة بهنّ إلى أن يخرجن مواضع الفتنة من أجسادهنّ أمام الجيش الإسلامي حتى يغرين أفراد ذلك الجيش بقصد استمالة عدد أكبر منهم إلى جانب المشركين. بل إنهم عمدوا إلى أصحاب النبيﷺ حتى في حالات السلم التي مرّ بها الجمعان، فصاروا يمنّونهم بالنساء والأموال إغراءً لهم، ومحاولة لحرفهم.

الرابع: محاولات عتاة قريش التأثير على الرسولﷺ

كما أنهم قد حاولوا استغلال هذا الأمر حتى مع النبي الأكرمﷺ حيث جاؤوا إلى أبي طالب، وقالوا له: إن ابن أخيك إن أراد حكماً ملّكناه، وإن أراد مالاً أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوّجناه ممّن يريد.

ذلك أن هؤلاء كانوا يتصورون أن المسألة التي كان عليها النبي الأكرمﷺ هي مسألة سطحية ومسألة عادية يمكن أن تحلّ عن طريق الرغبات الجسدية،

---

(١) الاستيعاب ٤: ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ / ٤٠٧٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٧١، أحكام القرآن ٤: ١٣٢، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٥٩، الثقات ١: ١٤٤.

فكان أن عرضوا على النبي ﷺ ما عرضوا من أنهم سوف يزوجونه بأجمل نساء قريش.

فالتفت أبو طالب إلى الرسول ﷺ وقال له: أتسمع ما يقول قومك؟ فقال ﷺ: **«والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هـذا الأمر ما فعلت»**[١].

الخامس: محاربة الإسلام عن طريق تحريض المرأة ضدّه

إذن هؤلاء قد جنّدوا المرأة في شتّى الميادين، وليس في حالات الحرب فقط، حتى إنهم استغلّوها نفسها، فرفعوا ما أسموه بـ«قضايا المرأة» سلاحاً في وجه الإسلام لمحاولة القضاء عليه، أو لا أقلّ من الحدّ من تحركه وانتشاره. وها نحن على مشارف نهاية هذا القرن مع أنه يسمى بالعصر الحديث لكننا لا زلنا نجد هنا من يستغل ذه الظاهرة، فيعمل على مشروع القضاء على الإسلام عبر إثارة جملة من المسائل. فهذه الأنظمة المعادية للإسلام تحاول أن تحرّض المرأة ضدّ الإسلام عن طريق إثارة مواضيع لها علاقة بالميراث وما إلى ذلك ممّا يحاولون أن يقدحوه في نفوسهن من أنه ظلم من الإسلام لهنّ، وأن مثل هذه التشريعات ليس فيها إنصاف لهنّ أبداً.

مع أن هذه الأنظمة التي تسعى جاهدة إلى تحريض المرأة ضدّ الإسلام إنما تفعل ذلك في محاولة لاستغلال بعض النقاط التي عالج بها دين الإسلام بعض المشاكل الحياتية التي تتعلق بالرجل والمرأة ممّا له صلة بالحياة الزوجية أو الأُسرية، ومن هذه الأُمور نذكر ثلاث مسائل هي:

---

(١) انظر: بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

المسألة الأولى: قضية الميراث

إننا نعرف أن الله تبارك وتعالى قد أعطى المرأة في قانون الميراث الإسلامي نصف نصيب الرجل، وهذا ما تنصّ عليه الآية الكريمة التي تقول: ﴿**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾[1]؛ ولذا فإن هؤلاء حاولوا أن يستغلّوا هذه الظاهرة ضدّه بإثارة هذه المسألة في نفوسهن، مع علمهم مسبقاً بأن ضعيفات النفوس منهن سوف يصدّقن مثل هذا الهراء؛ فينجرفن وراءه بعيداً عن متطلّبات ثقافتهن الدينية، سيما من كان منهن على دين الإسلام، ويخضع مجتمعهن لمنظومة ثقافية إسلاميّة، ويعيش في ظلّ آدابه وأخلاقياته، سيما أُولئك اللواتي يمتلكن وعياً ضحلاً وثقافة متدنية، لا يستطعن معهما أن يصمدن أمام مؤثّرات الثقافة الهدّامة الوافدة، ولا أن يقاومن إغراءها بما توفّره لهن من عوامل إشباع حاجات الجسد دون الروح، ممّا يتناغم مع رغباتهن النفسية، والهوى الذي يتركن من أنفسهن الضعيفة الأمّارة بالسوء أن تنساق وراءه بعيداً عن كلّ الأخلاقيات والقيم الدينية.

معالجة

وهؤلاء طبعاً غير ملتفتين إلى أن المرأة في النظام الإسلامي ووفق ضوابط التشريع السماوي المقدّس غير مسؤولة عن النفقات في شيء مطلقاً؛ ذلك أن الواجبات الاجتماعية كلّها تقع على عاتق الرجل دون أن يحمّلها الإسلام شيئاً منها؛ فلا الإنفاق على العائلة، ولا توفير المسكن، ولا توفير المأكل أو الملبس وما إلى ذلك من الالتزامات الاجتماعية وغير الاجتماعية كافة تدخل في نطاق مسؤوليتها، بل إنها تقع ضمن دائرة مسؤولية الرجل وحده دون سواه. فكل ما

---

(١) النساء: ١١.

يتعلق باحتياجات الأُسرة؛ سواء كانت احتياجات طبية، أو احتياجات متعلّقة بالمعيشة، أو احتياجات ثانوية أُخرى، فإنها في عهدة الرجل دائماً.

ومن هنا فإننا نودّ إن نثبت أمرين اختصاراً لما سبق:

الأول: أننا نجد أن المرأة هي الرابحة دوماً في هذه الجنبة وليس الرجل؛ لأنها حينما تأخذ نصيبها من الميراث فإنما تأخذه لنفسها فقط دون غيرها إلّا إن أرادت أن تجود به.

وهذا أمر آخر خارج عن نطاق ما نحن فيه؛ لأنها إنما تجود به بمحض إرادتها، وتتطوّع به من نفسها دون إجبار أو قهر عليها من أحد، ودون تأثير منه عليها؛ بشكل مباشر، أو غير مباشر. أما الرجل حينما يأخذ نصيبه من ميراثه، فإنه ينفقه على أُسرته وعلى عائلته وعلى التزاماته الاجتماعية وما تتعلق بحيثيات الحياة كافة.

الثاني: ومن خلال هذا التقريب والتصوير للمسألة، فإننا نستغرب أن تثار مثل هذه المواضيع أو المسائل التافهة، بعد أن عرفنا أنها تصبّ دائماً في مصلحة المرأة، لا في مصلحة الرجل.

المسألة الثانية: قضيّة شهادة المرأة

كما أن هؤلاء المغرضين يثيرون كذلك نقطة أُخرى يعتبرونها انتقاصاً من الدين الإسلامي للمرأة، وهي أنه يعتبر شهادتها نصف شهادة الرجل، مصوّرين ذلك بنحو يعتبرها الإسلام فيه دون مستوى الرجل، ويعدها ناقصة عنه.

معالجة

وهذه مغالطة؛ لأن الإسلام بطبيعته لا يمكن أن يعمد إلى شلّ المجتمع، وهو ينظر إلى المرأة على أنها تشكل نصفه؛ وبهذا فإنه لا يعتبرها ناقصة، وغاية ما في

الأمر أن الإسلام إنما يشرّع أحكامه عادة نظراً إلى الأعمّ الأغلب من الحالات التي يكون عليها مدار الحكم، ونعني به الإنسان هنا.

وفي حالة المرأة التي نحن بصدد معالجتها هنا، فإن الإسلام ينظر إلى بعض الحالات التي تمرّ بها، والتي يمكن أن تؤثّر سلباً على نفسيتها وعلى عاطفتها، ممّا يدفعها لأن تكون خاضعة لذلك المجال النفسي أو العاطفي الحرج؛ وهو ما يؤدّي بها إلى أن تُخضِع كل تصرّفاتها وأحكامها لذلك التأثّر النفسي أو العاطفي؛ الأمر الذي يجعلها تقع فريسة للكثير من أعراض تلك المرحلة؛ وبالتالي فإنها سوف تعاني ممّا يجعلها قابلة لأن تكون عرضة إلى كثير من حالات الاضطراب التي ستمرّ بها حينها ممّا له علاقة بهذا الجانب، ومنها النسيان الذي عالجه المشرع الإسلامي عندها في مسألة الشهادة بضمّ امرأة معها فيها. فدرءاً لهذا نجده قد ضمّ إليها شهادة امرأة أُخرى[1].

المسألة الثالثة: قضيّة حرمان المرأة من العمل

إن هؤلاء يصورون هذه المسألة على النحو التالي، وهو أن المرأة تشكل نصف المجتمع فإذا منعناها عن العمل فإننا حينئذٍ نشلّ حركة نصف المجتمع وهو ما يجعلنا نشلّه كلّه، ونؤدي به إلى التراجع.

معالجة

وبناء على هذه التراكمات التي تعيش في أذهان هؤلاء، وتحكم تصوّرهم المشّوه بصور مسبقة رسموها للإسلام من وحي حقدهم عليه كما ذكرنا في

---

(١) وهذا دليل واضح على أن الإسلام قد أعطى للمرأة حقّ الشهادة وإلّا لم يعتبر شهادة امرأتين ولا ثلاث نساءٍ ولا أكثر من ذلك. فقبوله بشهادة امرأتين، وإقراره لها دليل على إعطاء المرأة حقّ الشهادة في الميادين الحياتية عامّة.

المسألة السابقة، فإنهم راحوا يُعملون معاولهم الهدّامة المستندة إلى مجموعة متراثّة متراكمة من الأكاذيب التي اختلقوها واخترعوها من وهم خيالاتهم الموبوءة، ووحي أنفسهم المريضة الضالّة للنيل من الإسلام، وليحاولوا أن يحقّقوا عبرها أغراضهم الدنيئة لوقف حركة الإسلام، وعرقلة مسيرته التي كانت وما تزال تشقّ طريقها في هذه الحياة بتراتبية تسارعيّة دون توقف بين ركام المشاكل والقضايا بما تحمله من منظومة عالية في القابليات على وضع الحلول لمشاكل هذه الحياة كلّها، أو محاولات الوقوف بوجهها وردعها عبر رصد أبعاد تلك المسيرة ووضع العراقيل في طريقها.

أما الواقع فهو أن الإسلام كان ولا يزال ينظر إلى المرأة على أنها نصف المجتمع، والدليل على هذا أن الإسلام قد اعتبر الزواج هو نصف الدين، أي أن المرأة تحقّق للرجل نصف دينه.

هذا في الأُمور العبادية، أما في الأمور الدنيوية فإنها من باب أولى أن تكون النصف الثاني للرجل، والذي يكمّل الإنسان في هذه الحياة. وبناء على هذا التصور الإسلامي فإن الإسلام لا يمكن أن يشلّ المجتمع عبر تقييد المرأة وتحجيم دورها فيه، بل إننا نجده على العكس من ذلك قد أعطاها دوراً بارزاً وريادياً في كثير من الجوانب؛ فهناك العالمات في تاريخنا الإسلامي، والفقيهات، وهنالك المجاهدات، وهنالك اللواتي مارسن مهنة التمريض في المعارك الإسلامية، بل إنهن اشتركن اشتراكاً فعلياً في حالات معينة في بعض المعارك الإسلامية مع الرسول الأكرم ﷺ في بعض الحالات الاستثنائية، بل حتى غير معارك الرسول ﷺ.

إذن فمن المستحيل أن يشلّ الإسلامُ المجتمعَ بشلّ هذا النصف الذي يصوره

أعداؤه على أنه يعمد إلى تحييدها وتجميدها وتحجيم دورها فيه. وأنا أُؤكد على أن الإسلام لا يمنع المرأة عن العمل ما دامت محتاجة إليه، أما إذا لم تكن محتاجة إليه لأن الإسلام قد كفل معيشتها ومستلزماتها وجعلها من مسؤولية الزوج، فلا داعي له حينئذٍ، سيما إن كانت ظروف العمل هذا تتقاطع مع خطوط الحفاظ على كرامتها وعفّتها اللتين يؤكّد الإسلام عليهما في كل حال، وتحت أي ظرف.

المرأة وظروف العمل

وبناء على هذا فإن الإسلام يقرّ للمرأة أن تعمل فيما لو كانت محتاجة إليه وليس لها معيل يعيلها، لكنه يشترط أن يكون مكان العمل نظيفاً وغير موبوء بحيث إنه يحفظ لها عفّتها وكرامتها ووجودها وحريتها كامرأة ذات كرامة، وذات امتياز معيّن يمنع الآخرين من النظر إليها على أنها أداة تسلية متداولة ومبتذلة، أو آلة لإشباع الغرائز المسعورة.

وعليه فحينما يكون هنالك عمل يحافظ على فطرة المرأة ولا يؤدّي إلى إفسادها أو إلى إهدار كرامتها، فإن الإسلام لا يمانع من أن تلج هذا الباب، أما إذا أدّى عملها إلى خلاف ذلك، بحيث إنها تهتك صونها وحجابها بواسطته، ويؤدّي الأمر إلى إفسادها، فإن الإسلام حتماً سوف لن يقبل بذلك؛ لأنه ينظر إلى المرأة على أنها وحدة تصنيع العقول والأفكار، ولما كانت كذلك فإنه لا يريد بأي حال من الأحوال، وتحت ضغط أي ظرف من الظروف كان أن تصاب وحدة التصنيع هذه بالأمراض الخُلُقية الجائحة والمعدية، والتي سوف تقضي حتماً على كيان المجتمعات الإنسانيّة، وتهدمها من أساساتها.

ذلك أن الإسلام الحنيف يعي أن مثل هذه الأمراض السارية تشكّل بؤرة خطر كبيرة على المجتمعات البشرية كافّة بما أنها سوف تلقي بظِلالها القاتمة الحادّة

والمدمّرة بشكل سلبي غير مقبول ولا مستساغ على جميع أفراد الأجيال اللّاحقة لكلّ المجتمعات مهما اختلفت أعراقها وأجناسها بفعل هذا التأثير السلبي الهدّام؛ فتحرفها عن صراط الله سبحانه وتعالى.

المرأة والمجتمع

والإسلام إذ يتعامل مع أمثال هذه الحالات فهو إنما يتعامل معها لأنها تصبح مصدر خطر ضخم يهدّد كيان المجتمعات البشرية بما يمثّله انتقال تلك العدوى بين أفراده من تهديد حقيقي للوجود الخُلُقي فيها؛ بسبب سرعة انتشار مثل هذه الأمراض الجائحة التي تكون عادة ممّا يتناغم مع ميول النفس الإنسانيّة، وتتفاعل بسرعة كبيرة مع رغباتها وشهواتها، مع ملاحظة أمر هام جدّاً هو الميل السريع والكبير عند الإنسان في كل حال من أحواله إلى إشباع جميع هذه الرغبات والشهوات.

وعليه فدين الإسلام الحنيف ـ تأكيداً منه على الوجود الصحيح والسليم للمجتمعات المرتكز إلى طهارة المرأة وعفّتها، والمستند إليهما في كل آن ـ كان منطلق حرصه على طهارة المرأة، وحفاظه على عفّتها. فحرصاً على كرامة المرأة كان الحرص على طهارتها، وحرصاً على طهارتها كان الحرص على عفّتها. فإذا كانت عفّة المرأة وطهارتها وكرامتها هي المرادة والمرصودة في المنظور الإسلامي كان لابدّ من اعتبار ميدانها الأول والثاني والثالث هو البيت؛ بما أنها تصنع كلّ ذلك ـ العقول والأفكار ـ وبما أنها هي التي تخرّج الأجيال السليمة للمجتمع، وتربّيهم إلّا أن تكون هناك ضرورة ملحّة خارجة عن إرادتها وإرادة المجتمع الإسلامي، فلا بأس حينئذٍ مع مراعاة الجوانب الخلقية التي أكّد عليها الإسلام، وتبنّي الشروط التي ذكرناها آنفاً وفق التصوّر الإسلامي لطبيعة المرأة

ودورها الحرِج والخطير والفاعل في إعداد الأجيال.

وهذا هو السبب الأول والأساس الذي أراد الإسلام لأجله أن تكون المرأة جوهرة ثمينة بيضاء ناصعة العفّة ونقية لا تشوبها شائبة.

فالإسلام كما نعرف حريص غاية الحرص وإلى أبعد تلك الغايات على تربية الأجيال تربية سليمة، وتنشئتهم تنشئة قويمة بحيث إنها تحفظ للمجتمع وجوده الصحيح والسليم والخالي من الأمراض والآفات الاجتماعية، وتحفظ له كيانه الصالح بعيداً عمّا يفسده من أمثال تلك الدعوات.

فالإسلام إذن ينظر إلى المرأة على أنها صانعة الأجيال، وأنها المباءة التي تربي الأجيال، فهي تصنع العقول وتصنع الأفكار، وإذا كان الأمر كذلك فإننا نعي حينها مدى الاهتمام الكبير الّذي يوليه الإسلام لها في سبيل الحفاظ عليها.

وأنا أُؤكد بأنّنا إذا ما رأينا ولداً غير ناضج أو غير متزن فإننا نجزم بأنّه ليس وراءه أم ناضجة، والعكس من ذلك هو الصحيح؛ ذلك أن الولد ـ كما هو معروف وثابت ـ لا يأخذ من أُمه الحليب فقط بل إنما يأخذ منها مع الغذاء الأخلاق والتربية والقيم والمبادئ والالتزام بتلك المبادئ والصمود عليها وتطبيقها في الحياة العملية.

وبناء على هذا فإن هذا الإشكال الذي يضعه هؤلاء هو إشكال تعسفي غير وارد، وهو نابع من هوى يقبع في ظلمات نفوس هؤلاء ودياجير عقولهم الحائرة بما اعتادوا أن يكونوا عليه من محاولات لتسقيط مكانة الإسلام في نفوس الناس، وإبعادهم عنه، وإخراج من هو فيه منهم من ربقته، وإلّا فإن الواقع الذي يأخذ برقابنا إلى التصديق به، ويحتم علينا قبولَه هو أن الإسلام يكرّم المرأة غاية التكريم، ويعطيها مكانة خاصة تختلف حتى عن تلك التي يعطيها للرجل[1].

---

(١) كما في حديث: «الجنة تحت أقدام الأمّهات». مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمّال ١٦: ٤٥٤٣٩/٤٦١.

نعم الإسلام الحنيف إنما يمنع المرأة من العمل حينما تشكّل بيئة العمل وسيلة خطرة عليها، وتصبح سبباً لإفسادها. ونحن نعلم أن فساد المرأة بشكل عامّ، والأمّ بشكل خاصّ لا يتوقّف عليها كامرأة، بل إنه يتعدّى هذا المفهوم الضيّق والبليد، ويتّسع ليُنظر إليه على أنه فساد الأم أو المرأة التي تحتضن الأجيال والإنسان؛ ولذا فإنه يعتبر مرضاً معدياً كما أشرنا؛ لأنه حينئذٍ سوف ينتقل إلى أبنائها، ومن ثَم المجتمع كله بديهة؛ فيستشري فيه استشراءَ النار في الهشيم وانتشارَها فيه.

إذن فالمرأة إذا ما فسدت فقد فسد أبناؤها، وإذا ما فسد أبناؤها فسد المجتمع؛ وبهذا فإن المجتمع الذي يدعو إليه القرآن الكريم والإسلام الحنيف سوف لن يكون ولن يوجد، وهو ما يخالف منطلقات الإسلام في بناء ذلك الوجود الصالح القائم على أساس الأخلاقيات الدينية، والمرتكز إلى المبادئ والقيم السماوية، والمبتني على الأحكام الإلهية المقدّسة.

موقف بعض المذاهب الإسلامية من تعليم المرأة

والغريب أننا لازلنا حتى الساعة نجد أن هناك من يأخذ بمجموعة من الأحاديث والروايات التي ترويها المذاهب الإسلامية الأُخرى ويتمسكون بها، وهي روايات تمنع المرأة من التعلم أو حفظ بعض سور القرآن الكريم كسورة (يوسف) مثلاً[1]. ونحن نجزم بأن هذه الروايات هي روايات ضعيفة وغير

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: يارسول الله، من أبرّ؟ قال ﷺ: «أُمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أُمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أُمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أبوك». الكافي ٢: ١٥٩ / ٩.

إلى غيرهما من الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المضمار.

(١) انظر الكافي ٥: ٥١٦ / ١. وعلل بعض الأعلام ذلك بأن فيها حكاية العشق، وقال في

صحيحة؛ لأنها تتنافى مع الخطوط العامّة للإسلام الذي يصرح على لسان رسوله الكريم بالقول: «طلب العلم فريضة علىٰ كلّ مسلم ومسلمة»[1].

وحينما نشكل على أُولئك المتمسّكين بأمثال هـذه الروايـات التـي نسـمها بالضعف وعدم الثبوت فإنهم يردّون علينا بأن رواتها فلان وفلان، وهؤلاء ممّن لا يمكن تكذيبه.

إذن فهؤلاء يقدمون فلاناً وفلاناً حتى وإن تنافت رواياتهم مع الخطوط العامة للإسلام، ومع الخطوط العامة للعقل الذي تعبّدنا الله تبارك وتعالى به.

وليعلم هؤلاء بأن الإسلام يفتح أمام المرأة مشاركة الرجل في بعض الفعاليات الحياتية وبعض ميادينها التي يكون لها مدخل هام ورئيس في وجود الإنسان؛ لما لها من أهمية في تحديد وجوده وكيانه ومستقبله. ولسنا ندري لماذا يأتي البعض ليحاول أن يغلق تلك الأبواب والطرق في وجه المرأة، والتي فتحها الإسلام لها؛ كي تساهم في بناء المجتمع الصالح، مشوّهاً بذلك صفحته الناصعة، ومبعداً عنه من يريد أن يدخل فيه.

نعم إن الإسلام قد حافظ على عفة المرأة، وحافظ على كرامـتها، ودعـا إلى ضرورة تأمين ذلك لها وعدم انتهاكه، وعليه فإن علينا أن نجعلها تشعر بالمسؤولية إزاء إرادة الإسلام هذه ونحوها، ومن كونها يجب أن تكون امرأة صالحة عـفيفة

روضة المتقين: «ولعل عدم تعليم سورة (يوسف) وتعليم سورة (النـور) مـختصان بـالعرب وبمن يعرف معانيها، ويؤيده ما رواه الكليني في القوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا تعلموا نساءكم سورة (يوسف)، ولا تقرئوهنّ إيّاها؛ فإن فيها الفتن، وعلموهنّ سورة (النور) فإن فيها المواعظ»...». روضة المتقين ١٢: ٤٨، طبع شركة دار المصطفى صلى الله عليه وآله بيروت.

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبـي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

كريمة، لكن علينا ألّا نبعدها عن المجتمع، بل علينا أن نضع في حساباتنا أنها يجب أن تكون في مجتمع فاضل تشكّل هي نصفه، وأن علينا أن نطلب منها أن تقوم بدورها الإيجابي والفاعل في بنائه وتأسيس كيانه وفق شروط المشرّع الأقدس، وعلى ضوء الأُسس التربوية الصحيحة المرتكزة إلى نُظُم السماء والخاضعة لها. ذلك أننا حينما نضعها في ذلك المجتمع الفاضل، فإننا نكون قد بذرنا في هذا الوجود بذرة المجتمع السليم، وصنعنا منها امرأة فاضلة بنّاءة تحافظ على ديمومة الفضيلة في ذلك المجتمع، وتسهم في الإبقاء على نقاوته وطهارته، فتخلق بكلّ ذلك الأجيال الصالحة فيه.

المبحث الرابع: في صفة المنافقين

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمَعْرُوفِ﴾، وهذا يعني أنهم من سنخية واحدة؛ لأنهم يجمعهم عمل واحد وفكر واحد؛ فهم توحدهم أعمالهم وأهدافهم وأفكارهم التي يسيرون عليها في القضاء على الإسلام الحنيف. أما العمل الذي يجمعهم فهو جملة من الصفات التي تطرقت إليها آية المقام الكريمة. وهنا سوف نتناول صفتي الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، كما أشارت الآية الكريمة.

إذن فنحن هنا إزاء جنبتين في حالة هؤلاء المنافقين وفي بيان صفتهم وهما:

الصفة الأولى: الأمر بالمنكر

والكيفية التي كانوا يأمرون فيها بالمنكر أنهم كانوا يحبّطون المسلمين عن الخروج إلى الجهاد حتى يحولوا دون تحقق الانتصار للإسلام ولجيشه، فكانوا يقولون لهم مثلاً في وسيلة لتحبيطهم ولفلّ عزائمهم ولثنيهم عن نية الجهاد مع

رسول الله ﷺ: إنكم سوف تقتلون عن آخركم في حربكم هذه مع العرب التي اجتمعت عليكم، كما أن قريشاً هذه معروفة في كبريائها، وهي لا تزال كذلك ـ أي محافظة على ذلك الكبرياء ـ فهي ما ذلت منذ عزّت، وعليه فإنكم لا يمكن أن تذلوها ولا أن تذلوا العرب الذين يجتمعون معها.

ومجمل القول هو أن المنافقين يريدون أن يدلّسوا عليهم بقولهم لهم: أنتم إذ تخرجون مع النبي ﷺ فإنكم سوف تقتلون ولا يبقى منكم أحد؛ لأن العرب قد تضافرت عليكم، ولأن قريشاً عزيزة منذ كانت ولم تذل أبداً، ولا يمكن لأي أحد أن يذلّها حتى أنتم، مع ما تدّعونه من أن الله معكم.

الصفة الثانية: النهي عن المعروف ومصاديقها

إن معنى المعروف الوارد في هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يراد به أمران، هما:

الأول: الإيمان بالله سبحانه ونبذ عبادة الأصنام

فهؤلاء كانوا يسعون إلى أن يحولوا دون الناس الراغبين في اعتناق الإسلام والدخول في دين الله تبارك وتعالى، ودون الإيمان به جلّ شأنه، ومنعهم من نبذ عبادة الأصنام، فهم يصدّون عن سبيله تعالى الذي هو الإيمان به جلّ وعلا. فكانوا يحاولون أن يمنعوا كلّ من أراد أن يلج في هذا الدين الجديد، ويقفون في وجه كلّ من أراد أن يدخل في الإسلام ويمنعونه منه، ويحبّذون له البقاء على عبادة الأصنام والأوثان، أو أي ديانة أُخرى هو عليها.

وتر الموروث العقيدي

وهم إذ يتعاملون مع هذه المسألة بهذا النمط من التعامل فإنهم إنما يستغلون

الرواسب والموروثات الجاهلية عند الناس، فيحثّونهم على البقاء على عبادة أصنامهم استجابة لها؛ لأن هذه الأصنام إنما هي آلهتهم وآلهة آبائهم؛ وأن عليهم ألّا يغيروها؛ لأنهم حينما يغيرونها فإنهم يصرخون منادين بأن آباءهم جميعاً كانوا على ضلال، ولا يعقل أن يكون كلّ آبائهم كذلك. وعليه فإن الواجب الذي يحتّم على هؤلاء الذين يرغبون في الدخول في الإسلام ألّا يدخلوا فيه لأن دخولهم فيه ينطوي على أمر هو نسبة آبائهم إلى الضلال ووصفهم به، وهذا ما لا يمكن أن يرضاه إنسان لأبيه. فالمفروض بهم ألّا يؤمنوا حتى لا يسِموا آباءهم بتلك السمة.

تأثّر المسلمين بآبائهم الذين ماتوا في الجاهلية

وكما رأينا فإن هذه المسألة دقيقة جداً؛ ذلك أن هؤلاء كانوا يضربون على وتر غاية في الحساسية؛ لأنهم يعزفون على وتر آباء هؤلاء الذين كانوا أبناء لهم في الجاهلية. فالجاهلي كان يعتز بآبائه وكان ينظر إليهم نظرة أشبه ما تكون بالنظرة القدسية، فيضرب عليهم ستاراً من الإكرام والاحترام الكبيرين بحيث لا يسمح معه لأحد أن يمسهم بسوء، أو أن يشتمهم أو يسبّهم. فهؤلاء إذن كانوا يستغلون هذه النبرة ويعزفون على هذا الوتر من أجل إبعاد الناس عن الدخول في الإيمان الذي عبرت عنه الآية الكريمة بأنه المعروف.

ودليل هذا ما يروى من أن البعض من المسلمين كانوا يعتزّون بآبائهم الجاهليين، بل ويفتخرون بهم، ويرفضون لأي إنسان أن يمسهم بسوء، حتى نزل فيهم قوله تعالى: **﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾**[1]

---

(١) الزخرف: ٢٢.

فكان أن رد عليهم الرسول الأكرمﷺ بما يردعهم ويبيّن لهم حقيقة أولئك الآباء الذين ماتوا على الجاهلية وعلى القيم والمبادئ التي ربوا عليها، وهي قيم تمثل ضلال الجاهلية وتعزّز مبادئها الواهية، وذلك بقولهﷺ: **«لا تفتخروا بآبائكم الذين ماتوا في الجاهلية؛ فوالذي نفسي بيده، ما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية»**[1].

أي أن الرسول الأكرمﷺ كأنما يقول لهم: إنكم لستم ملزمين بالبقاء على طريق آبائكم ولا على اختطاط سبيلهم ومسلكهم إذا كانوا جهلة ضالين مشركين، و«**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**» كما يقول أمير المؤمنينؑ[2].

وهكذا فإن على هؤلاء أن يعوا بأنهم قد انتقلوا من مجتمع إلى مجتمع، ومن حضارة إلى حضارة، ومن ثقافة إلى ثقافة أخرى، وكلها أُمور تغاير ذلك الحال الذي كانوا عليه مغايرة كاملة تامة. وهذا يعني أن الإسلام قد نقلهم من الظلام إلى النور؛ ولهذا فكأنما لسان حال الرسولﷺ مخاطباً إياهم بالقول: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تصرّون إذن على البقاء على ضلال آبائكم، وعلى ظلام الأجواء التي كانوا يعيشونها؟

المسلمون اليوم والرواسب الجاهلية

ونحن لازلنا حتى هذه اللحظة نعاني من مثل هذه المشاكل ومن مثل هذا الواقع الذي كان يعانيه النبي الأكرمﷺ في بداية الدعوة، ذلك أن الكثير من

---

(١) المعجم الكبير ١١: ٢٥٢، المعجم الأوسط ٣: ٨٧ ـ ٨٨، السيرة الحلبية ١: ٤٦.
وجاء في الحديث الشريف: «ليدعن الناس فخرهم في الجاهلية، أو ليكونُن أبغض إلى الله تعالى من الخنافس». السيرة الحلبية ١: ٤٦.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

المسلمين لازال حتى الآن أسير موروثاته التي تقيده وتحدد له حياته وفكره وعقله دون أن يحاول إعمال ذلك الفكر والعقل اللذين منحهما الله تبارك وتعالى إياه. ومثل هؤلاء حينما يطالبهم أحد بأن يقرؤوا ويراجعوا ما عندهم من معلومات حتى لا يبقوا حبيسي التقليد الأعمى والأهوج الذي هم عليه؛ فإنهم ليس لهم من جواب حاضر حينها سوى أن السلف كانوا على ذلك، وأنهم لا يريدون مطلقاً أن يغيّروا شيئاً مما كان عليه أسلافهم.

ثم إن هؤلاء إذ يتساءلون منكرين: فهل يعني هذا أن أسلافنا كانوا على ضلال؟ فإنهم بهذا إنما يواجهوننا بما واجه به المنافقون كل من أراد أن يدخل في دين الله في عصر الرسالة المشرّفة. كما أنهم يحاولون أن يبقوا أنفسهم في قمقم ذلك الموروث الذي يتنافى مع القواعد العامة للعقل وللقرآن الكريم، فهم يصرّون على البقاء على ذلك وإن تنافى مع ما ذكرنا.

الثاني: منع المسلمين من الجهاد وتخذيلهم عنه

فالقرآن الكريم إذ يصف هؤلاء بصفة الإصرار على النهي عن المعروف، ويسِمهم بتلك السمة التي كانت عندهم، فإنه يريد منها: الأمر الّذي كانوا يزاولونه، وهو تخذيل المسلمين عن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى بين يدي رسوله الكريم ﷺ لنصرته ونصرة رسوله ﷺ ونصرة دينه الحنيف، وتحبيط الآخرين عنه؛ لمحاولة منع انتشار رقعة الإسلام وحصره في دائرة ضيّقة يردون له البقاء فيها؛ كي يتمكنوا من القضاء عليه بسهولة.

المبحث الخامس: في باقي صفات المنافقين

وبعد ذلك أخذت الآية الكريمة في معالجة الواقع الّذي كان عليه هؤلاء المنافقون، فراحت في ميدان تقرير حقائقهم بذكر جملة من صفاتهم التي تناولها

ذيل هذه الآية المباركة، وهي:

الصفة الثالثة: البخل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، فهؤلاء كانوا يمتنعون عن المساهمة في المعارك التي كان يخوضها الرسول الأكرمﷺ، مع أن المفترض بهم كمسلمين كما يدّعون أن يساهموا فيها بأنفسهم ودمائهم وأموالهم مساهمة حضورية فعّالة. فالرسول الأكرمﷺ كان حينما يخوض معركة ضدّ المشركين أو اليهود، ويرسل خلفهم طالباً منهم المساهمة في هذه المعارك والاشتراك فيها فإنهم كانوا يمتنعون عن الاشتراك في تلك المعارك، ويقبضون أيديهم عن تقديم المعونة مع أنهم كانوا موسرين، ويمتلكون القابلية على ذلك ولو لشراء السلاح أو لمساعدة عوائل المقاتلين والمجاهدين الذين يتركون أُسرهم ويذهبون إلى الجهاد.

وقد عرفنا بأن هؤلاء لم يكونوا ينفقون في سبيل الله تبارك وتعالى أي شيء، بل كانوا يقبضون أيديهم عن كلّ ذلك، مع أنهم كانوا ـ كما نعرف من خلال ما قدّمه لنا التاريخ، وحدّثنا عنه ـ ينفقون أموالهم بسخاء وبكرم في سبيل الهوى ومنافعهم الشخصية، ولإشباع رغباتهم الدنيئة. يروى أنه أصاب أهل الكوفة مجاعة فخرج أكثر الناس إلى البوادي، وكان غالب أبو الفرزدق رئيس قومه في الكوفة، وكان سحيم بن وثيل التميمي رئيس قومه فيها، فاجتمعوا في مكان في أطراف السماوة ، فعقر غالب لأهله ناقة وصنع لهم طعاماً، وأهدى إلى قوم من بني تميم منها، وجهز إلى سحيم جفنة، فكفأها سحيم وضرب بها الذي أتى بها، وقال: أنا مفتقر إلى طعام غالب؟ إذا نحر ناقة نحرت أُخرى.

فوقعت المنافسة، ونحر سحيم لأهله ناقة. فلما كان من الغد نحر غالب ناقتين، فعقر سحيم ناقتين كذلك، فلما كان اليوم الثالث نحر غالب ثلاثاً، فنحر سحيم ثلاثاً أيضاً. فلما كان اليوم الرابع نحر غالب مئة ناقة، ولم يكن عند سحيم هذا القدر، فلم يعقر شيئاً، وأسرّها في نفسه.

فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة، قال بنو رياح لسحيم: جررت علينا عار الدهر، هلا نحرت كما نحر، وكنا نعطيك مكان كلّ ناقة ناقتين! فاعتذر إليهم أن إبله كانت غائبة، ثم نحر ثلاثمئة ناقة، وقال للناس: شأنكم والإبه، فكلوا منها ما أردتم.

فبلغ الخبر أمير المؤمنين ﵇ ـ وقد استُفتي في حلّ الأكل منها ـ فقضى ﵇ بتحريمها، وقال ﵇: «هذه ذبحت لغير مأكلة، وإنها ممّا أُهلّ لغير الله، ولم يكن المقصود منها إلّا المفاخرة والمباهاة». فأُلقيت لحومها على كناسة الكوفة فأكلها الكلاب والعقبان[1].

إننا نجد هنا أن المسألة قد تحوّلت من كونها مسألة إنفاق في سبيل الله تبارك وتعالى ولوجهه إلى مسألة أُخرى يكتنفها العامل الشخصي والموروث الجاهلي، وهو المفاخرة بين هؤلاء، فهذا كان يظن أن غالباً يريد أن يصبح شيخاً أو أميراً أو كبيراً على الناس؛ ولهذا فإنه حينما نحر بعيراً، قام هو لينحر آخر. وهكذا أخذت الحمية نفسها غالباً، فنحر ثلاثة، فكان أن فعل سحيم مثلها فنحر ثلاثة، ثمّ بدأت المزايدة والمفاخرة حتى وصل الأمر كما رأينا إلى ثلاثمئة ناقة.

---

(١) الشعور بالعور ١: ١٨٨ ـ ١٨٩ / ٥٠، خزانة الأدب ٣: ٥٧، ٥٨، الأمالي في لغة العرب (القالي) ٣: ٥٣ ـ ٥٤، طبقات فحول الشعراء (محمد بن سلام الجمحي) ٢: ٥٧٦ / ٧٧٣ ـ ٧٧٥، مرآة الجنان (اليافعي) ١: ٢٣٨.

وهذا طبعاً لم ينحر لوجه الله تعالى ولم يقصد به وجهه كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام، وإنما قُصد به مفاخرة الجاهلية والتنافس على الرئاسة، وحبّ السيادة؛ الأمر الذي رأينا معه أنه حدا بالإمام عليه السلام أن يأمر بعدم الإطعام منه؛ لأنه لا يجوز أكله؛ فهو مما أُهلّ به لغير الله سبحانه وتعالى.

مفارقات في تاريخ المسلمين

وهذا الحال الذي كان عليه المنافقون لم يكن خاصّتهم وحدهم، بل إن قريشاً كانت في بداية الدعوة ـ كما تحدّثنا الآيات القرآنية، وكتب التاريخ ـ لا تألو جهداً في إنفاق أموالها، وما تستطيع إنفاقه من أجل الصدّ عن دخول الناس في هذا الدين الحنيف، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾[1].

موقفهم من أبي سفيان

وبالرجوع إلى الفخر الرازي وغيره[2] في تفسيره لهذه الآية الكريمة نجد أنه يذهب إلى أنها نزلت في المطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش.

فالمطعمون هم رجال من قريش ضمنوا لمن يخرج مقاتلاً النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يموّلوه بالسلاح، وأن يموّلوا عائلته بالطعام والمتاع حتى يعود. أي أنهم ضمنوا للمقاتلين تغطية نفقاتهم الحربية ونفقات أُسرهم المعيشية والحياتية حتى قال الرازي في تفسيره: «وقال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت في أبي سفيان وإنفاقه

---

(١) الأنفال: ٣٦.

(٢) تفسير البيضاوي ٣: ١٠٦ـ١٠٧، تفسير أبي السعود ٤: ٢٠، إمتاع الأسماع ٦: ١٦٠ـ١٦١.

المال على حرب النبي محمد ﷺ يوم أُحد، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أُوقية من الذهب، والأُوقية اثنان وأربعون مثقالاً»[1].

هذا مع أن أبا سفيان كان معروفاً بالبخل، ولم يكن ينفق على نفسه أو على عياله شيئاً يذكر لما كان عليه من ذلك الشحّ والبخل الذي يصف بعض المحدثين شيئاً منه بهذه الرواية التي يروونها عن زوجته التي جاءت إلى النبي ﷺ حينما فتح مكة، وأرادت أن تبايع مع النساء له ﷺ، حيث أمر النبي الكريم ﷺ بطشتٍ، فوضع فيه ماء، ووضع يده الشريفة فيه، وأمر المرأة التي تريد أن تبايع أن تضع يدها في ذلك الماء.

والقرآن يحدثنا أن النبي ﷺ قد اشترط في أخذ البيعة عليهن أموراً ذكرتها الآية الكريمة وهي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[2]. وكذلك اشترط عليهنّ أموراً أُخرى منها أن يحافظن على أُسرهنّ وأزواجهنّ، وعلى أموالهم؛ وهنا قالت له زوجة أبي سفيان: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أُطعم عيالنا من ماله؟ فقال ﷺ: **«أأنت هند؟»**. قالت نعم يا رسول الله، فاعفُ. فقال: **«لا»**، أي لا يحقّ لك أن تأخذي من ماله **«إلّا بالمعروف»**، أي بقدر الحاجة[3].

---

(١) التفسير الكبير ١٥: ١٦٠ ـ ١٦١، عن الكشاف ٢: ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) الممتحنة: ١٢.

(٣) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ ـ ١٧٨.

وموضع الشاهد هنا الذي نريد أن نذكره هو أن أبا سفيان كان معروفاً بأنه شحيح وبخيل، لكنه مع ذلك حينما وصل الأمر إلى محاربة رسول الله ﷺ كان قد أنفق أربعين أُوقية من الذهب لمقاتلته، ولمقاتلة الإسلام، ومحاولة صدّه والوقوف بوجهه والقضاء عليه.

ومع كلّ ما كان عليه أبو سفيان هذا فإننا حينما نلج تاريخنا فسوف نجد أنه يعطيه مساحة كبيرة وعريضة من المدح والثناء، فيصفه بها بأنه كان مسلماً وموحّداً، بل إن الأمر وصل بالبعض أن يصفه بأنه شيخ الأرض، وأنه من المؤمنين، متناسياً عن قصد ما كان له من مواقف سلبية هدّامة وكثيرة مع الرسول ﷺ[1]، وما كان الرسول الأكرم ﷺ قد قال فيه وفي عقبه الكثير ممّا

---

(١) وذلك أنه ﷺ حينما دخل مكّة جاء العبّاس بن عبد المطّلب بأبي سفيان إليه؛ ليستأمنه له. فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلّا الله؟». قال: بأبي أنت وأمّي، ما أكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنّا شيئاً. فقال ﷺ له: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنّي رسول الله؟». قال: بأبي أنت وأمّي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن. فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، أسلم واشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأظهر الإسلام حينئذٍ؛ حقناً لدمه، فقبل النبي ﷺ ذلك منه.
فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها». قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه، ثم مرّت به القبائل على راياتها؛ كلّما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليم. فيقول: ما لي ولسليم؟ قال: ثم تمرّ القبيلة تلو القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان فيقول: ما لي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء؛ كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلّا الحدق، فقال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد غدا ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. فقلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس هو الملك، وإنما هي النبوّة.
تاريخ الطبري ٢: ٣٣١ ـ ٣٣٢، تفسير البغوي ٤: ٥٣٨ ـ ٥٣٩، الثقات ٢: ٤٦ ـ ٤٧، الكامل في التاريخ ٢: ٢٤٥ ـ ٢٤٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٥٤٩، تاريخ الإسلام ٢: ٥٤٠ ـ ٥٤٢، البداية والنهاية ٤: ٣٣١ ـ ٣٣٢، إمتاع الأسماع (المقريزي) ١: ٣٦٠ ـ ٣٦١،

لا يخفى على المتابع المنصف(١).

النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٧ ـ ٥٨، السيرة النبوية (ابن هشام) ٤: ٨٦٢ ـ ٨٦٣، المعجم الكبير ٨: ١١ ـ ١٣، الاستيعاب ٤: ١٦٧٨ ـ ١٦٧٩، الدرر (ابن عبد البرّ): ٢١٦ ـ ٢١٧، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٦٩ ـ ٢٧٠، كنز العمّال ١٠: ٥٠٦ ـ ٥١٠ / ٣٠١٧٣ تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٤٤٩ ـ ٤٥٠، عيون الأثر ٢: ١٨٦ ـ ١٨٧.

ولمّا دخل النبي مكّة، ورآه أبو سفيان وهو في المسجد الحرام، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «بالله غلبتك». بغية الباحث (ابن أبي أسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.

وحينما رأى الناس يطؤون عقب رسول الله يوم الفتح، حسده، وقال في نفسه: لو عاودت الجمع لهذا الرجل. فجاءه النبي، فضرب بيده في صدره، وقال له: «إذن يخزيك الله». الإصابة ٢: ١٧٩ / ٤٠٤٦، البداية والنهاية ٤: ٣٤٨.

ومنها ما قاله حينما سمع المؤذّن يقول: «أشهد أنّ محمداً رسول الله». حيث قال: أهاهنا من يحتشم؟ فقال أحد الحضور: لا. فقال: لله درّ أخي هاشم، انظروا أين وضع اسمه. فقال أمير المؤمنين: «أسخن الله عينيك يا أبا سفيان، الله فعل ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]...». فقال: أسخن الله عين من قال: ليس هاهنا من يحتشم. قصص الأنبياء (الراوندي): ٢٩٣ ـ ٢٩٤، بحار الأنوار ١٨: ١٠٨ / ٦، ٣١: ٥٢٣ / ٢٢.

وحينما توفّي رسولنا الأكرم استغلّ أبو سفيان الفراغ الذي أحدثته في مكّة، فراح يعمل معاوله في هدّ بناء الصرح الإسلامي، وأخذ يواصل مسيرته الهدّامة التي ابتدأها ضدّ الإسلام بدافع من عدائه له. فحاول أن يحمل الناس على أن يرتدّوا عن الإسلام، غير أن سهيل بن عمرو العامري ـ وكان خطيباً فصيحاً بليغاً مصقعاً ـ تصدّى لمؤامرته، وتكفّل بفضحها أمام الناس، فأعلن ذلك على الملأ قائلاً: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؟ وإني لأعلم أن هذا الدين سيمتدّ امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرّنكم هذا (يعني أبا سفيان) من أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم، فتوكّلوا على ربكم؛ فإن دين الله قائم، وكلمته تامّة، وإن الله ناصر من نصره. فحال دونهم ودون ما عزموا عليه من الارتداد. الاستيعاب ٢: ٦٧١، أحكام القرآن ٢: ٥٢٧، إمتاع الأسماع ١٢: ١٧٦. وغير ذلك كثير..

(١) ومنها قوله: «رأيت بني أميّة ينزون على منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين

كما أن التاريخ يحدّثنا بأنه كان يردّد قولته المشهورة على مسامع بني أُميّة: «تلاقفوها يابني أُمية تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان[1]، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك»[2].

القهقرىٰ». الجامع لأحكام القرآن ١٠:٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨.

وقال ﷺ يوماً، وقد رأىٰ أبا سفيان راكباً، وابنه يزيد يسوقه، ومعاوية يقوده: «لعن الله السائق والراكب والقائد». المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

وكان شعار رسول الله ﷺ البارز الذي لم تتمكّن الأقلام المأجورة، ولا قهر السلطات الجائرة من إخفاء نوره، بل إنه ظلّ يصدح في مسامع الدنيا مجلجلاً في أُذن الدهر: «إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان». الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ ـ ٨٩

ورئي ﷺ ذات يوم علىٰ واجماً على منبره، فسأله أصحابه عمّا به، فقال ﷺ: «رأيت بني أُميّة ينزون علىٰ منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقرىٰ». جامع البيان ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أُميّة. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنّكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المنثور ٤: ٣٤٦.

(١) ولنلاحظ هنا عدم تصريحه الواضح والمتعمّد بما أقسم به. والسبب بيّن كما يتراءى، وهو أنه لا يؤمن بالله تبارك وتعالى؛ ولذا فإنه لم يقسم به، وبما أنه يخشى من التصريح بمعتقده الحقيقي القائم على الشرك، وأنه إنما يؤمن بتعدّد الآلهة، فقد تجنّب ذكرها صريحاً، مكنّياً عنه بقوله: فوالذي يحلف به أبو سفيان.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

وروي أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أُميّة تداول الولدان الكرة، فو الله ما من جنّة ولا نار. وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب. فقال: يا بني، أهاهنا أحد؟ قال الزبير: نعم، والله لأكتمنّها عليك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

وروي أنه لما بويع لعثمان دخل رحله فدخل إليه بنو أُميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها

موقفهم من أبي طالب عليه السلام وإيمانه

أما أبو طالب عليه السلام الذي كان يصدح صباح مساء بقوله:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتبِ[1]

عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أميّة، تلقّفوها تلقّف الكرة... . فانتهره عثمان، وأمر بإخراجه. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ ـ ٥٤.

وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة) من الجزء الخامس من هذه الموسوعة الشريفة.

قال الشيخ الطبرسي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] زعم القوم أنه نزل في أبي طالب، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحب إسلامه، فنزلت هذه الآية، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يكره إسلام وحشي قاتل حمزة، فنزل فيه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً

(١) ديوان أبي طالب ١: ١٣، سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبويّة ١: ٢٣٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧. وهذا يعني أنه عليه السلام كان على سيرة المسلمين من الإيمان بأنبياء الله تعالى السابقين كلهم عليهم السلام أي أنه عليه السلام لم يكن مشركاً البتّة في لحظة من لحظاته.

وفي آخر قصيدته عليه السلام هذه يقول:

فلسنا وربِّ البيتِ نُسلمُ أحمداً لعزَّاءِ من عضِّ الزَّمانِ ولا كَرْبِ
ولمّا تَبِنْ منّا ومنكُمْ سَوالفٌ وأيدٍ أُتِرَّتْ بالقُسَاسِيَّة الشُّهْبِ
بمُعْتَرَكٍ ضَنْكٍ تُرى كِسرُ القَنا به والنسورُ الطُّخم يَعْكِفْنَ كالشَّرْبِ

وكان عليه السلام يقول:

كذبتم وبيتِ اللّه نخلي محمداً ولما نطاعنْ دونه ونناضلِ

ديوان أبي طالب ١: ٦٠، ويقول:

نبيٌّ أتاه الوحيُ من عندِ ربِّهِ ومن قال لا، يقرعْ بها سنَّ نادمِ

ديوان أبي طالب ١: ٧٩.

ولو تمعنّا في هذه الأبيات التي تصرّح بشكل واضح أنه عليه السلام مستعد للقتال دون نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والموت من أجله، بضميمة العلة التي من أجلها نذر نفسه الشريفة أن يدافع بها من أجله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي كونه صلى الله عليه وآله وسلم نبيّاً مرسلاً صحيح الدعوى، لوجدنا أن فيها دليلاً كبيراً على إيمانه عليه السلام، لأنه ما لم يكن كذلك لا يعقل أن يدافع عنه صلى الله عليه وآله وسلم دفاع المستميت.

فإنه كان ينعت بأنه مشرك، وأنه قد مات على الشرك والعصبية الجاهلية.

والواقع أن وصفه بهذا الوصف هو العصبية الجاهلية عينها، بل هو هوى مقيت قائم على أُسّ من الحقد هارٍ؛ لأن هؤلاء تعصف بهم الآراء والأهواء الزائفة الزائلة؛ فيزيّنون الباطل ويجعلون منه حقّاً، ويزيّفون الحقّ ويجعلون منه باطلاً. وإلّا فإن العكس هو الذي يجب أن يكون، فيوسم أبو طالب عليه السلام بالإسلام والإيمان، وبشيخ الأرض وشيخ الدين، ويوسم أبو سفيان بأنه مشرك ومنافق؛ لما كانت له من مواقف على الضدّ تماماً من المواقف التي كان عليها أبو طالب عليه السلام، والتي كان يقفها من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ومن الدين الجديد. وهي كلّها مواقف إيجابية مشرّفة تؤشّر بشكل صريح وواضح إلى أنه عليه السلام مؤمن بهذا الدين الجديد وبصاحبه صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه من التابعين له، غير أنه قد كتم إيمانه خوفاً من قريش؛ بسبب المناخ العقيدي الذي كان يسود مكّة وغيرها من البلاد، والتعصّب الجاهلي الذي

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فلم يسلم أبو طالب، وأسلم وحشي. ورووا ذلك، عن ابن عباس وغيره. وفي هذا نظر كما ترى، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته، كما لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه، وإذا كان الله تعالى على ما زعم القوم لم يرد إيمان أبي طالب وأراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إيمانه، فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمرسِل تعالى، فكأنه سبحانه يقول على مقتضى اعتقادهم: إنك يا محمد، تريد إيمانه، ولا أُريد إيمانه، ولا أخلق فيه الإيمان مع تكفّله بنصرتك، وبذل مجهوده في إعانتك والذبّ عنك، ومحبته لك ونعمته عليك، وتكره أنت إيمان وحشي لقتله عمّك حمزة، وأنا أُريد إيمانه، وأخلق في قلبه الإيمان. وفي هذا ما فيه. مجمع البيان ٧: ٤٤٨.

وتأسيساً على هذا ننقل حديثاً رواه المتقي الهندي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله: «كانت مشيئة الله عز وجل في إسلام عمي العباس، ومشيئتي في إسلام عمي أبي طالب، فغلبت مشيئة الله مشيئتي». كنز العمّال ١٢: ١٥٢ ـ ١٥٣ / ٣٤٤٣٩.

وهذا كما هو ظاهر للعيان تعارض واضح بين الإرادتين، وهو ممّا لا يمكن أن يكون بين سفير دولة وحكومته فضلاً عن كونه بين سفير السماء ومرسِله جلّ شأنه وتقدّس اسمه.

كان يحكم أهلها، والظروف القاسية القاهرة التي كان المجتمع المسلم يمرّ بـها، والتي كانت تحيط به وهو يعالج هذه النقلة النوعية الفريدة للمجتمعات المشركة في محاولة لإنقاذها من الظلام إلى النور[1].

---

(١) ولهذا فقد ورد فيه مدح عظيم على لسان أيمّة أهل البيت النبوي الطاهر بسبب كتمه إيمانه، مشبّهين إياه بأصحاب الكهف (رضي الله تعالى عنهم)؛ فعن الإمام الصادق أنه قال: «إن رسول الله قال: إن أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان، وأظهروا الكفر؛ فآتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك؛ فآتاه الله أجره مرتين، وما خرج من الدنيا حتى أتته البشارة من الله تعالى بالجنة». شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٠.
وفي الحديث المشهور أن جبرائيل قال للنبي ليلة مات أبو طالب: «اخرج منها؛ فقد مات ناصرك». المصدر نفسه.
ولو أننا تتبّعنا الأحاديث الشريفة التي يرويها القوم حول أبي طالب إيماناً أشـركاً عـن رسولنا الأكرم، والتي تعالج هذه المسألة الهامّة والحسّاسة في تاريخ العقيدة الإسلاميّة على مرّ هذه السنين، لوجدنا فيها تناقضاً واضحاً بيّناً من خلال استعراضها، وهي روايات يمكن تصنيفها إلى طائفتين:
الأولى: روايات التكفير
فهم يروون أحاديث تنصّ صراحة على أنه مشرك، وأنه خرج من الدنيا دون أن يـقبل بالنطق بكلمة التوحيد مع محاولة نبيّنا الأكرم معه من أجل ذلك، كما سنراه إن شاء الله تعالى من خلال ذكر بعضها.
الثانية: الروايات التي يُتنسّم منها إيمانه
وهذه الروايات كما ذكرنا يُستشفّ منها تصديقه بالرسالة الإسلامية الشريفة، وبصاحبها الأقدس نبيّنا الكريم. ومن الأحاديث التي رواها القوم بهذا الخصوص، والمـصرّحة بدفاعه عن رسولنا الأكرم، بل بإيمانه نذكر:
١ ـ قوله: «ما زالت قريش كافّة عني حتى مات أبو طالب». تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣٣٦، كنز العمّال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٠.
٢ ـ قوله: «إن لأبي طالب عندي رحماً سأبلّها ببلالها». المصدر نفسه، كنز العـمّال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤١.
٣ ـ قوله: «والله لأستغفرن لك ما لم أُنهَ عنك». المصدر نفسه، كنز العمّال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٢.

وعليه فهؤلاء حينما يطعنون على أبي طالب عليه السلام، وينعتونه بالكفر فإنما

---

٤ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «وصلتك رحم، وجزيت خيراً يا عم». المصدر نفسه، كنز العمّال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٣.

٥ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «كل الخير أرجو من ربي». لمّا سئل صلى الله عليه وآله: ما ترجو لأبي طالب؟. المصدر نفسه، كنز العمّال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٤.

٦ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله بموت أبي طالب، فبكى ثم قال: اذهب فاغسله وكفنه وواره؛ غفر الله له ورحمه. ففعلت ما قال، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حزناً عليه. المصدر نفسه، المبسوط (السرخسي) ٢: ٥٥، الدرّ المنثور ٣: ٢٨٣، فتح القدير ٢: ٤١١، تفسير الآلوسي ١١: ٣٣.

محاولة التوفيق بين روايات الطائفتين

وهكذا فإنهم في الوقت الذي يروون هذه الأحاديث التي تنصّ صراحة على أنه عليه السلام مشرك، وجدنا أنهم يروون أحاديث غيرها تصرّح بإيمانه عليه السلام كما رأينا، وحينما التفتوا إلى هذا التناقض بعد جمع الحديث وتدوينه، حاولوا التوفيق بين روايات هذه الطائفة وتلك؛ فلفّقوا لها ما ليس من الدين. فهم مثلاً يروون أن النبي صلى الله عليه وآله جعل يستغفر لأبي طالب عليه السلام أياماً بعد موته، ومكث لا يخرج من بيته حزناً عليه، أرادوا أن يوجّهوا هذا لصالح رؤيتهم الذاهبة إلى تكفيره، فادّعوا أن جبريل عليه السلام نزل عليه صلى الله عليه وآله يحمل هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى﴾ التوبة: ١١٣. انظر مصادر الحديث عند الرقم: (٦) من هذا الهامش.

مناقشة

فهل يجوز للنبي صلى الله عليه وآله أن يصل عمه أبا طالب؛ لأنه رحمه ويبلّ ذلك الرحم مع أنه ليس على الإيمان؟ وهل يسوغ له صلى الله عليه وآله فعل ذلك ما دام مشركاً؟ وهل يخالف رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله ما ورد في القرآن الكريم من النهي عن صلة الرحم غير المؤمن؟ وهل يُرجي خير قليلاً أو كثيراً لمشرك؟ وهل يستغفر صلى الله عليه وآله لمشرك ويمر بتغسيله وتكفينه ودفنه على منهاج الإسلام؟

أمّا ما في قوله صلى الله عليه وآله: «والله! لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك»، فواضح أنه عبارة «ما لم أنهَ عنك» غريبة عن الرواية؛ وذلك أنه صلى الله عليه وآله لا يعمل ما يغضب الربّ تعالى مطلقاً، وبما أطلعه الله سبحانه وتعالى من علم الغيب فإنه صلى الله عليه وآله يعلم بأن الله تبارك وتعالى يريد هذا العمل ويحبّه، ولا يريد غيره ولا يحبّه؛ فإن قلنا بأنه صلى الله عليه وآله يعلم بأن الله تبارك وتعالى يريد له أن يستغفر لأبي طالب عليه السلام، ويحبّ هذا الفعل منه، لم يكن معنى حينئذٍ لعبارة: «ما لم أنهَ

ينطلقون في ذلك من منطلق الهوى والعصبية والجاهلية المقيتة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

ونحن حينما نطالب الآخرين الذين يسارعون بالحكم على أبي طالب عليه السلام بالكفر أو الشرك[2] بأن يدرسوا الجوانب الحياتية لأبي طالب عليه السلام دراسة واقعية وعقلانية يتجرّد فيها صاحبها عن الهوى وعن الموروث الجاهلي والمخلّفات

عنك»؛ لأنها تكون حينها تحصيل حاصل، وهو ممتنع على العاقل فضلاً عنه صلى الله عليه وآله وسلم، وإن لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم يعلم منه ذلك كان قدحاً من معتقِده ـ أي معتقِد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لا يعلم الغيب بتعليم الله سبحانه وتعالى إياه ـ برسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما يجب أن تنزّه عنه ساحته صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) وهؤلاء إنما يسارعون إلى ذلك منطلقين من منطلق عصبي أو من منطلق التقليد الأهوج والأعمى لما كان عليه الأسلاف مما أسّسه الأُمويون والعباسيون من بعدهم، والذين رأينا وسنرى أنهم إنما عمدوا إلى إشاعة هذه الفكرة بغضاً لعلي عليه السلام ولأهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

فالأُمويون يبغضونه لأنه عليه السلام وترهم في كل المعارك التي خاضوها ضدّ الإسلام؛ فكان أن كفّروا أباه؛ حقداً عليه.

أما العباسيون، فهم يبغضونه لأنهم يرون العلويين منافساً حقيقياً وشرعياً لهم على الخلافة، فكانوا يكفرون أباه في كثير من المحاولات حتى يبعدوا قضية الوراثة في الخلافة لأنهم صوروا تلك الخلافة على أنها وراثة دنيوية.

وهم حينما كشّروا عن أنيابهم المملوءة سمّاً للعلويّين عبر السياسة الهوجاء التي انتهجوها ضدّهم بالاستبداد ودون أية رحمة؛ رأوا أن عليهم أن يبتكروا عنواناً جديداً ينضوون تحته وهو عنوان أحقّيتهم بالقربى من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن بيّنت لهم مواقف العلويّين منهم، وثوراتهم المتتابعة والمتصاعدة ضدهم أن مظلّتهم لم تكن كما كانت من قبل بحيث إنها تعود بالتأييد لسلطانهم الجائر بعد أن انكشفت حقيقة نواياهم تجاه العلويين، بل إنهم راحوا يرون فيها مصدر خطر على وجودهم نفسه. وهكذا لم يجدوا أمامهم خياراً غير العباس جدهم الذي راحوا يشيعون بين الناس أنه أحقّ بالخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه عليهم السلام؛ وأنه الأحقّ بالإرث والخلافة له من بعده؛ وذلك لسببين:

العصبية، والتي سوف ينتهي حتماً وفقها إلى رأي قاطع يحكم بمقتضاه عليه بأنه عليه السلام مؤمن عاش ومات مؤمناً وموحداً، فإنهم سوف يرفضون رفضاً قاطعاً هذه الفكرة، وينبذونها في وجه مخاطبهم؛ لأنه لا يريدون أن يخرج عن إطار تلك العصبية، ولا عن إسار التقليد الأعمى.

ونحن نقول في هذا المقام: بأن الطود لا يمكن أن يؤثر فيه نطح ناطح، فهذا لا يقلل من قيمة أبي طالب عليه السلام ولا يضيره بشيء أبداً؛ لأنه علم وطود وسيبقى

الأول: أنه عمّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ الوحيد الذي بقي حيّاً بعد انتقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى؛ فهو أحقّ بوراثته؛ اختطاطاً لمبدأ التعصيب، وتأييداً له، وإضفاء للمشروعية عليه بما أنه إقرار له وبه من قمة هرم السلطة التي يُدّعى لها بأنها شرعية إسلاميّة.

الثاني: أنه عاش على دين الإسلام، ومات عليه دون أبي طالب عليه السلام الذي راحوا يشيعون تبعاً لسياسة الأمويين بأنه عاش مشركاً ومات مشركاً؛ فهو ـ أي العبّاس ـ إذن أحقّ بخلافته صلى الله عليه وآله وسلم؛ تأسيساً لذلك على قانون الوراثة؛ مصوّرين إياها على أنها من سهام الميراث كما صدح به شعراؤهم؛ لأنهم يرون كما سنشاهده لاحقاً أن الخلافة وراثة دنيوية وليست توقيفية، أو نصّاً سماوياً مقدّساً.

وقد جنّدوا لهذا الغرض الأقلام المأجورة، سيّما وسائل الدعاية المعروفة آنذاك نعني بهم الشعراء، فالمتزلّفون منهم والوصوليون والانتهازيون كانوا عادة يسارعون إلى تلبية رغبات السلطات؛ فيبيعون آخرتهم من أجل شيء من حطام الدنيا فإن، فراح هؤلاء المتزلّفون يطبّلون لهذه الظاهرة، ويعزفون على هذا الوتر مستغلّين رغبة السلطة تلك مع أنه توجّه مبتنٍ على نظرية فقهية سنية في الميراث، وهي نظرية التعصيب التي لا يقول بها مذهب أهل البيت عليهم السلام. وقد أُنشد الكثير من الشعر لتثبيت تلك النظرية التي تبنّاها العباسيون، لا لشيء إلّا لأنها تحقّق لهم رغبتهم في الوصول إلى السلطة، والبقاء فيها بعد أن يسبغ ذلك المذهب المشروعية التي يريدونها على استحواذهم على السلطة، وسلبهم أصحابها الشرعيين إياها.

وكان من هؤلاء الشعراء مروان بن أبي حفصة الذي وقف موقفاً مناهضاً لمذهب أهل البيت، وللأيمّة عليهم السلام الذين يمثّلون واجهة الإسلام، فكان أن أنشد:

أنّى يكون وليس ذاك بكائنٍ ... لبني البناتِ وراثةُ الأعمام
ألغى سهامَهمُ الكتاب فحاولوا ... أن يشرعوا فيها بغير سهام
ظفرت بنو ساقي الحَجيجِ بحقِّهمْ ... وغُررتمُ بتوهّم الأحلام

كذلك. وغاية ما يكشفه لنا هذا التصرّف هو أن هؤلاء يملكون نفوساً وضيعة تبتعد عن الإسلام؛ لأنها تمشي على ضوء مقاييس مختلّة، وعلى ضوء الازدواجية في التعامل مع الوقائع التي مرّت في تاريخنا.

الصفة الرابعة: عدم ذكر الله تبارك وتعالى

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، فالآية الكريمة هنا في مقام الذمّ لهؤلاء؛ لأن من ينسَه الله تبارك وتعالى فلنا أن نتصوّر ما الذي سيكون عليه حاله في الدنيا وفي الآخرة[1].

إذن فهؤلاء المنافقون قد اعتادوا على ألّا يذكروا الله تبارك وتعالى، ولا يجعلوه نصب أعينهم فيما يفعلون وفيما يقومون به، بل وفيما يعتزمون القيام به؛ ولذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أخرجهم من رحمته، ولم يجعل لهم وجوداً ضمن إطارها ودائرتها.

المراد من النسيان في آية المقام الكريمة

ولا بدّ أن نذكر هنا أن النسيان المراد في الآية الكريمة؛ سواء ذلك النسيان المنسوب إلى الله جلّ شأنه، أو المنسوب إلى المنافقين هو غير النسيان الذي يتبادر إلى أذهان الناس. ولذا فإنه يمكن معالجة هذا الأمر من جانبين:

الأول: النسيان المتعلق بالمنافقين

فهنا لا يمكن أن نحمل النسيان على معناه المعروف والمألوف عند الإنسان؛

---

(١) والأدعية الشريفة الواردة عن أئمتنا: تلاحظ هذا الجانب حتى إنه ورد فيها: «لا تكلني إلى نفسي طرفة عين». انظر الكافي ٢: ٥٢٤ / ١٠، ٥٦١ / ٢٠، ٥٨١ / ١٥، ٣: ٣٤٦ / ٢٦، ٧: ٢ / ١، وغيره. أي إن الإنسان حينما يكله الله تبارك وتعالى إلى نفسه فإنه يكون قد نسيه، وإذا نسيه فإن ذلك يعني الخسران المبين للإنسان في الحياة الدنيا والآخرة. أما ما المراد بالنسيان هنا فهو ما سوف يبيّنه المحاضر لاحقاً.

لأنه بهذا المعنى موجود عند الإنسان الذي يمكن أن ينسى فقط والذي يكون معذّراً له عندما يترك بعض الطاعات أو يفعل بعض المحرّمات والمنهيات لسببه؛ فيُسقط العقوبة عنه. وقد ورد أن مِن جملة مَن رُفع عنهم القلم هو الناسي وذلك في قوله ﷺ: «وضع عن أُمّتي تسع خصال: الخطأُ والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطرّوا إليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكّر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد»[1].

ولهذا فإن الصائم لو نسي وشرب ماءً أو أكل طعاماً فإنه لا يفطر، ولا يحكم ببطلان صومه؛ لأن النسيان معذّر له ومسقط للعقوبة عنه.

وبناء على هذا فإذا كان النسيان معذّراً للإنسان ومسقطاً للعقوبة عنه، وغير مسوّغ لها بحقّه، فلماذا إذن يذمّ الله تبارك وتعالى هؤلاء ويعاقبهم عليه بأن ينساهم لأنهم نسوه؟

إن هؤلاء إذا كانوا قد نسوا الله، وإذا كان النسيان هو أمر غريزي عند الإنسان لا يمكن أن يتحكّم فيه فإن العدل يقتضي عدم محاسبتهم كما ذكرنا، وهو مذهب الإسلام في عدم محاسبة الناس مما رأينا من قوله ﷺ، ومن الأحكام الشرعية المتعلّقة بالناسي، فلماذا نجد أن القرآن الكريم ـ كما في آية المقام الكريمة ـ يرتب أثراً على هذا النسيان وعقوبة عليه؟ وهل في البين تناقض وتنافٍ، أم أن للنسيان معنى آخر مغايراً للمعنى الذي يتبادر إلى أذهاننا؟

والجواب أنه كما ذكرنا من أن هذا النسيان هو غير النسيان الذي يتبادر إلى ذهن الإنسان أو المألوف والمعروف عنده؛ لأن ذلك النسيان معذّر كما بينا، وبما

---

(١) انظر: الكافي ٢: ٤٦٢ ـ ٤٦٣ / ١، فتح الباري ١١: ٤٧٨، التبيان ٦: ٥٠٦. باختلاف يسير، مجمع البيان ٦: ٢٧٨، بحار الأنوار ١٧: ٥٤، المعجم الأوسط ٨: ١٦١.

أن الله سبحانه وتعالى يحاسب هؤلاء على نسيانهم فإنه لابدّ أن يكون ليس ذلك النسيان المتبادر، أي أننا لابدّ من أن نحمله على غير ذلك.

ودليل هذا أنه قد أُسند إلى الله تعالى، ونحن نعرف أنه جلّ وعلا لا ينسى كما سيأتي في مناقشة وبيان الجنبة الثانية وهي التي أطلقنا عليها «بيان النسيان المنسوب إلى الله سبحانه». فالله جلّ شأنه محيط بكل شيء؛ فلا يمكن أن ينسى شيئاً أو أن يعزب عنه شيء كما سنراه لاحقاً.

إذن فالإنسان لا يمكن أن يؤاخذ على النسيان، لكنه يمكن أن يؤاخذ على التناسي؛ أي أنه إذا ما تغافل عن ذكر الله تبارك وتعالى وتساهل في أوامره ونواهيه، فلم يعمل وفق أوامره، ولم ينتهِ عن نواهه جلّ شأنه؛ فإن هذا يكون منجزاً لوقوع العقوبة عليه، وغير معذر له؛ لأنه إنما افتعل ذلك النسيان، وليس هو بنسيان على وجه الحقيقة.

بيضاء لا تواريها العمامة

إذن فالمراد من النسيان هنا هو إما التناسي وهو التغاضي عن الحق، أو أنه التساهل في فعل الطاعات والانتهاء عن المحرمات والتساهل بالجزاء الذي وعد الله سبحانه وتعالى به. فهذا هو الذي يؤاخذ الله تبارك وتعالى به وعليه عباده. يروى أن أمير المؤمنين عليه السلام قام برحبة الكوفة خطيباً فقال: «أُنشد الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه؛ اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من نصب له العداء والبغضاء». فقام رجال فشهدوا، ولم يقم أنس بن مالك وكان حاضراً، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «لِم لم تشهد؟». فقال: كبرت سني ونسيت. فقال له عليه السلام: «إن كنت كاذباً فضربك الله ببيضاء لا تواريها العمامة».

فضربه الله ببرص لازمه حتى موته[1].

وكما رأينا هنا فإن الله جلّ وعلا قد أصاب أنساً بدعوة الإمامعليه السلام عليه؛ وذلك لأنه ادّعى النسيان مع أنه لم يكن ناسياً بل إنه تناسى، وهذا التناسي كان موجباً لوقوع عقوبة دعوة العبد الصالح عليه كما عبّر هو عنها حيث إنه قال لمن سأله عن سبب برصه: دعوة العبد الصالح علي بن أبي طالبعليه السلام نفذت فيَّ[2].

إذن فالتناسي والتغاضي عن الحق وقوله هما اللذان يكونان سبباً مسوّغاً لوقوع عذاب الله سبحانه وتعالى على الناس ممّن يفعلهما، والمتناسي هو الذي يؤاخذ على ما فعل.

وبهذا فإننا نعرف أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿نَسُوا اللهَ﴾: أنهم تناسوا ما أمرهم به، وما نهاهم عنه، كما أنهم تناسوا الجزاء الذي وعدهم به، فعاملوا البارئ جلّ شأنه معاملة الناسي، فكما أن الناسي لا يفعل الطاعة ولا يترك المعصية لنسيانه، فهؤلاء لم يفعلوا الطاعة ولم يتركوا المعصية؛ لا لنسيانٍ، بل لتناسٍ، فأعرضوا عن أوامره وتجاهلوا عقوباته التي وضعها إزاء معصيتهم له في الحياة الآخرة.

الثاني: النسيان المتعلّق به تبارك وتعالى

ومن هذا فإننا نعرف أن النسيان الذي أُسند إلى الله تبارك وتعالى هو أيضاً ليس ذلك النسيان المعروف والمألوف والذي يتبادر إلى أذهاننا؛ لأن الله سبحانه وتعالى كما ذكرنا في صدر هذا المبحث هو عليم حكيم محيط بكل شيء، ولا

---

(١) انظر: المعارف (ابن قتيبة): ٥٨٠، حلية الأولياء ٥: ٢٧، محاضرات الأدباء ١: ٤٩٠، ٢: ٣١٨. ونقل شاذان بن جبرئيل في الروضة: ٢٠٤ ـ ٢٠٧ حديثاً فيه جملة من مناقب أمير المؤمنينعليه السلام برواية أنس هذا، ومنها هذه المنقبة.

(٢) المصدر نفسه.

يخفى عليه شيء في جميع العوالم؛ صغيرها، وكبيرها، وهو جلّ وعلا عنده إحاطة بكل مخلوقاته من أحقرها إلى أخطرها. فإذا كان كذلك جلّ شأنه، فإنه لا يصحّ حينئذٍ أن ننسب إليه النسيان بهذه الكيفية.

وبناء على ما قررناه من نوع نسيان هؤلاء ـ وهو تجاهلهم أمر الله تبارك وتعالى ونهيه ـ فإن الله سبحانه حينما يقرر بأنه قد نسيهم فهو يريد بأنه يتجاهلهم أيضاً لما قدموا من آثام ومعاصٍ، فعاملهم معاملة الناسي. فكما أن الناسي لا يذكر من أحوال الشخص الذي نسيه شيئاً ولا يذكره بشيء من برّه، فكذلك الله تبارك وتعالى لا يذكرهم بشيء من برّه وخيره معاملة منه تعالى شأنه لهم بالمثل؛ لأنهم قد فعلوا معصية أدّت بهم إلى أن ينالوا ذلك المصير الذي صاروا إليه، وهو العقوبة.

إذن فهذا الاستعمال هو من باب ذكر الشيء وقبيله، أي أنهم كما تجاهلوا أوامر الله وعاملوه معاملة الناسي، فإن الله جلّ شأنه قد تجاهلهم أيضاً، أي تركهم وما يعملون، وعاملهم معاملة الناسي دون أن يقيم لهم وزناً، أو دون أن يرى لهم اعتباراً أو خطراً أو ذكراً.

ثمرة في حمل ألفاظ القرآن الكريم على ظواهرها

ومن خلال هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يمكن أن نستفيد شيئاً هو أننا لا يمكن أن نحمل الكثير من الألفاظ القرآنية الشريفة على ظاهرها في كلّ آنٍ وفي كلّ مورد، بل إننا في بعض الأحيان يجب أن نلجأ إلى تأويل تلك الألفاظ بما لا يتنافى مع الثوابت والقواعد العامّة للإسلام، والخطوط العريضة له، ولعقائده الحقّة، ولا لمقرّرات العقل كذلك.

آيات لابدّ من تأويلها

ومن هنا فإننا نقول بأن هناك الكثير من الآيات الكريمة التي يتدخّل العقل وقواعد الشريعة من قبْله فيها من أجل تأويلها بما يوافق العقائد الإسلاميّة. فنحن إنما نلجأ إلى تأويل بعض ألفاظ القرآن الكريم وإلى أن نعدل عن ظاهرها؛ لأننا نريد أن نتخلّص من حتميّة تصادم تلك الظواهر مع الخطوط العامة للإسلام، ومن أن الأخذ بالظاهر ربما يؤدي إلى القول بالتناقض بين بعض الألفاظ القرآنية وبعض مقررات الدين والعقل. وهذا يعني أننا إذا لم نؤوّلها، فإننا سوف ندلف بأنفسنا في هوّة تأخذ بنا إلى الوقوع في كثير من المشاكل التي ربما يكون بعضها عقيدياً، أي أننا نضع أنفسنا في مطباتٍ عقيدية نكون قد ذهبنا وفقها إلى خلاف ما تقتضيه متبنيات العقيدة الإسلامية، ومن هذه الآيات الكريمة نذكر:

الأولى: آية أن له تعالى وجهاً

إننا إذ نقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾[1]، فهل يعني هذا أننا نقول بأن لله تبارك وتعالى وجهاً كباقي الناس؟

والجواب طبعاً: لا؛ لأننا لا يمكن أن نقول بذلك بما أنه أمر يؤدّي إلى التجسيم؛ ولذا فإننا نضطرّ إلى تأويل هذه الآية الكريمة ونقول: إن المراد من الوجه هنا: الذات الإلهي الأقدس، أي ذات الله تعالى. وهذا يعني أن الله جلّ وعلا سيبقى حينما يفنى الناس جميعاً ولا يبقى على الأرض من أحد، فهو سبحانه صاحب الدوام السرمدي الذي لا انقطاع له. أما أن يكون له جلّ شأنه وجه كوجوهنا مثلاً ـ أي بمعنى الجارحة الفانية الزائلة ـ فهذا غير ممكن وغير مقبول؛

---

(١) الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧.

كما أنه لا يلتقي مع عقائدنا الإسلاميّة.

الثانية: آية العرش

يقول تعالى: ﴿**الرَّحْمَن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[1]، والعرش كما هو معروف: الكرسي الذي يشغله الملك أو السلطان حينما يجلس للحكم، فهل يعني هذا أن الخالق جلّ شأنه هو من هذا النوع، أي أنه يجلس في مكان محدود على كرسي محدود ليحكم بين مخلوقاته؟

والجواب أيضاً هو النفي؛ لأن ذلك يؤدّي إلى القول بالتجسيم الذي يتنافى مع صفات الله تبارك وتعالى كلّها. وبناء على هذا فإننا نعمد إلى التأويل وإلى أن نقول به، فنؤوّل الكرسي هنا على أن المقصود به دائرة الأمر والنهي.. فعرش الله جلّ شأنه هو تلك الدائرة التشريعية التي تتضمن الأوامر والنواهي الإلهيّة المقدسة التي صدرت عن المشرع الأقدس لتنظيم هذا الكون الشاسع كلّه، ولإحكام سيطرته جلّ وعلا على الوجود بأسره.

ونحن في استعمالاتنا اليومية لا نخرج عن هذا الإطار من التأويل، فنحن نقول مثلاً: قررت العاصمة مثلاً الشيء الفلاني، أو قضت العاصمة بالأمر الفلاني، أو قررت الحكومة الأمر الكذائي. وهذا لا يعني أن الأمر صادر من العاصمة نفسها مثلاً أو من الحكومة التي هي مجموعة من الكراسي أو العروش التي يشغلها أصحاب الشأن، وإنما يعني أنه صادر من رئيس الدولة الذي يبسط سلطته وسيطرته على كل أرجاء دولته.

إذن فاستواء الله تبارك وتعالى على عرشه هو استواؤه على تلك الدائرة

---

(١) طه: ٥.

المتعلّقة بالأوامر والنواهي الإلهية، وسيطرته عليها، وإحكام قبضته التي تعني إرادته وسلطانه على كل ما في الكون من موجودات، وكذلك يعني وضعه عقوبة ومثوبة إزاء ترك أوامره أو فعلها، وفعل نواهيه أو تركها.

وهكذا فإننا نجد أنفسنا هنا مضطرين إلى أن نؤوّل بعض الآيات القرآنية الكريمة لأننا إن حملنا بعضها على ظاهرها فإن هذا سوف يؤدّي بنا إلى نتائج سلبية غير مقبولة إطلاقاً، وهي نتائج تتنافى مع مقررات العقيدة الإسلامية، وتتصادم مع ضوابطها.

ومن هذا نخلص إلى أن المراد من قوله تعالى في آية المقام الكريمة: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ هو أن الله سبحانه وتعالى سوف يعرض عن العبد الذي يعرض عنه إذا ما أصرّ على ذلك الإعراض ولم تنفع معه موعظة ولا بلاغ ولا بيان، (نسأل الله تعالى ألّا ينسانا من رحمته، اللهم إنا هدنا إليك؛ فلا تحرمنا من عطائك ورحمتك).

إذن فالواقع الذي ينبغي أن نسعى إليه وأن نحصّله هو أنه يجب ألّا نخلق حاجزاً بيننا وبين الله تبارك وتعالى من الذنوب التي تحول بيننا وبين ما أعدّه جلّ شأنه لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون، ويوم لا ظلّ إلّا ظلّه جلّ شأنه، وعلينا ألّا ننسى الله سبحانه وتعالى؛ كيلا نُنسى من رحمته وعطائه، ومغفرته ورضوانه؛ فنهوي في نار جهنّم إلى قعرها بعيداً عن تلك الرحمة التي هي غاية ما يريده العبد يوم الدينونة. بل إن علينا أن نكون دائماً في دائرة ذكر الله تبارك وتعالى وفي موضع عبادته، ولا نغفل عنه حتى لا يكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

إننا نريد منه جلّ شأنه أن يذكرنا ويرحمنا باستمرار؛ لأن انقطاع تلك الرحمة

لحظة من اللحظات يعني حقيقة واحدة هي الخسران المبين للإنسان، وولوج النار التي أعدّ الله سبحانه لعباده العاصين.

فالله جلّ شأنه قد أعطانا العطاء الكافي من لطفه ورحمته، ومنّه وبركته؛ ولذا فإن علينا أن نكون على مستوى شكر ذلك العطاء وردّه قولاً وفعلاً إلى الله تعالى بما يتناسب مع ذاته وقدسه.

المبحث السادس: الإمام الحسين﵇ والذكر

ومن هنا فإننا نجد أن بعض المصادر تطالعنا أن أولياء الله سبحانه وتعالى بل وسيدهم رسولنا الأكرمﷺ كانوا إذا ما نزلت بهم نازلة يقولون: «**اللهم إن كان هذا من سخط منك علينا فاشدد حتى ترضى**»(١).

وهذه السيرة المنيرة والمشرقة التي كان عليها النبي الأكرمﷺ من ملازمته للذكر في كلّ حالة من حالاته؛ سواء في ضرّائه أو في سرّائه كانت موجودة عند خلفائه﵈ الذين ارتضاهم الله تبارك وتعالى لقيادة الأُمة ولزعامة الإسلام دون غيرهم من بعد النبي الأكرمﷺ. ونحن نجد هذا المعنى واضحاً بارزاً بيّناً في كلّ حركة من حركاتهم، وفي كلّ لحظة من لحظاتهم﵈، بل إننا نجد ذلك عندهم حتى في أحلك الحالات وفي أصعب المواقف وأشدّها.

إن المؤرّخين يطالعوننا فيما يروونه لنا عن الإمام الحسين﵇ أنه حينما مرّ على جموع الضحايا من أهل بيته وأصحابه ـ بعد أن تلفّت إلى مخيم أهل بيته فوجده خالياً، وإلى مخيم الأنصار فوجده خالياً أيضاً ـ تمتمت شفتاه بذكر الله بعد

---

(١) دلائل الإمامة: ٧٢ / ١١، مقاتل الطالبيين: ٣١، شجرة طوبى ١: ١٦١ ـ ١٦٢، عن علي ابن الحسن﵇ لما أُدخل الحبس.

أن لم يبقَ معه أحد يواسيه، أو يذبّ دونه ويدفع الموت عنه، فجاء إلى باب الخباء ونادى: «**من يقدّم لي جوادي وأنا ابن أمير المؤمنين؟ من يقدّم لي جوادي وأنا ابن فاطمة الزهراء؟**»[1].

وقد كان من قبلُ حينما ينادي يتسارع إليه العباس عليه السلام، أو علي الأكبر عليه السلام، أو الهاشميون، لكنه عليه السلام الآن وحيد لم يجد من يبادر إليه من أهل بيته، فخرجت إليه أُخته الحوراء زيينب، وهي تقول: أخي لمن تنادي، جرحت فؤادي، وليس في مخيمنا سوى النساء والأطفال؟

وها هو صوت العقيلة عليها السلام التي خرجت إليه بجواده، والتي أبت إلّا أن تقف معه طيلة مسيرته في أشدّ المواقف وأحلكها، بل إلّا أن تقف معه بعد تلك المسيرة بعد أن انتقل شهيداً إلى رضوان الله تبارك وتعالى وإلى دار القدس، والتي داومت على أن تكون الوجه المشرق المشرّف لنهضة سيّد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام وعلى أن تمثل ذلك الوجه، وتعطي صورة مشرقة بيضاء ناصعة عن تلك الحركة المحمدية الخالصة التي أعادت الحقّ إلى نصابه، وأرجعت إلى الدين هيبته ووجوده وكيانه.. خرجت إليه وبيدها عنان الفرس وباليد الأُخرى الشكيمة، وهي تقوده، فأقبلت إليه قائلة: «ما أجلدني! وما أقسى قلبي! أي أُخت تقدّم لأخيها فرس المنيّة؟».

ثم راحت تدعو له عياله ليودّعوه ويتزوّدوا منه قبل أن يلاقي تلك اللحظة الحاسمة:

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا ... بجواده إن الفراق طويلُ

---

(١) شجرة طوبى: ٢٢٩.

فبرزن ربّات الحجال حواسراً   وغدا لها حول الحسين عويلُ

اللهَ ما حال العليل وقد رأى   تلك المدامعَ للوداع تسيلُ

ثم دمعت عيناها، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أما عمتي زينب عليها السلام، فقد اختنقت بعبرتها، فأخذ أبي الحسين عليه السلام منديله وكفكف دموعها»[١].

يقول المؤرخون: ثم قال لها: «أُخيّة تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبقون، وأهل الأرض يموتون ولي، ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله أسوة حسنة. أُخيّة تمسّكي بحبائل الصبر»[٢]. فصاحت: والوعتاه ابن أُمّ، أراك تغتصب نفسك اغتصاباً؟[٣] ثم خرج عليه السلام إلى ساحة القتال.. إلى حيث يلقى ربّه بدمه الذي يستصرخ الأجيال والأحرار منبئاً إياهم عن مظلوميته التي فاقت أن تستوعبها العقول أو المدوّنات، فراحت عيناها عليها السلام تلاحقانه حتى نزل به قضاء الله جلّ وعلا:

أأخيّ من يحمي بنات محمدٍ   إن صرن يسترحمن من لا يرحمُ[٤]

---

(١) الإرشاد ٢: ٩١ ـ ٩٢، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، وقد مرّ مفصّلاً في ج٢ ص٩١ من كتابنا هذا.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٣) مقاتل الطالبيّين: ٧٥.

(٤) شهداء أهل البيت عليهم السلام: ١٠٢.

﴿٢٤﴾

المسؤولية وجوانب تحقيقها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه المحاورة التي تطرحها الآية الكريمة في واقع الأمر جوانب هامّة جدّاً، ومضامين واسعةً ينبغي التطرّق إليها والوقوف عندها، وذلك في كلّ جزء من أجزاء آية المقام الكريمة. وسوف نتناول هذه الجوانب والمضامين كلاًّ في مبحث مستقل إن شاء الله سبحانه وفق ما يقتضيه المقام بكلّ مقطع من مقاطع هذه الآية الكريمة. ولذا فإن الكلام حول مضامين هذه الآية الشريفة سينقسم إلى مباحث عدة نتناولها على الترتيب إن شاء الله تعالى:

---

(١) إبراهيم: ٢١.

المبحث الأول: إشكالية معنى البروز إلى الله

تقول الآية الكريمة: ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً﴾، إن البروز يعني الخروج من الاستتار والاستجنان والاستكنان، أو هو خروج الشيء من ذلك العالم اللّامحسوس واللّا مرئي إلى عالم الحسّ والمشاهدة، بحيث إنه يمكن أن تقع عليه تأثيرات الحواسّ، فينطبع بطابع العالم الماديّ؛ وبالتالي فإنه يصبح من الممكن رؤيته بتأثير جارحة العين، أو سماعه بتأثير الأُذن، أو ما إلى ذلك من موارد الحسّ وجوارحها التي يمتلكها الإنسان.

وهذا المعنى الّذي ذكرناه بطبيعة الأمر لا يصحّ على الله تبارك وتعالى؛ لأنه عزّ وجلّ عالم بالأشياء في كلّ زمان وكلّ مكان، ولا تخفى عليه خافية، ولا يستتر منه شيء. فهو تبارك وتعالى لا يمكن أن يستجنّ منه شيء حتى الذرّات وأجزاؤها في عوالمها، في أي ظرف كانت، وفي أى زمان وقعت، فكلّ شيء تحت سلطانه سبحانه وتعالى وتحت علمه وقدرته.

وعليه فإنه لا يمكن أن يتصوّر أحد أنّ هناك شيئاً يستتر عن الله جلّ شأنه،أو أنه كان مستتراً عنه تبارك وتعالى ثم بان له فرآه، أو وقع تحت موارد قدرته. إن هذا المعنى إنما يمكن أن يتصوّر بحقّ الممكن أو الناقص، أما بحقّ الواجب الوجود أو الكامل الذي يمتلك كلّ صفات الكمال والجلال فلا يمكن أن يتصوّر أبداً.

وبناءً على هذا التقرير فلنا أن نسأل هنا سؤالاً هو: ما المقصود إذن من البروز في آية المقام الكريمة؟

إن الجواب عن هذا السؤال يكمن في ذكر الآراء المطروحة في المقام في بيان ذلك، والتي يمكن إجمالها بما يلي:

الرأي الأول: أن بعض الناس يعتقد أن الله لا يراه حال معصيته

إن المقصود هنا هو أنّ بعض الناس قد يعتقد بأن الله تبارك وتعالى لا يراه؛ ولذا فإنه يفعل المعاصي متخفّياً عن الناس.

ونحن هنا لا نريد أن نقول: إن المسلم يفعل هذا؛ لأن المسلمين يعتقدون جميعاً بأن الله تبارك وتعالى يراهم أينما كانوا، وأنه جلّ شأنه مطّلع على أحوالهم، ويعلم سرّهم وجهرهم وما تخفي صدورهم في كلّ ما يفعلون، لكن بعض أصحاب العقائد الفاسدة يذهبون إلى هذا المذهب، فلا يظنّون أن الله جلّ شأنه محيط بكلّ شيء، وأنه تعالى يرى كلّ مخلوقاته في كلّ زمان وكلّ مكان، فلا تحجبهم عنه حجُب ولا سُتُر ولا ظلمة، ولا عوائق ولا موانع، ولا إلى ما هنالك ممّا يمكن أن يحول دون الرؤية بالنسبة إلى المخلوقات الممكنة أو الناقصة.

إذن فهؤلاء يظنون أنهم إذا ارتكبوا جريمة من الجرائم بعيداً عن الناس فلا يراهم أحد منهم، فإنه ليس هناك من أحد يمكن أن يراهم، أو أن يسجّل عليهم حركاتهم وأفعالهم، أو أن يرصدهم وهم يفعلون ما يفعلون في دنيا الخفاء. فهم يعتقدون اعتقاداً كاملاً أنهم إنما يفعلون ذلك بعيداً حتى عن نظر السماء. ومن هنا فإن آية المقام الكريمة تريد أن توقظ هؤلاء من رقدتهم، وتنبّههم من غفلتهم إلى خطأ معتقدهم هذا، وتقول لهم بأنه ليس هناك من شيء يمكن أن يقع في عالم الوجود وهو بعيد عن نظر السماء وعلمها، أو بعيد عن دراية الله تبارك وتعالى وقدرته.

ومما يروى في المقام أن رجلاً دخل على رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، إني قد ابتليت بالمعاصي ولا أعرف كيف الخلاص منها. فقال له رسول الله ﷺ: «يمكنك أن تفعل هذه المعاصي في حالات». قال: ما هي؟ قال: «إذا

أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فأعصِه فيه».

فقال: يا رسول الله، كيف هذا، وهو مطّلع على ما في السرائر؟ فقال: «يا هذا ! أفيحسن أن تأكلّ رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك وتجعله في حدّ أهون الناظرين إليك؟»[1].

الرأي الثاني: أنه بروز بعد استتار عن مماثليهم

فقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً﴾ يعني أنهم بروزوا من قبورهم التي كانت تسترهم عن الناس من أمثالهم، فهذه القبور كانت تخفيهم عن كلّ من يمكن أن يراهم، فهم في حالة من الاحتجاب عنهم.

---

(١) لم نعثر عليه بهذا النصّ عن رسول الله، لكن ورد في كتب الحديث والأخلاق قريب منه؛ فعن الإمام الصادق: «إن المؤمن إذا لقى أخاه المؤمن... فإذا أقبلا على المساءلة قالت الملائكة بعضهم لبعض: تنحوا عنهما؛ فإن لهما سرّاً، وقد ستر الله عليهما». فقال له إسحاق: جعلت فداك لا يكتب علينا لفظنا، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؟ فتنفس ابن رسول الله الصعداء، ثم بكى حتى خضبت دموعه لحيته، وقال: «يا إسحاق، إن الله تبارك وتعالى إنما نادى الملائكة أن يغيبوا عن المؤمنين إذا التقيا إجلالاً لهما، فإذا كانت الملائكة لا تكتب لفظهما ولا تعرف كلامهما فقد عرفه الحافظ عليهما عالم السر وأخفى. يا إسحاق فخف الله كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك: فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم استترت عن المخلوقين بالمعاصي وبرزت له بها فقد جعلته في حد أهون الناظرين إليك». ثواب الأعمال: ١٤٧، اختيار معرفة الرجال ٢: ٧٠٩ ـ ٧١٠.

وعن إبراهيم بن أدهم أنه جاء إليه رجل، فقال له: يا أبا إسحاق، إني مسرف على نفسي، فأعرض عليّ ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي. قال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرّك معصية ولم توبقك لذّة. قال: هات يا أبا إسحاق... قال: أما الثالثة، فإذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده، فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فأعصه فيه. قال: يا إبراهيم، كيف هذا، وهو مطلع على ما في السرائر؟ قال: أفيحسن أن تأكلّ رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟ كتاب التوابين: ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

فلسفة الدفن في التشريع الإسلامي

إننا نعرف أن عملية الدفن التي شرعها الله تبارك وتعالى لعباده منذ أن قتل قابيل هابيل وعلّمه كيف يواريه في الأرض هي عملية صحية وأدبية وتربويّة يراد من ورائها رعاية أُمور عدّة منها:

الأول: مراعاة حرمة الميّت

ففي دفن الميت صيانة لكرامته عن أن تهتك.

الثاني: صيانة الكائنات الحية الأخرى

فلولا دفن الجثث لكانت البشريّة عرضة للهلاك والأمراض، ولولا هذه القبور التي أُمرنا بدفن الأموات فيها لتحوّلت الدنيا كلّها إلى مأساة؛ حيث إنها سوف تتحوّل إلى بؤرة موت وفناء، وإلى مستنقع من الأمراض الفتاكة التي حتماً سوف تقضي على الحياة في كلّ أماكنها من المعمورة. فهي ستر للإنسان الحي من أن تناله الأمراض التي يمكن أن تسببها الجثث فيما لو بقيت على سطح الأرض دون دفن، فتتعفّن وتصبح مرتعاً للميكروبات، ووسيلة لتمرير الكثير من الأمراض إلى الإنسان الحي الذي يسكن هذه الأرض.

الثالث: مراعاة الجانب النفسي

إننا نعرف أن الإنسان على جبروته، ومع تكبّره فإنه بعد موته فسوف يتحوّل إلى جثّة هامدة، ثم تتفسّخ فتصبح بشعة نتنة ما لم يعالج هذا الأمر بالدفن، ثم بعد ذلك تصبح هيكلاً عظمياً ربّما يكون مخيفاً للبعض. ونحن ندرك أيضاً أن هذه الجثة المتفسخة وهذا الهيكل العظمي كانت في يوم من الأيام لرجل أو امرأة ربما كانا يتّصفان بصفة الجمال والحسن، ومن الممكن أنهما كانا يحملان المحاسن

الجميلة والوجه البضّ والجسم الرائع الذي أصبح الآن عـرضة لديـدان الأرض والبكتيريا التي تهاجمه؛ وبالتالي فإن تلك المحاسن سوف تصبح مصدر إزعاج وقرف للآخرين؛ لأنها حينئذٍ سوف تكون قد تحوّلت إلى جيفة بعد الموت، أو إلى عظام نخرة تشمئزّ منها نفوس البعض.

ومن هنا فإنه يجب أن يدفن الإنسان في قبره حتى لا تفتضح هذه المعالم التي ذكرت آنفاً، وحتى لا يتأذّى غيره به. ومن هنا فإننا نجد الشريف الرضي (تغمّده الله برحمته) يقول في همزيته العصماء:

لهـفي عـلى القوم الأُلى غادرتهم ... وعـليهُمُ طـبق مـن البـيداءِ[1]

فهو ﷺ يقول: إن هذه العيون التي كان صاحبها يحافظ عليها من الأقذاء والألم وما يضرّ بها قد أصبحت والتراب كحلها، أما تلك النظرة الأنيقة فقد ذهبت وولّت بعد أن تمزق الجسم الّذي كان يحتويها، وتبددت أعضاؤه وتقطّعت أوصاله.

نعم إن الوجوه الجميلة سوف تأكلها الحشرات وهوام الأرض:

أعـفر الثرى يـا ألفَ بـرجٍ وكـوكبٍ ... يـضمّ الوجـوهَ الزهـرَ فـضلُ نـقابهِ

وجـوهاً رأى فـيها الجـمال أنـيقة ... وأخـرى الجـلالُ اخـتصّها لمهابِهِ

تـغوّل مـعناها الثـرى غـير آسفٍ ... وعـاث بـمرآهـا الردى غـير آبِـهِ

ونُـجلُ عـيونٍ فـي مـحاسنَ بـضّةٍ ... قسـا الدود فـي تـمزيقها بـحرابِـهِ

من الناس من هو عار لا يخفيه إلّا القبر

ثم إن للقبر فائدة أُخرى هي أن بعض الناس الذين يعيشون في هـذه الدنـيا لا يعدون أن يكونوا عاراً على أهلها وساكنيها، بل على الوجود كله؛ ولذا فـإن هؤلاء بما أنهم عار متجسّد في الأرض على صورة ذئب بثياب إنسان فلا يمكن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ١٧٤ ـ ١٧٥.

التخلّص منه إلّا بقبره ودفنه، وإلّا فإن أي شيء في هذه الدنيا هو في واقع الأمر لا يمكن أن يعدّ نتناً قياساً إلى الإنسان المجرم. ولذا فإن هذا النتن لا يمكن أن يغطيه أو يضيّعه إلّا القبر، ولا يستره إلّا الدفن فيه:

تحنو القبور على الموتى فتسترهم

رجع

فهؤلاء يعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم برزوا لله من هذه الأماكن التي كانت تسترهم وتستر أبدانهم وفضائحهم عن أمثالهم من الناس؛ ولهذا فإننا نجد في القرآن الكريم في آية أُخرى قوله تعالى: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾**(1).

إذن فمعنى: **﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً﴾**: أنهم خروجوا من قبورهم التي كانت تسترهم عن غيرهم؛ ليعرضوا على الله تبارك وتعالى وليقفوا بين يديه بما أنه خالقهم وهو الذي يتولى حسابهم وعقابهم.

الرأي الثالث: أنه البروز بالنوايا

وهذا يعني أنهم سوف ينكشفون في حضرة الذات الأقدس أمام الملأ يوم القيامة بنواياهم وما كانوا يضمرونه في قرارة نفوسهم وفي خفايا صدورهم وخباياها. ومعنى هذا أن الإنسان في الدنيا يستطيع أن يظهر شيئاً للناس ويخفي في نيّته وفي قرارة نفسه شيئاً خلافه.

ازدواجية الهدف وثنائية الغاية عند الإنسان

ومن هذا نخلص إلى نتيجة هي أن كلّ حركة من حركات الإنسان يمكن أن

---

(1) يس: ٥١ ـ ٥٢.

يكون لها هدفان:

الأول: هدف ظاهري يريد أن يعلنه للناس ويظهره لهم؛ ليعتقدوا منه ما يريد هو أن يعتقدوه فيه.

الثاني: هدف باطني، وهو الذي يخفيه في نفسه عنهم، وعادةً ما يكون هذا الهدف لمنفعة يريدها أن تعود عليه أو بشيء آخر من هذا القبيل.

نماذج من الازدواجية في حياتنا

وهنا سوف نتناول بعض الأمثلة العملية على هذه الحالة التي تعيش عند الإنسان وتتملّك تصرّفاته، والتي تترجم الحالة التي هو عليها بشكل صريح وواضح:

الأول: العكوك والمأمون

ومما يروى في هذا المضمار أن العكوك الشاعر ـ وكان من الشعراء المبدعين[1]، ـ كان محسوباً على أبي دلف القائد العباسي المعروف والمشهور، والذي كان ممّن يتشيّع لأمير المؤمنين ولأهل البيت عامّة، وكان من الأبطال الذين تشهد لهم ساحات القتال، وكذلك كان ممّن عرف بالجود والأخلاق السامية، والمكانة الاجتماعية العالية؛ ولذا فإن الشاعر العكوك قد قال فيه عدة قصائد من المدح؛ لما كان عليه من نبل صفات وكرم طباع، ومنها هذه القصيدة التي يخاطبه فيها بقوله:

---

(١) وقد امتدحه الكثير من الكتّاب والعلماء حيث قالوا فيه كلّ خير، ومنهم الذهبي إذ قال فيه: العكوك، فحل الشعراء... قال الجاحظ: كان أحسن خلق الله إنشاداً، ما رأيت مثله بدوياً ولا حضرياً. سير أعلام النبلاء ١٠: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ٤١.

وقال ابن خلّكان: العكوك... الشاعر المشهور، أحد فحول الشعراء المبرزين. ثم نقل قول الجاحظ المارّ في حقّه. وفيات الأعيان ٣: ٣٥٠ ـ ٣٥١ / ٤٦١.

إنـــــما الدنـــيا أبـــو دلف بـــين مـــغزاه ومـــحتضره

فـــــإذا ولى أبـــــو دلف ولت الدنـــــيا عـــلى أثـــره

كـلّ مـن فـي الأرض مـن عـرب بـــين بـــاديه إلى حـــضره

مســــتعير مـــنك مكـــرمة يكـــتسيها يـــوم مـــفتخره

لكن المأمون العباسي لم يرُقه الأمر، وقد أغضبه البيت الأخير منها خصوصاً وأزعجه كثيراً؛ لأن العكوك قد عدّ فيه أبا دلف منْجماً للمكارم والأخلاق الحسنة، حتى إنه ـ المأمون ـ احتفظ له بها، ووقرها في نفسه. ثم مدحه بعد ذلك بقصيدة أُخرى قال فيها:

أنت الذي تـنزل الأيـام مـنزلها وتنقل الدهر مـن حـال إلى حـالِ

وما مددت مدى طرف إلى أحـد إلّا قـضيت بـأرزاق وآجـالِ

وهذه الأبيات وإن كان من الممكن توجيهها توجيهاً مقبولاً ـ وهو أنه حينما يغضب فإنه يحوّل الحياة إلى جحيم، وإن ابتسم حوّلها إلى نعيم، فهو يحكم بها من هذه الجنبة؛ فتارة ينظر نظرة غضب فتقضي على عدوّه وتقتله، وأُخرى ينظر نظرة رضا لمن يحبّه فتحييه وتكرمه ـ إلّا إن ظاهرها أنها أوصاف لا يمكن أن يوصف بها سوى الله تبارك وتعالى، ولا يمكن أن تعطى أو تمنح لغيره. وهذا المعنى قد استغلّه المأمون ضد العكوك، فأمر أزلامه بأن يطلبوه، فحمل مقيداً إليه، فلما أحضروه بين يديه قال له: يابن اللخناء، أنت القائل في أبي دلف:

إنـــــما الدنـــيا أبـــو دلف بـــين مـــغزاه ومـــحتضره

إلى آخر الأبيات؟ جعلتنا ممّن يستعير منه المكارم؟ قال: يا أمير المؤمنين، ، ،أنتم أهل بيت لا يقاس بكم. قال: يا عدوّ الله والله ما أبقيت أحداً، وإنما أستحلّ دمك بكفرك؛ حيث تقول:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حالِ

وما مددت مدى طرف إلى أحد ... إلّا قضيت بأرزاق وآجالِ

ذاك هو الله، أخرِجوا لسانه من قفاه. ففعلوا به ذلك، فمات كهلاً، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة ومئتين[1].

ولو أردنا أن ندقّق في الدافع الذي دفع المأمون إلى أن يستلّ لسانه، فإننا نجد أنه ليس الغيرة على الله سبحانه وتعالى، أو أنه قد أزعجه بأنه قد منح صفاتٍ هي لله تعالى لأبي دلف، بل إنه كان له دافع آخر تستّر به غير أنه ظهر على لسانه حيث خاطب العكوك بقوله: أنت القائل في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مغزاه ومحتضره

إلى آخره؟ بدليل قوله له بعدُ: جعلتنا ممّن يستعير منه المكارم؟ فهو هنا أظهر هدفاً هو الغيرة على الله سبحانه وتعالى، وأخفى هدفاً مضاداً له بعيداً عنه هو غيرته من أبي دلف، وتألّمه من مدح العكوك إياه دونه هو.

الثاني: معاوية والمطالبة بدم عثمان

وهذا ما سنتطرّق له مفصّلاً إن شاء الله تعالى عند الحديث عن اللوم المختصّ بالمتبوعين من المبحث الآتي.

الثالث: مثال من واقعنا المعاصر

ينقل بعضهم أنه كان في يوم من الأيام في موقف للسيارات ينتظر حافلة تقلّه إلى مكان سكناه، وكان يوماً مزدحماً والمكان غاصّ بالناس، وفجأة توقّفت

(١) الكنى والألقاب ٢: ٤٧٦، تاريخ الإسلام ١٥: ٣٠٧، سير أعلام النبلاء ١٠: ١٩٢ ـ ١٩٣ / ٤١، وفيات الأعيان ٣: ٣٥٠ ـ ٣٥١ / ٤٦١، الوافي بالوفيات ٢٠: ١٧٣.

أمامه حافلة صغيرة طلب منه قائدها أن يصعد ليقلّه ويوصله إلى بيته، وبعد أن أوصله إلى باب بيته، شكره الرجل وقال له: لقد أوصلتني إلى باب بيتي مع أنه بعيد عن الشارع أو الموقف الذي كان من المفترض أن تنزلني فيه، فشكر الله سعيك وجزاك الله خيراً.

فقال له قائد السيارة: أنا لم أدعك لأن أُوصلك إلى بيتك لأَجل مساعدتك، بل لتعلم أنه لم يكن ذلك إلّا لأجل أن أعرف مكان سكناك؛ لأن لي حساباً معك وأُريد تصفيته في الأيام القادمة.

إذن فالكثير من الناس غالباً ما يستتر بفعل من الأفعال لدافع يخفيه في نفسه، وهذا الدافع بطبيعة الحال يكون غير ذلك الفعل الذي أراد أن يظهره للناس، أو يريهم إياه.

وهاتان القصتان وأمثالهما تبرزان لنا أن هناك دوافع وخفايا وراء الأفعال التي يمكن أن يقوم بها الناس، وأن تلك الدوافع والأهداف هي غير ذلك الأمر الذي يمكن أن يراد من ذلك الفعل الذي يفعله أمام الناس، فهذا السائق مثلاً بدلاً أن يجعل هدفه من فعله هذا هو طلب الأجر الدنيوي كما هو الشأن والعادة عند من يعمل في هذا المجال، فإنه إنما يعمل لأَجل أن يكسب قوته، نجد أنه كان يخفي هدفاً ودافعاً في قرارة نفسه غير هذا، وهو معرفة محلّ هذا الرجل ومكان بيته؛ لتصفية حساب قديم له معه.

رجع

وهكذا فإن هذه الآية الكريمة تريد أن تنبّه هؤلاء الناس وأن توعز إليهم بأنهم إذا كانوا في هذه الدنيا يتوفّرون على أهداف خفيّة بعيدة كلّ البعد عن ظاهر

أعمالهم التي يعملونها أمام الناس فسوف يأتون يوم القيامة وهم مكشوف عنهم سترهم وحجبهم، فتُعرف نواياهم، وتُفضح خباياهم وخفاياهم. فهي تخاطبهم بالقول: إنكم إذا كنتم قد ألبستم أعمالكم في الدنيا ثوباً من الرياء أو الدين، أو من الأهداف الأُخرى، في حين أن واقعكم غير هذا ـ ذلك أن البعض نراه يزداد حماساً إزاء بعض الموارد بحجّة أن الآخرين قد لاموا مشاعره الدينية مما حدا بهم إلى أن يجعلهم يصوّرونه على أنه مشرك نتيجة ذلك، في حين أن الواقع الذي هو عليه غير هذا ـ فإن هذه النوايا في يوم القيامة سوف تعرّى أمام خالقها وبارئها، وسوف يفضح صاحبها حيث تبرز نياته وأهدافه الحقيقية التي كان يخفيها بثوب من الرياء في عالم العمل وعالم الدنيا.

فما إن يحشر المرء بين يدي ربّه عزّ وجلّ حتى تفتح صحائف أعماله، وينشر كتابه أمامه جلّ شأنه؛ لأنه تبارك وتعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه شيء ولو مثقال ذرّة في الأرض والسماء: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1].

المبحث الثاني: حوار بين التابع والمتبوع

فالمراد من ﴿وَبَرَزُوا لله جَمِيعاً﴾ إذن: الذين حاولوا أن يتستّروا بأعمالهم في الدنيا بعيداً عن أعين الناس. وهؤلاء يراد بهم: التابع والمتبوع، ومعنى هذا أن كلّ الدنيا على امتداد تاريخها ومسيرتها ينقسم أهلها إلى هذين القسمين:

فالمتبوع إما أن يكون حاكماً، أو شخصاً ذا نفوذ فكري أو ديني؛ فهؤلاء هم سلاطين الدنيا، أو سلاطين الدين، وهم الأنبياء والأوصياء﵈ من قبلهم،

---

(١) ق: ١٦.

والعلماء والفقهاء.

أما التابع فهو القسم الباقي من الناس من غير ذوي السلطان الفكري أو المادي، وهؤلاء هم القسم الأكبر والحظّ الأوفر منهم.

وهذا ما تنصّ عليه الآية الكريمة التي تقرّر أن التابع والمتبوع كليهما سوف يحشران أمام الله تبارك وتعالى.

وبعد أن عرفنا هنا أن أهل الدنيا لا يعدون أن يكونوا تابعين أو متبوعين؛ ذلك أن القسمة حاصرة، نجد أن هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يشير إلى وقوع هذا الحوار بين التابع والمتبوع يوم القيامة بعد أن يكون المتبوع الذي لم يحكم بما أنزل الله، والذي هو سلطان دنيا عادة، أو سلطان دين لكنه لا يرعى الله تبارك وتعالى في حالاته، ولا يتّصف بالورع له قد غرّر بالتابع وأورده موارد الهلاك. تقول الآية الكريمة: **﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾**.

والقرآن الكريم في هذا المقطع الشريف يوقع اللوم على التابع والمتبوع كليهما، وهذا ما سنتناوله في هذا البيان إن شاء الله:

القسم الأول: اللوم المختصّ بالمتبوعين

فالقرآن الكريم يلوم المتبوع بناء على أنه قد غرّر بالناس، أي بالقاعدة الشعبية العريضة والكبيرة. ونحن نعلم أنّ هذه القاعدة العريضة عادة تكون ذات وعي قليل ومحدود، سيّما في العصور الماضية التي يتبع فيها الناس دين ملوكهم على عمى، فهم عادة يدينون بما يدين به الملوك.. إنها طبقة تكاد تكون عديمة الثقافة والوعي، فليس كلّ شخص منها ـ سيما في تلك العصور الماضية ـ يملك حصيلة

من المعارف أو العلوم أو التجارب، أو أنه يتوفر على إمكانيات علمية أو غيرها تمكّنه من أن يتخلّص بها من الأُطر المحيطة به، وأن يتحرّر بفكره وتفكيره من تأثيرها، فيصبح ذا عقلية استنباطية أو استقرائية مستقلّة يمكنه بها أن يشقّ طريقه في هذه الحياة بعيداً عن تأثير غيرها من أفراد تلك القاعدة.

إذن هذه القاعدة تميل مع كلّ ريح، وتتّجه دائماً مع الجانب الأقوى، وهي تتبع الملوك في دينها وتفكيرها. والرجل الذي يضع نفسه في هذه المسؤولية القيادية؛ سواء كانت مسؤولية سياسية، أو دينية، أو اجتماعية، فإن عليه أن يستوعب أمراً هو أنه يجب أن يعرف أن وارءه مساءلة كبيرة أمام الله تبارك وتعالى؛ لأنه جلّ شأنه سوف يضعه أمامه للحساب؛ بناء على تلك المسؤولية المناطة به، أو التي أناطها هو بنفسه، بناء على أخذها بغير حقّ، والتي أدخل فيها نفسه، فأصبح بها ذا شأن يتبعه الناس فيما يقول وما يفعل، وفيما يتّجه إليه.

وهذه المسؤولية التي يضعها هذا الإنسان المتصدّي لأُمور السياسة والقيادة إساراً حول نفسه، سوف تكون سبباً في أن الله تبارك وتعالى سيحاكمه غداً، ويسأله أن يضع جواباً شافياً، وبياناً واضحاً لما إذا كان فعل تلك الأفعال لأجل أن يفي بهذه المسؤولية ولأجل إيمانه بها ومن موقع التزامه بما يترتّب عليها فيها تجاه غيره، أم إنه كان يختبئ وراء مصالحه وأهدافه التي تحقّق له منافعه الشخصية والفردية.

معاوية وعمرو بن العاص

ولتقريب المعنى نذكر أنه في يوم من الأيام كان عمرو بن العاص عند معاوية لأمر ما، فأعرض عنه معاوية، فالذي يبدو أن هناك بروداً يحكم العلاقة بينهما

حينها. وكان معاوية قد قال له: يا أبا عبد الله، إني أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله سبحانه وتعالى، وشقّ عصا المسلمين، وقتل الخليفة، وأظهر الفتنة، وفرق الجماعة، وقطع الرحم. فقال له عمرو: من هو؟ قال: علي. قال: والله يا معاوية، ما أنت وعلي بحملي بعير؛ ليس لك هجرته، ولا سابقته، ولا صحبته، ولا جهاده، ولا فقهه، ولا علمه. ووالله إن له مع ذلك لحظّاً في الحرب ليس لأحد غيره. ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاء جميلاً، فما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم ما فيه من الغرر والخطر؟ فقال معاوية: حكمك. فقال: مصر طعمة.

فتلكّأ عليه معاوية وقال له: يا أبا عبد الله، إني أكره لك أن تتحدّث العرب عنك أنك إنما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا. قال عمرو: دعني عنك[1]. فقال معاوية: إني لو شئت أن أُمنيك وأخدعك لفعلت. قال عمرو: لا، لعمر الله ما مثلي يخدع، لأنّا أكيس من ذلك.

فهو يقول له عليك ألّا تظن بأننا عندما قاتلنا معك علي بن أبي طالب صاحب

---

(١) قال ابن أبي الحديد: قال شيخنا أبو القاسم البلخي (رحمه الله تعالى): قول عمرو له: دعني عنك، كناية عن الإلحاد، بل تصريح به، أي دع هذا الكلام، لا أصل له؛ فإن اعتقاد الآخرة أنها لا تباع بعرض الدنيا من الخرافات. وقال (رحمه الله تعالى): وما زال عمرو بن العاص ملحداً، ما تردّد قط في الإلحاد والزندقة، وكان معاوية مثله، ويكفي من تلاعبهما بالإسلام حديث السرار المروي، وأن معاوية عضّ أذن عمرو، أين هذا من سيرة عمرو؟ وأين هذا من أخلاق علي عليه السلام وشدّته في ذات الله؟ وهما مع ذلك يعيبانه بالدعابة؟ شرح نهج البلاغة ٢: ٦٥.

ويريد بحديث السرار أن معاوية حينما قال لعمرو: إني لو شئت أن أمنيك وأخدعك لفعلت. فقال عمرو: لا، لعمر الله ما مثلي يخدع، لأنّا أكيس من ذلك. قال له معاوية: ادنُ مني أُسارّك. فدنا منه عمرو ليساره، فعض معاوية أذنه وقال: هذه خدعة، هل ترى في البيت أحداً ليس غيري وغيرك؟ المصدر نفسه.

الإسلام والقدم والجهاد والمواقف الجليلة في سبيل الله مطالبين بدم عثمان أننا ننطلق من واقع، كما عليك ألّا تظن بأننا قد نسينا من هو علي بن أبي طالب. ثم لخّص له الموقف مبيناً له إنما تبعوه للدرهم والدينار. وفعلاً فإن الرجل كان على مقدار كبير جداً من الصراحة مع نفسه وغيره، ولذا فإننا نجده هنا يخاطب معاوية بقوله:

معاويَ لا أُعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنعُ

فإن تعطِني مصراً فأرِبح بصفقة ... أخذت بها شيخاً يضرّ وينفعُ

وما الدين والدنيا سواء وإنني ... لآخذ ما تعطي ورأسي مقنّعُ

ولكنني أُغضي الجفون وإنني ... لأخدع نفسي والمخادع يُخدعُ

أتمنعني مصراً وليست برغبة ... وإني بذا الممنوع قدماً لمولعُ

فقال له معاوية: يا أبا عبد الله، أما تعلم أن مصر مثل العراق؟ قال: بلى، ولكنها إنما تكون لي إذا كانت لك، وإنما تكون لك إذا غلبت علياً على العراق. فقال: عتبة بن أبي سفيان لمعاوية: أما ترضى أن تشتري عمراً بمصر إن هي صفت لك؟ فأعطاه مصر[1].

ويعلّق الدكتور زكي نجيب على خلفية هذه الحادثة بقوله: إنّ علياً ﷺ ومعاوية وعمرو بن العاص كلهم جزء من تراثنا، غير أن علي بن أبي طالب إنما كان يصدر من القرآن بما في القرآن من توجيهات وفضائل، ومعاوية يصدر عن أهدافه بما عنده من أهداف ومنافع شخصية، وكذلك عمرو بن العاص أيضاً. فهذان في واقع الأمر لم يكونا يدعوان الناس بحقٍّ للطلب بدم عثمان؛ فمعاوية مثلاً لم يكن بعيداً

---

(١) انظر: تاريخ اليعقوبي ٢: ١٨٦، كتاب الفتوح ٧: ١٣٦، أنساب الأشراف: ٢٨٨، شرح نهج البلاغة ٢: ٦٦، وفيات الأعيان ٧: ٢١٥، وقعة صفين: ٣٩.

عن عثمان حينما حصلت تلك الأزمة في المدينة، والتي راح ضحيّتها عثمان بن عفان، بل إنه كان في الجرف (معسكر المدينة)، وكان معه جيش كبير من أهل الشام.

والجرف لا يبعد عن المدينة أكثر من نصف ساعة، وعليه فإن من الممكن لمعاوية أن يصل إلى عثمان ويخلّصه من تلك الأزمة التي كان يمرّ بها، والتي عصفت بعاصمة الخلافة ضدّه، وأدت إلى انهيار حكمه ومقتله. لكن الواقع والتاريخ يحدثاننا عن أنه قتل بعد ذلك؛ لأن معاوية هذا لم ينجده ولم يتحرك لإسعافه البتة، بل إنه تركه ليلاقي المصير الّذي صار إليه، ثم بعد ذلك تحرّك بجيشه، ورفع قميصه، وراح ينادي: يا لثارات عثمان.

وهذا الأمر بعينه حصل من السيدة عائشة زوجة النبي الأكرمﷺ؛ فقد لقيها قوم وهي في الطريق راجعةً من الحج، وكان فيهم رجل من أخوالها من أبي ليث، فسألتهم: ماذا صنع عثمان؟ فقالوا لها: قتل. قالت: أراح الله منه، ومن تولّى الخلافة من بعده؟ فقالوا لها: علي بن أبي طالب. قالت: ويلاه، ها أنا خارجة للطلب بدم عثمان. فقال لها ذلك الرجل الذي هو من أخوالها:

فمنكِ البداءُ ومِنكِ الغيرْ ومنكِ الرياحُ ومِنكِ المَطرْ

وأنتِ أمرتِ بِقَتلِ الإمامِ وقلتِ لنا إنَّه قد كفرْ

فهَبنا أطَعناكِ في قَتلهِ وقاتِلُه عندَنا مَنْ أمَرْ

وقد بايعَ النّاسُ ذا تدرَإ يزيل الشبا ويقيم الصعَرْ

ويلبسُ للحربِ أثوابَها وما من وفى مثلُ من قد غدرْ[1]

---

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦، الإمامة والسياسة ١: ٥١.

فهذا التستّر الذي كان يدّعيه معاوية ـ وهو الطلب بدم الخليفة ـ كان هدفاً ظاهرياً ووسيلة لغاية أبعد؛ لأن الهدف الحقيقي الكامن وراء ذلك التحرّك هو أن يستولي على الخلافة لنفسه، وأن يخرجها من أهلها. فما كان هدفه المطالبة بدم عثمان البتّة، ولو كان هذا هو هدفه الحقيقي لما توانى عن نصرته مع أنه كان يستطيع أن يصل إليه وأن ينصره.

إذن فالهدف الحقيقي لمعاوية هو أن يُقتل الخليفة الثالث، ثم يخرج مطالباً بدمه لا لأجل دمه، بل لأجل أن يصل هو إلى كرسي الحكم وسدّة الخلافة؛ ولذا فإننا نجد أنه قد اتّخذ قميص عثمان وسيلة، ودمه مسلكاً يسلكه للوصول إلى تحقيق هدفه، وهو الاستيلاء على الخلافة الشرعية.

القسم الثاني: اللوم المختصّ بالتابعين

وهؤلاء إنما يلامون من جهة أنهم يتبعون ملوكهم وكبراءهم على العمى دون أي تفكير، ودون أي تروٍّ منهم، أو تمهّل أو تريّث. فهؤلاء يسلكون سبل ملوكهم من غير تفكير، وبلا أدنى مساءلة حتى وإن كان كبراؤهم وملوكهم على الغلط والعمى. مع أن المفروض بهؤلاء هو أن يسألوا إن لم يكونوا يعرفون الحقيقة؛ كي تتّضح لهم سبل الحياة ومسالك الدنيا؛ وبالتالي فإنهم يسيرون على هدى، لا أن يظلوا صمّاً عمياً حبيسي ظاهرة «الإمّعة» دون أن يسألوا، ودون أن يتعرّفوا تلك المسالك التي يسلكونها، وبالتالي فإنهم سوف يمشون في طرق موحلة مظلمة حالكة. فمن لا يعرف عليه أن يتوجّه بالسؤال لأهل العلم؛ ذلك أن الدنيا لا تخلو من أهل علم وأهل دين وأهل سياسة ناصحين مؤتمنين في مشورتهم.

موارد لوم التابع والمتبوع

وهنا جنبتان هامّتان تشكّلان المورد الرئيس لأن يكون كلٌّ من التابع والمتبوع

موضع لوم عليهما، هما:

الجنبة الأولى: الاتّباع على عمى

إن بوسع كل إنسان يريد أن يلج أي تحرّك أن يسأل عن هذا التحرّك الذي هو بصدد الولوج فيه، هل هو تحرك سليم، وسوف يقوده إلى الطريق الصحيح، أو إنه ليس كذلك؟ ونحن لا نعني بالتحرّك هنا التحرك الاجتماعي أو السياسي، بل إننا نوسعه ليشمل حتى التحرّك الديني؛ فعلى الإنسان أن يسأل عن دينه ومذهبه الذي يتعبد الله به: هل هما صحيحان؟ وهل هما طريقان موصلان إلى الله جلّ وعلا؛ ليكون ذلك حجّة له يوم القيامة فيما لو تعرض للمساءلة؟ أما لو لم يكن الأمر كذلك فإنه حينئذٍ سوف يعرض نفسه لتلك المساءلة وذلك الحساب الذي ينتظره يوم القيامة.

فهؤلاء إنما يخضعون للمساءلة يوم الدينونة؛ لأنهم إمّعة يتّبعون ملكوهم وقادتهم دون أن يكون لهم أدنى تفكير، أو أدنى معرفة، أو حتى مساهمة ولو يسيرة في تحليل المواقف التي هم بصدد سلوكها، والولوج فيها لمعرفة صحيحها من سقيمها.

وهكذا فإن على هؤلاء ألّا يكونوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1]؛ فإن الله جلّ شأنه قد وضع لنا مقاييس تميّز لنا بين الحق والباطل، وهي المقاييس الواقعية التي توصلنا إلى الحقيقة، أو توصل طالب الحقيقة وسالك سبلها إليها. وعليه فإن على الجميع أن يتبع مقاييس الله تبارك وتعالى، وليس مقاييس غيره؛ كي يتمكّن من أن يصل

(١) الأعراف: ١٧٩.

إلى الحق، وأن يصل إلى مظان الحقيقة.

اعرف الرجال بالحقّ

ومن هنا فإنه ينبغي علينا أن نتأمّل كلمة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حيث يقول: «**اعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال**»[1]. فالحقّ هو الميزان الوحيد الذي يعرفنا فيما إذا كان الرجل على الطريق الصحيح وأنه رجل صالح، أو أنه على الطريق غير الصحيح وأنه رجل طالح.

إننا لا ننكر أن تحقيق هذا الأمر هو مسألة صعبة جداً؛ ذلك أن كلّ إنسان يولد في محيط ذي اتّجاه معين؛ له قوانينه وقواعده، وموروثاته الاجتماعية، وما إلى ذلك من خلفيات فكرية أو دينية أو عقيدية لا يمكن التخلّي عنها بسهولة أبداً. لكن ينبغي على كلّ إنسان في أي مجتمع كان لا أقلّ من أن يتأمّل في الوضع الذي هو عليه؛ سواء كان وضعاً سياسياً أو دينياً أو عقيدياً أو فقهياً أو اجتماعياً أو ما إلى ذلك من الأوضاع التي يمكن أن تشترك في تكوين شخصيّته، وترتبط ارتباطاً وثيقاً ببنائها وبناء مرتكزاته الفكرية كافة. فعليه إذن أن يتأمّل هل إن مثل هذه الأفكار، أو القواعد العقلية، أو القواعد السياسية، أو العقيدية هي أفكار صحيحة تتناغم مع ميزان العقل وميزان الحقّ تبارك وتعالى، أو إنها غير ذلك؟ وهل هو سائر في الاتجاه الصحيح الذي رسمه الله جلّ شأنه، والذي يريد منا أن نسير عليه، أم إنه لا يسير في هذا الاتّجاه؟

الجاهل صنفان قاصر ومقصر

وهنا لابدّ أن نشير إلى أن الإنسان تارة يكون جاهل قاصراً، وتارة أُخرى

---

(١) لم نعثر عليه عنه ﷺ، بل إنه يروى عن أهل الحقائق والعرفان.

يكون فيها جاهلاً مقصّراً:

فالجاهل القاصر هو ذلك الإنسان الذي يولد في ظروف نفسية أو صحيّة أو تركيبية خاصّة لا يتمكّن معها أن يعي أو يستوعب كلّ ما يقال له أو أمامه؛ ولذا فإنه عندما يسمع شيئاً لا يمكن له أن يشخّصه أو يفهم خباياه، أو أن يحصل على المراد منه. كما أنه لا يستطيع التوصّل إلى ما إذا كان القول حقّاً أو باطلاً، أو صحيحاً أو خطلاً. فمثل هذا لا يمكن أن يخضع لقانون حساب الله تعالى وعقابه، بل إنه جلّ شأنه سوف يعذره.

أما الجاهل المقصّر، فهو الذي يستطيع أن يعي ما يقال له، كما أنه يستطيع أن يصل إلى أهل العلم، ويميز بين الحق والباطل، ويتمكّن من أن يسأل أصحاب الشأن كلّاً في مجال اختصاصه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١] بناءً على أن الدنيا لا تخلو من أهل المعرفة ومن أهل العلم، ومن الأخيار الذين يقدمون ما يعرفون لغيرهم زكاة لهم، فهؤلاء هم الصادقون والأبرار الذين يجب أن يتوجّه الإنسان إليهم لسؤالهم عما يحتاج إليه ممّا ينظّم له حياته سيما في أُمور الدين والمذهب والعقيدة؛ سواء كانت عقيدة دينية، أو عقيدة سياسية، أو عقيدة اجتماعية.

وهذ الإنسان سوف يخضعه الله جلّ شأنه للمحاسبة والمساءلة؛ لأنه حينما يمتلك الوعي والقابلية على الفهم وعلى التمييز، ثم لا يعدم من يسأله عن موارد ابتلائه، ولا يعدم كتاباً يقرؤه؛ لأن الدنيا ملأى بالمكتبات ووسائل الإيضاح العلمية، وبموارد أُسس العلوم الحديثة والقديمة كلّها، فإنه يكون حينئذٍ مطالباً بالبحث والتنقيب عن الحقيقة.

---

(١) النحل: ٤٣.

وبناء على هذا فإن على من يمتلك ذلك الوعي وتلك الرؤية الواضحة أن يسأل حتى يصل إلى الحقيقة ولو بشكل نسبي.

إذن فالإنسان الذي يتمكن من أن يفهم ما يدور حوله لا يمكن أن يُعذر بحال من الأحوال فيما لو ترك السؤال وراح يتخبّط في جهله وعماه وضلاله؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أمره بأن يسأل أهل العلم والمعرفة كما في الآية الشريفة السابقة، أي أن الإنسان لا يمكن أن يعذر على جهله إن كان مقصراً.

وعليه فإن هذا الإنسان غداً (في يوم القيامة) سوف يسأله الله عن الموجبات التي أدّت به إلى عدم السؤال، وسوف يسأله عن تفريطه في تلك القابليات التي منحه إياها والتي أودعها فيه؛ لكي يتعلّم وينتفع وينفع غيره. وربّما يكون أول سؤال يُسأله هذا الإنسان يوم القيامة هو: لماذا لم ترقَ بنفسك إلى مصافّ العلماء مع أنك تمتلك القدرة على ذلك، وتركتها تسوم مع الهمج الرعاع الذين يميلون مع كلّ ريح وينعقون مع كلّ ناعق؟

وأنا أُؤكد أن هناك نوعاً من الناس هم فعلاً من هذا اللون الذي ذكرناه، وهو اللون الذي يفرّط بالقدرات والقابليات والإمكانيات التي أودعها الله تبارك وتعالى فيه دون أن يستغلّها ويستخدمها لصالحه ولصالح المجتمع الذي يعيش فيه.

هذا مع أن على الإنسان هذا أن يعرف وأن يتوجه إلى أن الله تبارك وتعالى قد جعله سيد المخلوقات وأشرف الموجودات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]. وبناء على هذا فإن على الإنسان أن يكرم عقله عن أن يغرقه في بحر الخرافات

---

(١) الإسراء: ٧٠.

وفي عالم الأوهام والجهالة والضلالة، وعن أن يغمسه فيما لا يـريد الله تـبارك وتعالى ولا يرضيه من المعاصي وطرق المهالك وسبل الغواية.

إن الإنسان ينبغي عليه أن يعرف كذلك أنه غداً سوف يتعرض إلى المسـاءلة أمام الله تبارك وتعالى، وأن هناك أشياء بعينها سوف يسأل عنها في ذلك اليـوم الموعود، وسوف يخضع إلى استجواب شديد وعسير فيها[١]، وعليه فـإن الذي ينبغي بكلّ إنسان هو أن يطلع على هذه الأشياء التي سوف يخضع غداً للمساءلة والاستجواب حولها، وأن يعرفها وأن يتعلمها؛ كي يربح ذلك الامـتحان، وكـي يتجاز ذلك الاختبار أمام ملك الملوك وهو الله تبارك وتعالى. ثم عليه أن يعرف كذلك أنه لا يمكن أن يطلع على هذه الأشياء ولا أن يتعرف عليها إلّا إذا كـان سائراً على هدي كتاب الله تعالى وعلى نهج رسوله وسنته وسـنّة أهـل بـيته عليهم السلام وهديهم وطريقهم. وهذا هو الخط الوحيد المنجي الذي يجب على الإنسـان أن يسلكه وأن يسير عليه[٢].

---

(١) قال جل من قائل: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ الحج: ٢.

(٢) كما في حديث الثقلين الآتي، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم أتىٰ أهل السماء مايكرهون، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي أتىٰ أهل الأرض مايكرهون». فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحـمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المعجم الكـبير ٧: ٢٢ ـ ٢٣، نـوادر الأُصـول (الحكيم الترمذي) ٣: ٦٦،٦٣ / الأصل: ٢٢٢، ينابيع المودّة ١: ٧٢ / ٤.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «علي باب حطة، من دخل منه كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً». الجامع الصغير ٢: ٥٥٩٢/١٧٧.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض». المعجم الأوسط ٥: ١٣٥، المعجم الصغير ١: ٢٥٥، الجامع الصغير ٢: ٥٥٩٤/١٧٧.

إلى غيرها مما يعيا كتاب عن عدّه وحصره.

الثانية: دعوة المتبوع إلى الباطل وإضلاله

ومما يلام عليه أيضاً كلّ من التابع والمتبوع، ويتعرضان لأجله إلى المساءلة والمحاسبة والمحاكمة بين يدي ملك الملوك يوم القيامة هو أن المتبوع يلام ويعاقب على دعوة باطل أطلقها في الدنيا أراد أن يُضلّ الآخرين بها، وأن يعمي أبصارهم عن معرفة الله سبحانه وتعالى، ويحجب عقولهم عن أن تتجاوب مع معطيات الحقّ، وأن تحلّل الوقائع لتخرج منها بنتيجة واقعية هي نتيجة حقّ توصل إلى معرفة الحقّ، وهو الله تبارك وتعالى.

أمّا التابع فيلام أيضاً لأنه قد اتبع ذلك المتبوع الداعي إلى الباطل نتيجة عماه، ونتيجة تخبّطه وعدم تفكّره، ونتيجة عدم محاولته إلى أن يصل إلى الحقيقة باستخدام العقل وقوانينه، والاستضاءة بالإرشادات الإلهية التي أوصلها إلى الناس عبر الأنبياء﴿عليهم السلام﴾ والكتب السماوية المقدسة، والاستعانة بأهل الذكر والمعرفة.

ولتقريب المعنى نروي هذه الرواية، قول علقمة: قلت للإمام صادق﴿عليه السلام﴾: يابن رسول الله إن الناس ينسبوننا إلى عظائم الأُمور، وقد ضاقت بذلك صدورنا. فقال﴿عليه السلام﴾: «**يا علقمة، إن رضا الناس لا يملك، وألسنتهم لا تضبط، فكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحججه﴿عليهم السلام﴾؟**

ألم ينسبوا يوسف﴿عليه السلام﴾ إلى أنه همّ بالزنا؟

ألم ينسبوا أيوب﴿عليه السلام﴾ إلى أنه ابتُلي بذنوبه؟

ألم ينسبوا داود﴿عليه السلام﴾ إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة أوريا فهواها، وأنه قدّم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها؟

ألم ينسبوا موسى﴿عليه السلام﴾ إلى أنه عنّين وآذوه حتى برّأه الله مما قالوا، وكان عند الله

وجيهاً؟

ألم ينسبوا جميع أنبياء الله إلى أنهم سحرة وطلبة الدنيا؟

ألم ينسبوا مريم بنت عمران عليها السلام إلى أنها حملت بعيسى من رجل نجّار اسمه يوسف؟

ألم ينسبوا نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى أنه شاعر مجنون؟ ألم ينسبوه إلى أنه هوى امرأة زيد بن حارثة، فلم يزل بها حتى استخلصها لنفسه؟ ألم ينسبوه يوم بدر إلى أنه أخذ لنفسه من المغنم قطيفة حمراء حتى أظهره الله عزّ وجلّ على القطيفة، وبرّأ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من الخيانة، وأنزل بذلك في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1]؟ ألم ينسبوه إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم ينطق عن الهوى في ابن عمه علي عليه السلام حتى كذبهم الله عزّ وجلّ، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]؟ ألم ينسبوه إلى الكذب في قوله: إنه رسول من الله إليهم، حتى أنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[3]؟ ولقد قال يوماً: عرج بي البارحة إلى السماء. فقيل: والله ما فارق فراشه طول ليلته.

وما قالوا في الأوصياء عليهم السلام أكثر من ذلك؛ ألم ينسبوا سيّد الأوصياء عليه السلام إلى أنه كان يطلب الدنيا والملك، وأنه كان يؤثر الفتنة على السكون، وأنه يسفك دماء المسلمين بغير حلّها، وأنه لو كان فيه خير ما أمر خالد بن الوليد بضرب عنقه؟ ألم ينسبوه إلى أنه عليه السلام أراد أن يتزوّج ابنة أبي جهل على فاطمة عليها السلام، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شكاه على المنبر إلى المسلمين، فقال: إن علياً يريد أن يتزوّج ابنة عدوّ الله على

---

(١) آل عمران: ١٦١.
(٢) النجم: ٣ ـ ٤.
(٣) الأنعام: ٣٤.

ابنة نبي الله سبحانه وتعالى ألا إن فاطمة بضعة مني، فمن آذاها فقد آذاني؛ ومن سرّها فقد سرّني، ومن غاظها فقد غاظني؟».

ثم قال الصادق ﷺ: «يا علقمة، ما أعجب أقاويل الناس في علي ﷺ؟ كم بين من يقول: إنه ربّ معبود، وبين من يقول: إنه عبد عاصٍ للمعبود؟ ولقد كان قول من ينسبه إلى العصيان أهونَ عليه من قول من ينسبه إلى الربوبية.

يا علقمة، ألم يقولوا لله عزّ وجلّ: إنه ثالث ثلاثة؟ ألم يشبهوه بخلقه؟ ألم يقولوا: إنه الدهر؟ ألم يقولوا: إنه الفلك؟ ألم يقولوا: إنه جسم؟ ألم يقولوا: إنه صورة؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً. يا علقمة، إن الألسنة التي تتناول ذات الله تعالى ذكره بما لا يليق بذاته كيف تحبس عن تناولكم بما تكرهونه؟ فاستعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتّقين، فإن بني إسرائيل قالوا لموسى ﷺ: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فقال الله عزّ وجلّ: قل لهم يا موسى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1]...»[2].

ومن الناس من يسأل تعنّتاً

وهنا أودّ أن أُلفت نظر الآخرين إلى نقطة هامّة هي أن هناك أناساً لا يستحقّون أن يواجهوا بالجواب، أي أن يجابوا على اعتراضاتهم وأسئلتهم؛ لأن الإنسان إذا ما أجابهم فحينئذٍ سوف يحقّق هدفهم الكامن وراء أسئلتهم هذه، والذي يرمون إليه، وهو هدف غير ما يوحون أو ما يحاولون أن يوحوا به إلى الآخرين من ورائها، كأن يريدوا أن يبينوا لهم بأنهم يسألون لأجل المعرفة وواقع الأمر أنهم

---

(١) الأعراف: ١٢٩.

(٢) الأمالي (الصدوق): ١٦٤ ـ ١٦٦ / ١٦٣، قصص الأنبياء (الراوندي): ٢٠٦ / ٢٦٥.

إنما يسألون لأجل أهداف خفيّة دنيئة يريدون من ورائها أن يصلوا إلى نقطة معينة، أو يحقّقوا أمراً فيه نفع لهم وضرر لمن يسألونه.

ومن بعض هذه الأهداف التي يرمي إليها هؤلاء إثارة الأجواء غير السليمة في الساحة الإسلامية؛ ولذا فإن أبلغ جواب لهؤلاء هو السكوت.

الأعمش وهشام بن عبد الملك

ومما يروى في هذا المجال أن هشام بن عبد الملك بعث إلى الأعمش أن اكتب لي مناقب عثمان ومساوئ علي. فأخذ الأعمش القرطاس وأدخلها في فم شاة فلاكتها، وقال لرسوله: قل له: هذا جوابك. فقال له الرسول: إنه قد آلى أن يقتلني إن لم آته بجوابك. وتشفّع لديه بإخوإنه الذين كانوا معه، فقالوا له: يا أبا محمد، نجّه من القتل. فلما ألحّوا عليه كتب له: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فلو كانت لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك، ولو كان لعلي ﷺ مساوئ أهل الأرض ما ضرّتك؛ فعليك بخويصة نفسك والسلام[1].

الافتراء على الشيعة

ونحن في واقع الأمر عندنا على مرّ التاريخ أشياء كثيرة من هذا النمط قد عانينا منها، ومن ذلك ما يثار في هذه الأحيان وفي كلّ حين من بعض الافتراءات ضد أبناء المذهب الشيعي، وهؤلاء إنما قلنا عنهم: إنهم من هذا النوع؛ لأنهم حينما

---

(١) المراجعات: ١٣٢ ـ ١٣٣ / ٢٣٥، مواقف الشيعة ٢: ١٠٥ / ٣٥٥، ٣: ١٨٨ / ٧٩٢، خلاصة عبقات الأنوار ١: ٤٤ ـ ٤٥، وفيات الأعيان ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

وكان إذا وعظ أبلغ في الوعظ، فمن جمل مواعظه ما كتب به إلى بعض إخوانه يعزّيه:

إنا نعزيك لا أنا على ثقة — من البقاء ولكن سنة الدينِ

فلا المعزّى بباقٍ بعد ميتته — ولا المعزّي وإن عاشا إلى حينِ

وفيات الأعيان ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

توضع أيديهم على الحقيقة فإنهم لا يقتنعون بها، مع أن الذي ينبغي أن يكون هو أنهم حينها يجب أن يكفّوا ألسنتهم عن إثارة الضوضاء والفتن، وعن قلب الساحة الإسلامية رأساً على عقب، أن يكفّوا أنفسهم عن إلقاء التهم على غيرهم جزافاً بغير دليل. فهؤلاء إن كانوا صادقين فيما يقولونه، ويسألون عنه كان الواجب أن يكفوا عن كلّ ذلك حينما توضع أيديهم على الحقيقة، وحينما تبيّن لهم جلية الأُمور.

أما إنهم يظلّون حبيسي عنادهم وإصرارهم على موقفهم المعادي والمثير للساحة الإسلامية، والموجب لبثّ التفرقة بين المسلمين من أبناء الطوائف والمذاهب الإسلامية فإن هذا يدلّنا ـ وهو خير دليل ـ على أن هؤلاء إنما تكون لهم أهداف غير تلك التي يعلنون عنها، وهي أهداف ليست سامية وإنما هي أهداف دنيئة، الغرض منها تفتيت الجسد الإسلامي، وإضعاف قواه.

مسألة السجود على التربة الحسينية

وممّا ابتلينا به على مرّ العصور ما يصوّره الآخرون من أننا إنما حينما نسجد على التربة الحسينية فإنما نسجد عليها لأن فيها دم الحسين، مع أننا منذ أكثر من ألف سنة ونحن نصرخ وننادي بأننا إنما نسجد على هذه التربة؛ لأنها مما يصحّ السجود عليه، فضلاً عن طهارتها؛ لأنها قد أُخذت من أرض طاهرة، وشكّلت بعناية فائقة. فنحن حينما نريد أن نصلي فإننا نشترط في موضع السجود أن يكون طاهراً، وأن يكون مما لا يؤكلّ ولا يلبس. وهذان الشرطان لا يتوفران دائماً؛ ولذا فإننا نحتاط لهذا الأمر؛ فنحقّق هذين الشرطين باقتطاع هذه التربة من الأرض لأنها طاهرة، ولأنها أرض أُمرنا بالسجود عليها فيما ورد عن الرسول .

ومع كلّ هذا نجد أن الآخرين يصرّون على أننا نسجد عليها؛ لأن فيها دم أبي عبد الله الحسين عليه السلام. وهؤلاء في الواقع ليسوا طلّاب حقيقة أبداً؛ لأنهم لو كانوا كذلك لاهتدوا إلى تلك الحقيقة من خلال ما تمّ بيانه على مرّ مئات السنين في كتبنا ومدوّناتنا ومؤلّفاتنا ومناقشات علمائنا وأُطروحاتهم.

إذن فالقرآن الكريم يقرّر في هذه الآية الشريفة أنّ توجيه اللوم إلى التابع والمتبوع على حدّ سواء؛ لأنهما غداً سوف يتعرضان إلى المحاسبة والمساءلة أمام الله تبارك وتعالى.

وهؤلاء الذين أشرنا إليهم لا يخشون ذلك اليوم، ولا يقيمون له وزناً؛ ولذا فإنهم لا يعدّون له عدّته؛ وإلّا فما معنى أن يرى البعض إنساناً يحجّ معك إلى مكان واحد، ويصلّي إلى قبلة واحدة، ويؤمن بالنبي نفسه الذي يؤمن به الآخرون، ويؤمن بالكتاب نفسه الذي أُنزل على نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ويسجد ويركع ويقرأ القرآن كما يفعل غيره من المسلمين، ويوحّد الله تبارك وتعالى، ولا يجعل معه شريكاً، لكنهم مع ذلك، ومع ما يرون من هذا الإنسان يظلّون يرمونه بالشرك وبالكفر، وبالمروق عن الدين؟ فهل كلّ هذه الأفعال التي يقوم بها هؤلاء لا تنهض دليلاً كافياً على إثبات أنهم مسلمون موحّدون؟

إن هؤلاء إنما يتّبعون غيرهم من مشايخهم الذين يصرخون كلّ يوم بأنّ هذه الطائفة من المسلمين كافرة، ويقلّدونهم في ذلك مع أنهم قد ملئت أجوافهم سحتاً. وهؤلاء التابعون إنما يعبدون المتبوعين بهذا النمط من العبادة[1].

---

(١) عن أبي بصير رحمه الله قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. فقال عليه السلام: «أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً، وحرّموا عليهم

إننا نناشد هؤلاء الذين يكفّرون الناس ونقول لهم: إنكم غداً موقوفون بين يدي الله تبارك وتعالى، وإنه سائلكم عمّا تفوّهتم به، فإذا كنتم قد رأيتم شريحة من المجتمع عندها ميل إلى الضلال فإن عليكم ألّا تعمّموا حكم تكفيرهم إلى غيرهم من المسلمين؛ فالله تبارك وتعالى غداً سوف يوقفكم بين يديه؛ فيحاسبكم حساباً عسيراً، وسوف يسألكم عن كلّ ما تفوّهتم ونطقتم به، وعن كلّ ما سبّبتموه من شرخ في جسد المجتمع الإسلامي، ومن إضعافٍ له بسبب ادّعاءاتكم المنتحلة، وكلماتكم المفتراة على الآخرين ممّن يوحد الله تبارك وتعالى، ويؤمن بكتبه ورسله.

فضلال شريحة من الناس لا يعني أن هذا الخطأ في العقيدة ينسحب على كلّ المسلمين، أي أنه حينما يعصي مسلم ربّه لا يعني هذا أن المسلمين كلهم عصاة. وبناء عليه فإن المقاييس التي يجب أن تعتمد في مثل هذه الأُمور ينبغي أن تكون مقاييس علمية، وليست مقاييس قائمة على أساس الأهواء والمصالح الشخصية والأهداف النفعية التي تعود على أصحابها بالنفع الدنيوي دون أن يكون فيها أدنى نفعٍ وأدنى فائدة للمجتمع الإسلامي، بل وحتى النفع الأُخروي لأصحابها أنفسهم.

الخطيب يرى أن التشيع لأهل البيت فكرة شيوعية

ومن هنا فإننا يجب أن نلتفت إلى طبيعة النصّ القرآني الشريف الذي يصوّر الحوار الدائر بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة، وهو حوار إنما يذكره القرآن الكريم لنا؛ لأنه يريد أن يضعنا أمام المسؤولية المناطة بنا وجهاً لوجه. ولتوضيح

حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون». المحاسن ١: ٢٤٦ / ٢٤٦، الكافي ١: ٥٣ / ١، ٢: ٣٩٨ / ٧.

هذه الفكرة أروي لك هذا الموقف، وهو أنّ محبّ الدين الخطيب يرى رأياً حول قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[1]، فهو يرى أن الإمام هنا هو المقتدى به، ومع ذلك نجده يقول: إن التشيع لأهل البيت عليهم السلام هو فكرة شيوعية.

نقد ونقض

ولنا أن نسأل هنا ونقول: من هم أهل البيت عليهم السلام؟ إننا عندما نبحث في كتب المسلمين جميعاً، فإننا سنجد أن مما تسالموا عليه حديثاً يروونه بالإجماع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو قوله: «**إني مخلّف ـ أو تارك ـ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً. ولقد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض**»[2].

يدخل أحدهم على الإمام الصادق عليه السلام فيقول له: إنك إذ تروي هذه الروايات في العقائد والأحكام فعمّن ترويها؟ ومن هم شيوخك فيها، أي في الرواية؟ فقال له عليه السلام: «**إني إذ أروي فإنما أروي عن أبي محمد الباقر عن أبيه زين العابدين عن أبيه الحسين سيد شباب أهل الجنة عن أبيه علي بن أبي طالب إمام المتقين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**». يقول السائل: فلما أخبرني بذلك تركت الرواية عنه.

فواعجباً لهذا السائل المعترض على الإمام عليه السلام إذا لم يكن تعجبه هذه السلسلة الذهبية الخالصة في السند، فأي سلسلة يمكن أن تعجبه؟

---

(١) الإسراء: ٧١.

(٢) انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، صحيح مسلم ٧: ١٢٣، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٩ / ٣٨٧٦، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤١٨.

إننا حينما نتمسّك بأهل البيت فإنما نتمسّك بهم من باب الطاعة لله ولرسوله على ضوء الرواية الشريفة الآنفة، فهذا هو الذي يدفعنا إلى حبّهم وإلى التمسك بحبلهم، وإلى طاعتهم؛ لأن الآيات والروايات قد دلّت على ذلك وحثّت عليه. ونحن نريد أن نذكّر محب الدين الطبري حينما يعترض على أئمة أهل البيت ونقول له: عليك ألّا تنسى من هو إمامك الذي تعتقد بإمامته، أليس هو الذي يصعد المنبر ويقول:

اسقنا يازبير بالقرقاره   قد ظمينا وحنّت الزقاره[1]

اسقني اسقني فإن ذنوبي   قد أحاطت ومالها كفّاره[2]

فهنيئاً لكم إمامكم، وكلّ امرئ إنما يأكلّ من زاده.

إلى الجنة وربّ الكعبة

يروى عن الإمام أبي عبد الله الصادق أنه كان عندما يقرأ قوله تعالى: **﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾** يقول: **«ألا تحمدون الله إذا كان يوم القيامة فدُعي كلّ قوم إلى من يتولّونه، وفزعنا إلى رسول الله وفزعتم إلينا؟ فإلى أين ترون يُذهب بكم؟ إلى الجنة وربّ الكعبة، إلى الجنة وربّ الكعبة، إلى الجنة وربّ الكعبة»**[3].

وهذا أمر بديهي وطبيعي ولا غبار عليه؛ لأن الإنسان حينما يكون سائراً على نهج كتاب الله تبارك وتعالى، وعلى محجّة سنة نبيه الأكرم، ويرى ولاء من

---

(١) القرقارة: إناء من زجاج طويل العنق؛ سميت بذلك لقرقرتها. لسان العرب ٥: ٨٧ ـ قرقر، تاج العروس ٣: ٤٨٩ ـ القرقار.

(٢) البيان والتبيين ١: ٤٢١، والحمد لله أنه يعي ويقرّ بأن ذنوبه لا يمكن أن تمحقها كفّارة على حدّ تعبيره.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٦٤، جوامع الجامع ٢: ٣٨٥.

أمره القرآن بتولّيه؛ فإنه حتما سوف يكون من الناجين، وسوف يكون طريقه إلى الجنة، بل إن الجنة لَتفتح أبوابها له لتستقبله حورها وغلمانها. ولا غبار أو قول أو شك أن أهل البيت عليهم السلام قد أمر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة باتّباعهم وبموالاتهم وبالسير على هديهم ومنهاجهم: **﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾**[1].

المبحث الثالث: الهداية الإلهية: منشؤها وموردها

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: **﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾**، وهذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يؤكّد على حقيقة هامة هي أن هؤلاء بهذا القول إنما يريدون أن يبرّروا مواقفهم، وأن يتنصّلوا من مسؤولياتهم التي يجب عليهم أن يحترموها وأن يلتزموا بها كما يريد الله سبحانه وتعالى ذلك. فهم في مضمار التخلّص من المسؤولية والجري وراء عوامل التنصّل منها يحاولون أن يضعوها على عاتق القضاء والقدر، وأن يعلّقوها على السماء. وحقيقة الأمر أن هذه العقيدة بحدّ ذاتها هي عقيدة الجبر؛ لأنها لا تعني إلّا أن الله تبارك وتعالى قد أجبرهم على فعل الطاعة، وألزمهم بفعل المعصية؛ لأنه تبارك وتعالى يقول: **﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾**[2]، وهكذا يفسّرونه.

وبناء على ما يفسرون به هذه الآية الكريمة وفق أهوائهم فإنهم يقولون: إن أي عمل يقوم به الإنسان؛ سواء كان طاعة، أو معصية، فإن الله تبارك وتعالى قد خلقه عنده، ويسّره له، وأخذ بيده إلى أن يفعله، بما في ذلك العمل النفسي.

مناقشة

والعاقل المنصف من يعرف أن الواقع ليس كذلك؛ لأنه يعرف أن الله تبارك

---

(١) الشورى: ٢٣. (٢) الصافات: ٩٦.

وتعالى قد منح العبد الاختيار في كلّ أقواله وأفعاله، وكرّم الإنسان، وأعطاه الحرية في اختيار كلّ عمل من أعماله التي يريد أن يقوم بها. فإذا كان الله تبارك وتعالى قد سلب من الإنسان القدرة والاختيار، فهو جلّ شأنه إنما يحوّله بذلك إلى حجارة أو إلى آلة مسيّرة. وهؤلاء بهذااللون من التفكير، أو الميل إنما يريدون أن يلقوا بتبعة أعمالهم المخطوءة، والمسؤولية المترتّبة عليها على عاتق السماء متّهمين القضاء والقدر بفعلها لأجل تبرير ارتكابهم لها. فهم حينما يفعلون المعصية يقولون: لقد كتب علينا هذا الأمر من قبل، أو أن هذا الأمر مقدّر لنا، أو أننا قد قدّر لنا أن نسير في هذا الطريق الذي نحن فيه وإن كان طريق شرّ ومعصية.

وكما ذكرنا فإن هذا في الواقع لون من ألوان التنصّل من المسؤولية، وترك الإنسان إياها مع أنها قد أناطها الله به، وأمره بأن يلتزمها إزاء نفسه وإزاء غيره وإزاء ربّه.

المخادعة والتلاعب بالحديث الشريف

وهذا الأمر قد لجأ إليه معاوية بن أبي سفيان حينما قُتل عمار بن ياسر، فإن ممّا اشتهر عند الرواة والمؤرّخين عامّة، وممّا هو متسالم بينهم أن رسولنا الأكرم ﷺ قد قال لعمار مخاطباً إياه: «يا عمار، تقتلك الفئة الباغية»[1]. وحينما استشهد ﷺ انتشر كلّ من خبر استشهاده وهذا الحديث الشريف بين أفراد جيش معاوية بمجرد سقوطه ﷺ في ساحة المعركة شهيداً، وراحوا يتناقلون هذه الرواية

---

(١) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

بألسنتهم؛ وبدأت تبرز حالة من التذمّر، ويعمّهم شيء من الندم؛ لأنهم شعروا بأنهم بناء على هذا الحديث وغيره هم الفئة الباغية التي قتلت عماراً.

فجاؤوا إلى معاوية يخبرونه بالأمر، وأن الرسول الأكرم قد أرهص به، لكنه استطاع بدهائه وما يمتلك من منطق مخادع أن يضلّل الناس؛ وساعده على ذلك أن في الأرض كثيراً من الناس ممّن تنطلي عليهم هذه الأساليب الملتوية؛ لجهلهم وسذاجتهم ومستواهم الثقافي المتدنّي، فأعلن في معسكره أن الفئة الباغية هي جماعة علي بن أبي طالب؛ لأنه هو الذي أتىٰ به وألقاه بين لهوات الحرب، وتسبّب في قتله.

وبناء عليه فإنه هو المسؤول عن قتله بالاشتراك مع جيشه، وليسوا هم، أي معاوية وأصحابه.

ردّ ومناقشة

مع أن هذا الفعل والتوجّه هما مغالطة واضحة البطلان، وصريحة الفساد، وتنطوي على اتّهام السماء؛ فهي لا تعني إلّا أن النبي الأكرم هو الذي قتل حمزة بن عبد المطلب، وقتل الشهداء الأخيار (رضوان الله تعالى عليهم) من المسلمين في كلّ المعارك التي خاضها ضد الطغاة والمشركين واليهود. فهل صحيح أن النبي هو الذي قتل حمزة بن عبد المطلب، أو خباب بن الأرتّ،أو غسيل الملائكة حنظلة، أو غيرهم؟ إن هذا إلّا اعتداء صارخ وصريح على المشرّع الإسلامي.

وعليه فإن على الإنسان أن يكون بمستوى المسؤولية التي أراده الله تبارك وتعالى أن يكون عليها. وهؤلاء الذين تتناولتهم الآية الكريمة هم خلاف ما يريده الله تبارك وتعالى لهم؛ حيث يقولون: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

ومع أن قاعدة كون الله تبارك وتعالى هو الذي أوجد الهداية، وأنه هـو الذي هدى الإنسان هي قاعدة صحيحة، لكن حاشا له أن يجبر الإنسان على أن يترك الطاعة، وأن يفعل الشرّ[١].

فمثل هؤلاء إنما يريدون أن يفعلوا المعصية وأن يتمتّعوا بحلاوة الدنـيا، ثـمّ يتذرّعون بأن الله تبارك وتعالى قد أجبرهم على فعل ذلك؛ لأنه لم يشأ أن يهديهم إلى الطريق الصحيح، وإلّا فإنه لو هداهم ـ من وجهة نظرهم ـ فإنهم لم يكونوا بهذا

---

(١) يروى أن البهلول دخل المسجد يوماً، وأبو حنيفة يقرّر للناس عـلومه، وقـال فـي جـملة كلامه: إن جعفر بن محمد تكلّم في مسائل لا يعجبني كلامه فيها:

الأُولى: أنه يقول: إن الله سبحانه موجود لكنه لا يرى لا في الدنيا ولا في الآخـرة. وهـل يكون موجود لا يرى؟ ما هذا إلّا تناقض.

الثانية: أنه يقول: إن الشيطان يعذّب في النار. مع أن الشيطان خُلق من النار، فكيف يعذب الشيء بما خلق منه؟

الثالثة: أنه يقول: إن أفعال العباد مستندة إليهم. مع أن الآيات دالّة على أنه تعالى فاعل كـلّ شيء.

الرابعة: أنه يقول: إن الخير من الله تعالى والشرّ من الإنسان. وأنا أقول: إنهما كليهما من الله.

فلمّا سمع البهلول ذلك، أخذ مدرة وضرب بها رأس أبي حنيفة وشجّه، فسـال الدم عـلى وجهه ولحيته، فبادر إلى الخليفة يشكو إليه البهلول، فلما أُحضر البهلول وسئل عن السبب، قال للخليفة: إن هذا الرجل غلّط جعفر بن محمد في أربع مسائل:

الأُولى:: أنه يزعم أن الأفعال كلّها لافاعل لها إلّا اللّه، فهذه الشجّة مـن الله سـبحانه، فـما تقصيري أنا؟

الثانية: أنه يقول: كلّ شيء موجود لابدّ أن يُرى، فهذا الوجع في رأسه موجود مع أنه لا يراه أحد.

الثالثة: أنه مخلوق من التراب، وهذه المدرة من التراب، وهو يـزعم أن الجـنس لا يُـعذّب بجنسه، فكيف تألّم من هذه المدرة؟

الرابعة: أن ضربي إيّاه بهذه المدرة إن كانت خيراً أو شرّاً فهي من الله تعالى على رأيه، فما ذنبي حيث يريد أن يقاضيني على أمر هو من الله تعالى؟

فأُعجب الخليفة كلامه وحسن تخلّصه من أرش الشجّة. زهر الربيع: ٤٠٤.

الحال، وإنما لأصبحوا من أهل الطاعة وأهل الجنة، فهدوا غيرهم إليها كما هو صريح الآية الكريمة.

وهذا كما ذكرنا آنفاً مغالطة واضحة ليس لها أي أساس من الصحة، وكلّ ما في الأمر أنهم أرادوا أن يتنصّلوا من مسؤوليتهم التي كان ينبغي بموجبها أن يطيعوا الله تبارك وتعالى وألّا يعصوه، وأن ينفّذوا أوامره، لا أن يقولوا: إنما كانت معصيتنا بإجبار من الله لنا، أو بإكراه منه لنا؛ لأنه لم يرد أن يهدينا، ولو أراد لفعل. وكما قلنا: إن هؤلاء إنما يتنصّلون من مسؤوليتهم؛ لأنهم يلقون كلّ شيء على عاتق السماء، وينسبون كلّ شيء إليها دون أن يكون لهم أي أثر أو أدنى اختيار فيما يفعلون وفيما يقولون.

المبحث الرابع: محاولة يزيد نسبة قتل الحسين عليه السلام إلى السماء

ولعلنا حينما ننظر إلى المحاورة التي وقعت بين يزيد بن معاوية وبين عقيلة الطالبيّين زينب الكبرى عليها السلام فإننا نلمس هذا واضحاً عند يزيد حيث يقول لها: كيف رأيت صنع الله بأخيك والعتاة المردة من أهل بيته؟ أي أنه يريد أن يصوّر المسألة لمن حضر مجلسه على أنها من تخطيط السماء وتحت رضاها ومباركتها؛ كي يُلبِس الأمر عليهم، ويوهمهم بمشروعية قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ومعنى هذا أنه يريد أن يثبت للعقيلة زينب الكبرى عليها السلام هذا المعنى بالقول: إن الله تبارك وتعالى هو الذي قتلكم، وكذّب أُحدوثتكم ومدّعاكم؛ لأنكم قد خرجتم علينا تريدون أن تسلبونا ملكاً وهبه الله لنا، واختصّنا به دون غيرنا؛ ظلماً منكم لنا واعتداء علينا.

فما كان من ابنة الشجاعة والفصاحة، وابنة من سنّ البلاغة للعرب.. ابنة أمير المؤمنين عليه السلام إلّا أن هبّت في وجهه وقارعته؛ لتقاوم ظلمه، وتذلّ جبرته، فقالت

له: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأُسارى أن بنا علىٰ اللّه هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلانَ مسروراً حتىٰ رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأُمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً،لاتطِش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[١]؟

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول اللّه ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن، وأُبديت وجوههن؟»[٢].

وهي خطبة نجد فيها قوة اللفظ، وجزالة المعنى، والشدّة في ذات الله سبحانه وتعالى، والجرأة التي لا يمكن لعقيلة الطالبيين عليها السلام إلّا أن تكون عليها، وهي خاطرة من الخواطر التي تقتنص ذلك التنمّر الذي نجده ينعكس على كلّ مفردة من مفرداتها.

لكنها عليها السلام مع ذلك تمرّ عليها لحظة من اللحظات التي ترى فيها حالها، وأين وصل بها الزمن الذي جعلها تقف أمام يزيد بن معاوية، وتنعكس هذه الخاطرة الأليمة المشبعة بالحزن، والمفعمة بالأسى كذلك على ألفاظ خطبتها، وهي تقول له: «حسبك بالله حاكماً، وبمحمد ﷺ خصيماً، وبجبرائيل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين أن ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[٣]، وأيكم ﴿شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾.

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥. اللهوف في قتلىٰ الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

(٣) الكهف: ٥٠.

ولئن جرّت عليّ الدواهي مخاطبتك إني لأستصغر قدرك، وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى، والصدور حرّى، ألا فالعجب كلّ العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء؛ فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلّب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفّرها أُمهات الفراعل. ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً حين لا تجد إلّا ما قدّمت يداك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[١].

فإلى الله المشتكى وعليه المعوّل، فكد كيدك، واسعَ سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلّا فند، وأيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بدد يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين. فالحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب، ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

فيجيبها يزيد بصلافته وبسلطانه الذي يقهر به غيره بقوله:

يا صيحةً تحمد من صوائحِ ما أهون الموتَ على النوائحِ[٢]

وهنا تكبت العقيلةعليها السلام لوعتها في صدرها، وتتراكم عليها همومها وأحزانها فأطبقت جفنيها على دمعة أبى لها كبرياؤها أن تخرج من محجرها، وبقيت في ذلك المجلس على صمودها تقاسي همومها، وتقارع الطغيان وظلمه إلى أنه أخرجوهم إلى تلك الخربة. حتى إذا جنّ عليها الليل، وكان أمامها رأس أبي عبد

---

(١) فصلت: ٤٦.

(٢) مثير الأحزان: ٨١، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، ١٦٠، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٧ ـ ١٠٨، لواعج الأشجان: ٢٢٩ ـ ٢٣١، بلاغات النساء: ٢٢.

الله، توجّهت إليه وإلى رؤوس أهل بيته لتبثّها ما تجد عندها من لوعة وألم وحزن، ولتسكب عندها عبراتها ودموعها حزناً وأسفاً على أخيها وأصحابه وأهل بيته. ثمّ تلفّتت يميناً وشمالاً فلم ترَ حولها إلّا مجموعة من النساء اللائي لم يكنَّ يهدأن من البكاء والنحيب على ما حلّ بابن رسول الله وأهل بيته.

يقول المؤرخون: وكان الأطفال متعلّقين بثوبها؛ فواحد يسألها: عمّة أين أبي، وآخر يسألها: عمّة أين أخي؟ فتستجير بدموعها وتنفجر باكية:

مظلومة مقهورة مضروبة ... مسلوبة حتى الخمار وبرقعي
أأُخي ما عوّدتني منك الجفا ... فعلامَ تجفوني وتجفو من معي
أنعِم جواباً يا حسينُ أمَا ترى ... شمرَ الخَنا بالسوط ألهبَ أضلُعي



﴿٢٤﴾

الإنذار والهداية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[١].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: فلسفة تحصيل الرزق

تعكس لنا هذه الآية الكريمة عبر هذا الجوّ الحواري طبيعة الحوار الذي كان يبتدئ به النبي الأكرمﷺ من عاصره آنذاك، وتحديد خلفيات ذلك الحوار وأسبابه وتداعياته. وغالباً ما يكون ذلك في بدء الرسالة الشريفة وبواكيرها، وهؤلاء كانوا شديدي الإلحاح على النبيﷺ في أن ينزل عليهم آية من السماء. وهم يقصدون طبعاً الآية التكوينية لا الآية التدوينية؛ لأنهم لم يكونوا يظنون بحال من الأحوال أن القرآن أمر معجز، وشيء لا يمكن أن يؤتى بمثله؛ ولذا فإنهم

---

(١) الرعد: ٧.

كانوا يأتون بشخص ليقصّ عليهم قصص الإسكندر والفرس وغيرهم من الحضارات والملوك الذين سادوا ثم بادوا، ثم يقولون: إن القرآن الذي جاء به محمد هو من هذا النوع: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

ولو التفتنا إلى هذا الأمر، ونظرنا إليه من منظار الواقع، ودقّقنا فيه النظر وأنعمنا التفكير حوله، لوجدنا أنه ينطوي على كارثة وبيلة تتمحور حول أن كثيراً من الناس لا يعرفون حجمهم الحقيقي الذي هم عليه، فيحاولون مقارعة السماء أو مواجهتها بما هي عليه من قيومية. وهذا النمط من الناس لا يدور في خلده أنه يمكن أن يكون على خطأ وأن الآخرين على صواب؛ ولذا فإنهم كانوا مثلاً يقرّرون بأن القرآن الكريم الذي نزل به الروح الأمين على صدر النبي ما هو إلّا مجموعة من الآيات التي يمكن لأي إنسان بليغ أن يأتي بمثلها وأن يكتب عبارات تشابهها.

ولعل هذا هو ما دفع مسيلمة الكذاب إلى أن يدّعي النبوّة، وأنه قد نزل عليه الوحي؛ ولذا فإنه راح يكتب عبارات يدعي أنه قرآنه، وإن هي إلّا كلمات تثير السخرية، ومع ذلك فإننا نجدها قد انطلت على بعض السذج ممن كان معه.. السذّج الذين لم يكونوا يمتلكون القابلية على تمييز غثّ الكلام من سمينه، وما ذلك إلّا بسبب مستوى إدراكهم المتدنّي، وضآلة حجم معرفتهم الرديئة، وثقافتهم المعدومة؛ حيث راحو يساوون بين النبي الأكرم رسول السماء وبين المدّعي المفتري الكذّاب مسيلمة (لعنة الله عليه).

---

(١) الأنفال: ٣١.

آفة الثقافة

وهذا الأمر الذي نحن بصدد الحديث عنه لم يكن حكراً على زمان دون زمان ،أو مكان دون مكان، بل إنه أمر يتكرّر كلّ يوم، فالتاريخ يعيد نفسه في كلّ لحظة من لحظاته أمام مثل هذه الأُمور، وهو ما نشهده في كلّ آن؛ ومن هذا أننا نجد اليوم من يقول: ليس هناك من مانع في أن نسمي فلاناً إماماً ومحمداً الباقرعليه السلام إماماً أيضاً. ويقول: إنهما كليهما إمام في مذهبه وفي علمه.

وهذا كلام مغلوط ليس له نصيب من الصحة أبداً؛ لأنه لا يمكن أن نساوي بين الإمام الباقرعليه السلام أو غيره من آبائه أو أبنائه عليهم السلام ممّن هم أهل بيت النبوّة، ومختلف الملائكة، ومعدن الرسالة، ومنتهى العلم، ومهبط الوحي والتنزيل، وبين غيره ممّن يراد أن يشار إليه؛ لما ينطوي عليه من مغالطة بيّنة. ومن هنا فإننا نجد أن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كان كثيراً ما يعاني بأسف كبير من ضياع المعايير الشرعية والمنطقية، والمقاييس العقلية التي كان الجميع يجتنبها ويتبع هواه دون رويّة وعلم ومعرفة؛ ولهذا فقد أُثر عنه عليه السلام قوله: «فَيَا لَلَّهِ وَلِلشُّورَى، مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ؟ لَكِنِّي أَسْفَفْتُ إِذْ أَسَفُّوا، وَطِرْتُ إِذْ طَارُوا، فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ، وَمَالَ الآخَرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هَنٍ وَ هَنٍ»[1].

وليس معنى هذا أنه عليه السلام كان متألّماً لأن من عاصره قد أنزله عن مقامه الذي أولاه الله جلّ شأنه إياه على لسان رسوله صلى الله عليه وآله، وعن مكانته التي أمر الله تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وآله بأن ينزله فيها، وأن تحفظ له؛ فهو عليه السلام كان يعرف أن

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ٣. وهي المعروفة بالشقشقية، كما أنه عليه السلام كان يقول: «أنزلني الدهر حتىٰ قيل: علي ومعاوية». فرحة الغري: الإمام جعفر الصادق عليه السلام: ٤٥.

مكانته ومقامه سوف يبقيان محفوظين عنده جلّ وعلا، وعند طالبي الحقّ، وعند من أراد أن يطيع الله ورسوله، وأن ينفّذ وصية الرسول الأكرم، وأنّهما سوف يصانان عن أن ينالهما شيء عند العارف، والمؤمن الملتزم؛ بل إنه كان يتألّم من فقدان المقاييس الشرعية والمعايير العقلية والمنطقية عند الناس الذين وإن كان بعضهم يمتلك مقاييس تختلف فيما بينهم عموماً، لكن ما يؤسف له غاية الأسف هو أن الكثير منهم يُخضع نفسه لمقاييسه هو دون أن يُخضعها لمقاييس الله جلّ وعلا.

بل أن الأنكى من ذلك أن البعض لا يكتفي بهذا المقدار ـ إخضاع نفسه لمقاييسه دون مقاييس الله ـ بل يذهب إلى ما هو أبعد وأحدّ لله سبحانه وتعالى، فيُخضع المقاييس الإلهية والقرآنية والعقلية لمقاييسه هو؛ ليخرج بنتيجة تتناسب مع هواه، وتساوق مصلحته، وتتجاوب مع متبنّياته النفعية عامّة؛ سواء كانت متبنيات فكرية، أو سياسية، أو اجتماعية، أو غير ذلك، وإن أحسنّا الظنّ به قلنا: مع فهمه.

إن أي إنسان لا يمكن أن يتصوّر أن جميع الناس في هذه الدنيا سوف تتكامل عندهم المقاييس، وتسمو في يوم من الأيام إلى مستوى موحد من الفهم أو العلم أو المعرفة والإدراك، بل إن الدنيا سوف تبقى على هذا الحال؛ ففيها الرفيع المعرفة، وفيها المتوسّط المعرفة، وفيها المتدنّي المعرفة، وما إلى ذلك من موارد التفاضل بين الناس في مجال الثقافات والمعارف والأفكار؛ ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يركز على هذه النقطة عند هؤلاء الذين تتفاضل مستوياتهم الفكرية والمعرفية سيما اُولئك الذين يمتلكون مستويات دنيا من المعرفة والفهم والتطبيق العلمي لقواعد الحياة، ويُقرر هذه الحالة عندهم بلون يستشفّ منه أنه ينعى تلك

الأفكار المتدنّية، وذلك بقوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

فهؤلاء إذن لم يكونوا ليطلبوا آية تدوينية، بل إن كلّ همهم هو أن يجيئهم النبي الأكرمﷺ بآية تكوينية، غير أنهم بعد ذلك أحسّوا بتأثير القرآن على الناس، وسرعة توغّله في نفوسهم ومشاعرهم؛ ولذا فإننا نجد بعضهم يقول لبعض كما يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2].

الآيات التي طالب بها المشركون تحدّد مستواهم المعرفي

ولو أردنا أن نتساءل عن طبيعة هذه الآيات التي طالب المشركون النبي الأكرمﷺ أن يأتيهم بها، لوجدنا أنهم لم يكونوا يطالبونهﷺ إلّا بما يعود عليهم بالربح الدنيوي. فطالبوه بجملة من المعاجز منها أنهم كانوا يريدون منهﷺ أن يأتيهم بآيات تصبّ في مصالحهم الدنيوية، وتجري مجرى إشباع تلك الحاجات، وغيرها من المطالب التي تنطوي على النفع الدنيوي كأن يدلّهم على أماكن الربح كي تعود عليهم بالأموال، وأن يدلّهم على مواطن الخسارة لكي يجتنبوها. ومن الآيات التي طلبوها نذكر:

أولاً: أن يتّخذﷺ سلّماً يرقى به إلى السماء

فقد قال عبد الله بن أُمية المخزومي في خطابه لنبيّنا الأكرمﷺ: والله لا أُومن بك حتى تتّخذ سلماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر، وهذا ما قرره القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ

---

(١) الأنفال: ٣١.
(٢) فصلت: ٢٦.

سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾[١].

ثانياً: أن يفجر لهم ينابيع الأرض، وأن تكون له جنانها

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴾[٢].

ثالثاً: أن ينزل عليه ملكاً يصدقه

كما أنهم طالبوه ﷺ بأن يبعث الله تبارك وتعالى معه ملكاً يصدّقه ويمشي معه؛ كي يطمئنوا له ويؤمنوا به، قال جلّ شأنه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾[٣].

رابعاً: تحويل الصفا إلى ذهب، وإحياء موتاهم وغيرهما

كما أنهم طالبوا نبيّنا الأكرم ﷺ بتحويل بعض الأماكن إلى ذهب وفضة؛ كي ينتفعوا بها، فقد قالوا له ﷺ: سل ربك أن يؤتيك آية حتى نصدّقك بها. فقال ﷺ: «أي شيء تحبّون أن آتيكم به؟». فقالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً، أو أن يسقط الله علينا السماء كما زعمت. فقال ﷺ: «فإن فعلت بعض ما تقولون أتصدقونني؟». قالوا: والله لو فعلت لنتّبعنك أجمعين. فقام ﷺ يدعو الله تعالى أن يجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبرئيل عليه السلام، وقال له: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم، وإن شئت تركتهم حتى

---

(١) الأنعام: ٣٥. (٢) الإسراء: ٩٠ ـ ٩١.
(٣) الأنعام: ٨.

يتوب تائبهم». فقال ﷺ: «بل يتوب تائبهم»[1].

خامساً: إنزال أرزاقهم بغير سعي منهم إليه

كما أنهم طالبوا نبينا الأكرم ﷺ بأن تتكفّل السماء بإنزال أرزاقهم إليهم وهم جالسون في بيوتهم دون أن يبذلوا أي جهد، أو تعب إزاءها، أو أن يقدّموا للمجتمع أي مقابل عنها؛ كي يكونوا عناصر فاعلة فيه. وهكذا فإننا نجد أن كلّ مطالبهم كانت تدور حول موضوع الحاجة، وتصبّ في مجال المنفعة الشخصية المادية الدنيوية.

ونحن يجب ألّا نستغرب هذه الحال هنا، وألّا يأخذنا العجب منه؛ ذلك أن هذا الأمر ينمّ عن عقلية البداوة التي كان عليها أُولئك، والتي كانت سائدة آنذاك قبل الإسلام، بل حتى إبّان بواكير الدعوة الإسلامية.

والقرآن الكريم إنما يستهزئ بهم ويسخر من مطالبهم التي تصبّ في هذا الاتّجاه وتنحو هذا المنحى؛ لأنه جلّ شأنه قد ربط الأسباب بمسبّباتها، وعلّقها عليها، بمعنى أنه تعالى يأمرهم بالمجاهدة في هذه الحياة، والعمل والكدح؛ لكي يصلوا إلى حالة الربح التي ينشدونها عبر الغيب، لا أن يتّكلوا على الغيب في أن ينزل عليهم أموالاً أو أرزاقاً من دون أن يكون لهم يد في ذلك عن طريق العمل والكدح وما إلى ذلك من المسببات الطبيعية لحصول الرزق والربح.

---

(١) إن معجزاته ﷺ كثيرة أن تعدّ أو تحصر، وما طلبه المشركون خاصّة وأهل الكفر عامّة ليس بقليل، لكن حول هذا المقدار ممّا يتعلّق بالمقام انظر: الاقتصاد (الطوسي): ١٧٦، مناقب آل أبي طالب ١: ٥٠ ـ ٥١، مسند أحمد ١: ٢٤٢، ٢٥٨، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٨، السنن الكبرى (النسائي) ٦: ٣٨٠، المستدرك على الصحيحين ١: ٥٣، ٢: ٣١٤، ٣٦٢، ٤: ٢٤٠.

خطر العقلية الاتّكالية على المجتمعات البشرية

وبغير هذا التصوّر فإن عقلية الإنسان تصبح عقلية اتّكالية خطرة، سيما إذا كانت تحمل صفات التأثير على الآخرين، كما أنها عقلية كانت سائدة عند أُولئك الذين عاشوا قبل زمن الرسول ﷺ أو عند من عاصره.

والعقلية التي تكون بهذا التصوّر وهذا النمط تعدّ من أخطر العقليات على الإنسان وعلى البشرية عامة؛ ذلك أن الله عزّ وجلّ قد خلقنا من الأرض، واستخلفنا فيها، واستعمرنا بها، وأمرنا بأن نبذل قصارى جهودنا وما نملك من خبرات وطاقات مادية أو عقلية في تسخير الخيرات التي أوجدها الله تبارك وتعالى على وجه الأرض لمخلوقاته بوجه عامّ، وللإنسان بوجه خاصّ، لا أن يصبح إنساناً اتّكالياً على غيره.

ورد في الحديث الشريف أن أحد الخمسة الذين لا يستجاب لهم دعاء هو من يجلس في بيته ولا يخرج إلى السعي والطلب، بل يقول بدلاً من ذلك: يا ربّ ارزقني، ويردّ على من يعترض عليه وعلى جلوسه، ويستنكر عليه عدم السعي بالقول: كما يأتيني الموت وأنا في مكاني، فرزقي يأتيني وأنا في مكاني كذلك. يقول الحديث النبوي الشريف: «**خمسة لا يستجاب لهم: رجل جعل الله بيده طلاق امرأته فهي تؤذيه وعنده ما يعطيها ولم يخلِّ سبيلها، ورجل أبق مملوكه ثلاث مرات ولم يبعه، ورجل مر بحائط مائل وهو يقبل إليه ولم يسرع المشي حتى سقط عليه، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يُشهد عليه، ورجل جلس في بيته وقال: اللهم ارزقني ولم يطلب**»[1].

---

(١) الخصال: ٢٩٩ / ٧١، الرسائل العشر (ابن فهد الحلي): ٤٣٦، بحار الأنوار ٩٠: ٣٥٦ ـ ٣٥٧. ورأي رسول الله ﷺ قوماً لا يزرعون، فقال لهم: «ما أنتم؟» قالوا: نحن المتوكّلون. فقال ﷺ: «لا، بل أنتم المتّكلون». مستدرك وسائل الشيعة ١١: ٢١٧ / ١٢٧٨٩، جامع أحاديث الشيعة ١٤: ١٤٨ / ٢٠٨١.

فإذا كان كلّ شيء يأتي إلى الإنسان وهو جالس في بيته دون جهد منه، ودون تعب أو مكابدة ومكافحة للحياة، فلماذا إذن خلق الله تبارك وتعالى الإنسان؟ هل خلقه لكي يبقى جليس بيته دون أن يكون عنصراً فاعلاً ومؤثّراً في المجتمع، بل يكون كالبهيمة يريد أن يرتع ويشرب، وأن يأتيه رزقه إلى حيث يجلس دون أن يبذل إزاء الرزق أي مجهود؟ وهذه العقلية الاتكالية هي بعينها التي يعبّر عنها بعض الأُدباء بقوله:

جرىٰ قلم القضاء بما يكونُ فسيّان التحرّك والسكونُ

جنون منك أن تسعىٰ لرزق ويرزق في غشاوته الجنينُ[1]

وهذا طبعاً تصوّر مخطوء حول هذه المسألة الخطيرة، وتصوير لها بشكل يشوّه الحقيقة التي ينبغي أن تتلبّسها، وأن يكون الإنسان نفسه عليها، لكنّها تظلّ تقريراً كاملاً لهذه الحالة السلبية التي تنخر في المجتمع فيما لو أصابته والتي ترديه وتؤدّي به إلى الموت والهلاك.

إذن ـ وكما ذكرنا ـ فإن الله تبارك وتعالى قد علّق الأشياء على مسبّباتها؛ ولذا فإنه جلّ شأنه أراد منّا أن نستثمر منظومة الطاقات التي أودعها فينا وفي الكون حولنا، وهي المعبّر عنها بالطاقات التي تكمن في الأنفس وفي الآفاق، فحثّنا على السعي الحثيث، والعمل الدؤوب، ونهانا عن الكسل المرَضي الجائح، وعن التكاسل والتباطؤ، وذمّ ذلك كلّه. يروى عن أيوب أحد صحابة الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: كنا جلوساً عند الإمام أبي عبد الله الصادقعليه السلام إذ أقبل العلاء بن كامل، فجلس قدّامهعليه السلام وقال له: ادعُ الله أن يرزقني في دعة. فقالعليه السلام له: «لا

(١) شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٦٣، ذيل تاريخ بغداد (ابن النجّار) ٣: ٢٢٦.

أدعو لك، اطلب كما أمرك الله عزّ وجلّ»[1].

فالله تبارك وتعالى قد جعل لنا الأرض ذلولاً، ومنحنا الطاقة على السعي، والقدرة على الحركة، وأراد منا أن نعمل وأن نسعى لنحصل على مقوّمات الحياة في هذه الدنيا. وعليه فإن أي اعتقاد وأي تصوّر خلاف ذلك هو في حقيقته خلاف قوانين الله تبارك وتعالى في الأرض.

الرزق والأسباب الطبيعية لتحصيله

إن هناك اعتقاداً مخطوءاً يجب أن يصحح، وهذا الاعتقاد ينصبّ حول مفهوم شائع وسائد بين عوامّ الناس، وهو أن الله تبارك وتعالى بما أنه هو الرازق، فإنه إذا أراد أن يرزق أحداً تهيّأت له موجبات رزقه، وإذا لم يرد أن يرزقه فإنه سوف لن يُرزق مهما حاول الإنسان ومهما فعل. وكل هذا دون أن يكون هناك أي دخل للأسباب الطبيعية في المقام.

إن مكمن الخطأ في هذا المفهوم، هو ارتكازه إلى محور إلغاء الأسباب الطبيعية التي قدّرها الله تبارك وتعالى، وجعلها وسائل لتحصيل ما أودع للإنسان في هذا الوجود، فكانت الطرق المشروعة لتحصيل الرزق، أو أي شيء آخر في هذه الحياة. فكلّ شيء يسعى إليه الإنسان؛ سواء كان رزقاً، أو غيره لابدّ أن يكون مرتبطاً بمنظومة من الأسباب الطبيعية التي جعلها الله تبارك وتعالى طريقاً لتحصيل ذلك، وخاضعاً لها؛ إمضاء لإرادة السماء، ومعبّراً وممرّاً للوصول إلى الهدف الذي يريده الإنسان في هذه الحياة في سعيه وراء كسبه مقوّمات حياته؛

---

(١) الكافي ٥: ٧٨ / ٣، تهذيب الأحكام ٦: ٣٢٣ ـ ٣٢٤ / ٨٨٨.
وقال رجل للإمام الكاظم عليه السلام: ادع الله جلّ وعزّ يرزقني الحلال. فقال: «أتدري ما الحلال؟ الكسب الطيب». جامع السعادات ٢: ١٢٩.

بناء على كونه مخلوقاً مختزناً للتجربة، ويمتلك القابلية على التحليل والتركيب للإفادة من كلّ تلك الأسباب الطبيعية.

سلبيات إلغاء الأسباب الطبيعية

ومن هنا فإن إلغاء الأسباب الطبيعية يعني شيئاً واحداً لا غير هو أن تتحوّل الأرض كلّها إلى كائن مستهلك غير منتج؛ لأن الكلّ سوف يعتمد على الغيب في عملية الرزق، وفي عملية تحصيل الأشياء الأُخرى في هذه الدنيا دون أي عمل، وبالتالي فإن الكلّ سوف يتحوّلون إلى كيان مستهلك، وهذا لا يعني إلّا شيئاً واحداً هو موت الحياة وموت الأرض، وجمود الحركة وشلّ ديناميكية التطوّر وإيقاف عجلته فيها.

إشكال مقدّر

إن هذا المعنى الذي تطرقنا إليه فيه إجابات على كثير من التساؤلات التي يمكن أن تستثار في أذهان البعض، فهؤلاء مثلاً يقولون: إننا آمنا بالله تعالى، وجاهدنا في سبيله بين يدي رسوله، وبذلنا أموالنا ونفوسنا، فلماذا إذن يأكل غيرنا هذه الثروات الهائلة ونحن لم ينلنا منها سوى نصيب لا يكاد يذكر،أو ربما لم ينلنا منها نصيب أبداً؟

وللإجابة عن هذا التساؤل أو الإشكال لابدّ أن نقول: إننا في الواقع متأخّرون في مجال فهمنا لمرادات القرآن الكريم بمسافات شاسعة جدّاً، بل ربّما نفهمه فهماً مغلوطاً يبتعد عن روحه محتواه.

إننا بهذه النزعة الاتّكالية المليئة بالكسل والتخاذل لا يمكن أن نصل إلى أي شيء وصل إليه غيرنا ولو في زمن ما، قبل مئات السنين.

فما دمنا بهذه العقلية وبهذا اللون من التفكير والتعامل مع الواقع والحياة والأسباب فإننا سوف نظل وراءَ وراءَ، ولن نتمكّن من أن نلحق بركب الحياة وقافلة التطوّر والعلم. ففي الوقت الذي يكون غيرنا قد صارع الحياة وجاهدها وكافحها، وقد صرعها وتغلّب عليها، فأخذ منها ثمارها وكنوزها، وقطف منها مجدها، وتمكن من معادلات السيطرة على حركة التطوّر والإبداع فيها، فإننا نجد أنفسنا بأننا لا زلنا نقبع في تلك القوقعة التي بنيناها حول أنفسنا دون أن نفتحها، أو أن نحاول أن نفتح لنا مخرجاً منها.

إن هناك فرقاً واسعاً وبوناً شاسعاً بين الإنسان الذي يستثمر عقله وطاقاته، ويستثمر الموجودات الأُخرى على الكرة الأرضية من نباتها وجماداتها وحيواناتها، ويستثمر العمل بكلّ أبعاده، وبين ذلك الإنسان الذي يتقوقع على نفسه متّكلاً على غيره في أن يطعمه أو أن يُلبسه، أو أن يصنع له آلة تقلّه أو تقوم له بحاجاته إنتاجاً وحركة في هذه الدنيا. فالإنسان الأول قطعاً سوف ينتج ويبدع في إنتاجه، وسوف يقطف ثمار ذلك الإنتاج، وسوف يهنأ بها، أما اللون الثاني ـ وهو اللون المستهلك الاتّكالي ـ فحينئذٍ سوف يبقى مفتقراً لتلك الامتيازات التي حصل عليها غيره ممن كدح وكدّ وجاهد وسعى في هذه الحياة، وسوف يظلّ محروماً من تلك الامتيازات التي توصل غيره إليها.

إذن فإننا إنما نحتاج إلى سعي في هذه الحياة، وإلى مجاهدة ظروفها؛ كي نصل إلى ما وصل إليه الآخرون، وإلّا فإننا لا نختلف عن غيرنا ممن غزا الفضاء، وشطر الذرّة، واستثمر العلوم بأبعادها كافّة؛ فالدماغ عندنا وعندهم واحد، فكلنا بشر لا نفترق من الناحية البيولوجية أو الفيزيولوجية، بل لا نفترق إلّا بنمط التفكير وفلسفة النظرة إلى الحياة التي ينظر بها كلّ إنسان إليها، والتي على ضوئها يرتّب

علاقته بها، ويستثمر وجوده فيها، ويقرّر هدفه منها.

رجع

ومع كلّ هذا فإننا نرى أن الله تبارك وتعالى قد أنزل علينا آيات تكوينية للإيمان به، لكن هؤلاء لم يعتبروها؛ لأنها لم تكن لتعود عليهم بربح مادّي؛ فتركوها لأنها كذلك وإن دلت على وجود الله تبارك وتعالى. يقول أحد علماء البيولوجيا الغربيين: حينما يلاحظ النحل أن درجة حرارة خليته قد ارتفعت، فإنه ينقسم إلى ثلاث مجموعات:

١ ـ مجموعة تجلب الماء.

٢ ـ مجموعة تأخذ الماء وتنضحه على الخلية.

٣ ـ مجموعة تخفق بأجنحتها فوق الخلية؛ لترطيبها وتلطيف الجوّ حولها ولتبريدها؛ كيلا تؤدّي الحرارة المرتفعة إلى فساد ما فيها من بيوض أو من طعام لصغار النحل.

ثم يتساءل هذا العالم فيقول: لو أنّنا قمنا بتشريح إحدى هذه النحلات، فهل سنجد أن شبكتها العصبية متطوّرة إلى الحدّ الذي تتمكّن معه من القيام بمثل هذه العمليات المنظّمة الفائقة، والمهامّ العالية المعقّدة غاية التعقيد، والتي تنفّذها وكأنها قد قامت بدراستها مسبقاً، والتدرّب عليها، فتساعدها على القيام بكلّ ذلك، أم إنها ليست كذلك، بل إن وراءها مدبّراً قادراً، وخالقاً حكيماً قيّوماً هو الذي ألهمها هذه القابلية؟

وحتى لا يأخذ هذا التساؤل منّا طويل وقت، ولا كبير عناء، فإننا نقول: إن الإجابة عليه تعدّ من أوضح الواضحات؛ ذلك أننا أينما اتّجهنا وجدنا الله جلّ

وعلا في هذا الوجود، وعرفناه فيما أبدع من صنع مخلوقاته، فهو تعالى موجود في كلّ ذرّة من ذرات هذا الوجود المترامي الأطراف، ونعني بذلك قدرته تبارك وتعالى الظاهرة في كلّ شيء منها، والتي تدلّ بغير شكّ ولا مراء عليه سبحانه[1].

المبحث الثاني: إنزال المعجزات ووظيفة سفراء السماء

تقول الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾

فالقرآن الكريم في مثل هذا التعامل مع الإنسان يكون قد نقل أذهان البشر نقلة نوعية رائعة من حالة الركود التي كانوا عليها إلى حالة الحركة، فكأنما يقرّر لهم بالقول: إنكم إنما تكلّفون النبي أشياء ليست من اختصاصه، بل فوق قدرته وطاقته؛ ولذا كان الجواب: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾.

القرآن الكريم والعلوم الحديثة

وفي واقع الأمر إن هذا المقطع ذو عطاء عظيم جدّاً؛ فهؤلاء إنما يكلفون النبي الأكرم ﷺ بإحداث آيات لهم، وإيجاد أُمور هي في حقيقتها خارجة عن اختصاصه، فالنبي الأكرم ﷺ حينما جاء فهو إنما جاء معلماً ومربياً ومصلحاً، أي ليصلح المجتمع وينقذه من وهدته التي هو فيها. وهذه هي وظيفته الأساس، وهي عينها وظيفة القرآن، لا تختلف عنها بشيء أبداً. فالقرآن الكريم له دور أساس هو بناء المجتمع الصالح، وإيجاد دستور عبادي وحياتي واجتماعي للمجتمع؛ كي يسير الناس على هديه ونهجه ليسلكوا جادة الصواب، وليصلوا إلى

---

(١) قال أبو العتاهية:

وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنه الواحدُ

ديوان أبي العتاهية: ١٠٤.

الهدف الذي يريد الله سبحانه منهم أن يصلوه، والأنبياءﷺ لهم دورهم النابه والفاعل، والذي لا يخرج عن هذا الإطار، فوظيفتهم المحافظة على سلامة الرسالة وعدم انحرافها أو تضييعها، والحضور الدائم الذي يمنحها الوجود والاستمرارية والخلود في دنيا الإنسانية، ويحقّق هذه الصفة لها على امتداد خطّ تاريخ الإنسانيّة.

إن هذا هو الدور الرئيس للقرآن الكريم، ولكنا مع ذلك نجد أن هناك من يطالب بأن يكون القرآن الكريم كتاباً للعلوم التطبيقية الحديثة، وهؤلاء يريدون من القرآن الكريم أن يجيب على تساؤلاتهم العلمية في الفيزياء والكيمياء والفلك كافّة، وكأن القرآن الكريم إنما أُنزل على أنه كتاب علمي تطبيقي لغرض إقرار بعض النظريات العلمية والارتقاء بها إلى مستوى الحقائق، ونقض النظريات الأُخرى التي ليس لها نصيب من الصحّة.

فهؤلاء يريدون أن يستدرّوا من القرآن الكريم تفسيرات وتحليلات لكثير من النظريات العلميّة، أو المعادلات التي تفسّر حقائق العلوم، والتي تعترضهم في طريقهم، والتي تواجههم في سبيلهم العلمي أو المهني، فيطالبونه بإيجاد الحلول لكلّ ما يقف أمامهم من إشكالات علمية ومن إيرادات في مجال اختصاص كلّ واحد منهم.

ومثل هذا الهوس في هذا الجانب نجده حتى عند بعض المفسّرين الذين يحاولون أن يجرّوا القرآن الكريم إلى حيّز علمي محدّد ومحدود، وإلى نطاق ضيّق، وهو أمر مغلوط جملة وتفصيلاً، كما نوّهنا[1].

---

(١) لأن تعليق القرآن الكريم على النظرية العلمية مهما كانت يعني أمراً واحداً هو بطلان القرآن الكريم نفسه، وبطلان كونه من عند الله تبارك وتعالى (نستغفر الله)، في حال بطلان تلك النظرية، وعدم صمودها أمام الواقع العلمي أو الخارجي.

الحياة والتخصص

وكدليل على هذا إننا نجد بعض المفسّرين حينما يتناول آية كريمة في نطاق اختصاصه التفسيري، فإنه ينحرف عن ذلك المسار، وينجرف بعيداً عنه؛ ليوجهها وجهة غير تلك التي ينبغي أن تكون عليها؛ فنجده مثلا يقول: إن هذه الآية الكريمة قد عالجت القضية العلمية الفلانية، وتلك قد بيّنت أبعاد الكواكب فيما بينها أو عن الأرض، أو إن هذه الآية الشريفة قد تناولت بعض الأحماض والمعادن والأملاح الموجودة في جسم الإنسان، وما إلى ذلك من الهوس غير المشروع الذي يحاول بعض المفسرين زجّ القرآن عبره في المجال العلمي البحت. وهذا التوجه غريب جداً كما لا يخفى، بل إنه أشبه بطبيب يصنع علاجاً معيناً، ويضعه في قارورة ثم يكتب عليها: هذا دواء لكلّ داء.

إذن فالمفسّر الذي يحاول أن يزجّ القرآن في المجالات العلمية الصرفة كافّة، وأن يجعله كتاباً علمياً يتناول جميع العلوم التطبيقية مبتعداً به عن صورته الحقيقية، ووظيفته التقنينية الرئيسة لهو مثل ذلك الطبيب الذي يدّعي أن دواءه ذاك شفاء لكلّ داء.

إن القرآن الكريم له وظيفة أساسية كما ذكرنا، وهي أنه رسالة سماوية لها دورها البيّن والواضح، وهو إنقاذ المجتمعات الإنسانية من الضلال، ومن وهدة الحضيض إلى الهداية والقمّة. فوظيفة القرآن هي إيجاد منظومة من التشريعات والقوانين التي تغطّي أبعاد الحياة والموجودات كافّة على هذه الأرض، بحيث إنه لا يترك ثغرة وراءه دون أن يحكم غلقها، أو دون أن يوجِد تشريعاً أو تقنيناً لها في مجالات الحياة عامّة، كالعقائد والأخلاق والجنبة العبادية، وما إلى ذلك ممّا يصبّ في هذا المصبّ.

فهو إذن يتناول علاقة الإنسان مطلقاً بالوجود المطلق من حوله؛ فيتناول علاقة

الإنسان بربّه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بغيره من بني جنسه.. بزوجته، وبابنه، وبجاره، وعلاقته بالموجودات الأُخرى؛ جمادها، وغير الجماد منها، وكيف يمكن أن ينظّم تلك العلاقة بحيث إنها تصبح علاقة شرعية، أو تصبح تصرّفاته معها وإزاءها تصرفات مشروعة لا يخضع للمساءلة معها أمام الله تبارك وتعالى، وكيف له أن يستثمر كلّ ما في الوجود من أبعاد إيجابية بشكل مشروع لصالحه ولصالح مجتمعه. كما أنه أيضاً ينظم علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة القادة بالقاعدة.

وبتعبير مختصر إنه يتناول كلّ القوانين التي تنظّم للإنسان الحياة من حيث سيرورتها، وإرشاد الإنسان إلى طرق الخير فيها ليسلكها، وتنبيهه إلى طرق الشرّ فيها ليجتنبها ويبتعد عنها.

وكلّ هذا ليس له علاقة بالاختراعات، أو بغزو الفضاء، أو ما إلى ذلك من العلوم التطبيقية الأُخرى، غاية ما في الأمر أن الله تبارك وتعالى حينما خلق الإنسان فإن عليه هو أن يخترع ما فيه خدمة له وراحة، وأن يستغل ما أعطاه الله من طاقات علمية وعقلية وقدرات تحليليّة وقابليات على الربط بين الأسباب ومسبَّباتها، وبين العلل ومعلولاتها، وبين المقدمات ونتائجها، وما يمكن أن تفيده التجربة به، وأن يستغل قابلياته على اختزان تلك المعلومات في الحياة ليستغلّها أخيراً في اختراعاته وفي صناعاته وفي خدمة مشاريعه العلمية التي هو بصدد سلوك طريقها.

فالله تبارك وتعالى منح الإنسان المليارات من الخلايا في دماغه ليستغلّها في التفكير والتدبير، والتحليل والتركيب؛ كي يتمكن من حل المعادلات العلمية التي تمثّل مجال اختصاصه. وللعلم فإن المختصّين في مجال الفسلجة يقولون: إن هذه الخلايا الدماغية يتحدّر منها أربعة عشرة مليون سلك عصبي، بحيث إنه لو تماسّ

سلك منها بسلك آخر لا ختلّ توازن الإنسان، ولامّحت تلك المعلومات التي يختزنها على شريط ذاكرته.

وهذا اللون من التنظيم الدقيق والعالي، وهذا النمط من العطاء لا يكون إلّا من الله تبارك وتعالى، ولا يريد به الله تبارك وتعالى من الإنسان إلّا أن يستغلّه في عمليات البحث والدراسة والتحليل للوصول إلى المستوى العلمي الذي يريده على صعيد الخير، دون أن يطالب القرآن الكريم أو النبي ﷺ بإيجاد الحلول لذلك؛ لأن هذه الأُمور لا يمكن أن توكل مهمتها إلى النبي ﷺ أو إلى القرآن الكريم، فيطلب منها أن يحلّلا التربة لمعرفة الصالح منها والخصب؛ كي تُستغلّ في الزراعة، والطالح منها كيلا يزرع فيه، ممّا يؤدّي إلى ربح الإنسان.

فكلّ هذا ليس من اختصاص القرآن الكريم، ولا من اختصاص النبي ﷺ أو عمله؛ لأن النبي الأكرم ﷺ إنما هو رجل رسالة، ورجل الرسالة إنما يبعث ليقوم بتنظيم شؤون الحياة وعلاقات الإنسان بما حوله من الوجود كله وفي الوجود كله. ومن هنا جاء الجواب من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾.

ومن هنا أيضاً فإن الله تبارك وتعالى قد أمرنا أن نسأل كلّ ذي اختصاص عن اختصاصه:

فالمريض عليه أن يتوجّه إلى الطبيب ويسأله عن دائه؛ لكي يصف له الدواء الذي يناسبه، إن كان يريد أن يتعافى من مرضه.

ومن يرد أن يبني بيتاً فعليه أن يذهب إلى مهندس ويسأله عن تصميم خريطة له، أو حساب تكاليف البناء التي ينبغي أن تكون ضمن وسعه، أو ما يحتاج إليه في عملية البناء مما هو داخل في مجال اختصاص المهندس المدني أو المعماري مثلاً.

ومن كان بحاجة إلى استشارة قانونية فعليه أن يذهب إلى فقيه قانوني، أو إلى محامٍ أو قاضٍ أو ما إلى ذلك ليسأله عن معضلته.

ومن هنا فإنه لا يعقل لمن كانت وظيفته الإنذار أن يطالب بحلّ المسائل العلمية أو المسائل التطبيقية في الزراعة أو الكيمياء أو الفيزياء؛ لأن الشخص المنذر وظيفته معلومة ويجب أن يسأل في مجال هذا الاختصاص أو هذه الوظيفة التي خلق لها، ويسّر لها، وكلّف بأدائها.

إذن فمجالات الحياة كبيرة وواسعة، ومتنوّعة ومتشعّبة، واختصاصاتها كثيرة، ولكلّ وظيفةٍ أو اختصاصٍ من يختصّ بهما، ومن يرصد نفسه لولوجهما والعمل في ميدانهما؛ ومن هنا فإن على الإنسان أن يسأل كلّ ذي اختصاص عن اختصاصه؛ فكما أنه لا يجوز للمريض أن يستشير مهندساً، ولا لمن عنده إشكال قانوني أن يستشير طبيباً، فكذلك لا يجوز لمن عنده سؤال علمي أن يتوجه إلى من وظيفته الإنذار أو بناء الحياة السليمة على أُسس الأخلاق والشرائع والنظم السماوية والقوانين الإلهية.

وكما ذكرنا فإن هذه الالتفاتة الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ هي التفاتة رائعة تريد أن تحصر وظيفة النبي ﷺ أمام هؤلاء وأن تقول لهم: إن سفير السماء ليس من اختصاصه أن يحلّل لكم التربة، أو أن يوجد لكم حلول المعادلات العلمية التي يكون نتاجها مجموعة من الاختراعات، أو أن يظهر لكم بعض الأجوبة على إشكالاتكم تلك التي تختص بالتطبيقات العملية.

ولتقريب المعنى أكثر فإنني أروي حادثة هي أن رجلاً تنبّأ ـ أي ادّعى النبوّة ـ في خلافة المأمون، فقال له المأمون: ما أنت؟ قال نبي. قال: فما معجزتك؟ قال: سل ما شئت. وكان بين يدي المأمون قفل، فقال: هذا قفل فافتحه. فقال له: أصلحك الله، إني لم أقل لك بأني حداد، وإنما قلت: إني نبي. فضحك المأمون

واستتابه ووصله[1].

فما نحن في صدده في المقام هو من هذا النمط؛ فعلينا أن نفرق بين وظيفة النبي ووظيفة الولي ووظيفة الطبيب ووظيفة غيرهم من ذوي الاختصاص، وبخلافه فإننا ربما نكلّف النبي أو الولي ما هو خارج اختصاصه، وهذا لا يمكن أن يكون ولا أن يصحّ أبداً.

نعم، إننا يمكن أن نطلب من النبي أو الإمام أو الولي (عليهم الصلاة والسلام) أن يدعوا الله عزّ وجلّ بأن ييسر لنا سبل الحياة، وهذا توجّه معقول لا شائبة فيه، وليس فيه بأس، فهذا المقدار هو من مجال اختصاصه. أمّا أن نقول له: حلّ لنا المعادلة العلمية التالية فهذا غير صحيح؛ لأنه ليس من مجال اختصاصه؛ ولذا فإن الآية الكريمة في هذا المقطع المشار إليه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ تصرّح طالبة من الناس أن يصحّحوا أفكارهم في هذا المجال، وأن يتوجّهوا التوجّه السليم في محاولاتهم لحلّ مشاكلهم، أو لإيجاد حلول لما يعترضهم في طريقهم المهني، أو العلمي، أو حتى في أُمور الحياة عامة:

رُدّ هذي الحقول والزرع للفـ ... ـلاح كي تمرع الرُّبا والهضابُ

وأعد كلّ معمل ليد العـ ... ـمال حتى يصحّح الإنتسابُ

ولغير الملّاح لا تدفعوا الزو ... رق فالبحر ظلمة وعبابُ

واعطِ هذا اللوا لكفّ تلظّى ... في الوغى واستوت عليها الحرابُ

فدروب الكفاح أوعر من أن ... يمتطيها مرفّه ملعابُ

فالحياة كلها تخصّصات لا يمكن أن يُصار بها إلى غير ذويها؛ وعليه فإنه يجب أن يعطى الزرع للفلّاح، والعمل للعامل، والبحر للملّاح، وهكذا في مجالات

---

(١) شجرة طوبى ١: ٥١ نهاية الأرب في فنون الأدب ١: ٣٨٩، نثر الدرر ١: ١٦١، التذكرة الحمدونية ٢: ٣٦٥.

التخصّصات الحياتية الأُخرى كافّة.

الازدواجيّة في المعايير

ومع ذلك فإننا نعود لنقول: إن ما جرت عليه عادة البعض وطباعهم هو خلاف هذا، فيمنحون من لا يستحقّ اللقب لقباً، ويسلبون ذا اللقب لقبه وذا الحقّ حقّه. ومن هذا مثلاً أن هؤلاء يصفون من لم يرَ ساحة الحرب، ولم يضرب بسيف ولم يطعن برمحٍ، بل لم يقتل ذبابة في حياته بأنه سيد الشجعان، أما ابن أبي طالب عليه السلام الذي شهدت له الخضراء والغبراء بالشجاعة فإنه لا يوصف كذلك، ورحم الله بعض أُدبائنا حيث يقول:

لم يعانِ الوغى لواء ولا عا ... نى فريق أهوالها إذ تسيرُ
رتب صنعة الدواوين ما شا ... رك فيها قرُّ الوغى والهجيرُ
وتطير النسور في زحمة النجـ ... ـم وفي عشّه البغاث يطيرُ
جَبُنَ القادة الكبار وفرّوا ... وبكى للفرار جيش جسورُ[1]

فمن يجب أن يطلق عليه لفظ شجاع أو سيد الشجعان ينبغي عليه أن يكون أهلاً لهذا اللقب، بل يستحقّه عن جدارة؛ بأن يكون قد خاض الحروب، وقاتل ضارباً بسيفه طاعناً برمحه، فتشهد له ساحات الوغى وميادين القتال والمعارك بأنه قد قارع الأبطال، وبزّ الأقران؛ حتى لا يقال: إن هذا اللقب قد مُنح له اعتباطاً. وبالرجوع إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فإننا نجد أن تاريخه الحربي والجهادي تاريخ مشرّف حافل بشواهد القتال والطعن والضراب دفاعاً عن دين الله سبحانه وتعالى، وذبّاً عن رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. ومن هذا مثلاً أنه عليه السلام حينما عاد من معركة أُحد كان في جسمه أربع وستّون ضربة وطعنة، فطرحوه على فراشه والدماء تنضح

(١) ديوان بدوي الجبل: ١٩٢ ـ ١٩٣.

من كلّ أبعاد جسمه الشريف، حتى اضطرّت السيّدة الزهـراء﴿ع﴾ إلى أن تـحرق حصيراً وتطبّب له جراحه به.

فهو﴿ع﴾ إذا أردنا أن نعطيه لقب سيد الشجعان، فإن هذا خطّه واتجاهه، ودأبه وصفته؛ فهو يستحقّه ويستحقّ ما هو أكثر منه. أما أن نعطي هذا اللقب لغير مـن يستحقّه، فهذا في واقع الأمر التفاف على الحقيقة، وخروج بالإنسان عن حدود اختصاصه.

ومن هنا فإن علينا أن نتأمل في هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ**﴾ الذي يقرّر أن ذا الاختصاص والوظيفة يـجب ألّا يُـخرج بـه عنهما، ولما كانت وظيفة النبي الأكرم﴿ص﴾ الإنذار والتبشير بكلّ ما يتعلّق بكلمة منذر ومبشّر من معانٍ ومن عوالق تسير في اتجاه الإنذار والتبشير أنفسهما؛ فإن على الناس أن يتقيّدوا بهذا المقدار الذي رسمته السماء له؛ ولهذا فإنها تؤكّد عبر خطابها النبي الأكرم﴿ص﴾ على أن تبيّن له﴿ص﴾، وللناس جميعاً بأنه ليس من حقّ هؤلاء أن يطالبوه﴿ص﴾ بما هو خارج حدود وظيفته. ومن هنا فإنها تقرّر له﴿ص﴾ قائلة: إن عليك ألّا تصغي لكلامهم، وألّا تعطيه مساحة من الاهـتمام والتـقييم والتقدير؛ لأنه خلاف الحقّ.

ونحن حينما نقول: إن وظيفة النبي﴿ص﴾ الإنذار والتبشير بكلّ ما يتعلّق بالإنذار والتبشير من معانٍ، فإننا إنّما نريد أنّه﴿ص﴾ مكلف بـحفظ رسـالة السـماء بكـلّ أبعادها، وبإيصالها إلى الناس بكل أبعادها، وإلى كلّ مستوياتهم، فتبشّر من يطيع بالخير والجنّة، وتنذر من يعصي بالشرّ والعقاب.

الاجتهاد في حياة النبي﴿ص﴾

وإذا كان على كلّ ذي اختصاص ألّا يتعدّى حدود وظيفته، فلا يتدخّل فـي

شيء خارج اختصاصه وليس منه، فإن علينا أن نتأمّل بدقّة في سيرة الرسول الأكرم ﷺ، لنتّخذ منها قدوة حسنة يجب أن نحتذيها في هذا المجال، ونهجاً بنّاء علينا أن نختطّه بحذافيره في حياتنا العملية. فالآية الكريمة إذ تقرّر وظيفة الرسول الأكرم ﷺ مع ما أعطاه الله تبارك وتعالى من عطاء ضخم، وما ميّزه من ميزات كثيرة، فإننا نجده يقف عند حدود رسالته ووظيفته دون أن يتعدّاهما إلى ما وراءهما. وهذه صورة رائعة، وأدب عظيم يجب أن يتمثّل به كلّ ذي اختصاص، فلا يتدخّل فيما لا يعنيه، ولا يفتي بشيء ليس من اختصاصه. فالرسول الأكرم ﷺ إنما يتكلّم في حدود اختصاصه، وفي حدود ما عنده من أحكام إلهية ممّا يجيئه بها جبرائيل عليه السلام.

ومن هنا فقد وقع نقاش بين بعض العلماء حول إمكانية وقوع الاجتهاد عمليّاً في حياة الرسول الأكرم ﷺ، أي هل إنّ للرسول ﷺ أن يجتهد في الأحكام الشرعية، أم إنه ﷺ ليس له ذلك؟

الإسلام وتعقيدات الحياة المعاصرة

والاجتهاد طبعاً إنما يكون في كلّ واقعة ليس فيها نص من السماء في خصوصها، أو في بيان أحكامها، مع أنّه ليس هناك في من واقعة في اعتقادنا ليس فيها نصّ أو حكم، لكن لابدّ من الإشارة إلى ما يحصل في الوقت الحاضر من طرح لبعض الإشكالات حول الإسلام، ومنها أن الحياة تسير في وتيرة متصاعدة من التطوّر والتعقيد، وأنها كلّ يومٍ في شأنٍ وفي تحوّل وفي اتّساع على مستويات الإدراك والمعرفة كافّة، وبهذا الاتساع تتّسع متطلّباتها، وتزداد الحاجة إلى وضع قوانين تحكمها. وبالرجوع إلى الشريعة الإسلامية فإننا نجد أن ما فيها من آيات أو أحاديث تختصّ بالأحكام أو القوانين التي تعالج مسألة تنظيم الحياة، فإننا

نجدها قليلة قياساً إلى واقع الحياة في الوقت الحاضر، وبذلك فإنها لا تستطيع أن تغطّي كلّ أبعاد الحياة في عصرنا الحالي بتعقيداتها وتطوّرها، أو لحلّ كلّ مشاكلها، أو لسدّ كلّ احتياجاتها ومستلزماتها.

وهذا الطرح في واقع الأمر طرح مخطوء؛ ذلك أن الله تبارك وتعالى ما جعل شيئاً إلّا وفيه كتاب أو سنّة، وما من موضوع حكم أو قضية إلّا وفيهما نصّ يضع الحدّ لهما ويبين حكمهما، يقول الإمام الصادق ﷺ: **«ما من أمر يختلف فيه اثنان إلّا وله أصل في كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»**[1]. وغاية ما في الأمر أنه ينبغي أن يكون هناك من له القابلية الكاملة على استنباط الحكم الشرعي، واستخراجه من مداركه المقرّرة؛ كالكتاب الكريم، والسنة النبويّة المطهّرة، وغيرهما. وحينئذٍ لا ينبغي اللجوء إلى القياس أو غيره من المدارك غير المعتبرة شرعاً.

وهنا لابدّ أن نشير إلى إننا لا نعني أن كلّ قياس هو مدرك غير معتبر شرعاً؛ فهناك قياس المناط[2]، وهناك قياس منصوص العلّة، وهو القياس الذي يمكن أن

---

(١) المحاسن ١: ٢٦٧ ـ ٢٦٨ / ٣٥٥، الكافي ١: ٦٠ / ٦، ٧: ١٥٨ / ٣، تهذيب الأحكام ٩: ٣٥٧ / ١٢٧٥.

(٢) ذكر الأُصوليّون للاجتهاد في العلة أقساماً ثلاثة:

الأول: تحقيق المناط

وقد قسمه المقدسي إلى نوعين:

١ ـ أن تكون القاعدة الكلية متّفقاً عليها أو منصوصاً عليها، ويجتهد الفقيه في تحقيقها في الفرع.

٢ ـ ما عرفت علّة الحكم فيه بنص أو إجماع، فيبين المجتهد وجودها في الفرع باجتهاده. مثل قول النبي ﷺ في الهرّة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطوّافين عليكم والطوافات». فجعل ﷺ الطواف علة، فيبين المجتهد باجتهاده وجود الطواف في الفأرة

يستنبط عبره الحكم على ضوء نصّ الشارع المقدّس على علّته[1].

وغيرها ليلحقها بالهرّ في الطهارة. فهذا قياس جليّ.

الثاني: تنقيح المناط

وهو أن يضيف الشارع الحكم إلى سببه، فتقترن به أوصاف لا مدخل لها في الإضافة، فيجب حذفها عن الاعتبار؛ ليتّسع الحكم. ومثلوا له بقصّة الأعرابي الذي قال للنبيﷺ: هلكت يا رسول الله. فقال لهﷺ: «ما صنعت؟». قال: وقعت على أهلي في نهار رمضان. فقالﷺ: «أعتق رقبة». حيث استفادوا منه ثلاثة أُمور، هي:

١ ـ عدم الخصوصية في كون السائل أعرابياً، فألحقوا به جميع المكلّفين.

٢ ـ ولا في كون المرأة التي وقع عليها أهلاً له، فألحقوا به الزنى.

٣ ـ ولا خصوصية لخصوص شهر رمضان الذي وقع فيه على أهله، فألحقوا به جميع أشهر الصيام.

الثالث: تخريج المناط

وهو أن ينصّ الشارع على حكم في محلّ دون أن يتعرّض لمناط أصلاً، كتحريمه الربا في البُر، فيعمم إلى كلّ مكيل من طريق استنباط علته بدعوى استفادة أن العلة في التحريم هو كونه مكيلاً.

الأُصول العامة للفقه المقارن: ٣١٣ ـ ٣١٦، وانظر كذلك: الإحكام في أُصول الأحكام (الآمدي) ٣: ٣٠٢ ـ ٣٠٣، المستصفى في علم الأصول: ٢٨٣ ـ ٢٨٦، المحصول في علم الأُصول ٥: ٢٠ ـ ٢٤.

(١) ليعلم أن القياس هو إلحاق أصل بفرع في الحكم؛ لاتّحادهما في العلة، وهو على ثلاثة أنواع:

الأول: القياس الجلي

ويسمى أيضاً قياس العلة. وهو ما قطع فيه بنفي الفارق، أو ما تبادرت علته إلى الفهم عند سماع الحكم. وقد مرّ في الهامش السابق تحت عنوان «تحقيق المناط».

الثاني: القياس الخفي

ويطلق عليه كذلك قياس الشبه. وهو ما لم يقطع فيه بنفي الفارق، أو ما لم تدرك علته إلّا بالفكر والتأمل.

الثالث: قياس الأولى

وهو ما كانت العلّة فيه في الفرع أظهر منها في الأصل.

والقياس المنصوص العلة: هو القياس الذي يتصف بأمرين، هما:

فالآية الكريمة تقول للنبي الأكرم ﷺ أيضاً: إن وظيفتك محدّدة وهي الإنذار، وإن على الآخرين أن يعرفوا أن هذه هي وظيفتك، وأن لكلّ شخص وظيفة وتخصّصاً، وأن على كلّ ذي اختصاص ألّا يتجاوز اختصاصه إلى غيره؛ لأنه حينئذٍ سوف يقع في الخطأ إلّا من عصم الله تبارك وتعالى. وعليه فالنبي ﷺ ليس له أن يجتهد لأنه في حقيقة الأمر ناقل للحكم الشرعي الذي تقرّره السماء، أي أنه قناة موصلة بين الله وبين عباده لتبليغهم أحكامه تبارك وتعالى[1].

وهكذا فإن الأحكام التي تنظّم حياة الناس إنما هي أحكام أنزلتها السماء، وهي أحكام تتّصف بكونها أحكاماً توقيفية لا يجوز العمل بها إلّا بإذن الشارع المقدّس، ولا يجوز لشخص أن يشرع حكماً إزاء حكمٍ منها، ولا يجوز تجاوزه أيضاً. وإذا كانت الأحكام توقيفية كما ذكرنا، فحينئذٍ تصبح خارج إطار صلاحية النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام؛ لأنها يتوقّف العمل بها، وصحته وقبوله على إذن الله تبارك وتعالى فيها دون غيره.

لكن ينبغي التنبيه هنا إلى أنه مع ذلك نجد أن الله تبارك وتعالى قد وضع يد النبي ﷺ على المنبع الأساس للأحكام الشرعية، الأمر الّذي يخوّله أن يذكر

---

١ ـ أن تثبت علّته من الشرع المقدّس.

٢ ـ أن يثبت انحصارها ووجودها في المقيس (الفرع).

ومثاله تحريم النبيذ المسكر إذا لم يعتبر خمراً؛ لأجل حرمة الخمر لعلّة الإسكار.

والقياس المنصوص العلة لا يسمى في اصطلاح الشيعة قياساً؛ لأنه مما ثبت حكمه بالسنّة وإن سمي قياساً في اصطلاح الجمهور.

معجم لغة الفقهاء: ٢١١٦ ـ ٢١١٧.

(١) قد تناول المحاضر ﷺ هذه المسألة، وجوانب الإثارة فيها بين فقهاء المسلمين فيما سبق من هذه الموسوعة الشريفة، وقد أضفنا عليها في أحد الهوامش ما لا مزيد عليه من توضيح، فراجع.

الحكم الواقعي المطابق لكل قضية يمكن أن تعترض الإنسان في الجنبة التشريعية، أو التقنينية من حياته.

وبناء عليه فإننا نقول: ليس هنالك من اجتهاد في حقّ النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[1]، يروى عن عبد الله بن عمر أنه قال: كنت أكتب كلّ شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أُريد حفظه، فنهتني قريش عن ذلك، وقالوا: إنك تكتب كلّ شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلّم في الغضب والرضا. فأمسكت عن الكتابه عنه ﷺ، ثم ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده، ما خرج من هذا إلّا حقّ»، وأشار إلى فمه الشريف[2].

ففيما يتعلّق بالأحكام الشرعية أو الأحكام الاجتماعية أو غيرها، فالنبي الأكرم ﷺ إنما يوحى بها إليه، أو يلهمُها إلهاماً، ثم بعد ذلك يعبّر عنها بتعبيره الخاص. وهذا يعني أن الإطار اللفظي هو للرسول الأكرم ﷺ، أما المضمون الذي يحتويه ذلك الإطار فهو من السماء ولها. فعلى الناس ـ كما ينبّه القرآن الكريم ـ ألّا يخرجوا النبي ﷺ عن اختصاصه؛ لأن ما يتفوه به إنما هو من السماء سوى أن القالب الذي يُصبّ به الحكم الشرعي أو التوجيه السماوي هو قالب من صياغة الرسول ﷺ فقط دون أن يكون له دخل في المضمون؛ لأن هذا خارج مجال اختصاصه ﷺ؛ وما دام خارج اختصاصه، فلا يحقّ لأحد أن يدخله هذا المدخل.

وبناء على هذا فكلّ ما ليس من اختصاص ذي اختصاص ليس له أن يتدخّل

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) مسند أحمد ٢: ١٦٢، سنن الدارمي ١: ١٢٥، سنن أبي داود ٢: ١٧٦ / ٣٦٤٦.

فيه، ومن ذلك ما يحاول الآخرون أن يطلبوه منه وأن يهيئه لهم، فعلى هؤلاء أن يتعلّموا النظام والآداب بحضرة الرسول الأكرم ﷺ، وأن يتعلّموا الكيفية التي يسألون بها، وإذا كان عندهم سؤال خارج اختصاص النبي الأكرم ﷺ فإن عليهم أن يعرفوا من هو الذي يجب أن يسألوه، وأنه مختصّ في مجال ما هم بصدد السؤال عنه.

ومع هذا فإننا نقول: إن تاريخنا ببالغ الأسف مكتظٌّ بثغرات كثيرة من هذا النمط، الأمر الّذي جعل منها سحابة معتمة تغطّي مساحة عريضة منه، وترقده بِنقاط سوداء قاتمة تسِمُ جبينه، سعى من خلالها مختلقوها إلى تشويه نقاوة التاريخ الإسلامي المحمّدي، وخدش بتولته بما توحيه قلوبهم الملأى بعتمة الحقد، والتي يسيّرها البغض المقيت. مع أنه تاريخ يجب على الجميع السعيُ حثيثاً لجعل ساحته طاهرة ناصعة، والمحافظة على عفّتها، ودرء كلّ ما من شأنه أن يشكّل علامات استفهام فيه، والتي يمكن للمتتبّع ما فيه من هنات اختلقها أبناؤه ـ وهم أعداؤه ـ أن يتوقّف عندها؛ ليخلق جملة من الإثارات ضدّه، ويجعله مثار إساءة له.

ومن هنا فإن على المنصف أن يذبّ عن هذا التاريخ بكلّ ما يتمكّن كلَّ ما يمكن أن يشوّه استقامة مسيرته، أو حالة النصوع في صورته بما أنّه منسوب إلى هذا الدين الحنيف، وإلى رسولنا الأعظم ﷺ.

المبحث الثالث: المنذر، والهادي من أُمّة محمد ﷺ

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، وفي المنذر والهادي للمفسرين ثلاثة آراء هي:

الرأي الأول: أنك المنذر لكلّ الأمم والهادي لهم جميعاً

فالآية بناء على هذا تخاطب النبي الأكرمﷺ وتقول له: إنك في الوقت الذي أنت منذر فيه لهؤلاء ولمن يأتي بعدهم من الأمم، فأنت هادٍ لهم أيضاً. أي أنك تمارس هذين الدورين معاً، وهما المنذر للناس على المعصية، والهادي لمن أراد الهداية من كلّ هذه الأُمم الحاضرة والقادمة[1].

وتأسيساً على هذا فإن التعبير القرآني الكريم هنا يصبح ممّا يطلق عليه بلاغياً باللفّ والنشر المشوّش[2]. وهذا يعني أن النبي الأكرمﷺ هو الهادي والمنذر

---

(١) وبناء على هذا الرأي فهنا أمران:
الأول: أن كلمة ﴿لِكُلِّ﴾ من الآية الكريمة تعتبر جاراً ومجروراً متعلّقين بالخبر الذي هو ﴿هَادٍ﴾، والذي مبتدؤه قوله تعالى: ﴿أَنتَ﴾، أي أنت منذر، وأنت هادٍ لكلّ قوم.
الثاني: أن القضية هنا مأخوذة على نحو القضية الحقيقية لا الخارجية.

(٢) فائدة بلاغيّة، في تعريف «اللفّ والنشر» وأقسامه.
اللّفُّ والنّشر ـ ويسمى الطيَّ والنَّشْرَ كذلك ـ: فَنٌّ بلاغي داخل في المتعدّدات التي يتعلّق بكلّ واحدٍ من أفرادها أَمْرٌ لاحق. فاللّف هو ما يُشار به إلى المتعدّد الذي يؤتى به أوّلاً، أما النشر فهو ما يُشار به إلى المتعدّد اللّاحق الذي يتعلّق كلُّ واحد من أفراده بواحد من أفراد السابق من غير تعيين. فإذا أتى المتكلم مثلاً بأفراد متعدّدة، وبعدها جاء بأفراد متعدّدة أُخرى يتعلّق كلّ فرد منها بفرد من أفراد السابق بالتفصيل ودون تعيين، سُمِّيَ صَنيعُه هذا «لفّاً ونشراً».
أو هو ـ اللّفُّ والنّشر ـ: أنْ يذكر متعدّد، ثم يذكرَ ما لكلٍّ منْ أفرادهِ شائعاً منْ غيرِ تعيينٍ، اعتماداً على تصرفِ السامعِ في تمييزِ ما لكلِّ واحدٍ منها، وردّهِ إلى ما هوَ لهُ. والمتعدّد السابق للنشر قسمان:
القسم الأول: اللّف المفصّل
وهو ما إذا جاء لَفُّ المتعدّد السابق مفصّلاً، وهذا القسم له وجهان بملاحظة النشر اللّاحق واعتباره، وهما:
الوجه الأول: اللّفّ والنشر المرتّب. وهو أن يأتي النشر على وفق ترتيب اللّف.
الوجه الثاني: اللّفّ والنشر المُشَوّش، أو غير المرتّب. وهو أن يأتي النشر على غير ترتيبه اللّف.

للأجيال جميعها من عهده (صلوات الله عليه وعلى آله) وإلى أن تقوم الساعة؛ لأن كلمة (كل) يعبِّر عنها المناطقة أنها سور الموجبة الكلية، وهذا يعني أن الحكم يشمل جميع مدخولاتها، وهي هنا تعني جميع الأُمم التي تعاصر الرسول، والتي سوف تخلفها وتأتي بعدها إلى أن تقوم الساعة، فكلّ هؤلاء سيكون لهم رسول الله ﷺ منذراً وهادياً.

إن هذا المقطع من الآية الكريمة يأخذ بأيدينا إلى القول بأنّ على جميع الناس الموجودين في الوقت الحاضر من أبناء الأديان الأُخرى غير دين الإسلام أن يدينوا بالإسلام، وهذا يعني أن كل الأديان عدا الإسلام أديان باطلة؛ لأنها نسخت بالإسلام الشريف، ولأن أبناءها يجب أن يتبعوا الدين الإسلامي الحنيف. فهم جميعاً مسؤولون عن أن يتديّنوا على ضوء هذا الدين؛ لأن الله تبارك وتعالى قد ختم الأديان كلها بهذا الدين الحنيف وهو الدين الإسلامي الكريم. وإذا كان كذلك فالنبي الأكرم ﷺ هو منذر لكلّ هؤلاء الأُمم ممن يدينون بالإسلام، أو غير الإسلام، وهو ﷺ هادٍ لهم أيضاً. والخلاصة أن الله تبارك وتعالى قد بعثه ﷺ للناس كافّة.

القسم الثاني: اللّف المجمل

وهو ما إذا جاء لفُّ المتعدّد مجملاً، ويكون النشر اللّاحق له مجرّد بيانٍ تفصيليّ للمجمل.

ومن أمثلته قول الله عزّ وجلّ: ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ ۞ فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٨ ـ ٢٣٩]، حيث جاء اللّفُّ المجمل في عبارة: ﴿فَإنْ خِفْتُمْ﴾ خطاباً للمؤمنين حالة الحرب، وبعده جاء النشر المفصّل في عبارة ﴿فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً﴾. أي فالرجال منكم يُصلُّون رجالاً، والرُّكْبانُ منكُمْ يُصلُّونَ رُكْباناً على قدر استطاعة كلٍّ مِنْهُم.

انظر: الايضاح في علوم البلاغة ١: ١١٤، ٢٣٢ ـ ٢٣٤، الخلاصة في علوم البلاغة ١: ٦٨.

والإسلام وإن كان في واقع الأمر حينما جاء لم يجرح الأديان الأُخرى ولم يخاطبها إلّا بالحكمة والموعظة الحسنة، لكنه خاطب أتباعها بالقول: إنهم إن يعملوا وفق أديانهم هذه فسوف لن يقبل من أي عامل منهم عمله؛ وذلك صريح قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

فعلى غير المتدين بالإسلام أن يعرف بأن الإسلام قد ختم الأديان والشرائع الأُخرى كافّة، ومنها شريعته هو؛ ولذا فإن عليه أن يتعبّد وفق تعليمات وتشريعات الدين الإسلامي التي أنزلها الله تبارك وتعالى على رسوله الأكرمﷺ. فإن لم يستجب لهذا فإن الإسلام لن يقاتله مباشرة؛ لأنه ينظر إليه على أنه صاحب كتاب سماوي، وذو عقيدة دينية إلهية وإن كانت قد زوّرها أهلها، لكنّها تبقى في نظر الإسلام عقيدة أصلها سماويّ، ويبقى صاحبها من أهل الكتاب والعقائد الذين تعبّدوا ـ ولو لفترة معينة ـ على عقيدة السماء. ومن يتّصف بهذه الصفة فإنه ـ ابتداء ـ يمكن أن يؤمن جانبه، دون أن يُنظر إليه على أنه يمكن أن يشكّل أي خطر على المجتمع الديني كذلك الخطر الذي يمكن أن يشكّله عليه من لا يحمل أي فكر سماوي، أو عقيدة إلهية.

العداء اليهودي للإسلام

وبناء على هذا التقرير و التقريب فإننا الآن حينما نضع أنفسنا في مقام المعادي لليهود، فإننا نريد أن تعلم الأُمم الحاضرة بأننا لم نعادِهم لأنهم يهود، بل إننا نعاديهم ونقف منهم موقف الندّ؛ لأنهم حاربوا الإسلام منذ أول لحظة من

---

(١) آل عمران: ٨٥.

لحظات ولادته وبدء تحرّكه وانتشاره، وحتى هذا اليوم بكلّ ما أُوتوا من قوة وطاقة، ولأنهم أخرجونا من ديارنا؛ فسلبوا الأرض والأموال، وحاربوا العقائد والعبادات الإسلامية كلّها.

إذن نحن إنما نعاديهم من أجل هذا، لا لأجل كونهم يهوداً؛ لأننا نعترف بأنهم أصحاب عقيدة وأصحاب ديانة سماوية، وصاحب العقيدة الإلهية والديانة السماوية له الحق في أن يبقى على عقيدته شريطة أن يتّصف بصفة المواطنة الصالحة، وهي صفة لا تتحقّق إلّا بجملة أُمور هي شروط وضعها الشارع الأقدس إزاء قبول ذمّتهم، نذكر منها:

١ ـ ألّا يشكّلوا مكمن خطر على المسلمين بأن يكونوا أعداء لهم.

٢ ـ ألّا يكونوا عيناً لغيرهم من أعدائهم عليهم.

٣ ـ ألّا يكونوا عوناً لأعدائهم عليهم.

٤ ـ أن يدفعوا الجزية كضريبة للمسلمين إزاء توفير النظام الإسلامي لهم عوامل الأمن، ومقومات السلامة، وقيامه بالدفاع عنهم عند اقتضاء الحال ذلك، كما لو أنهم تعرّضوا وهم في بلاد المسلمين وتحت ذمّتهم إلى اعتداء على أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم.

٥ ـ كما أنّ من أهم شروط المواطنة الصالحة في المنظور الإسلامي هو أن يكون الذمّي عضواً صالحاً في المجتمع، وعنصراً فاعلاً بنّاء فيه، دون أن يتسبّب في حصول الأذى له، أو إلحاق الضرر به.

فإن تحقّقت هذه الشروط، فقد خلقت المواطنة الصالحة عندهم، وحينئذٍ يمكن أن يعاملوا على أنهم أهل ذمّة؛ لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، بالشروط المذكورة.

لكن ببالغ الأسف نقول: إن الواقع الذي نعيشه الآن هو أن اليهود قد خرقوا كلّ شروط المواطنة الصالحة، والأدهى من ذلك، والأنكى والأمرّ أنهم أصبحوا هم الأسياد الذين يتلاعبون بنا كيف يشاؤون، يقول أحد شعرائنا:

أنخنا النجائب عند اليهود ... ترجّي اليهود متى تطلقُ

فعدنا ويا للمصير المرير ... سبايا تناشد من يعتقُ[1]

فالأمر المفروغ منه أن الله تبارك وتعالى قد جعل رسالة نبينا الأكرم ﷺ خاتمة الرسالات، وقد ربّانا على العنفوان، وعلى أن نحمل هذا الدور القيادي الذي أراده لنا، لكننا نقول مع كلّ هذا: إذا كان الشخص الذي على غير ديننا يمتلك عقيدة، ويحمل مبدأ دينياً سماوياً، فإنه حينئذٍ لا ضير علينا منه، فيفسح لنا ديننا الحنيف المجال بأن نتركه على عقيدته؛ لأنه مأمون جانبه من هذه الجهة ما دام يلتزم بالشرائط التي يضعها الإسلام في سبيل التعايش معه سلمياً، وهي الشرائط التي ذكرناها آنفاً.

وبهذا فإن هذا العنصر سوف لن يشكل خطراً على المجتمع؛ ذلك أن عنده ضوابط وقواعد شرعية وإن كانت جزئية حول الحلال والحرام، وحول ما يجوز وما لا يجوز؛ وبهذا فإن المجتمع سوف يصبح منه في أمان. وهذا على العكس من الإنسان المشرك أو الملحد الذي لا يؤمن بالقيم؛ لأنه إذ لم يؤمن بالقيم أو المبادئ الأخلاقية التي ترتئيها السماء، فإنه حينئذٍ سوف يتحول إلى وحش كاسر يزداد ضراوة، ويشتد وحشية ضدّ المجتمعات الأُخرى المسالمة يوماً بعد يوم.

وهذا الأمر لا يقتصر على الإنسان الملحد فقط، بل حتى المسلم عندنا إن لم

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٦٢.

يكن يلتزم بضوابط الإسلام وقيم الإسلام وبمبادئ الإسلام التي شرعتها السماء فإن المجتمع الإسلامي حينئذٍ يكون ملزماً بمكافحته ومجابهته، وردعه عن خطئه وضلاله. فالمسألة ليست مسألة ألفاظ تعيش على الألسن فيقال: هذا مسلم ينبغي أن يفعل ما يحلو له وإن كان على ضلال وخطأ، وهذا ملحد ينبغي أن يكافح إن فعل الشيء عينه الذي يفعله المسلم الضالّ أو المنحرف.

إن القضية في جوهرها تطبيق عملي للمعاني السامية، والقيم والمبادئ التي أرادها الله تبارك وتعالى منا.

وما دام الأمر كذلك فإننا ينبغي أن نساوي في التعامل بين الملحد والمسلم المنحرف الذي يحارب المجتمع، ويقضّ مضجعه، ويريد أن يسلبه أمنه؛ لأنهما حينئذٍ بكفّة واحدة في نظر المشرع الإسلامي. وهذا هو التطبيق الصحيح لمبادئ الإسلام ولقيمه الخالدة التي لا تفرّق بين الأشخاص المذنبين على أساس انتماءاتهم الدينية، أو المذهبية، أو العرقية. وإننا إذ نقول هذا فإنما نريد أن نقول: إن الإسلام لا يتعامل مع الألفاظ في مثل هذه الحالات، بل إنه يتعامل مع التطبيقات العملية للشرائع والعبادات والنظم[1] دون لحاظ أي جنبة من شأنها أن تحرف المسار القويم لتعامل السماء المبتني على أُسس أخلاقية وتربوية.

رجع

فالآية الكريمة هنا تقرّر أن النبي الأكرم ﷺ هو منذر وهادٍ للناس جميعاً،

---

(١) وممّا يروى عن نبيّنا الأكرم ﷺ أنه قال: «الدين المعاملة». شرح رسالة الحقوق: ٥٨٦. عجائب الآثار (الجبرتي) ٣: ١٠٣.

وللأُمم كلّها منذ عصره المبارك (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) وحتى قيام الساعة.

ومن هنا فإن هذا المقطع الشريف يُعتبر من جملة المدارك والمصادر السماوية التي شرعت عموم الرسالة، فرسالة الإسلام الخالدة هي رسالة عـامّة، ومـن لم يأخذ بها فإنه سوف لن يُعذر أمام الله تبارك وتعالى يوم القيامة فـيما لو أراد أن يعذّبه. فالله جلّ شأنه سوف يسأله ويحاسبه على عدم أخذه بها مع وصول البلاغ والبيان إليه.

أخلاق المسلمين والدعوة إلى الله تبارك وتعالى

إذن فنحن نقول: إن على كلّ إنسان يعيش اليوم أن يتديّن بالدين الإسلامي، وأن يتعبّد الله تبارك وتعالى وفق المنهج والتشـريع الإسـلاميين فـي العـبادات والمعاملات، وفي القضايا والأحكام وغيرها، لكن الإنسان غـير المسـلم إنـما يأخذ الإسلام من المسلمين، ويتعامل مع هذا الدين عن طريقهم، ونمط فهمهم له وتعاملهم به؛ كونهم ممرّاً له لتحصيل الحقيقة والواقع الإسلاميين. لكن هذا الراغب في اعتناق الدين الإسلامي حينما يريد أن يلج فيه، فإنه ماذا سيجد عند المسلمين وفيهم حينئذٍ، وهو يسبر واقعهم المرّ، ويغوص في أعماق مشاكـلهم المـختلقة، وخلافاتهم التي تزكم الأُنوف؟

إن هذا حتماً سوف يلجأ إلى تاريخ المسلمين، وإلى حـياة وسـير عـلمائهم وخلفائهم وأُمرائهم، وإلى كتب عقائدهم؛ كي يعرف عن دين الإسلام كلّ ما يريد أن يعرف.

لكن نقول ثانية مؤكّدين: ماذا سيجد عندها؟ إنه سيجد أن بعض المسلمين ما هم إلّا سلاسل من نار تصنع حلقاتها مجموعة من أفراد بعض المجتمعات التي يكفّر بعضها بعضاً، ويذمّ بعضها بعضاً، ويثلب بعضها بعضاً، ويجد أن هذا الدين هو مجموعات متعدّدة من المذاهب التي سوف يحار أمامها بأي مذهب يأخذ؛ كي يصل إلى الدين الإسلامي باعتبار أن هذه المذاهب الإسلامية هي قنوات موصلة إلى دين الله تعالى.

فهذا الأجنبي عن الإسلام والذي يريد أن يلج فيه سوف يقف حائراً أمام المفارقات التي تعشعش في صدور المسلمين وفي تاريخهم، والتي تدور بينهم، وإلى النزاعات الحاصلة بينهم، وإلى تكفير بعضهم بعضاً، وسوف يكون أمام خيارين لا ثالث لهما حينئذٍ؛ إما أن يتراجع عن قراره هذا، وإما أن يبقى عليه لكنه يبقى حائراً لا يعرف أي اتجاه يسلك؛ كي يصل إلى هذا الدين الحنيف. يروى أن فنحاص بن عازورا أحد رؤساء اليهود مرّ يوماً بالأنصار (الأوس والخزرج) فوجدهم جالسين متصافين متسالمين، يسودهم الودّ، ويرفرف عليهم جناح الإسلام الحاني، فلم يرُق له ذلك، فجلس عندهم وقال للأوسيّين: أتذكرون حينما حدثت بينكم وبين الخزرج معركة، فقام شاعر الخزرج وشتمكم، فقال فيكم كذا وكذا؟ ثم التفت بعد ذلك إلىٰ الخزرج وقال لهم: أتذكرون ما حدث بينكم وبين الأوس، فقام شاعر الأوس فشتمكم وقال فيكم كذا وكذا؟

وأخذ يُذكّر كلّاً من الطرفين بما يثير الحميّة الجاهلية الرعناء في نفوسهم حتىٰ صاح أحدهم: يا للأوس. وصاح الآخر: يا للخزرج. فتداعوا إلىٰ السلاح حتىٰ أوشكوا أن يتقاتلوا.

فبلغ الخبر النبي الأكرمﷺ، فخرج إليهم وقال: **«أبدعوىٰ الجاهليّة وأنا بين أظهركم؟ دعوها؛ فإنها جاهليّة منتنة»**[١].

ومن خلال هذه الرواية فإننا نستمتح أمراً واضحاً بيّناً هو أن هـذا التـخاصم والاختلاف قد حزّا كثيراً في ذلك القلب الرؤوم الذي ينطوي عليه صدر رسولنا الأكرمﷺ، وآلما نفسه الشريفة غاية الألم؛ لما ينطوي عـليه مـن مـضاعفات اجتماعية وسياسية خطرة، رأى نبيّنا الأكرمﷺ أنها عامل فتنة هدّام لا يتوانى أن يهدّد وحدة المجتمع الإسلامي، ويقلق راحة الجسد الواحـد الذي يـنبغي أن يكون عليه المسلمون، فكان أن جاهدﷺ هذا النمط من الخـلافات التـي إن عصفت بجسد المجتمع الإسلامي فإنها ستؤول به إلى التفكّك والتلاشي والموت، وحارب هذا اللون من التصرّف الجاهلي المنتن عند المسلمين، معطياً بذلك درساً لكلّ الأجيال القادمة أن تسير عليه، مهيباً بهم أن يعاودوا الكرّة فيه وإن حـاول أعداؤهم إثارته بينهم؛ لما ينطوي عليه من فتنة قاتلة، وفساد كبير للمجتمع.

ومن هنا فإننا نقول بحسرة: كيف بنا والرسول اللهﷺ يطّلع علينا فـي هـذا الزمان ونحن نعيش التشرذم على تلك الحال التي وصفنا؟ فما الذي يراهﷺ منّا الآن؟ إنه سوف يرى مسلماً يكفّر مسلماً، ومسلماً يقتل مسلماً، ومسلماً يحارب مسلماً وينغّص عليه عيشه ويحرمه من رزقه. وكلّ ذلك من أجل خلاف بسيط ربما لا يعدو كونه خلافاً فقهياً في مسألة فرعية بسيطة لا تستوجب الوصول إلى تلك الحال من القتل والتكفير. فما الذي سوف يعبرﷺ عنه حينئذٍ؟ وما الذي

---

(١) أسباب نزول الآيات: ٧٧، الدر المنثور ٢: ٥٨.

سيقوله وسوف يستشعره من أُمّته التي يراها تتفكّك بفعل شرذمة تحاول أن تبثّ التفرقة بين المسلمين، وأن تفتَّ في عضد الجسد الإسلامي؟

هل من يحكم بحكم داود يعدّ يهوديّاً؟

إن بعض المسلمين لم يكتفِ بأن يشنّ حملة عقيدية أو حربية ضدّ طرف آخر من المسلمين كالشيعة مثلاً، بل إنه تعداهم إلى أئمة المسلمين من أهل بيت محمد، وقد اطّلعت على موضوع في أحد الكتب يقول فيه مؤلّفه: إن أئمة التشييع يحكمون بحكم اليهود، فهم إذن يهود مثلهم. أي أنّ أئمة الشيعة هم يهود (جلّ ذكرهم، وتنزّهوا عن ذلك وتقدّسوا)، مورداً دليلاً على كلامه هذا وهو أن عماراً الساباطي قال: قلت لأبي عبد الله: بم تحكمون إذا حكمتم؟ قال: «**بحكم الله وحكم داود، فإذا ورد علينا الشيء الذي ليس عندنا تلقّانا به روح القدس، وألهمنا الله الهاماً**»[1].

وهذه الدعوى الباطلة يمكن ردّها وتفنيدها من وجهين:

الأول: بيان المراد من الحكم بحكم النبي داود

وبغضّ النظر عن كون هذه الرواية صحيحة أو لا؛ باعتبار سندها، أو دلالتها، فإن الإمام يريد أن يقول لمن سأله: إننا أهل ببيت النبوّة إنما نستعمل طريق الرفق الّذي دأب على أن يستعمله آل داود، وهم نبي الله سليمان. وهذا الرفق يتمثّل بما يرويه القرآن الكريم من حادثة الزرع الذي نفشت فيه غنم قوم، والتي حكم فيها نبي الله داود وابنه النبي سليمان. وهي الحادثة التي ترسمها لنا هذه الرواية التي تذكر أنه كان لجماعة كرم قد نبتت عناقيده، فوقعت فيه غنم أُناس

---

(١) بصائر الدرجات: ٤٧٢ / ٦، الكافي ١: ٣٩٨ / ٣، نور الثقلين ٤: ٤٥٢ / ٣١.

آخرين ليلاً، فأكلته وأتلفت ما تبقّى منه، وأحالته إلى ما لا يمكن أن ينتفع به بحال. فاختصموا فيما بينهم، ثم رأوا أن يحتكموا إلى النبي داود عليه السلام باعتباره سفير السماء، والقاضي بين الناس بحكم الله سبحانه وتعالى، فحكم عليه السلام بالغنم لأصحاب الكرم بما أكلت من كرمهم وأتلفت من أرضهم. وكأنه عليه السلام رأى أن الأكل وجه وسبب لإعطاء الغنم لأصحاب الزرع.

فخرجوا من عنده، فمرّوا بالنبي سليمان عليه السلام، فقال لهم: **«بم قضى بينكم الملك؟»**. فأخبروه بحكمه الذي قضى به بينهم، فقال: **«نعم ما قضى به، وغير هذا كان أرفق للفريقين جميعاً»**.

فرجع أصحاب الكرم والغنم إلى النبي داود عليه السلام، فأخبروه بما قال النبي سليمان عليه السلام، فأرسل النبي داود إلى النبي سليمان عليه السلام، فقال: **«كيف رأيت قضائي بين هؤلاء؟ فإني لم أقضِ بالوحي إنما قضيت بالرأي»**. فقال عليه السلام: **«نعم ما قضيت»**. فقال عليه السلام: **«عزمت عليك بحقّ النبوّة، وبحقّ الوالد على ولده إلّا أخبرتني»**. فقال النبي سليمان عليه السلام: **«غير هذا كان أرفق بالفريقين»**. فقال عليه السلام: **«وما هو؟»**. قال عليه السلام: **«يأخذ أهل الكرم الغنم ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها ونسلها، ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم، حتى إذا عاد الكرم كما كان ردّوه»**. فقال النبي دواد عليه السلام: **«نعم ما قضيت به»**. فاستأنف الحكم، وقضى بما حكم به النبي سليمان عليه السلام بينهم[1].

الثاني: بيان أن داود وسليمان عليهما السلام إنما هما نبيّان كريمان

ثم أليس داود عليه السلام وابنه سليمان عليه السلام نبيين معصومين قد بعثهما الله تبارك

---

(١) انظر: التبيان ٧: ٢٦٧، مجمع البيان ٧: ١٠٣، جامع البيان ١٧: ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، تفسير السمرقندي ٢: ٤٣٤.

وتعالى لهداية الناس وإرشادهم وصلاحهم؟ وإذا كان كذلك فهل إن من يحكم بحكمهما يصبح يهودياً حينئذٍ، أم إنه لا يعدو كونه شخصاً ملتزماً بطاعة الله تبارك وتعالى، ومنفّذاً لإرادته، ويحكم بحكمه جلّ شأنه؟

إن هذا الكلام الذي تفوّه به هذا الشخص لم يكن صادراً عن طالب حقّ أو حقيقة، وإلّا فإنه كم تجشّم من عناء وهو يبحث؛ من أجل أن يحصل على هذه الرواية، ويجعلها منطلقاً لتقوّله بالباطل على أهل بيت نبيّنا محمد ﷺ، وهم أوصياؤه وخلفاؤه ﵈ من بعده؟ مع أنه لو بحث في تاريخه وفي كتبه لوجد فيها المئات من الروايات والآراء التي يمكن أن تحقّق هذا المعنى اليهودي أو الإسرائيلي عندهم، أو تذهب إليه.

وعليه فإن الاُسلوب التي يتبعه البعض من أمثال هذا ليس اُسلوباً سليماً ولا اُسلوباً علمياً أو منطقياً، كما أنه ليس اُسلوب إنسان مسلم يؤمن بالله وبرسوله ﷺ.

خطر الأيدي القابعة وراء الكواليس على الإسلام والمسلمين

وعلى العموم فإن من يطّلع على تاريخ المسلمين وواقعهم فإنه سوف يأخذه الاستغراب والعجب مما يحمل بين طياته من ثغرات عجيبة من هذا القبيل ومما هو أشدّ منه، وبما يحفل به من مؤامرات تحوكها جماعات مشبوهة بما تعمد إلى القيام به من تحرّكات ضد جماعتنا مسلمة اُخرى. وهذه التصرفات حتماً سوف تؤدّي بالبعض إلى أن ينفر من هذا الدين، وأن يبتعد عنه، ويتخلى عن فكرة التديّن به.

وبهذا فإن المسلمين الذين يقومون بهذه الممارسات سوف يصبحون هم أنفسهم المسؤولين عن إعراض الناس عن الدخول في هذا الدين الحنيف، وعن

الإدبار والتولّي عنه دون محاولة فهم أفكاره ومبادئه وقيمه وتشريعاته من منابعه الصافية، بل دون مجرد التفكير في ذلك.

فهذه المشكلة إنما يثيرها المسلمون أنفسهم، ويفتعلونها فيما بينهم، وهي مشكلة تؤدّي في نتيجتها إلى إبعاد الناس من هذا الدين. فتمزيق الدين وتشرذم أبنائه إنما هو نتيجة لممارسات هذه الشريحة الضالّة والنفعية والانتهازية، والتي لا تراعي الله سبحانه وتعالى في أقوالها ولا في أفعالها؛ الأمر الذي يؤدّي بالمسلمين ـ جرّاء ممارساتها الشيطانية تلك.. الممارسات المستمدّة من وحي أمراض أصحابها النفسية، والشعور بعقد النقص الموجودة عندهم، ومحاولة سدّهم هذا النقص بمعادل موضوعي يمرّرونه عبر أمثال هذه الممارسات – إلى التناحر، وتكفير بعضهم بعضاً، ومحاربة بعضهم بعضاً.

كيف يكون خطر أعداء الإسلام؟

فكلّ ذلك أُمور تتعاضد وتتضافر لتقوم بثلاثة أدوار خطرة وخطيرة في آن، هي:

١ ـ أنهم يصبحون بذلك النمط من التصرف غير المسؤول معاول هدم تُعمل نصالها في صرح المدرسة الإسلاميّة، والفكر الإسلامي السماوي الأصيل؛ لتهدّهما من جذورهما.

٢ ـ أنهم معاول هدم تعمل على إضعاف مقاومة الجسد الإسلامي للمؤثّرات الخارجية، وتفتيت كيانه؛ فتمزّق لُحمته وتهدّ بنيانه، وهو الأمر الذي يعني إضعاف الإسلام وفتّ عضد أتباعه بعد ذلك.

٣ ـ أنهم أدوات سلبية في المجتمع الإسلامي بما أنهم يصبحون وسائل تفرّق الآخرين عن هذا الدين، وتمنعهم من محاولة الاقتراب منه لفهم مبادئه وأفكاره.

ولتوضيح هذا الأمر بشكل أوسع وتفصيلي نقول: هذا هو حال المسلمين اليوم[١]، مع أن المفروض بكل مسلم أن يكون من أخيه المسلم كالبنيان المرصوص الذي يشدّ بعضه بعضاً، ويأزر بعضه بعضاً، ويقوّم بعضه بعضاً[٢]. أما إذا تخلّفوا عن مفهوم هذه الصفة التي وضعها لهم رسول الله ﷺ، والقرآن من قبلُ، فإنهم إنما يصبحون وسيلة لتمرير الأمور الثلاثة التي مرّ ذكرها، والتي سوف نتناولها بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى.

وكما أسلفنا فإن كلّ واحد من هذه الأمور له دوره الخطر والعابث في مسيرة الإسلام، ومسيرة أتباعه التكاملية. وهذا الفعل المخزي ربما يكون عن وعي من فاعليه ومرتكبيه به، وبمضاعفاته الفكرية والواقعية التي يمكن أن تشلّ الجسد الإسلامي؛ لأنهم يريدون فعلاً هذا الأمر لمنافعهم، أو لمنفعة الجهات التي تقف وراءهم مغرّرة بهم؛ لتدفعهم إلى ذلك، أو ربما هو دون وعي منهم بهذا، وما يشكّله من مكمن خطر على الوجود الإسلامي برمّته؛ ليصبحوا من الجهلة المغرّر بهم في دينهم، والذين لا يمكن أن يعتبروا أهلاً لما حُمّلوه من مسؤوليات ملقاة على عواتقهم تجاه دينهم ونبيّهم. وهذه الأُمور كما ذكرناها آنفاً هي:

الأول: أنهم معاول هدم لصرح الفكر الإسلامي

فهؤلاء إنما يهدّون صرح الإسلام الفكري والثقافي الشامخ، ويهدّون عنفوان المدرسة الإسلاميّة، وهما الركنان الهامّان اللذان أرسى قواعدهما الفكرية كاملة تامّة رسولنا الأكرم ﷺ اختطاطاً لنهج القرآن الكريم، بما أنهم يقومون بدور

---

(١) وهو زمن ربما يعود أدراجه وراءً وراءً ليصل إلى ما بعد مرحلة صدر الإسلام.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه، يميط عنه الأذى». مصادقة الإخوان: ٤٢ / ١.

تمرير أفكار أعداء الإسلام الهدّامة إلى دائرة الأُفق الفكري عند المسلمين عن طريق غزو أفكار ضعاف الإيمان من المسلمين، وملاحقة عقولهم الجوفاء بما يحاولون رفدها به من أفكار ومتبنِّيات تخضع في واقعها لتوجّهاتهم الفكرية المنحلّة، بل غير الفكرية منها، ومن ثَم نشر الثقافة الهدّامة الوافدة المتقوّمة بالعداء للإسلام بين المسلمين.

ومن هنا فإننا نقول: إن على المسلمين جميعاً أن يعوا حقيقة أن تفرّقهم وتنازعهم وتباغضهم سوف تؤثر سلباً على الإسلام عند أبناء الديانات الأُخرى؛ فهؤلاء سوف يحجمون حينها حتماً عن الدخول فيه واعتناقه، بسبب هذه التصرّفات المخطوءة التي تنعكس بشكل سلبي عليه، والتي تؤدّي إلى تمزيق شمل الإسلام، وتفرّق أبنائه عنه، فضلاً عن تفرّقهم فيما بينهم، ودون أن يختصّ ذلك بتفرّق غيرهم عنه، والإحجام عن الدخول فيه، وهو خلاف إرادة السماء الشريفة. بل إن الأمر سوف يمتدّ ليصل إلى أبناء المسلمين أنفسهم الذين سوف يتفرّقون عنهم وعن دينهم بفعل ما يرونه من تصرّفات آبائهم، ومواقفهم من المسلمين، بل من الإسلام نفسه.

فإلى متى سوف يستمرّ هذا اللون من النزاع، وهذا التخاصم والتباغض، والحقد والتباعد بين أبناء الدين الواحد؟ وإلى أي شيء يأخذون بأيديهم وأنفسهم، وأيدي أبنائهم ليولجوها فيه؟ فعلى هؤلاء أن يعلموا أنه ليس هناك من قرابة بين أحد وبين الله تبارك وتعالى، فلا يدُر في خلدهم أنهم سوف ينجون من عذاب الله جلّ شأنه غداً، أو أنهم سوف يتخلّصون من عقابه الأليم في نار أوقدها جبّارها؛ لأنهم أتباع فلان وفلان.

الثاني: أنهم معاول هدم لوحدة المسلمين

وهؤلاء كذلك إنما يهدُّون ذلك البنيان المرصوص القائم على التحابّ والتوادّ بين المسلمين، والذي أراد الإسلام بناءه بمجهود النبي ﷺ، والخلّص المؤمنين الكرام من صحابته الذين التزموا نهجه ولم يحيدوا عنه. مع أنه ليس هنالك من مبرّر لهذا التمزّق الذي يفتّ في عضد الأُمة الإسلاميّة، وينخر في جسدها الواحد، ويؤدّي به إلى التداعي والسقوط أمام الأعداء في وقت هو في أمسّ الحاجة إلى أن يكون جسداً واحداً قوياً متماسكاً صلباً يستطيع أن يقاوم أعداءه، وأن يصمد في وجه المؤثّرات الخارجية المغرضة، والمؤامرات التي تحاك ضدّه وراء كواليس النفوس المعتمة، وعلى مواجهة كلّ ما يمكن أن يزعزع وجوده، أو يحاول أن يفعل ذلك، فهو دين الله تبارك وتعالى الذي ينبغي الحفاظ عليه؛ لأنه الدين الخالد خلود الدهر، والرسالة الشريفة الباقية على الأيام والعصور حتى قيام الساعة.

الثالث: أنهم يصدّون عن سبيل الله من آمن، ويبغون الدين عوجاً

وإذا كان الأمر كما ذكرنا وبيّنّا، فإن هؤلاء سوف يغلقون كلّ الطرق الموصلة إلى الله تبارك وتعالى، في حين أن الّذي ينبغي أن يكون هو أن يصبح هؤلاء طرقاً سليمة موصلة إليه عزّ وجلّ.

وإذا كان في الإمكان أن تجعل هذه الطرق كلّها سليمة، وتنتهي إلى غاية واحدة، فحينئذٍ سوف لن يكون هناك مبرّر أو مسوغ لهذا التخاصم والتباغض، ولهذا الحقد الذي يعتمر قلوب البعض ممّن يدّعي الإسلام ضدّ غيرهم من أبناء هذا الدين الشريف.

الرأي الثاني: أنك منذر لقومك، وغيرهم لهم منذر غيرك

وهذا يعني ـ بما أن المستويات الفكرية عند الناس متفاوتة فيما بينهم ـ أن لكلّ قوم معجزة تناسب مستوياتهم الثقافية والفكرية، وتتماشى مع توجهاتهم الفكرية والثقافية تلك، كما أن لهم ما يناسبهم من أُسلوب في الدعوة يتماشى مع تفكيرهم ومع ما هو سائد في عصرهم من حضارة مهما كان نمطها وموقعها على مقياس التطوّر المعرفي وسلّمه؛ ولذلك فإن معاجز الهداية تختلف من أُمة إلى أُخرى، ومن وسيلة إلى أُخرى وفق ما ترتئيه السماء لكلّ نبي حسب متطلّبات العصر الذي يعيش فيه، والأُمة التي يبعث فيها، ويعيش بين ظهرانيها.

معجزة كلّ نبي ترتبط بالسلّم المعرفي لعصره

ولتوضيح هذه الفكرة فإننا نقول: لو أننا فرضنا جدلاً أنّ نبيّاً سيبعث في هذا الزمان، فإنه حتماً سوف يجعل الله تبارك وتعالى معجزته من قبيل هذه التقنية الحديثة؛ فمن المعلوم أن عصرنا هذا هو عصر حافل بالتطور التكنولوجي، والتوسّع المتسارع في ميادين الحياة العلمية عامّة، واكتشاف غوامض الكثير الكثير ممّا خفي على من سبقونا؛ فهنالك الكمبيوتر، وهنالك التطور الكبير في مجال تكنولوجيا الاتّصالات الواسعة التي غطّت جميع بقاع الأرض حتى أصبح العالم كله قرية صغيرة كما يُعبّر عنه.

إذن فأمام هذه التقنيات الحديثة الملحوظة، وأمام هذا التطوّر العلمي المشهود والبارز لابدّ أن تكون معجزة هذا النبي الذي افترضنا أنه يبعث الآن من قبيل هذه التقنية والتكنولوجيا حتى يستطيع أن يقاوم أصحاب هذه الاكتشافات، وأن يواجههم ويلفت النظر إليه. كما أن معجزته لابدّ أن تقهر كلّ هذه التقنيات الحديثة

كي يتمكن مدّعي النبوة من أن يثبت أنه نبي؛ ولذلك قيل: إن معاجز الأنبياء ترتبط بعصورهم؛ ففي عصر كلّ نبي هنالك تطوّر ملحوظ أو ملموس وبروز واضح ـ وإن صغر ـ في مجال ما من مجالات الحياة، وهذا البروز والظهور يجعل من الناس حلقات تلتفّ حول صاحبه؛ ولذا فإن على النبي المبعوث للناس أن يأتي بمعجزة تناسب ذلك التطوّر الملموس في تلك الأُمّة كي يستطيع أن يستقطب الناس إلى دعوته، ويسترعي اهتمامهم بها، وأن يسترعي انتباههم له، وأن يلفت أنظارهم إلى هذا الدين الجديد على الناس، وأن يثبت لهم أنه نبي فعلاً، وأنه مبعوث السماء؛ لأنه جاء بشيء خارق للناموس، وخارج عن إطار العادة المألوفة بينهم.

معجزة النبي عيسى

ومن هذا ما نجده على أيام النبي عيسى، فقد اشتهر في زمنه الطبّ كثيراً، واشتهرت العقاقير الكثيرة التي كانت توصف لعلاج العديد من الأمراض المعروفة آنذاك. وقد التفّ الناس حول أُولئك الأطبّاء الذين كانوا يقومون بمعاجلة تلك الأمراض التي كانت يبتلون بها في تلك الأيام؛ ولذا فإن الله تبارك وتعالى أراد للنبي عيسى أن يظهر بمعجزته السماوية على كلّ هؤلاء، وأن يستقطب اهتمام الناس، ويحول دون التفافهم حول أُولئك الأطباء، أي أن يحوّل ذلك الالتفاف لصالحه وصالح دعوته عبر تجنيد ما أعطاه الله تبارك وتعالى من معجزة لخدمة هذا الغرض النبيل.

ونحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد أعطاه معجزة إبراء الأكمه والأبرص، وهما أمران من صميم علم الطبّ ومقاييسه وقواعده، كما أنهما مرضان كانا مستعصيين

على الأطبّاء وعلاجاتهم آنذاك؛ فقد عجز أُولئك الأطباء حينها عن معالجة المصابين بهما، ووصف الدواء الناجع لهم، مع ما كان عندهم من تطوّر ملموس بالنسبة إلى الحالة العلمية لعصرهم ذاك.

هذا إضافة إلى مجيئه عليه السلام بشيء آخر خارق للعادة، لم يتمكن من فعله أحد إلّا بإذن الله سبحانه وتعالى، وهو إحياء الموتى الذي شكّل نقطة انتصار واضحة المعالم له عليه السلام أمام كلّ أُولئك الأطباء.

معجزة النبي موسى عليه السلام

وكذلك الحال مع نبي الله موسى عليه السلام الذي اشتهر في عصره السحر اشتهاراً واسعاً، حتى بات طابع عصره عليه السلام، والسمة المميّزة له، وانتشرت الشعوذة واتّسعت دائرتها ونطاقها، وكثر السحرة الذين يعملون في مجالها. وكان الناس منشدّين إليهم ومعجبين بما يقومون به من أعمال تسحر عقولهم وأعينهم، فأعطاه الله تبارك وتعالى العصا التي كانت تلقف ما يأفكون، واستطاعت أن تتغلّب على سحرهم؛ مما أدى إلى أن ينفضّ الناس عنهم.

معجزة خاتم الرسل نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله

وكذلك هو الحال مع نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله الذي عاش في عصر كان العرب يمتلكون فيه كلّ أساليب البلاغة ومفاتيح الفصاحة اللتين اشتهروا بهما، فكانوا يفتنّون بكلامهم أي افتنان، ويزوّقونه بالمحسّنات اللفظية[1] والمعنوية[2]، فأنزل الله جلّ شأنه عليه القرآن الكريم معجزة، وهو الكتاب الذي كان قمّة في البلاغة والفصاحة، بحيث إنه تحدّى الناس أن يأتوا بسورة واحدة منه[3].

---

(١) كالجناس. (٢) كالطباق.

(٣) قال عزّ من قائل: ﴿ وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

هل القرآن معجز ببلاغته فقط؟ وهل يكفي أن نركز عليها دون غيرها؟

ومع هذا فإن القرآن الكريم لم يكن معجزاً من الجنبة البلاغية فقط، فهو معجز من كلّ جوانبه ومضامينه، وأساليبه في التربية والعلاج، وفي كل مفردة من مفردات متناولاته. لكنه مع هذا كان في أبرز معالجاته معجزة من نوعٍ ما كان عليه القوم الذين بعث الله تبارك وتعالى نبينا الأكرم محمداً ﷺ إليهم، أي البلاغة التي اشتهر بها العرب.

ومما يؤسف له في هذا المجال أن العرب قد بقوا حتى وقتنا الحاضر يعالجون مشاكل الفصاحة والبلاغة في القرآن الكريم فقط دون أن يتطّلعوا إلى أن يغوصوا إلى تخوم مضامينه التربوية السامية التي تتوفّر على ما لا حصر له من المعالجات الفعّالة لكلّ مشاكل الإنسان وقضاياه المعاصرة، أو دون أن يحاولوا ليحيطوا بجزء ولو يسير من أساليبه العالية السيّالة في احتواء جميع ما يواجهه في حياته من معضلات على الأصعدة كافّة، وكلّ ما يصطدم به من إشكالات مبتنية على دائرة التوسّع في مصادر الأزمات الحياتية التي تسم صورة العصر الحاضر بكل تداعياته وتعقيداته، وأسباب تلك الأزمات على أصعدتها كافّة، والتي تعرقل مسيرة الإنسان، وتعترض طريقه.

فهؤلاء ظلّوا منبهرين بتلك الدائرة الضيّقة من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم مع أنه كما ذكرنا محطّ معجزات الله تبارك وتعالى كلها، فحصروا اهتمامهم بهما ـ الفصاحة والبلاغة ـ دون أن يطوّروا أنفسهم ليواكبوا العصر الحديث، وليلحقوا بركب العلم والتطوّر الحاصل في هذا الزمان، مع أن الكلّ يعرف بأن الفصاحة والبلاغة أمران لا يجديان نفعاً أمام ما توصل إليه العلم الحديث، وأمام التقنيات

الحديثة التي حصلت فيه. فعلى هؤلاء أن يستنطقوا الوجوه الإعجازية الأُخرى للقرآن الكريم، كي يتمكنوا من أن يواجهوا بها تداعياتهم كلها أمام المشاكل التي تثيرها ضدّهم تعقيدات العصر كافّة.

فكيف لبلاغة كلمة أن تقف في وجه الدبّابة أو المدفع أو القنبلة الذرية الحديثة؟ يقول أحد شعرائنا:

ارفع السيف إن أردت دعاء فدعاء النعاج لا يستجابُ

رجع

إذن فالله تبارك وتعالى يبعث الأنبياء إلى أُممهم كلّ واحد منهم بلغة أُمّته العلمية، وتطوّر عصره الثقافي والمعرفي؛ فمن كانت لغة عصره العلم كانت معجزة نبيّهم العلم، ومن كانت لغة عصره الأدب كانت معجزة ذلك النبي الأدب، ومن كانت لغة عصره غير هذين كانت معجزته مّما يناسب اللغة العلميّة المتداولة بين أبناء عصورهمﷺ. وهكذا فإن الأنبياءﷺ تتفاوت معجزاتهم وتختلف باختلاف مستويات الإدراك عند أُممهم، وعلى ضوء الطاقات الفكرية عند شعوبهم، وبتفاوت قابلياتهم على الفهم، وحسب تفاوت ما هو مشتهر عندهم من وسائل أو قواعد علمية متّبعة.

الرأي الثالث: أنك منذر لكلّ الأمم وغيرك هادٍ لهم كلّهم

فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، فهي إنما تريد أن تبين للنبيﷺ وتقول له: إنك نبي لكلّ الأُمم؛ سواء تلك التي عاصرتك، أو التي سوف تأتي بعدك، فأنت منذر لهم جميعهم، غير أنك إذا خرجت من الدنيا فلابدّ من أن يكون غيرك هو هاديهم والمبيّن لهم أحكام دينهم وشرائع إسلامهم؛

وبهذا فإن مصداق المنذر هنا غير مصداق الهادي.

الدليل على صحة هذا الرأي

وهذا الرأي يميل إليه بعض المفسرين، ومنهم الفخر الرازي[١]، وهو من عمالقة التفسير، والسيوطي في تفسيره (الدرّ المنثور)[٢]، وغيرهما[٣]، فهؤلاء حينما يسلطون مجهر التفسير على هذه الآية الكريمة، فإنهم لا يألون أن يذكروا الرواية التالية، وهي رواية تفسّر بوضوح ما نحن بصدده، وتشير إليه صراحة، وهي أن النبي الأكرم ﷺ استدعى الإمام أمير المؤمنين علياً ﷺ وقال له: **«أنا المنذر ولكلّ قوم هادٍ»**.

يقول الرواة: ثم أومأ إلى منكب أمير المؤمنين ﷺ وقال: **«أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»**[٤].

إذن فالذي نفهمه من هذه الرواية الشريفة أن علي بن أبي طالب ﷺ هو الهادي بنصّ رسول الله ﷺ عليه في هذا الشأن، وإذا كان ﷺ لا ينطق عن الهوى فإننا نصل إلى نتيجة هي أن السماء قد نصبت علياً ﷺ لهذا الأمر، وهي التي قد نعتته بهذه الصفة، ثم جاء دور النبي ﷺ ليؤكّد هذا النعت، وليترجم هذه الإرادة الإلهية من خلال هذه الرواية الشريفة وذلك بقوله: **«أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»**.

---

(١) التفسير الكبير ١٩: ١٤. (٢) الدرّ المنثور ٤: ٤٥.

(٣) جامع البيان ١٣: ١٤٢، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٩ ـ ١٣٠، قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، تفسير ابن أبي حاتم ٧: ٢٢٢٥ / ١٢١٥٢، شواهد التنزيل ١: ٣٨٣ / ٣٩٩، ٣٨٤ ـ ٣٨٧ / ٤٠٠، ٣٨٨ / ٤٠٨، تفسير القرآن العظيم ٢: ٥٢٠.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨٠، فتح الباري ٨: ٢٨٥، جامع البيان ١٣: ١٤٢، التفسير الثعلبي ٥: ٢٧٢، التفسير الكبير ١٩: ١٤.

ألا في الفتنة سقطوا

ومع هذا فإننا نجد أن هناك بعضاً ممّن يعمد إلى أن يلتفّ حول الحقائق ليزيّفها محاولاً حرف الوقائع الثابتة عن مسارها اللّاحب، وتجييرها لصالح فئة معينة لهدف ربما لا يخفى على الفطن النبيه ـ لكن الله سبحانه وتعالى يأبى إلّا أن يتم نوره ـ كما سنرى من خلال سرد الرواية التالية:

رواية أن ابن مسلمة لا تخشى عليه الفتنة

فأبو داود مثلاً يروي في سننه عن حذيفة ﵁ أنه قال: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلّا أنا أخافها عليه إلّا محمد بن مسلمة؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تضرّك الفتنة»[1].

مناقشة الرواية

ولنا أن نسأل هنا ونقول: هل إنّ حروب علي بن أبي طالب ﵇ فتن[2]؟ وما

---

(١) سنن أبي داود ٢: ٤٠٥ / ٤٦٦٣، ورواه ابن أبي شيبة الكوفي في مصنفه ٨: ٦١١ / ١٣٠، والمتقي الهندي في كنزه ١٣: ٥٨٢ / ٣٧٤٩٧.

(٢) هذا بناء على طيّ مقدمة أو أكثر. فهو ﵁ قد ذكر أكثر من مرّة مذهباً فكرياً ربما تفشّى بين بعض من يدّعون الإسلام لله جلّ شأنه، والتصديق برسوله ﷺ، واستشرى فيهم، وهو ما يبعدهم عن صفة الإسلام لله والتصديق بالرسول ﷺ؛ لأنهم على خلاف ما يصرّح به ﷺ من النص على أمير المؤمنين ﵇ بما ذكره القوم أنفسهم. وهذا المذهب هو أن هؤلاء قد تقاعسوا عن نصرة أمير المؤمنين ﵇، بل وخذّلوا الناس عن نصرته ﵇، واللحاق به، بل وحتى عن أتباعه ﵇ كما سنرى، مع أنهم أهل بيت النبي ﷺ الذين أُمر الناس بمودّتهم. ونحن حينما نتّجه صوب التاريخ لنستنطق منه شواهد وأدلّة على هذا، فإننا سنجده غنيّاً وثرياً بهذه الشواهد التي تفضح هذا النمط ممّن يدّعي الإسلام، وتكشف زيفه ونفاقه، بل ونجد أن أثر ذلك السلف أثراً ثرّاً يغني ما نذهب إليه بشأنهم ويرفدنا بالأدلّة الواضحة والبراهين الناصعة الفاضحة التي تثبت صدق رأينا فيهم ونظرتنا إليهم. والأمثلة التي حاولوا عبرها تبرير مواقفهم المشينة تلك من أمير المؤمنين ﵇ وحروبه وسياسته الإلهيّة، أو حتى

....

من أبنائه المعصومين أنهم سارعوا إلى أن يسموا تلك الحروب الإصلاحية بأنها فتن تطوّح بإيمان الإنسان؛ ولذا كان الواجب اجتنابها وعدم الولوج فيها. وبهذا فإنهم كانوا على مواقف مخزية من كلمة الحقّ التي تعترض على لسانه الشريف، وعلى ألسن أبنائه الطاهرين المعصومين، لهي أمثلة كثيرة نذكر منها:

الأول: تخذيل أبي موسى الأشعري ـ يوم كان والياً على الكوفة ـ الناسَ عن الخروج معه لحرب طلحة والزبير، ومن والاهما ولفّ لفّهما عند خروجهما إلى البصرة وتأليب الناس فيها ضدّ أمير المؤمنين، فقد كتب إلىٰ أبي موسىٰ يأمره أن يُخرج أهل الكوفة إلىٰ نصرته، لكنه خالف أميره، ونقض بيعته بأن راح يأمر الناس بالكفّ عن الخروج إلىٰ نصرته، محرّضاً إياهم عليه، قائلاً لهم: إنّما هي فتنة عمياء صمّاء تطأ خطامها، النائم فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، والساعي فيها خير من الراكب. إنها فتنة باقرة كداء البطن، أتتكم من قبل مأمنكم، تدع الحليم فيها حيران كابن أمس. إنا معاشر أصحاب محمد أعلم بالفتنة؛ إنها إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت أسفرت. فأغمدوا السيوف، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد، حتّىٰ يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة. انظر: الجمل (المفيد): ١٣٦، تاريخ الطبري ٣: ٥٠١.

الثاني: امتناع جماعة عن نصرته والصلاة خلفه مع ما كان يجريه عليهم من جرايات يوصلها إلى بيوتهم بنفسه، وبيده الشريفة، ومنهم:

١ ـ سعد بن أبي الوقاص الذي امتنع عن نصرته إلّا بعد أن يعطيه سيفاً يعرف المؤمن من الكافر. الجمل (المفيد): ١٣٦، الثقات ٢: ٢٧٠ ـ ٢٧١، المصنف (ابن أبي شيبة) ٨: ٦٣٩ / ٣٠١.

٢ ـ عبد الله بن عمر الذي قال له: أنشدك الله والرحم أن تحملني على ما لا أعرف. والله لا أُبايع حتى يجتمع المسلمون على من جمعهم الله عليه. الجمل (المفيد): ١٣٦، الثقات ٢: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

٣ ـ محمد بن مسلمة الذي قال له أيضاً: إن رسول الله أمرني إذا اختلف أصحابه ألّا أدخل فيما بينهم، وأن أضرب بسيفي صخر أُحد فإذا انقطع أقعد في بيتي حتى تأتيني يد خاطئة أو منية قاضية، وقد فعلت ذلك. المصدر نفسه.

٤ ـ أُسامة بن زيد الذي قال له: أما البيعة، فإنني أبايعك؛ أنت أحبّ الناس إليّ، وآثرهم عندي، وأما القتال فإني عاهدت رسول الله ألّا أُقاتل رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله.

الذي يمكن أن يقول هذا الراوي لمن قاتلهم أبو بكر وعمر؟ وأين قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»؟ وهو قول صريح في أن من يخرج مع علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه يكون على هدى وليس على ضلال، ولا يخشى عليه من الفتنة، بل إن مَن يدّعي خلاف ذلك، ومن يخرج مقاتلاً أمير المؤمنين عليه السلام هو الذي يسقط في الفتنة. ولسنا ندري بعد هذا لماذا يكون الخارج مع أمير المؤمنين عليه السلام في حروبه وفي قتاله خارجاً

المصدر نفسه. وكأنه عليه السلام قاتل هؤلاء خلافاً لرسولنا الأكرم ﷺ!

٥ ـ سلمان بن ثمامة بن شراحيل بن الأصهب الجعفي حيث كان قد اعتزل القتال في الفتنة هو وقوم ارتابوا بالقتال، فأقاموا بالرقّة، فكان أمير المؤمنين عليه السلام يرسل إليهم عطاءاتهم، ويقول لهم: «لا نمنعكم حقّكم من الفيء لأنكم مسلمون وإن امتنعتم من نصرتنا». الإصابة ٣: ١١٦ / ٣٣٦٤.

الثالث: امتناع عبد الله بن عمر عن نصرة أهل الحرّة، بل تشجيعه على بيعة يزيد؛ بدعوى أن أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من مات ولا بيعة عليه، مات ميتة جاهلية». الطبقات الكبرى ٥: ١٤٤.

وكان رأي ابن عمر هذا ترك القتال في الفتنة ولو ظهر أن إحدى الطائفتين محقّة والأُخرى مبطلة. عمدة القاري ٢٤: ٢٠٠.

إذن فبعد كلّ هذا، وبتقريب الرواية التي ذكرها المحاضر رحمه الله، والتي تحصر السلامة من الوقوع بالفتنة بمحمد بن مسلمة دون غيره، كان من الطبيعي أن يصل المحاضر إلى هذه النتيجة التي توصلنا إليها، وهي أنهم لا يقصدون بكل هذا، وبهذه الرواية التي أوردها المحاضر حصراً إلّا أن الإمام علياً عليه السلام هو الواقع في الفتنة، وأن من يخرج معه يكون واقعاً في الفتنة كذلك؛ فكان رأي المحاضر رحمه الله أن الواجب هو التنبيه إلى هذا التوجّه الخطر عند أصحاب هذا المذهب الفكري الهدّام، وتوعية الآخرين بخطورته على التاريخ الإسلامي؛ لأنه يشكّل انعطافة سلبية في مسيرة المسلمين، ونكوصاً عن اتّباع الحقّ المتمثّل بوصايا الرسول الأكرم ﷺ لعلي عليه السلام وبه، وأنه الخليفة من بعده. ولذا فقد أحبّ رحمه الله أن يلفت نظر الناس إلى هذه الحقيقة المرّة، وأن يجنّبهم مغبّة الوقوع في شراك هؤلاء؛ فكان أن تناول هذا الأمر هنا.

إلى فتنة وواقعاً فيها؟

مشروعيّة حروب أمير المؤمنين

ثم إن هذه الحروب الثلاثة التي خاضها أمير المؤمنين تتّسم بسمتين هامّتين جدّاً لما لهما من أثر واضح في إضفاء المشروعية الكاملة على حروبه[١]، مع أنه لم يكن في حال من أحواله الشريفة إلّا وهو مع الله تبارك وتعالى ومع الحقّ كما سنرى إن شاء الله تعالى، فلم يكن خارج دائرة رضا الله سبحانه البتّة، أو خارج إطار المشروعية الإلهيّة ولو أدنى من طرفة عين أو من لمح بالبصر. وهاتان السمتان هما:

أوّلاً: وصايا الرسول بتلك الحروب له، ومديحه إياه

فهناك روايات عن النبي يخاطب فيها أمير المؤمنين، وهي روايات بعضها صريح غاية الصراحة في أنها تضفي على حروبه كلّها ـ بل على جميع مواقفه وردود أفعاله إزاء جميع السياسات الجائرة والمنحرفة لمعاوية، ومن

(١) وإن كنا لا نرى أنه يمكن اعتبار الأمر الثاني الذي سوف يذكره المحاضر وسيلة لتحصيل ذلك؛ لأن تصرّفات أمير المؤمنين وحدها كافية في إضفاء المشروعية الكاملة على نفسها، بل على غيرها من تصرّفات الآخرين من الصحابة وغيرهم. فالذي ينبغي أن يكون هو أن كل ما يقوم به هو أمر مشروع لا شكّ فيه ولا مراء أبداً، وأن ما يفوه به ويقوم به هو الذي يسبغ على تصرّفات الآخرين وأقوالهم وأفعالهم صبغة المشروعية؛ لأنه أصل الدين وأسّه بعد رسولنا الأكرم، والناطق السماوي الرسمي باسمه عن الله تعالى. وهذا أيضاً ما يراه المحاضر بطبيعة الحال، لكنه إنما ذكره بناء على أن بعض المسلمين لا يرى هذه المشروعية التي نراها نحن، بل إن هؤلاء يريدون وسيلة يُقرّون بها هم أنفسهم؛ فكان أن طرح هذه النقطة؛ لأنها ممّا يتماشى مع أهواء القوم وميولهم. وإلّا فإن النقطة الأُولى التي أثارها المحاضر وحدها كافية في إثبات ذلك، وهل بعد كلام رسولنا الأكرم كلام، وبعد شهادته شهادة؟

حذا حذوه من ذوي النفوذ والسلطان الباطل، وممارساتهم غير الخاضعة للشرع الحنيف بحال من الأحوال ـ المشروعية الكاملة التي لا تعدو إرادة السماء المقدّسة؛ بما أنه ﷺ ينطق عن السماء، وليس عن النفس والهوى.

كما أن البعض منها ـ الروايات الواردة في هذا الخصوص ـ يستدلّ به على هذا الأمر؛ بما تنطوي عليه من مدح منه ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو في حقيقته مدح السماء له؛ الأمر الذي يعني أنه عليه السلام صاحب حقّ في كل ما يقول ويفعل. ومن هذه الروايات نذكر:

١ ـ أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين

فمن تلك الروايات المشار إليها هذه الرواية التي هي وصية من نبيّنا الأكرم ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام بهذا. تقول الرواية: «**يا علي، تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين**»[1].

٢ ـ علي مع الحق

وفي ثانية يقول ﷺ عنه عليه السلام: «**علي مع الحق والحق مع علي، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة**»[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٣٩، ١٤٠، مسند أبي يعلى ١: ٣٩٧ / ٥١٩، المعجم الكبير ٤: ١٧٢، وفي الجميع: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقاتل...»، وهو بهذه الصياغة لا يختلف مضمونه عن مضمون الحديث الّذي أورده المحاضر مطلقاً، بل إنه ربما كان أكثر تأكيداً منه؛ لأن صياغة حديث المحاضر إخبار، وهذه الصياغة إنشاء وأمر صريح بمقاتلة هؤلاء. وحتى لو قلنا بأنه حديث المحدثين إنشاء بصيغة الخبر، لكن تظل هذه الصياغة أكثر صراحة منه، وهو الأمر الّذي يمنحها مشروعية أكثر من تلك المشروعية التي تضفيها الجملة الخبرية المسوقة للإنشاء: لأنها أصرح كما ذكرنا، وأقصر طريقاً للوصول إلى المراد منها.

(٢) الخصال: ٤٩٦، تاريخ مدينة دمشق ٢٤: ٤٤٩، الإمامة والسياسة ١: ٧٣.

٣ـ علي مع القرآن

وثالثة يقول عنه فيها كذلك: «علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض»[1].

وغيرها كثير جدّاً[2].

فهل كلّ هذه الروايات الثابتة لا تعصم الإمام علياً ومن خرج معه من الفتنة، وتلك الرواية الوحيدة تعصم محمد بن مسلمة ذاك؟ إن هذا شيء لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال، وإن هي إلّا ازدواجيّة في المقاييس والمعايير يمليها التجنّي الخاضع للحقد والهوى؛ لأن كلّ ما هو من هذا القبيل إنما هو خلاف تصريح رسول الله ، وخلاف تصريح القرآن الكريم لأمير المؤمنين في هذا المجال.

ثانياً: اشتراك الكثير من الصحابة في هذه الحروب

ثم إننا يجب أن نتنبّه إلى أن هذه الحروب التي خاضها أمير المؤمنين جميعها قد اشترك فيها كثير من الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فأليس في كلّ هذا دليل ـ إضافة إلى ما قرّرنا ـ على ما نذهب إليه؟

إذن فالقرآن الكريم إنما يقرّر بناء على هذا الرأي ـ وهو الأسلم من بين جميع

---

(١) المعجم الأوسط ٥: ١٣٥، المعجم الصغير ١: ٢٥٥.

(٢) فما ذكره المحاضر هنا إنما هو على نحو الإجمال والتمثيل لا الحصر؛ ذلك أننا لو أردنا أن نحصي روايات هذا الباب أو نحصرها عدّاً، فإن كتابنا هذا بل غيره من الكتب غير المختصّة سوف لن يتّسع لها؛ ولذا فإن من أراد الاستزادة فعليه أن يرجع إلى الموسوعات الحديثية المختصّة بهذا اللون من الروايات الشريفة، والتي تكفّلت بجمع روايات وأحاديث الطرفين حول أحقّية أمير المؤمنين دون غيره في كل تصرّفاته وأفعاله. وسوف ينقل المحاضر إحداها لاحقاً عن الرازي من كونه مع الحقّ، فلاحظ.

تلك الآراء ـ أن بعد النبي الأكرمﷺ هادياً لكلّ أمّة؛ ولهذا فقد قرّرﷺ أن يستدعي أمير المؤمنينعليه السلام بأمر السماء، ويقول له: **«أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي»**.

وإذا كان الأمر بهذا النحو من التصوير، فكيف يمكن للبعض أن يرى أن من المقبول أو من المعقول الادّعاء بأن معارك أمير المؤمنينعليه السلام فتنة، وأن الخارج معه فيها واقع في تلك الفتنة؟

من اقتدى في دينه بعليعليه السلام فقد اهتدى

ولذا فإنه ينبغي أن نقرّ حقيقة لا تخفى على منصف مقسط هي أن المقصود من كلّ هذه المهاترات هنا هو أن تُصبغ حروب أمير المؤمنينعليه السلام ومعاركه في الحقّ وفي سبيل الحقّ ولأجل إعلاء كلمة الحقّ بصبغة الفتنة؛ كي يقضى وطر معين في أنفس أصحابها، وكي تشوّه تلك الحقائق التي كانعليه السلام يريد إبرازها. ويعجبني هنا قول للمفسّر الفخر الرازي حيث يقول: «وأما أن علي بن أبي طالبعليه السلام كان يجهر بالتسمية، فقد ثبت بالتواتر، ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى. والدليل عليه قولهﷺ: **«اللهم أدر الحق مع علي حيث دار»**[١].

فالإمام علي بن أبي طالبعليه السلام كلّه من الله وإلى الله، فهو لم يتخطَّ الحقّ طرفة عين أبداً، وكيف يكون كذلك، وهو وليد الكعبة، وربيب السماء، ورفيق درب رسولنا الأكرمﷺ في دعوتي السلم والحرب، والذابّ عنه في الشدائد؟ بل كيف

(١) التفسير الكبير ١: ٢٠٥. وحول حديث «أدر الحق مع علي حيث دار»، انظر: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٧ / ٣٧٩٨، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٤ ـ ١٢٥، مسند أبي يعلى ١: ٤١٨ ـ ٤١٩ / ٥٥٠، المعجم الأوسط ٦: ٩٥، الجامع الصغير ٢: ٩ / ٤٤١٢.

يكون كذلك وهو القائل: «وَاللَّهِ، لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا. مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى، وَلَذَّةٍ لا تَبْقَى؟ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ، وَقُبْحِ الزَّلَلِ، وَ، بِهِ نَسْتَعِينُ»[1]؟

فمن يملك هذا الورع وهذه التقوى والإيمان والخوف من الله تبارك وتعالى بحيث إنه لا يسلب النملة قوتها، فضلاً عن أن يقتلها، هل يعقل أن يخرج ويقاتل أُناساً مسلمين اعتباطاً ويقتلهم؟ وهل يعقل له أن يتحرك بدون استئذان أو أمرٍ من الله أو رسوله، أو إرهاصٍ له فيما يقوم به؟ لكن ما الذي يمكن للمرء أن يفعله إزاء بعض العقليات المتحجّرة التي تتشنّج لمجرد ذكر فضيلة لأمير المؤمنين، والتي لا يهمّها إلّا أن تصوغ الكون دماً أو تكفيراً بسبب بعض الأهواء أو المصالح التي تغلّف أدمغة أصحابها؟ وإنْ هذا إلّا ابتعاد عن الهدى؛ فمن يبتعد عن الواقع فهو في حقيقة الأمر يكون قد ابتعد عن الهدى.

المبحث الرابع: يزيد يسبُّ الإمام علياً

وهذا ما يذكّرنا بموقف ليزيد بن معاوية من العقيلة زينب الكبرى لمّا أُدخلت عليه، حيث قام إليه أحد من كانوا في مجلسه وقال: أيها الأمير، ليس عندي خادمة، وأنا أُريد هذه الجارية خادمة في بيتي. وأشار إلى فاطمة بنت الإمام الحسين، فقالت زينب له: «مه، ما جعل اللّه ذلك لك ولا لأميرك». فقال لها يزيد: بلى، لو شئت أفعل ذلك لفعلت. فقالت له: «كلّا، إلّا أن تخرج

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

عن ديننا، وتدين بغير ملتنا».

فغضب يزيد واستطار ثم قال: إياي تستقبلين؟ إنما خرج عن الدين أبوك وأخوك. فقالت زينبعليها السلام له: «بدين الله ودين جدّي وأبي وأخي اهتديت أنت وأبوك وجدّك». فقال: كذبت يا عدوة الله. فقالت له: «أنت أمير مسلّط؛ تشتم ظالماً، وتقهر بسلطانك».

فسكت، ثم عاد الشامي فقال: هب لي هذه الجارية. فقال له يزيد: اغرُب، وهب الله لك حتفاً قاضياً[1].

وهكذا نتوصّل إلى نتيجة هي أن كلّ من شتم أمير المؤمنينعليه السلام أو ناله بسوء فإن الشتم والسوء قد عادا عليه؛ لأن ساحة علي بن أبي طالبعليه السلام أنصع من البياض نفسه، ولأنها ساحة عامرة بالإيمان بالله تبارك وتعالى وبالورع وبالخوف منه جلّ شأنه.

فالعقيلة زينبعليها السلام إنما أدركها الألم وهي تقول له: «أنت أمير مسلّط؛ تشتم ظالماً، وتقهر بسلطانك»؛ لأنها لم تجد من يدافع عنها سوى ما تتّصف به طلاقة لسان، وفصيح قول، وبليغ منطق، وهي أمور ورثتها كلّها عن جدّهاصلى الله عليه وآله وسلم وأبيهاعليه السلام، فكان أن قالت له ما قالت.

وقد حصل لهاعليها السلام من قبلُ مثل هذه الحالة حينما أراد جيش الغدر أن يدخل السبايا إلى مجلس عبيد الله بن زياد؛ فقد أخذت القبائل تطلب نساءها، فقامت كلّ قبيلة لتأخذ من يعود إليها من نساء مع سبايا الإمام الحسينعليه السلام؛ فقام بنو أسد

---

(١) مقتل الحسينعليه السلام (أبو مخنف): ٢١٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٦ ـ ١٣٧، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٣، البداية والنهاية ٨: ٢١٢.

وقالوا: إن لنا مع السبايا عقائل، ونحن نأبى أن يدخلن مجلس ابن زياد. فقيل لهم: دونكم عقائلكم. ثم قام بنو عليم ـ وهم طائفة وهب ـ فقالوا: لا نرضى بأن تدخل نساؤنا إلى مجلس ابن زياد، ويهتك سترهن. فقيل لهم مثل ما قيل لبني أسد، وكذلك فعلت بقية القبائل والعشائر الأُخرى مع عقائلها، أما عقيلة الهاشميين زينب الكبرى فتلفّتت يميناً وشمالاً فلم تجد أحداً يطالب بها؛ حيث لم يبقَ عندها من حماتها أحد، فاختنقت بعبرتها:

فأين نزار في متون خيولها ... ترى بالسبا قد آلم السوط خافقي

أُقلّب طرفي لا حميّ ولا حمى ... سوى هفوات السوط من فوق عاتقي

* * *

فقل لسرايا شيبة الحمد ما لكم ... قعدتم وقد ساروا بنسوتكم حسرى

وأعظمُ ما يشجي الغيور دخولها ... على مجلس ما بارح اللهوَ والخمرا

يعارضها فيه الدعيّ مسبّة ... ويصرف عنها وجهه معرضاً كبرا [1]

---

(١) المجالس الفاخرة في مصائب العترة الطاهرة: ٣٢٦ ـ ٣٢٧، وفيات الأيمّة: ١٦٦.

﴿٢٤﴾

الإنسان والأرض

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: المسائل العلمية وأقسامها

إن القرآن الكريم يطرح من خلال هذه الآية الكريمة المباركة مسألة علمية دقيقة ينبغي التنبّه لها والإشارة إليها بشكل مفصّل؛ لما تلعبه من دور وأهمية في حياة الإنسان على الأرض، بل كينونة الأرض نفسها، واستقرارها، وصيرورتها ملاذاً آمناً يمكن أن تحتضن الكائنات الحية التي تعيش فيها. وقبل بيان هذه المسألة لابدّ من أن نتناول مقدمة نبيّن فيها طبيعة المسائل العلمية، فنقول: إننا نعرف أن المسائل العلمية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: المسائل الرياضية القبلية

وهي المسائل التي تعرف حقيقتها من ألفاظها، فمثلاً نقول: (٢ × ٢ = ٤). فهذه

---

(١) فصلت: ١٠.

المسألة بدهية ومعروفة مسبقاً؛ بما أنها مخزّنة في ذهن الإنسان؛ وعليه فإنه لا يحتاج في وصوله إليها، وحصوله عليها إلى برهنة وإعمال فكر.

القسم الثاني: المسائل الأخبارية البعدية

وهي المسائل التي يحتاج إثباتها إلى التجربة والبرهان، ومنها مسألة الرعد مثلاً الذي هو عبارة عن نتيجة حتمية لحصول عملية تفريغ كهربائي بين غيمتين سطح إحداهما مشحون بشحنة سالبة وسطح الأُخرى مشحون بشحنة موجبة؛ مما يؤدّي تقاربهما إلى حصول ما يسمى بالقوس الكهربائي، وبالتالي تفريغ المنطقة ـ نتيجة ارتفاع الحرارة ـ من الهواء ودخول الهواء من المحيط إليها محدثاً صوتاً يشبه الانفجار، وهو صوت الرعد.

فهذه المسألة هي مسألة بعدية؛ ذلك أنها تحتاج إلى تجربة لإثباتها وإلى القول بها، وإلى برهان على حدوثها، وحينما يقام البرهان عليها، ويثبت الادّعاء في المقام، فإن هذه المسألة سوف تدخل في نطاق المسائل المفهومة أو المعلومة والمعروفة عند الإنسان بعد ذلك، وتصبح مسألة بعدية.

والمسألة العلمية التي تتناولها آية المقام الكريمة هي من هذا النوع؛ فالقرآن الكريم يطرح حقيقة علمية بعدية، وهذا يعتمد على حقيقة أن جوّ الآية الشريفة العامّ هو عبارة عن تقرير لنعم الله تبارك وتعالى على الناس، ومحاولة لفت أنظارهم إلى تلك النعم التي أنعم الله بها عليهم؛ حتى يتكاملوا مع بعضهم في عملية تكوين المجتمعات.

والإنسان عادة حينما يشعر بالنعمة التي ينعم الله سبحانه وتعالى بها عليه، ثم يشعر بعد ذلك بأن الواجب الذي يقع عليه، والذي تمليه الشرائع والأخلاق هو أن

يؤدي حقّ تلك النعم ـ وهو شكرها ـ فإنه إن فعل ذلك حينئذٍ فسوف يصبح إنساناً متكاملاً، أو لا أقلّ من أنه يسعى إلى تحصيل الكمال والتكامل عبر هذه المسيرة التي يخوضها كلّ يوم، ويجتاز بها مسالك الحياة؛ بدءاً بالمعارف الأولية المختزنة عنده، وانتهاء بما يمارسه عبرها من إعمال فكر لتحصيل النتائج الصحيحة والسليمة.

فهذا الأمر كما ذكرنا يعتبر تكاملاً، كما أنه يعدّ انسجاماً مع الفطرة؛ لأن شكر المنعم واجب عقلاً على كلّ منعَم عليه. فالله تبارك وتعالى حينما ينعم على عباده، فإن هذه النعم تقتضي أن يرتفع العباد عن نقصهم، وأن يصلوا إلى مستوى التكامل المتمثّل بالشكر، وبالنتيجة فإنهم سوف يشكرون الله جلّ وعلا على ما منح وما أنعم وأعطى.

ونحن سوف نرى من خلال تناولنا لمفردات هذه الآية الكريمة أن ما تبقّى من كلام حولها سوف يقع فيما سيجيء من مباحث نتناولها تفصيلاً، كلّاً في مبحث مستقل إن شاء الله تعالى:

المبحث الثاني: تكوّن الجبال في المنظور القرآني

وحينما نعود إلى الآية الكريمة، نجدها تقول: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا**﴾، والرواسي هي الجبال، وهذه الجبال إذ أصبحت رواسي للأرض، كان لابدّ من أن نتناول الآلية التي تكوّنت بها أوّلاً، ثم صيرورتها رواسي للأرض تحفظها من أن تميد بأهلها ثانياً. فنقول: يذكر علماء الجيولوجيا وغيرهم من المختصّين بمجال تكوّن الأرض وما عليها عدّة تفسيرات علمية لنشوء الجبال على سطحها، نذكر منها:

التفسير الأول: عوامل التعرية والتآكل

إن أصحاب هذا الرأي يذهبون إلى أن الجبال في بادئ أمرها كانت هضاباً، ثم تأثرت هذه الهضاب بعد ذلك بفعل عوامل التعرية والتأكّل التي تحصل عادة على سطح الكرة الأرضية، والتي هي نتيجة حتمية لتأثير العوامل الجيولوجية عليها. وآلية تكوّن الجبال وفق هذا الرأي هو أن بعض المناطق البرية التي تتركّب ـ من ضمن ما تتركّب منه ـ من صخور وأجزاء أُخرى رخوة تأتي عليها الرياح، فتنقل تلك الأجزاء الرخوة، والتي هي عادة رمال أو أتربة، وتترك تلك المنطقة الصلبة معرّاة، فتصبح هذه المنطقة مرتفعاً بفعل تأثير تلك العوامل الجيولوجية على ما حولها، إذ تأخذه الرياح.

هذه هي عوامل التعرية التي تحدث هذا الأثر، فكلّ منطقة صخرية محاطة بمادّة رملية أو ترابية فإن الرمال أو الأتربة سرعان ما تجرفها الرياح معها بعيداً، مخلّفة وراءها تلك الكتل الصخرية التي تشكّل فيما بعد السلاسل الجبلية. وهذه العملية تمرّ عبر عصور جيولوجية سحيقة ممتدّة في عمق الزمن على مساحة طويلة من تاريخ تكوّن الأرض.

التفسير الثاني: الانفجارات البركانية النشطة

إن البراكين حينما تنفجر فإنها تدفع بحممها إلى سطح الكرة الأرضية، وهذا أمر طبيعي، لكن يبقى أن نذكر أن الجزء الأكبر من هذه الحمم عادة تشكّله الصهارة الصخرية، أي المادة الصخرية المنصهرة، وحينما تتراكم هذه الصهارة الصخرية على وجه الكرة الأرضية فإنها تخلّف ما يسمى بالگرانيت أو الصخور النارية التي تشكّل فيما بعد أيضاً سلاسل جبلية، وهي السلاسل التي يعرف بعضها

بهذا النوع من الصخور.

أدوار تكون الجبال

كما أن هناك نظريات أُخرى وضعها العلماء لتفسير نشوء الجبال وتكوّنها على الأرض، غير أن العلم لم يسبغ على أي من هذه التفاسير صبغة الحقيقة العلمية، ولم يعطِه صفة القطع في أنه التفسير الأوحد لعملية تكوّن الجبال، ولا في حركة الأرض التي تولّد الجبال، أو السبب الذي من أجله تنمو وتتولّد تلك الجبال. لكن الذي يهمّنا هنا هو نقطة واحدة هي أن القرآن الكريم يعطي حقيقة ثابتة في هذه الآية الكريمة، وهي حقيقة ذكرتها آية أُخرى وهي قوله عزّ من قائل: ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ**﴾[1].

فما هو مسلّم به عبر الفهم الصحيح لهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي تتناول موضوع المقام، وكذلك الأحاديث النبوية والمعصومية الشريفة الواردة في هذا المجال هو أنها تؤكّد على حقيقة أن الجبال إنما وجدت لتنظيم حركة الأرض في مجراها، ولاستقرارها.

الدور الأول: دور التشكّل

أما الكيفية التي يتم بها ذلك، فهي أن العلماء يرون أن بعض مناطق الكرة الأرضية تكون الكثافة فيها أقلّ منها في الوحدة نفسها أو في العيّنة نفسها في منطقة أُخرى، ولذا كان وضع الجبال في تلك الأماكن الأقلّ وزناً؛ لمعادلتها، ولتنظيم التوازن ولخلقه على سطح الكرة الأرضية.

فليست كلّ أبعاد سطح الكرة الأرضية منتظمة أو متساوية الوزن، بل إن بعضها

---

(١) النحل: ١٥.

أثقل من بعض كما ذكرنا.

نظرية تعديل التوازن

وهذا طبعاً يعتمد على كثافة المواد التي توجد في تلك الأماكن[١]، وحينما يزداد الثقل في بعض أجزاء الكرة الأرضية، ويقل في أجزاء أُخرى منها، فإن ذلك يعني على رأي العلماء أنه سوف يحصل اضطراب في حركة الأرض وفي استقرارها، وفي عملية دورانها وسباحتها في الفضاء.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين‏ﷺ بقوله: «وَعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلامِيدِهَا وَذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ مِنْ صَيَاخِيدِهَا، فَسَكَنَتْ مِنَ الْمَيَدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا، وَتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا، وَرُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وَ جَرَاثِيمِهَا»[٢].

وهو كلام مقول منذ (١٤٠٠) سنة، مع أن النظرية التي تتناول هذا الجانب من جيولوجية الأرض ـ وهي نظرية «تعديل التوازن» ـ هي نظرية حديثة، لكن الإمام علياً‏ﷺ كما رأينا قد ذكرها في نهجه منذ ما يقارب ذلك الزمن المشار إليه. وهذه من المعاجز التي تذكر له‏ﷺ.

الدور الثاني: دور التنويع

فالجبال إنما وجدت ليكون لها فوائد كما ذكرنا؛ فمن ضمن فوائدها أنها تقوم بعملية التنويع لتنسجم مع مخلوقات الله تبارك وتعالى، أو مع ما خلق الله جلّ

---

(١) فمعلوم أن الكثافة ترتبط طردياً بالوزن، وعكسياً بالحجم وهو ما تحقّقه المعادلة الرياضيّة التالية: ($ث = \frac{ك}{ح}$)، وعليه فكلّما قلت كثافة الشيء كلما قل وزنه مع الحفاظ على مقدار كتلته.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ٩١، وتعرف بخطبة الأشباح وهي من جلائل خطبه‏ﷺ.

شأنه. وبهذا يعلمنا الله سبحانه أن هناك تنوعاً في كلّ ما خلق، فلا نجد وجهاً يشبه آخر مئة بالمئة؛ فالألوان مختلفة، والروائح مختلفة، والطعوم مختلفة، والأوقات مختلفة؛ وبالنتيجة فإن كلّ شيء في هذا الكون المترامي يخضع لقانون «التنوع والاختلاف».

الغرض من التنويع

ثم إنه لابدّ لنا من وقفة هنا نبيّن من خلالها الغرض من هذا التنويع الذي نراه حاصلاً في مخلوقات الله تبارك وتعالى، إن الغرض منه هو إسباغ النعم على عباده تقدّس شأنه؛ لأن النفس البشرية إذا اعتادت على شيء واحد فإنها سوف تضجر منه ويصيبها السأم والملل بعد فترة من الزمان منه. وهذا الأمر تثبته شواهد التاريخ والعيان، وقد ذكر القرآن الكريم شيئاً منه حيث قال: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**﴾[1].

وهكذا كان لابدّ من ذلك التنويع الذي يعدّ ضرورة حياتية وبيولوجية؛ حتى تتمّ النعمة. ومن هنا فإننا نرى أن الله تبارك وتعالى حينما خلق الأرض جعل منها ما هو سهلي، ومنها ما هو جبلي، ومنها ما هو أراضٍ متموّجة وهضاب، ومنها صحارى، وما إلى ذلك. ولكلّ نوع من هذه الأنواع دور يؤدّيه، ووظيفة يقوم بها لإمداد الحياة بعناصرها الأولية؛ فالنباتات الجبلية تتميز عن النباتات السهلية، والحيوانات الجبلية تتميز عن الحيوانات الصحراوية، والمعادن الموجودة في الجبال تختلف عن تلك الموجودة في الصحارى أو في بقاع الأرض الأخرى

(١) البقرة: ٦١.

التي تختلف عنهما.

وكلّ ذلك الاختلاف بالتركيب والموادّ الأوليـة، أو الأسـاسية الداخـلة فـيه كالمعادن والأملاح والفيتامينات وما إلى ذلك يؤشّر إلى تلك الحقيقة، وهي أن الغرض من التنوّع هو رفد الحياة بمقوّماتها الصحيحة. وهذا هو في حقيقته توفير جوّ أوسع لشكر النعم؛ فكلّما اتّسعت النعم، كلّما اتّسع مجال شكر المـنعم بـها؛ لاتّساع موجبه.

فالله تبارك وتعالى أراد للجبال أن تؤدّي دوراً خاصّاً في هذه الأرض، وهو تثبيتها؛ فكان أن جعل سبحانه وتعالى قسماً منها منفرداً، والقسم الآخر على هيئة سلاسل جبلية تمتدّ على مساحات واسعة، وكلّ يؤدّي دوره في عـملية إرسـاء الأرض وحفظها.

أهمية بعض الجبال في التاريخ

كما أن من المعلوم أن الله تبارك وتعالى قد سخّر الجبال للعباد؛ لما فيها مـن خيرات، كما سخر غيرها من أقسام الأرض وأنواع سطحها سيّما الجـبال التـي يذكر في تراثنا أنّ منها ما قد اشتهر شهرة واسعة.

وينبغي ألّا يغيب عن أذهاننا بأن وراء تقسيم النعم حكمة أرادها الله تـبارك وتعالى وإن كانت قد خفيت علينا، فكلّ شيء في الكون هو خاضع لحكمة يرتئيها الحكيم الّذي أوجدها وأبدعها وخلقها؛ وبهذا فإننا نجد أن الله جلّ وعلا قد أعطى لبعض الجبال شهرة ومكانة بعضها ديني وبعضها غير ذلك، كما أعطى بعض البقاع ذلك من حيث قدسيتها أو من حيث كرامتها، في حين أن هناك بقاعاً مثلاً بقيت دون أن يسلط عليها الأضواء. ومن الجبال التي نالت شهرة في التاريخ، وحظيت

بمكانة ما عند الناس نذكر:

الأول: جبل الجودي

وهو الجبل الذي رست عليه سفينة النبي نوح عليه السلام، وموقعه في شمال العراق، ويطلق عليه الآن جبل آرارات؛ ففي هذا الجبل قد اكتشف قبل فترة ليست بالبعيدة بقايا من الخشب أعلن الجيولوجيون عن أنها من بقايا سفينة النبي نوح عليه السلام؛ فهو الجبل الذي استقرت عليه السفينة كما ذكر القرآن الكريم ذلك، بعد أن غار ماء الطوفان.

فهذا الجبل قد حظي بمكانة مرموقة وميزة عالية على مرّ التاريخ، وقد ذكر في القرآن الكريم[1]، وفي الروايات[2]. وهذا يعني أنه قد أخذ حجماً كبيراً من تراثنا الديني؛ القرآني منه أو الروائي، أو التاريخي.

الثاني: جبل حراء

ومثل ذلك جبل حراء الذي يقع فيه غار حراء، فهذا الجبل شاء الله تبارك وتعالى أن يكون متعبَّد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومكان انقطاعه إلى الله جلّ شأنه في خلواته، فكان صلى الله عليه وآله ينفرد فيه مبتعداً عن الناس للتعبّد والانقطاع إلى الله جلّ وعلا؛ لأنه (صلوات الله عليه وعلى آله) لم يكن يألف مجتمع قريش الذي أخذ يضايقه حيثما ذهب، وأينما حلّ، وأينما ارتحل.

وكانت تلك المضايقات يشكل الجزء الأكبر منها ما يراه من عبادتهم للأصنام، وانقطاعهم إليها، وابتعادهم عن عبادة الله سبحانه وتعالى، إضافة إلى جزء دونه يشكّله ابتعادهم عن الأخلاق والقيم والمبادئ.

---

(١) هود: ٤٤.

(٢) الكافي ٢: ١٢٤ / ١٢، وغيرها كثير.

وهكذا كانﷺ يخرج منفرداً إلى غار حراء ليتعبّد فيه؛ وبهذا فقد تشرّف هذاالغار، واكتسب قدسية بعد أن وطئته قدم رسول اللهﷺ، وبعد أن حلّ فيه بدنه الشريف. فكان أن حظي بمكانة عالية في التاريخ الإسلامي، وفي قلوب المسلمين؛ لأنه موضع عبادة رسول اللهﷺ، ولأنه قد وطئته تلك الأقدام الطاهرة حيث كتب له أن يكون خالداً بخلود الدعوة الإسلامية وخلود صاحبها الأقدس نبينا محمدﷺ.

إذن فهذا الكهف هو الذي عاشت فيه العبادة الحقّة، وهو الكهف الذي تردّدت فيه نفحات تلك الأنفاس العبقة الطاهرة للرسول الأكرمﷺ، وهو الكهف الذي كان يتردد بين جدرانه صدى تهجداتهﷺ ودعواته وتسبيحاته، وهو الكهف الّذي انبثق منه النور الإلهي المقدّس لينشر أشعته ونفحاته على كلّ بقاع المعمورة حيث رفرفت كلمة «لا إله إلّا الله، محمد رسول الله».

الجبل الثالث: جبل الطور

ومثل ذينك الجبلين المقدّسين جبل الطور، وهو الجبل الذي حدثت عليه مناجاة نبي الله موسى بن عمران عليه السلام حيث كلّم الله تبارك وتعالى نبيه عليه السلام فوقه عبر تلك الشجرة التي ارتأت المشيئة الإلهية أن تكون الواسطة في التكليم بينه جلّ شأنه وبين نبيه موسى بن عمران عليه السلام، حيث أمره بتبليغ الرسالة إلى قومه وإلى فرعون وملئه. يقول أصحاب السيَر: إن النبي موسى عليه السلام بعد أن سمع الصوت من تلك الشجرة، بقي فترة طويلة لا يحبّ أن يسمع صوت أي شيء آخر؛ لأن تلك النغمة السماوية التي صدرت عن الشجرة قد غمرته بلذّة سماوية، وبعثت فيه إحساساً غريباً جعله لا يستسيغ أن يتذوّق أي صوت، أو أن يسمع أي نغمة أُخرى

غيرها، تقول الآية الكريمة: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[١]. فهذه المناجاة كانت على جبل الطّور.

فائدة لغوية: الفرق بين الجبل والطور

إن المرتفع الصخري إن كان بغير نبات يسمّى جبلاً، وإن كان عليه نبات فإنه يسمى طوراً؛ فإن كان النبات زيتوناً سمّي طور زيتا، وإن كان النبات غير الزيتون فانه يسمى طور سيناء[٢].

وهكذا فإننا نجد أن كلّ جبل له اسم يوضّح حاله وما هو عليه، ومن خلال التسمية نستشفّ أن الطور الذي حدثت عليه مناجاة النبي موسى عليه السلام كان مثمراً، وكان على ظهره نهر يسمّى نهر الغدير، وكان ينبت على جانبيه شجر التين.

محلّ الطّور

أما محل الطّور الذي نوجي عليه النبي موسى عليه السلام فيذهب بعض من المؤرخين إلى أنه النجف، لكن معظم المفسرين يقولون: إنه في أرض الشام، وإن الوادي كان إلى جانبه. أما في تراثنا نحن والمأثورات التي وردت إلينا من طريق أهل البيت عليهم السلام فتنص على أنه كان على ظهر النجف.

موقف التاريخ والمؤرّخين من أمير المؤمنين عليه السلام

وربما يقول قائل: إن كان الأمر كذلك، فلماذا أغفل التاريخ ذكره؟

ونقول: إننا ندرك أن التاريخ الّذي بين أيدينا هو نتاج إرادة السلطات القائمة آنذاك، والتي عرفت ببغضها لكل من يمتّ بصلة لأمير المؤمنين عليه السلام، فضلاً عن كون ذلك متعلقاً به هو نفسه عليه السلام، أو بأحد من أبنائه الطاهرين عليهم السلام. ولهذا فإننا

(١) النازعات: ١٦.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٧: ٥٨.

نعتقد اعتقاداً كاملاً بأن هذا التاريخ حينما يمرّ بقضية فيها فضيلة ومنقبة لعلي بن أبي طالب عليه السلام ثم يذكرها له فإن ذلك يعدّ نعمة كبيرة، بل هبة جزيلة وهدية عظيمة؛ لأن التاريخ كما يحدثنا نفسه قد تعمّد إغفال ذكر علي بن أبي طالب عليه السلام وأهل بيته الطيبين الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين)، وما دام الأمر كذلك، وأن التاريخ كان يتعمد أن يتجاهل هذه الشخصيات العظيمة، ويحاول أن يركنها في زاوية منسية من زواياه، فإننا حينئذٍ سوف لن نستغرب منه أن يكون قد أغفل مثل هذه الرؤية أو هذا التفسير وهذا الرأي حول جبل الطور، وهو يجري حثيثاً في مجال تهميش شخصية أمير المؤمنين عليه السلام، وتحجيم دوره الضخم في حياة المسلمين، وأثره الإيجابي الفعال فيها.

فالتاريخ عندما يحاول أن يذكر علي بن أبي طالب عليه السلام كأنما يثير قدراً كبيراً من الحساسية عند بعض ممّن يسمع تلك الفضائل أو المناقب التي تذكر له عليه السلام، فهؤلاء لا يريدون أن يسلّموا بوجود منقبة له أو مكانة أو حظوة عند الله أو عند رسوله صلى الله عليه وآله أو في نظر الإسلام، بل إنهم لا يتورّعون عن تكذيب ما ورد فيه وعن تفضيل غيره عليه بغير ميزان عدل أو بغير مورد حقّ. فكيف نريد منهم إذن أن يعطوه تلك المناقب، وأن يثبتوها له، أو أن يوافقوا على أن تذكر له تلك المواقف المتميزة أو المقدسة؟

وممّا يذكر في هذا الصدد أن ابن شهاب كان أحد الذين كتبوا تاريخنا، فقد أرسل إليه الوالي الأُمويّ علىٰ الكوفة خالد بن عبد اللّه القسريّ أن اكتب التاريخ. فلما سأله عن مصير الروايات التي فيها مدح لأمير المؤمنين عليه السلام، وهل يذكرها، أم

لا؟ فقال له خالد: لا تذكرها إلّا أن تجده في قعر جهنم[1].

أي أنك إذا وجدت رواية تثلب علياً، أو تنتقص منه وتعيبه، أو تفضّل غيره عليه، أو تذكر أنه في الجحيم فاكتبها ولا تتوانَ عن ذلك ما استطعت، أما غير ذلك فلا ينبغي لك أن تدوّن منه شيئاً.

غير أن عزاءنا هو أن نقول: حسبه عليه السلام ما له عند الله تبارك وتعالى وعند رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من مساحة واسعة وعريضة من المدح والثناء والمناقب، وما له عندهما من مكانة عظيمة مرموقة[2].

الرابع والخامس: جبلا أجا وسلمى

وهما جبلان لطيّئ، ونحن نرى أنهما إنما يكتسبان أهميتهما من خلال عرض الطرماح بن عدي على الإمام الحسين عليه السلام اللجوء إليهما والاحتماء بهما، يروى أنه جاء إليه عليه السلام وقال له: والله إني لأنظر فما أرى معك أحداً، ولو لم يقاتلك إلّا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم.

وقد رأيت قبل خروجي من الكوفة إليك بيومٍ ظهر الكوفة وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيد واحد جمعاً أكثر منه، فسألت عنهم، فقيل: اجتمعوا ليعرضوا، ثم يسرّحون إلى الحسين. فأُنشدك الله إن قدرت على ألّا تقدم عليهم شبراً إلّا فعلت، فإن أردت أن تنزل بلداً يمنعك الله به حتى ترى رأيك، ويستبين لك ما

---

(١) وقد مرّ ما ذكره المحاضر رحمه الله في محاضرة (المسؤولية وجوانب تحقيقها) ما كتب به هشام بن عبد الملك إلى الأعمش من قوله: اكتب لي مناقب عثمان ومساوئ علي، فانظرها هناك. المراجعات: ١٣٢ ـ ١٣٣ / ٢٣٥، مواقف الشيعة ٢: ١٠٥ / ٣٥٥، ٣: ١٨٨ / ٧٩٢، خلاصة عبقات الأنوار ١: ٤٤ ـ ٤٥، وفيات الأعيان ٢: ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) فقد ذكرنا في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة المباركة أن العلماء ينصّون على أنه عليه السلام قد نزل فيه أكثر من (٣٠٠) آية.

أنت صانع، فسر حتى أُنزلك مناع جبلنا الذي يدعى أجا، امتنعنا والله به من ملوك غسان وحمير، ومن النعمان بن المنذر، ومن الأسود والأحمر، والله إن دخل علينا ذل قط. فأسير معك حتى أُنزلك القرية، ثم نبعث إلى الرجال ممن بأجا وسلمى من طيّئ، فوالله لا يأتي عليك عشرة أيام حتى تأتيك طيّئ رجالاً وركباناً. ثم أقم فينا ما بدا لك أن تقيم، فإن هاجك هيج فأنا زعيم لك بعشرين ألف رجل طائي يضربون بين يديك بأسيافهم ورماحهم، والله لا يوصل إليك أبداً ومنهم عين تطرف.

فقال له الإمام الحسين‌﵇: **«جزاك الله وقومك خيراً، إنه قد خار لي الله مصرعاً، وقد كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف»**[1].

فهذان الجبلان أيضاً من الجبال التي اشتهرت عند العرب وفي تاريخهم.

رجع

إذن فالله تبارك وتعالى يذكّرنا بأنه قد منّ علينا بنعم كثيرة، ومن هذه النعم الأرض بكلّ تضاريسها واختلاف حالاتها الجيولوجية، وتكوينها، وتكوين قشرتها من رملية إلى صخرية إلى غير ذلك من أنواع الأدم التي تتّصف بها. والأمر لا يقتصر على هذا الحد ولا يقف عنده، ذلك أن لله تبارك وتعالى نعمة في كلّ ما خلق، لكنه جلّ شأنه يريد أن يلفت نظرنا إلى النعم البارزة؛ ولذلك فإن أول مقطع من آية المقام الكريمة قد أشار إلى نعمة الجبال حيث يقول: **﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾**؛ لينبهنا إلى ضرورة شكر تلك النعم، مع أن فضل الله ونعمه مما خلق؛ مما يقع تحت حواسنا، ومما لا يقع تحتها كثير لا يحصى، بل في كل ذرّة من

---

(١) مقتل الحسين‌﵇: ٨٩، المجالس الفاخرة في مصائب العترة الطاهرة: ١١٦ ـ ١١٧، تاريخ الطبري ٤: ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

مخلوقاته نعمة كما ذكرنا.

المبحث الثالث: البركة في نعمه تعالى

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾.

إشارتان

وفي هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة إشارتان هامّتان ينبغي الالتفات لهما والتوجّه إليهما، وهما:

الأولى: أن الله تعالى أسبغ نعمه على الوجود كلّه

فهذا المقطع الشريف على وجازته يغطّي تغطية كاملة مسألة إسباغ الله تبارك وتعالى نعمه على كلّ مخلوقاته، فكلّ ما في الوجود هو نعمة من نعم الله سبحانه وتعالى، ومن إفاضات بركاته وهباته التي غطّت الوجود بأجمعه. فمنذ أن خلق الله تبارك وتعالى السماوات والأرض، ومنذ أن بدأت الحياة على وجه الأرض ونعمه جلّ شأنه تترى عليها، ومنذ أن أوجد جلّ وعلا الإنسان من بعدُ عليها وهو يرتع في نعمه تبارك وتعالى الظاهرة والباطنة، ويعيش من فضله عليه وإحسانه إليه على امتداد تاريخ هذه الأرض.

التاريخ الجيولوجي للأرض

ومسألة تقادم نعمه تعالى تأخذ بأيدينا إلى الإشارة إلى تاريخ هذه الأرض، منبّهين إلى حقيقة أن عملية تدوين التاريخ لم تكن أمراً سهلاً أو هيناً البتة، بل إنها كانت ـ كما أنها لا تزال كذلك في بعض الحالات ـ أمراً صعباً جداً. فالشعوب في تلك الأزمنة لم تكن تعرف القراءة والكتابة على نطاق واسع كما هو عليه الحال اليوم، فمثلاً في شبه الجزيرة العربية لم يكن هناك من يعرف القراءة والكتابة على

امتدادها كلّها أكثر من سبعة عشر شخصاً[1]، وهذا الجهل أدّى إلى عدم كتابة تاريخ تدويني لهذه الأرض. وعليه فإننا لا يمكن أن نعتمد على التاريخ التدويني للأرض؛ لأنه لم يكن هنالك تاريخ تدويني أصلاً، وإن كان فهو شذرات متفرّقة كتبت على أساس الظنّ الذي لا يغني عن الحقّ شيئاً. كما أنها لا تبتعد كثيراً لتغوص في عمق التاريخ، بل إنها سجلت لنا التاريخ الحديث الّذي لا يرقى إلى أكثر من التاريخ المعلوم لنا.

وبهذا فإنه لا يبقى أمام الإنسان إلّا اللجوء إلى التاريخ التكويني لها من خلال دراسة العناصر المشعّة فيها[2]؛ وعليه فإن البعض من العلماء ـ يقدّر من خلال

---

(١) فتوح البلدان ٣: ٥٨٠ / ١١٠٤.

(٢) تعتمد التقديرات العلمية الحديثة لأعمار الموجودات من الجمادات أو مستحاثات الكائنات الحيّة على دراسة نصف العمر للنظائر المشعّة الطويلة الأمد والقصيرة، ومقدار ما تبقّى منها؛ فالموجودات السحيقة البعد الزمني (طويلة العمر بشكل هائل) تقدّر أعمارها قياساً إلى النظائر المشعة ذات عمر النصف الطويل كاليورانيوم مثلاً، الّذي يبلغ عمر النصف له أربعة مليارات سنة ونصف المليار سنة ـ أي (٤٫٥ × ١٠⁹) سنة ـ أمّا مستحاثات الكائنات الحيّة فهي مهما تقادمت فإنها لا تبلغ تلك المسافة الزمنية السحيقة، أو ذلك العمر البعيد الضارب جذوره في تخوم الماضي رجوعاً على الجزء السالب من خطّ الزمن؛ ولذا فإنها تقدّر أعمارها قياساً على نظير الكاربون (١٤) الّذي يعدّ عمر النصف له (١٠٥٠) سنة. وتقوم فكرة عمر النصف للنظائر المشعة على أن هذه النظائر تفقد سيلاً من نيوتروناتها على مرّ الزمن، متحوّلة بذلك إلى عناصر أُخرى جديدة، وهذا التحوّل يتم على شكل متناغم وثابت ينبئ عن حكمة وإرادة إلهيتين، وهذا النقصان ثابت على صعيدي الزمن والكمية، فاليورانيوم مثلاً حينما نقول: إن نصف العمر له هو (٤٫٥ × ١٠⁹) سنة فهذا يعني أنه خلال هذه الفترة يفقد نصف الكمية من مادّته، ثم في الفترة التالية نفسها يفقد نصف المتبقي منه بشكل متوالية هندسية سلبية (إن صحّ التعبير). وعليه فالكيلو غرام من النظير المشع لعنصر اليورانيوم بعد (٤٫٥× ١٠⁹) سنة يبقى منه نصف كيلو غرام، وبعد مرور هذه الفترة نفسها ثانية سوف يبقى منه ربع كيلوغرام، وبعد فترة ثالثة مثلهما سوف يبقى منه (١٢٥) غراماً، وهكذا.

الدراسات العلمية ـ أن عمر الأرض أربعة مليارات سنة ونصف المليار سنة، في حين أن البعض يعطيها عمراً أقل من ذلك، وبعضاً آخر يعطيها عمراً أكثر من ذلك. لكن يبقى أن كلّ ما قيل من التقديرات العلمية هو ليس بحقائق، بل إنه تخمينات علمية لا تعدو كونها تعتمد على مقاييس علمية هي نفسها ربما تكون غير صحيحة أو غير سليمة، أو أنها مدخولة؛ بحيث إنها تصبح ممّا لم يكن بالإمكان دخول الاعتراض والريب والإشكال عليها.

وعلى أية حال فمهما كان الزمن، ومهما امتدت جذوره ضاربة في عمق الماضي، فإن الأرض منذ أن خلقها الله تبارك وتعالى ومنذ أن أوجدها وأوجد عليها الحياة بأي شكل من أشكالها كان هو المنعم والمتفضّل؛ لأنه في كلّ ما خلق إنما يكون قد أوجد نعمة من نعمه جلّ شانه وأسبغها على هذا الوجود وما فيه، والإنسان من ضمن هذه الموجودات التي أصابها وابل رحمة الله تبارك وتعالى، وعطائه، فكان عليه ـ بحكم أنه عاقل مكلّف ـ أن يشكر خالقه على تلك النعم التي أفاضها عليه.

الأرض مصدر العطاء

كما أن هناك حقيقة ينبغي التنبّه إليها هي أن الحياة منذ أن أوجدها الله تبارك وتعالى والكائنات الحيّة مدينة لهذه الأرض بما تأكله من نعم الله جلّ شأنه فيها، ومنذ أن أوجد الله سبحانه وتعالى الإنسان العاقل المتميّز عن غيره من الكائنات الأُخرى وهو يأكل من خيراته جلّ شأنه ومن نعمه عليه ممّا تفضّل به على أهل هذه الأرض، وأهداه إليهم.

فالأرض هي مصدر العطاء، وهي مصدر الخير، وهي مصدر الحياة للإنسان وغيره من الكائنات الحيّة التي تستعمرها وتعيش عليها؛ لأن الإنسان كائن نباتي

لاحم؛ فإن تغذّى على النباتات، فالنباتات إنما تنبت في الأرض وتمتصّ منها ما فيها من معادن وأملاح وعناصر كيمياوية أُخرى مفيدة لجسم الإنسان، وإن تغذّى على الحيوانات، فإن الحيوانات أصلاً إنما تعتاش على نباتات الأرض، وكذلك الحال مع الحيوانات اللّاحمة العاشبة.

وعليه فإن النتيجة هي أكل الكلّ من هذه الخيرات الموجودة على هذا الكوكب المبارك، واعتياشه عليها.

وهذه الخيرات إنما أوجدها الله تبارك وتعالى لهذه المخلوقات وعلى رأسها الإنسان، وعليه فإن ما ينبغي أن يكون هو أن يشكر الإنسان ـ بما أنه عاقل مكلّف ـ تلك النعمة، وأن يتوجّه إليه سبحانه وتعالى بالحمد والثناء، وأن يكون شكره شكراً فعلياً وليس لسانياً فقط.

ونحن من خلال مراقبة التاريخ التكويني للأرض نجد أنه قد مرت بها أجيال ضخمة وعديدة ومتنوعة مما خلق الله وممن خلق. وكلّ هذه الأجيال كانت تعتاش على الأرض وترتع فيها، وهي أجيال عاشت لفترات طويلة جداً كانت خلالها تستنزف خيرات هذه الأرض وتستنفدها، لكن من نعم الله جلّ شأنه على الإنسان أنه قد أخضع تلك النعم لقانون الديمومة في تلك المعادن والمغذّيات والأملاح والعناصر النافعة، بحيث إنها لا زالت حتى الآن موجودة كما لو كانت الأرض في أول تكوّنها.

الثانية: عظيم بركته تعالى

كما أننا من خلال المشاهدة نعرف أن الأرض حينما تُعطى حبة واحدة تزرع فيها فإنها تعطينا سبعمئة حبّة، أو تعطينا شجرة تنبت لنا كمّاً هائلاً من الثمار. وهذه هي البركة التي أودعها الله في الأرض، والتي أشارت إليها آية المقام

الكريمة.. البركة التي وضعها الله جلّ وعلا لمخلوقاته في الكرة الأرضية.. في التراب، وفي الماء؛ لتعيش المخلوقات عليها، ولتستفيد في رحلتها عبر هذه الحياة بما تبقّى للأرض من عمر.

ولا بأس في أن ننوّه هنا إلى أن عمر الأرض مرتبط بعمر الشمس التي يقدّر العلماء أنها ستبقى وتعيش لما يقارب أربعة مليارات سنة ونصف مليار سنة من زمننا هذا.

إن الأرض التي عاشت كلّ هذا العمر، والتي ستعيش العمر المقارب له أيضاً ظلّت وستظلّ ترفد الحياة والوجود بهذه الفوائد والنعم والأفضال؛ كي يتمكّن مَن عليها من الاستمرار والبقاء والديمومة. وهذا في واقع الأمر هو بركة من بركات الله تبارك وتعالى على عباده وعلى مخلوقاته. فالمخلوقات خلقت من التراب، وطعامها من التراب، ومرجعها إلى التراب، وما تزال التربة تعطي وتمنح دون أن يُستنفد ما فيها من خيرات ونعم، وهذه ـ كما أشرنا ـ هي البركة المرادة من قوله تعالى: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾، وهي بركة العناصر التي أودعها بارئها فيها، وهي عناصر كثيرة جدّاً بحيث إن العلم قد اكتشف منها حتى عصرنا الحاضر مئة عنصر وعنصرين ما بين عنصر طبيعي وعنصر مصنّع.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأنهار الجارية فيها، فإن البركة تنسحب عليها بما تعطيه لنا من مياه، ومن ثروات حيوانية يستعملها الإنسان وسيلة في ديمومة حياته؛ فمهما استهلك الإنسان من ماء فإنه سوف يأخذ دورته الطبيعية مرة ثانية في الجوّ ثم يعود إلى الأرض وإلى الأنهار؛ ليرفدها بمياه جديدة، وليعوّض ما حصل فيها من نقص. وكذلك الحال مع الثروات الحيوانية فيها، وكذلك الأشجار والثمار والأنهار وغيرها. ولعلّه هنا تتجلى عظمة ما يروى عنه ﷺ حيث يقول:

«التمسوا الرزق في خبايا الأرض»[1].

أقسام المعادن

ولا بأس أن نشير هنا إلى موقف الفقهاء من معادن الأرض، وآرائهم فيها ومنها وفقاً للتشريع الإسلامي الذي ينظر إليها على أنها ثروة عامّة للمجتمعات كافّة، فهم يقسمون المعادن إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المعادن المنطبعة، كالذهب والفضّة والرصاص.

القسم الثاني: المعادن غير المنطبعة، كالأحجار الكريمة.

القسم الثالث: المعادن السائلة المائعة، كالزئبق.

وهناك أشكال من المعادن في قلب التربة التي عالجها الفقهاء واعتبروها ثروة عامة للأُمة؛ انطلاقاً من التشريع الإسلامي لمبدأ الخمس الذي هو في حقيقته حقّ مالي مترتّب على بعض الممتلكات؛ ليصرف في مصالح المسلمين. وهذه كلها بركات من الله تبارك وتعالى منَّ بها على عباده أجمعين، بعد أن وضعها في جوف الأرض، ثم ذكّرنا بما أودع فيها من تلك النعم.

الثروة للأرض لا للإنسان

ومن خلال هذا فإننا أصبحنا نعرف أن الأرض طبق لا ينفد طعامه آناء الليل وأطراف النهار، فالطعام فيها محضر دائماً بفعل القوى التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الكون لتتضافر معاً من أجل إيجاد تلك المائدة وتلك البركة التي تقدمها لنا أُمنا الأرض: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2].

---

(١) فقه القرآن ٢: ٢٢، مسند أبي يعلى ٧: ٣٤٧ / ٤٣٨٤، مسند الشهاب ١: ٤٠٢ ـ ٤٠٤ / ٦٩٣، المعجم الأوسط ١: ٢٧٤، ٨: ١٠١.

(٢) المدثر: ٣١.

حينما نسرّح أنظارنا في بعض الكتب المختصّة بعلم الاقتصاد نجد أن هناك عبارة لبعض علماء هذا المجال العلمي تنصّ على أن الثروة للأرض وليست للإنسان؛ لأن الأرض هي التي تعمل. ففي الوقت الذي تتم فيها كلّ العمليات والفعاليات الحياتية من أجل الإنبات وإكمال عملية امتصاص الأملاح والمعادن من التربة، وما إلى ذلك نجد أن الإنسان مستغرق في نومه، لا يدري غالباً ما الذي حصل، ولا كيف حصل. فلنتأمل هذا الطعام الذي تحضّره لنا الأرض من دون أن نعرف الكيفية التي تمّ بها؛ تركيباً، وبناء، أو الآلية التي وقع فيها، أو التي انطبع بها على تلك الصورة.

وهذا هو الأمر الواقع؛ فإن العمل يعود أساساً إلى الأرض؛ فالإنسان ليس عليه إلّا أن يضع فيها بذرة ثم يتركها لتسقى بفعل طبيعي وإن كان أنه في بعض الأحايين ربما يتدخّل في عملية السقي، لكنه يتركها بعد ذلك لتتحوّل تلك البذرة إلى شجرة مثمرة، أو إلى نبتة تطرح الكثير من الخيرات والنعم دون مشاركة منه في صنع القرار بالنسبة لعمليتي الإنبات والإثمار، أو لعمليتي الحياة والنمو أنفسهما بما تشتملان عليه من تعقيدات ودقائق تخفى علينا. فهذه البذرة تمرّ بأدوار كثيرة، وبعمليات طويلة جدّاً ومعقدة لتتحوّل بعد ذلك إلى الكيفية التي وضعها الله تبارك وتعالى لها، وهي الطبق الذي تقدمه لنا الأرض بمباركة من الله تبارك وتعالى.

وهذه الأدوار والعمليات هي سلسلة معقدة وطويلة من التغيّرات التي لم يكشف النقاب عن آليتها بشكل كامل حتى الآن.

المتوكلون على الله

فالفلّاح بناء على هذا ينطبق عليه بشكل كامل أنه من المتوكّلين على الله عزّ

وجلّ[١]، ويصدق عليه ذلك؛ لأنّه يضع البذرة في الأرض، ثم يظل ينتظرها متوكّلاً على الله سبحانه في أن تطرح ثمارها دون أن يعلم ما الذي خبّأه له القدر حول مصير زراعته. يروى أن رجلاً دخل إلى مجلس أحد العلماء وقال له: إنـي قـد أصابتني مصيبة فنذرت إن نجّاني الله تعالى منها أن أُفرّق شيئاً من أموالي عـلى المتوكّلين، فعافاني الله تبارك وتعالى منها، ولما أردت الوفاء بـنذري تـوقّفت؛ لأني لم أعرف من هم المتوكّلون، فهل لك إلى أن ترشدني إليهم؟ فـقال له ذلك العالم: هم الزرّاع.

وهذا طبعاً بناء على أنهم يلقون بذورهم في الأرض، ثمّ يتركونها مـتوكّلين على الله تبارك وتعالى في أن تنمو تلك البذور وتكبر؛ لتصبح أشجاراً أو نباتات، ثم بعد ذلك تطرح ثمارها. فالإنسان ليس له من دور سوى أنه يلقي البذرة في الأرض ويتركها وإن كان له تدخّل بعد ذلك فهو تدخّل بسيط لا يعدو سقيها بالماء الذي أنزله الله تبارك وتعالى عليه، لكن الله جلّ شأنه هو الذي يتكفّل بالعمليات المتبقّية بكامل تعقيداتها عبر الأغذية الضرورية لإنبات النبات، والتـي أودعـها سبحانه في الأرض، وعبر القوى التي وضعها فيها، وفي الجوّ متضافرة لإنـبات تلك البذرة ونموّها، ثمّ بعد ذلك لتعطي ما تعطي من بركاتٍ ومن عطاء: **﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَـجَعَلْنَاهُ حُـطَاماً فَـظَلَلْتُمْ تَتَفَكَّهُونَ ﴾**[٢].

---

(١) أما إذا لم يزرع، فهو من المتّكلين عليه تعالى، وهو أمر مذموم إلّا أن يشفّعه صاحبه بأن يضم إليه عملاً ما، مرّ رسول الله ﷺ على قوم فرآهـم لا يـزرعون، فـقال ﷺ: «ما أنتم؟». قالوا: نَحنُ المُتوكّلون. قال ﷺ: «لا، بل أنتم المُتّكلون». مستدرك وسائل الشيعة ١١: ٢١٧.

(٢) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٥.

من ألوان الاستبداد

ومع أن هذا الفلاح يلاقي تعباً من نمط ما في عملية بذر البذور وزراعتها، وألماً في انتظار ما يرجو أن ينبته الله تبارك وتعالى في الأرض من تلك البذرة التي أودعها فيها معوّلاً على ما سوف تُغلّه له ممّا يكفل له قوته وقوت عياله، بل إنّه قد بذل جهداً من قبل في حراثة الأرض وتهيئتها لإلقاء البذور فيها، ثم بعد ذلك جلوسه منتظراً الوقت الذي تطرح فيه الأرض بركاتها، فإننا نجد أن هناك ثلة من البشر ممن لا يستحقّون الحياة يأتون ليستحوذوا على ما ينتظره هذا الفلّاح من فترة طويلة ليأخذوه منه قسراً دون أن يكون لهم أدنى حقّ في ذلك. فهؤلاء لم يسكبوا عرقاً على تلك الأرض التي زُرعت، ولم تندَ أجسامهم في الوقت الذي كان أصحابها يباشرون العناية بها بعد أن تنمو وتكبر، ثم مع ذلك يأتون ليصادروا كلّ ذلك منه دون وجه حق:

ومن الطوى جنب البيادر صرّعُ	وبجنب زقّ أبي نؤاس صرّعُ
ويد تكبّل وهي مما يفتدى	ويد تقبّل وهي مما يقطعُ
وبراءة بيد الطغاة مهانة	ودناءة بيد المبرِّر تصنعُ
ويصان ذاك لأنه من معشر	ويضام ذاك لأنه لا يركعُ
كبرت مفارقة يمثّل دورُها	باسم العدالة والعدالة أرفعُ[1]

وربّما يفعل بها هذا الذي صادرها عن غير حقّ كلّ ما حرّم الله تبارك وتعالى؛ فنجد أحياناً مثلاً أن عرق الجبين الذي أراقه الفلاح على أرضه يتحوّل إلى كأس من الخمر يشربها أحد المتطفّلين على الحياة:

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٩.

مـن عـرق الفـلاح أقـداح الطلى   ومـن عـصا الراعـي القـمار والبطرْ

فالآية الكريمة إذن إذ تقول: ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ فهي تشير حتماً إلى بركة لا حدود لها دون شك.. بركة لا تنفد ولا تنقطع، بل هي مستمرة خالدة مع استمرار الحياة وخلودها، ومع وجود الإنسان، بل مع وجود الأرض نفسها. ومع أن الإنسان ربما يتقاعس عن التحديث بنعم الله تبارك وتعالى، وعن إعطاء شيء من تلك النعم لغيره ممّن يحتاجها، وربّما منّ على من يعطيهم بعض تلك النعم التي تفضّل الله جلّ وعلا بها عليه، لكننا مع ذلك نجد أن بركته سبحانه وتعالى عليه مستمرّة دون أن تنقطع، بل ومن غير منٍّ منه جلّ شأنه، ولذا فقد ورد في الدعاء الشريف في مخاطبته تقدّس اسمه: «الذي لا تنقص خزائنه، ولا يزيده كثرة العطاء إلّا كرماً وجوداً»[1].

فهو تعالى لا يمنع عطاءه حتى عن العصاة الذين يجاهرونه بالمعصية، بل إنه جلّ وعلا كلّما ألحّ عليه الإنسان بالطلب كلّما زاده عطاء ومناً وإنعاماً دون خوف نفاد ما في تلك الخزائن.

خُلُق الأنبياء﵈

وهكذا فكلما ألحَّ الإنسان بالطلب على الله تبارك وتعالى فإنه سوف يمتن بالعطاء ويكثر البركة عليه، وسوف يغدق عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وسوف يتفضّل عليه بغير حساب وبغير منٍّ أو تكدير. وهذا الخُلُق الذي ذكرناه هو خلق الأنبياء﵈ أيضاً، الذين لا تعدو أخلاقهم أخلاق السماء، ولا تجاوز آدابهم آدابها؛ فقد أعطاهم الله سبحانه وتعالى هذه الميزة، فتخلّقوا بأخلاقه جلّ شأنه،

---

(١) مصباح المتهجّد: ٥٧٨، الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ١٣٩.

وتأدّبوا بآدابه، وتمثّلوا بقيم السماء ومبادئها؛ ولذلك كان عطاؤهم عطاء مستمرّاً غير منقطع ولا منتهٍ.

فكما أن الله تبارك وتعالى كلّما أساء إليه العبد، وكلّما عصاه وتمرّد على قوانينه وعلى قواعده، فإنه جلّ شأنه لا يقابله بالمثل، بل يتفضّل عليه وينعم عليه، فكذلك الأنبياء عليهم السلام؛ فإنهم حتى وإن أساء إليهم أحد فإنهم يقابلونه بالعدل والإحسان إلّا إذا تعدّى الأمر إلى الشرك بالله تبارك وتعالى والكفر به وبنعمه، وإلى عدم التديّن بدينه.

فكلّ إنسان ما لم يكن معصوماً فإنه من الممكن عليه أن يسيء إلى الله تبارك وتعالى، ولا أقل في ذلك من قلّة شكره له، أو قلّة حمده وإن لم يعصِه معصية ظاهرة؛ فالإساءة إليه جلّ شأنه ربما لا تكون بالمعصية الإيجابية بل ربما تكون بالمعصية السلبية التي هي عدم طاعته، وعدم شكر نعمه، أو عدم حمده على ما أنعم، وعلى ما أكرم، وعلى ما أولى. وهكذا فإن عدم شكره سبحانه وتعالى هو أبسط أنواع الإساءة.

ومن هنا فإننا يجب أن نلتفت إلى أن كلّ نعمة ينبغي أن يؤدّى شكرها وحقّها؛ لأنها من الله تعالى، ولأنها كذلك؛ فإن الواجب على الإنسان حينئذٍ هو أن يتقدّم بالشكر القولي والفعلي والقلبي له سبحانه وتعالى. وعليه فليذكر الإنسان ربّه، وليعلم أن ما هو فيه من نعمة ومن عطاء ومن خير وبركات إنما هو منه جلّ شأنه، فلا يقل: إن ما أنا فيه من خير إنما هو بسبب تعبي أو تحصيلي أو كدّي وكدحي، أو بسبب مستواي العلمي وعبقريتي التي استغللتها في الوصول إلى ذلك[1]؛ لأن عليه

---

(١) فهذا هو الشرك الخفي. يقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾

أن يعلم أن كلّ ما عنده من طاقات ومن قوى ومن قابليات وقدرات على تحقيق كلّ ذلك، وعلى الوصول إليه ـ وهو يتباهى به وكأنه من صنعه هو نفسه ـ فإنما هو من الله تبارك وتعالى، وهذه بحدّ ذاتها نعمة أُخرى تضاف إلى قائمة تلك النعم التي يعيش في بحبوحة من العيش معها.

فالله تبارك وتعالى قد أنعم على هذا الإنسان بالعقل، وأنعم عليه بالقدرة على الفهم والتفكير، وأنعم عليه بالقابلية على تحصيل العلم، وأنعم عليه بتلك العبقرية التي استطاع من خلالها أن يتوصّل إلى ما توصّل إليه من اكتشافات وإنجازات علمية، فهذه كلها من نعمه جلّ وعلا وبركاته عليه؛ ولهذا فإن على هذا الإنسان ألّا ينسى أنّ كلّ ما هو فيه من نعم ظاهرة وباطنة، ومن نِعم مادية ومعنوية إنما هي من امتنان الله عزّ وجلّ عليه وتفضّله بها عليه، فهو سبحانه قد امتنّ بها، وتفضّل بها عليه؛ لأنه يريد أن يوصله إلى الكمال، أو أن يسلك به طريق الكمال.

ثم إن على هذا الذي يقول: إنني أعيش في كلّ هذه النعم بسبب عبقريتي أن يعرف أن العبقرية ليست وراء ذلك دائماً؛ بدليل أن هناك الكثير من العباقرة ممّن لا يجد رغيفاً من الخبز يأكله، بل إنه في كثير من الأحيان يظلّ حائراً كيف له أن يحصل على لقمة من العيش يقيم بها إوده؛ كي يستطيع أن يواصل دربه العلمي ومسيرته المهنية.

إن في هذا دليلاً واضحاً، وبرهاناً صارخاً على أنّ الله تعالى إنما هو الذي يرزق الإنسان، وليست عبقريته أو مستواه العلمي أو أداؤه في الحياة، فكلّ هذه أسباب ليست حقيقية، بل إن الرازق الحقيقي، والمعطي الحقيقي هو الله تبارك

يوسف: ١٠٦، وسيأتي الحديث عنه مفصّلاً في محاضرة (التجارة الرابحة) من هذا المجلد.

وتعالى، وما تلك التي يسميها أسباباً حقيقية إلّا وسائل وذرائع لوصوله إلى ذلك المستوى الذي ينشده. يقول أحد الأُدباء:

ما همتي إلّا مقارعة العدى ... خلق الزمان وهمّتي لم تخلقِ

والناس همتهم إلى طلب الغنى ... لا يسألون عن الحجا والأولقِ

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني ... بنجوم أقطار السماء تعلّقي

لكن من رزق الحجا حُرم الغنى ... ضدّان مفترقان أي تفرّقِ[1]

إذن فالله تبارك وتعالى هو الذي بارك في الأرض وفيما أعطى وما منح، وبهذه البركة استطاعت الإنسانية، وغيرها من الموجودات الحيّة وغير الحيّة أن تستمرّ في الوجود، ومنها تمكّنت الأرض من أن تستمدّ مقومات وجودها وسيرورتها في هذا الكون.

المبحث الرابع: التعبير عن الأشياء بالزمن حيث لا زمن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ وفي هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يتمركز ثقل الآية؛ ذلك أنه محور البحث فيها.

حركات الأرض

وهذا الثقل يتمركز حول إشكالية هي أن الوقت والزمان، والليل والنهار إنما كانا نتيجة الحركة، فقبل أن تكون هناك حركة ـ أي قبل أن يكون هناك عالم

---

(١) اختلف في قائل هذه الأبيات بين كونها للشافعي أو للعباس الأزرق أو لعلي بن محمد السيرافي أو لابن مشرّف الأندلسي أو لابن المبارك. انظر: الكشكول (البهائي): ١٦٤، غرر الخصائص الواضحة (الوطواط) ١: ١٣، جميع دواوين الشعر العربي ٩: ٣٣٣، ٨٤: ٤٤٧،٤٤٦، مجمع الحكم والأمثال / باب الغنى والثراء.

مخلوق متحرّك ـ لا يمكن أن يكون زمان. ولا أقلّ في المقام من الإشـارة إلى حركة الأرض حول نفسها أو حول الشمس، والتي تولّد معايير الزمن بالنسبة لنا. فمعلوم أن للأرض حركتين:

الأولى: الحركة الانتقالية

وهي الحركة التي تدور فيها الأرض حول الشمس مكوّنة الفصول الأربـعة، وهي كما هو معلوم تتم كلّ سنة مرة.

الثانية: الحركة المحورية

وهي حركة موضعية محورية تدور فيها الأرض حول نفسها، أو حول محورها فتكوّن الليل والنهار. وهي ـ كما هو معلوم أيضاً ـ تتمّ مرّة كلّ أربـع وعشـرين ساعة.

وعليه فقبل خلق الأرض، وقبل أن تكون تلك الحركة لم يكن هنالك من ليل ولا نهار، فكيف عبّر القرآن الكريم عن فترة الخلق وتقدير الرزق فيها بقوله: ﴿**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**﴾؟ وبعبارة أُخرى إن الزمان إنما كان بعد الخلق، أما قبل الخلق فليس هنالك من زمان حتى تقاس الأُمور بوحدة من وحداته، مثل الأيام كما هو الأمر ها هنا مثلاً.

المراد من الأيام في آية المقام الكريمة

والمفسّرون على الإجمال يقولون في المقام عن هذه الأيام: إنها من أيام الله تبارك وتعالى، فنحن مثلاً نقرأ في الكتاب الكريم: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾[1]. ولنا أن نتساءل هنا ونقول: هل إن الأيام المذكورة في آية المقام

---

(١) المعارج: ٤.

الكريمة هي من هذه الأيام الطويلة، أم إنها من أيامنا، وقد خلق الله بها الأرض؟

هناك ثلاثة آراء في المقام:

الأول: أنها من هذه الأيام الطويلة المارّة في الآية الكريمة السابقة.

الثاني: أنها من أيامنا الاعتيادية، وقد خلق الله سبحانه وتعالى بها الأرض.

الثالث: أن المقصود بالأيام هنا الدفعات، أي أن الله تبارك وتعالى خلق الأرض على أربع دفعات، أو على أربع مراحل، لكنهم لم يحدّدوا ماهيّة هذه الدفعات أو المراحل، وما هي طبيعتها.

بين قوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ وهذه الفترة في الخلق

ونقول: إن ارادة الله تبارك وتعالى إذا تعلّقت بالممكن فإنه يُخلق فوراً، ويُحدث بدون أي تلكّؤ أو تباطؤ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]، أما الممتنع فلا تتعلّق به الإرادة؛ فلماذا إذن نقول: إن الأرض ـ وهي من الممكنات ـ بحاجة إلى كلّ هذه الفترة الطويلة لخلقها؟

والجواب على هذا يستدعي بيان أمر هو أن بعض الأشياء لم تكن مهيأة لأن يفاض عليها الوجود دفعة واحدة، وذلك من ناحية عدم صلاحيتها لتقبّل تلك الإفاضة وذلك الوجود، وهذا يعني أن الإشكال أو القصور في القابل نفسه، فالموضوع الذي هو متعلّق الإفاضة والوجود ليست فيه القابلية الكاملة لأن يفاض عليه الوجود دفعة واحدة بتلك السرعة أو بفترة زمنية وجيزة أو قياسية، بل لابدّ لتحقّق تلك الإفاضة بشكل حكيم وصحيح ومثمر من فترة زمنية تتناسب مع تلك القابلية التي يتّصف بها متعلّق الإفاضة؛ كي تتمّ عملية إفاضة الوجود

---

(١) يس: ٨٢.

عليه كاملة. فبسبب القصور في القابل أو الموضوع كما ذكرنا كان ذلك التأخّر في الخلق.

ولبيان هذا الأمر نقول: إن الوقت هو بعد زماني، وهذا البعد يتعلّق بأُمور كثيرة عند إرادة إحداث شيء فيه؛ فالأرض بما تحتوي من خيرات وبركات ومعادن ومركبات وما إلى ذلك، وما فيها من قابليات وقوى أُخرى يعلم الإنسان بعضها ـ وهو القسم الضئيل منها ـ ويجهل القسم الأكبر منها لا يمكن أن تخلق بهذه السرعة، لا لعجز عنده تعالى جلّ عن ذلك وتنزّه كما قرّرنا، بل لأن الأرض نفسها لا تمتلك القابلية على تقبّل حصول تلك الأشياء فيها دفعة واحدة وبزمن قياسي قصير ووجيز.

إذن غاية ما في الأمر أن المسألة تتعلّق بقابلية الموضوع ـ وهو الأرض ـ لتقبّل تلك الأشياء فيها، والإفاضة عليها دفعة واحدة. أما من ناحية الله جلّ وعلا فإنه ليس من نقصان في قدرته مطلقاً. ولو فرضنا أن قابلية الأرض تستطيع أن تحتوي تلك الأشياء دفعة واحدة لأمكن بالنسبة إليها وإليه تبارك وتعالى أن يخلقها بتلك الفترة الوجيزة التي يراد ـ من خلال هذا الإشكال ـ أن تخلق بها.

الجواب قسمان: اقناعي وعلمي

وإذا كانت المسألة تتعلّق بالقابل وليس بالفاعل عرفنا أن ليس في قدرة الله تبارك وتعالى قصور أبداً. ومن هذا ما يروى من أن أبا شاكر الديصاني دخل على الإمام الصادق ﷺ وقال له: ألك ربّ؟ قال: «**بلىٰ، الله عزّ وجلّ ربّ السماوات والأرض**». قال: أربّك قادر قاهر؟ قال: «**بلى**». قال: هل يستطيع ربّك أن يدخل هذا الكون في بيضة، بحيث لا تكبر البيضة ولا يصغر العالم؟

فقال له الإمام الصادق ﷺ: «**كم حواسّك؟**». قال: خمس. قال: «**أيها أصغر؟**».

قال: الناظر. قال: «وكم قدر الناظر؟». قال: مثل العدسة أو أقل منها. فقال له: «فانظر أمامك وفوقك، وأخبرني بما ترى». فقال: أرى سماء وأرضاً ودوراً وقصوراً وبراريَ وجبالاً وأنهاراً. فقال له أبو عبد الله عليه السلام: **«إن الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسةَ أو أقلّ منها قادر أن يدخل الدنيا كلّها البيضةَ لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة»**[1].

وهذا الجواب هو جواب اقناعي في حقيقة الأمر، وليس جواباً علمياً؛ لأن الجواب العلمي هو أن قدرة الله تبارك وتعالى ليس لها حدّ، وليست قاصرة عن فعل شيء، لكن تحقّق ذلك الفعل منوط بإمكان ذلك الشيء، ويتوقّف على قابليته من جهة الممكن نفسه، الذي هو في مثل سؤال الديصاني هذا ليست له تلك القابلية. فعدم حصول ذلك؛ لأن القصور يقع في القابل نفسه وهو البيضة وليس في الفاعل وهو الله تبارك وتعالى فإنه ليس لقدرته حدّ[2].

---

(١) الكافي ١: ٧٩ / ٤، وفيه أن الديصاني سأل هشام بن الحكم عن ذلك، فأعياه الجواب، فاستمهله، ثم عرض السؤال على الإمام الصادق عليه السلام، فأجابه بما أجابه. التوحيد: ١٢٠ / ١٠ ـ ١٢، وفيه أنه سؤال وجهه رجل لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) ذكرنا فيما مضى أن هذا ما يعبّر عنه بأنه نقص وقصور في القابل وهو البيضة أو الدنيا، وليس في الفاعل وهو الله تبارك وتعالى (تنزّه عن ذلك). فمن هذه الجهة يكون جواب الإمام عليه السلام جواباً إقناعيّاً لا علميّاً، وذلك لمناسبة ذهنيّة السائل التي يمكن أن نستشف من خلال أمرين انطوت عليهما الرواية أنه كذلك، أي ذو ذهنيّة قاصرة، وهذان الأمران هما:

الأول: أنه لو كان ذا عقليّة علميّة لما سأل مثل هذا السؤال حتماً، إذ أنه حينها سيكون عارفاً بأن قصور البيضة عن قبول ذلك إنما هو قصور ذاتيّ فيها، وليس هو قصوراً من الفاعل ـ وهو الله جلّ وعلا ـ مطلقاً. ولو لم يكن كذلك لما فاه بمثل هذا.

الثاني ـ وهو دليل بيّن وواضح أشدّ الوضوح على سذاجته ـ: اقتناعه بجواب الإمام عليه السلام مع أن الذي دخل العين هو صورة العالم لا العالم نفسه، وبينهما بون شاسع وفرق واسع؛ فالصورة غير المادّة كما هو واضح من تقسيم الفلاسفة العلل إلى أربع: ماديّة وصوريّة

رجع

إذن فالمفسرون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام حيال ما هو المراد من الوحدات الزمنية هنا؛ فقسم يذهب إلى أنها أيامنا الطبيعية، وآخرون يذهبون إلى أنها تلك الأيام الطويلة، وجماعة تذهب إلى أنها على دفعات أو مراحل، وهي أربع كما مرّت الإشارة إليه.

المبحث الخامس: التفجّر السكاني وتقدير الأرزاق

إن العالم بأسره يعيش اليوم رعباً قائماً على أساس أن التفجّر السكاني قد أصبح هائلاً بحيث إنه في بعض المناطق من الأرض قد تمثّل بنموّ السكّان نموّاً هائلاً ومريعاً إلى درجة أنه حصل هنالك تخوّف من ألّا يتمكّن قادة الشعوب من أن يوجدوا لهم كمية كافية من الطعام لإطعامهم أو لإشباعهم. وهذه مشكلة بحدّ ذاتها يعاني منها قادة العالم وشعوبه نتيجة بعدهم عن الإيمان بالله تبارك وتعالى، وعن مفهوم ديني بديهي هو أنه تعالى قد خلق الخلق وتكفّل بأرزاقهم.

إن هؤلاء حينما ينظرون إلى التفجر السكاني الحاصل في بعض مناطق شرق آسيا وجنوب شرقها، فإنهم ينامون ويستفيقون على رعبٍ يعشعش في أدمغتهم ويملأ قلوبهم وأذهانهم، وهو أن الأرض سوف لن تصبح ملاذاً آمناً وملجأً مناسباً؛ لأن الأقوات فيها ستنفد وستنتهي نتيجة ذلك النموّ الهائل للسكّان في تلك المناطق، وأنهم سيأتون على الأخضر واليابس، وسيأكلون كلّ ما فيها؛ وبالنتيجة فإنهم سوف يبقون من غير رغيف.

وفاعليّة وغائية؛ فالمادة غير الصورة؛ لأن القسيم غير قسيمه حتماً كما نُصّ عليه وأُثبت في محلّه.

الحلول التسويقية ونوايا أصحابها

وفعلاً فإننا نجد في بعض تلك البلاد أن هناك الملايين ممّن لا يجد الرغيف ليأكله، وهذا طبعاً بسبب سوء استغلال الثروة وسوء توزيعها والاستفادة منها، وكذلك بسبب سوء استعمال الطاقات المودعة في الإنسان والأرض، وإلّا فإنها لو استغلّت استغلالاً صحيحاً وفق الضوابط السماوية التي أمر الله تبارك وتعالى بها، ولو وزّعت الثروة توزيعاً عادلاً لما وجدنا أن هناك الملايين من البشر ممّن يطلب الرغيف ولا يجدهُ.

ونتيجة هذا الرعب المسلّط على هؤلاء، والمعشعش في أذهانهم نجد أنّ قادة تلك الدول، بل قادة العالم أجمع يتبارون في وضع الحلول لهذه المشكلة، وهي حلول يمكن إيجازها بثلاثة أنماط:

الحل الأول: إحداث الحروب

وهو نمط من الحلول يعالج النتيجة ولا يعالج السبب، ويتلخّص بإحداث حرب هائلة حتى وإن كانت نووية من أجل تخفيض عدد البشر المتزايد بشكل غير معقول من وجهة نظرهم.

فبناء على هذا الحلّ لا يهم أن تستخدم وسائل القتل الفتّاكة بالجملة؛ سواء كانت نووية، أو كيمياوية، أو أي موادّ فتّاكة أُخرى، فالمهم هو تخفيف الثقل الواقع على كاهل الإنسانية، وعلى كاهل الأرض في أنحائها وأطرافها كافّة، والذي يشكّل عبئاً يجثم على صدور أبناء تلك الشعوب وقادتهم.

الحل الثاني: بثّ الأوبئة ونشرها في مواطن الإنسان

أما الحل الثاني الذي يطرحه أصحاب هذا المذهب لمعالجة التفجّر السكاني

الهائل فهو القضاء على كميات كبيرة من البشر أيضاً، لكن عن طريق بثّ الأوبئة بينهم، ونشرها في مواطنهم وليس عن طريق الحروب. فحينما تنتشر الأمراض والأوبئة بينهم فإنها تؤدّي إلى القضاء عليهم، وإلى تقليل أعدادهم.

أمراض المدنية الحديثة

وهذا ما نراه فعلاً وأمراً واقعاً؛ حيث إننا نجد الكثير من الأمراض التي برزت مؤخّراً دون سابقة إنذار، كمرض الأيدز مثلاً[1]، وغيره من الأمراض التي لم تكن موجودة سابقاً.

والدليل على عدم وجودها سابقاً أننا نعرف أن مرض الأيدز على سبيل المثال يشاع بأنه نتيجة لممارسة الانحراف في العلاقات الجنسية، لكننا ينبغي ألّا تغفل عن أن البشرية منذ وجدت وهي تمارس الانحراف في هذه العلاقات على نطاق ما. فلماذا لم يظهر الأيدز بينهم حينذاك؟ وما هو السرّ الكامن وراء هذا المرض الذي تفشّى مؤخّراً، والذي أصبح يستشري في جسد المجتمع كما تستشري النار في الهشيم؟ إن هذا التساؤل يضع له هذا المذهب الذي ذكرناه جواباً واضحاً، وهو محاربة الناس، وتخفيض أعدادهم عن طريق بثّ الأوبئة والأمراض الفتاكة بينهم؛ لكي يوجدوا توازناً بين كمّية الغذاء الموجودة على الأرض، وبين الناس الذين لا زالوا يستمرّون في الازدياد، وفي التوالد والنموّ المتسارعين.

الحلّ الثالث: تحديد النسل

إن أصحاب هذا الرأي يميلون إلى ضرورة تقليل عدد السكان وكبح نموّه

---

(١) وأخيراً ظهرت أمراض جديدة لم تكن معروفة على خريطة الباثولوجيا الحيوانية، ومنها مرض جنون البقر، والخيول، وإنفلونزا الطيور، وفي الآونة الأخيرة برز مرض إنفلونزا الخنازير، وما خفي أعظم.

المتسارع عن طريق تحديد النسل، كما هو الأمر المتبع في بعض البلاد ومنها الصين مثلاً: حيث إن السلطة تفرض على الأُسر هناك قانوناً يمنعها من أن تنجب أكثر من شخص واحد.

مساوئ هذا الحل

إن اتّباع هذه الطريقة في كبح جماح التنامي المتصاعد للسكان أدّى إلى ظهور مشكلة، وإلى بروز معظلة أمام سلطات تلك البلاد التي تفرض هذا الحل، وهي أن الزيجات عادة تثمر ذكوراً أكثر من الإناث، وهذا يعني تزايد عدد الذكور وقلّة عدد الإناث؛ وبالتالي عدم توفير زوجات لهم، وهكذا فإننا نرى أن المشكلة تظل مع هذا الحلّ قائمة.

موقف الشرع من مسألة تحديد النسل

أما رأي الشارع الأقدس في مسألة تحديد النسل، وموقفه منها، فإننا لو تتبعنا الآراء الفقهية في المقام؛ لكي نطلع على رأي السماء فيها، فسنجد أنّ الرأي الشرعي لا يعارض تحديد النسل بالشروط الصحيحة المطابقة لقواعد السماء وغير الخارجة عن الأخلاق، وذلك فيما إذا كانت الضوابط التي يضعها العلم لهذه المسألة غير متعارضة ولا متقاطعة مع الضوابط الشرعية؛ فحينئذٍ لا مانع منه. وبذلك فإن بعض الفقهاء يفتي بجوازه. لكنه يبقى كما ذكرنا حلاًّ مؤقتاً وجزئياً للمشكلة، ودون أن ينفذ إلى عمقها كي يعالجها من جذورها.

المصالح والأهداف الكامنة وراء طرح مثل هذه الحلول

إن أُولئك الذين يرون مثل هذه الحلول في المواقف، ويدعون إلى هذا اللون من ألوان معالجة ما يظنون أنها مشاكل تعترض طريق الإنسان في حياته إنما هم

أحد صنفين:

الصنف الأول: أصحاب مؤسّسات الإنتاج الحربي

وهم عبارة عن تكتّلات تجارية عملاقة تملك زمام المتاجرة بالأرواح بامتلاكها مصانع عسكرية ضخمة، وبوضعها أيديها على القدر الأكبر من تجارة السلاح، ولذا فإنها تريد أن تروّج لمنتجاتها هذه، وأن تجد منافذ تسوّق عبرها ما تصنّعه من آلات دمار هائل في حال كسدت تلك التجارة، أو بارت وقلّت أرباحها. فهؤلاء يريدون لهذه المصانع أن تعاود عملها ونشاطها، وأن تجد لها أسواقاً تروّج فيها لبضاعاتها لتحصل على الأرباح عن طريق بيع هذه الأسلحة وإن كان على حساب الإنسانية، وعلى حساب الأخلاق والقيم، بل وإن أدّى إلى القضاء على البشرية وإبادتها.

الصنف الثاني: عمالقة رأس المال ومحتكرو الثروات

وهم أولئك الذين يريدون أن يوجدوا أسواقاً جديدة لتسويق منتجاتهم الصناعية فيها لتحصيل الأرباح ومضاعفة أرصدتهم، فهؤلاء يقولون: إن الإنسان على أي حال لابدّ أن يموت، ونحن بإقامة هذه الحرب إنما نعجّل له بأجله؛ لأننا ما لم نفعل ذلك فإننا سوف نرى أنه سيحصل هناك صراع مرعب واقتتال عنيف على مصادر الطعام، وعلى موارد القوت ومنابعه، فنحن إنما نفتعل هذه الحروب لأجل عدم حصول ذلك.

إضافة إلى ذلك أن هؤلاء إنما يثيرون الحروب؛ لأنهم يرون أنها عادة يصاحبها نشاط اقتصادي في بعض الدول المستفيدة من شنّ تلك الحروب، وكذلك بعد انتهائها؛ حيث تنشط حركة الإعمار لأصلاح ما خلّفته الحروب من دمار وتخريب، فتستغلّ تلك الدول الظرف المأساوي الذي تعيشه تلك الدول

المتضرّرة من الحرب لإنعاش اقتصادها عبر الدخول في مزايدات أخلاقية هي في واقعها رقص على أشلاء الضحايا عن طريق مساهمة شركاتها في عملية الإعمار تلك، وإعادة تأهيل ذلك البلد المتضرّر.

ثم يبرّرون كلّ ذلك بالقول: إننا في كلّ هذا إنما نعجّل لأولئك آجالهم لهدفٍ هو إنقاذ الإنسانية كلّها من جوع يمكن أن يحفّ بها، وهو خطر محدق بالبشرية كلّها، وعليه فلابدّ من معالجته بهذه الطريقة والقضاء عليه. وهؤلاء يتناسون أن ذلك هو عبارة عن معالجة للمرض بمرض مثله.

العمق التاريخي للإبادات الجماعية عند المسلمين

وهذا المذهب وهذه النظرية القائمان على أساس الإبادات العرقية هما نزعة متجذّرة عند الإنسان، وفي تاريخها، ولها بعدها التاريخي الطويل فيه، ذلك أننا بالرجوع إلى تاريخها نجد شواهد كثيرة عليه، منها ما هو في تاريخنا نحن المسلمين، نذكر منها:

الأول: قتل سمرة الموحدين والخوارج

إن سمرة بن جندب هذا كان مدير شرطة عبيد الله بن زياد، وقد ارتأى بعد ذلك أن يجعله والياً له على البصرة، فعمد إلى قتل الخوارج فيها، فكان أن قتل في يوم واحد ثمانية آلاف شخص من أهلها، دون أن يفرّق أو يميّز بين الخارجي والمسلم منهم، وحينما اعتُرض عليه في قتل المسلمين قال: أنا أقتلهم جميعاً دون تمييز؛ فأما الخارجي منهم فيعجّل بروحه إلى النار، وأما المسلم فيعجّل بروحه إلى الجنة[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٧٦، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٠، النصائح الكافية: ٧٦.

الثاني: قتل غير الموحّدين بأجمعهم

وكذلك فإنني قد اطّلعت على نظرية غريبة عند أبناء أحد المذاهب الإسلامية تجوّز قتل الناس وإن لم تكن بدافع الجوع، لكنها تظلّ غريبة لأنها تقول: إنه يجوز أن يقتل ثلثا الناس، وأن يبقى الثلث منهم ما دام الثلثان غير صالحين والثلث الباقي هو الصالح؛ لأننا بهذا إنما نقضي على الشرّ في الأرض، ونبقي على هؤلاء الصالحين منهم فقط. وهي نظرية عجيبة وغريبة كما ذكرت.

وعلى أية حال فهؤلاء الذين يروّجون إلى هذه الحروب بدافع نفعي أو بدافع شخصي أو منفعة دنيوية تعود عليهم يصورون الوضع على أنه إذا استمر الحال على ذلك المنوال فإنه حتماً سوف يؤدّي إلى نشوب صراع مرعب وطويل حول مصادر الغذاء ومنابع القوت وموارده. فهم ـ منعاً لحصول هذا الصراع، ومحاولةً منهم لعلاجه وقائياً ـ يعمدون إلى انقاذ الوضع عبر إثارة تلك الحروب وافتعالها، أو عبر نشر الأوبئة؛ كي يخلصوا مباءة البشرية من ذلك الكمّ الهائل الزائد من الناس الذين من الممكن ـ من وجهة نظرهم ـ أن يأتوا على كلّ مصادر الطعام أو الغذاء في الأرض؛ فيشكّلوا أزمة غذاء حقيقية فيها تطال حتى غيرهم من أبناء الشعوب الأُخرى.

مناقشة

إن هذه الآراء كما ذكرنا آنفاً مبنية على أساسين واهيين، هما مرتكز دحضهما ورفضهما، وعدم الأخذ بهما:

الأول: تغليب المصالح الشخصية

فأصحاب هذه الحلول يفرضون حلولهم؛ لأنهم يريدون تغليب مصالحهم على

الصالح العامّ، فيسعون إلى افتعال موجات من الأزمات التي توجد المبرّر لحلولهم التي يطرحونها، وتخلق الساحة التسويقية لها وإن كان ذلك يقتضي تفويت الهدف من الحياة لهؤلاء أساساً، أو ينطوي على مخالفة للقيم والمبادئ.

الثاني: عدم الإيمان بالله تعالى

ذلك أن من يؤمن بالله جلّ شأنه يؤمن بأنه سبحانه لم يخلق مخلوقاً إلّا وقدّر له قوته ورزقه، وأنزل معه ما قُدّر له. فالآية الكريمة صريحة في ذلك أشد الصراحة وهي تقول: ﴿**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا**﴾[1]، وهي صريحة كذلك في أنّ كلّ تلك الحلول هي في واقعها حلول جزئية وليست بحلول عامة، أو لا أقلّ من أنها لا تتّصف بصفة الشمولية، بل إن بعضها حلول إجرامية غير إنسانيّة كما رأينا، وتبتعد عن روح الشفقة والرأفة بالآخرين.

الأسباب الواقعية لأزمة الغذاء

إذن فالآية الكريمة تذكّر بأن الله تبارك وتعالى قد قدّر لكلّ الكائنات الحية أرزاقها التي تحتاج إليها، وأنزل طعامها بما ذكرنا من بركة إلى هذه الأرض، لكن المشكلة القائمة كما نرى أنها قد نشأت من سببين هما :

السبب الأول: الشرّ المزروع في النفوس

فقوى الشر التي تتملّك نفوس البعض من الناس، وتستحوذ عليهم وعلى أفكارهم تدفعهم إلى أن ينتزعوا من أفواه الجياع والبائسين والفقراء رغيفهم بأية وسيلة كانت.

---

(١) كما أنه صريح آيات أُخر، منها قوله عزّ من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود: ٦، و﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ العنكبوت: ٦٠.

إلباس النزعات النفسية ثوباً علمياً

وبديهي أن تكون هذه الوسائل غير نظيفة وغير مشروعة، مع أنّهم يحاولون أن يلبسوها صبغة المشروعية بأن يبسطوا عليها غطاء نظرية علمية. ومن ذلك ما يحاول بعض أرباب العمل فعله حينما يعمدون إلى أن يمتصّوا جهد غيرهم من طبقة العمّال المسحوقة ممّا يستحقّونه من أُجور، معطين إياهم الشيء اليسير منه مقابل ما يقدّمونه من جهد وعمل عندهم، بدعوى أن ذلك يودّي إلى حصول أمرين هما:

الأوّل: زيادة الإنجاب

فهؤلاء يبرّرون سرقتهم هذه للعمّال بأنّ العامل إذا ما أُعطي أُجوراً عالية، فإن حاله سوف يصبح ميسوراً، وبالنتيجة فإنه سوف يتمكّن من إنجاب الأولاد بشكل أكثر؛ لأن عنده الثروة التي يمكنه عبرها أن يطعم هؤلاء الأولاد، أو أن يتزوّج من أكثر من امرأة منجباً عدداً أكبر من الأبناء. وبهذا فإن تقليل أُجور العمال يعني أنهم سوف لن ينجبوا أكثر.

وهذا ثوب علمي وهمي تكون قوى الشرّ هذه قد ألبست بمقتضاه سلب العامل الكادح قوته وأجره الذي يستحقّه نظرية علمية هي أنه من أجل تحديد النسل وتقليل عدد الأفراد في أي بلد من البلدان لابدّ من تقليل أُجور ذلك العامل، وكل ذلك من أجل إضفاء صبغة المشروعية عليها. وهكذا فإننا نرى أن هؤلاء بشرّهم قد ألبسوا هذا الفعل الشنيع نظرية علمية يضحكون بها على ذقون غيرهم من المغفّلين.

الثاني: أنه يؤدّي إلى خلق أيدٍ عاملة إضافية

كما أنهم يبرّرون فعلهم هذا بأن العامل من وجهة نظرهم إذا أُعطي أكثر وأنجب

أكثر فإنه سوف يخلق بكثرة إنجابه أيديَ عاملة كثيرة ربّما تعجز المؤسسات والشركات والحكومات عن استيعابها وإيجاد فرص عمل لها، مما يؤدّي إلى استشراء البطالة وانتشارها.

وهذا ثوب علمي وهمي أيضاً يلبسه هؤلاء لنظريتهم مقابل سلب الأجير أجره، وعدم إعطاء العامل حقّه إزاء عمله.

بهذا فإننا نجد أن قوى الشر هي سبب هذا البلاء العظيم الذي حلّ بالإنسانية، يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ، فَمَا جَاعَ فَقِيرٌ إِلَّا بِمَا مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ**»[١].

وهو تصوير واضح المعالم، وشامل لأبعاد عملية سوء توزيع الثروات بين الناس، ولعملية اغتصاب البعض حقوق البعض الآخر، وثرائهم على حساب غيرهم؛ بفقرهم، ومعاناتهم.

السبب الثاني: قصور العلم عن فهم جذر المشكلة

إن العلم في واقع الأمر لم يوجّه حلوله وقدراته نحو التنبيه إلى ضرورة سدّ حاجات الناس، وإلى تنمية موارد سدّ تلك الحاجات وإشباعها، وإنما هو يوجّه كلّ حلوله للتركيز على أمرين:

الأول: التركيز على قشر المسألة دون لبّها.

الثاني: التركيز على الجوانب السلبية في المسألة، وذلك كإنتاج الأسلحة الفتّاكة، وبعض المنتوجات الصناعية التي تدمّر البيئة البشرية كالمسكرات

---

(١) نهج البلاغة / القول: ٣٢٨.

والمخدرات. وممّا يجدر ذكره هنا أن مجلة اليونسكو قامت بنشر بحث جاء من ضمن ما جاء فيه أن تكلفة صناعة قنبلة نووية تعادل تكلفة بناء أربعمئة مستشفى، كلّ مستشفى منها بسعة مئة سرير بكامل عددها ومعدّاتها. فهذه القنبلة التي تقضي على البشرية، والتي تمحو الحياة والوجود من على وجه الأرض يمكن إزاء ثمنها معالجة أربعين ألف مريض في كلّ لحظة بأحدث الأجهزة والمعدّات.

ثم يتابع هذا البحث القول: كما أن قيمة هذه القنبلة كذلك يمكن أن تُعادل عشرات الجرّارات الزراعية التي يمكن استعمالها في حراثة الأرض وزراعتها، وبالتالي استثمارها في عملية الإنتاج الزراعي، وهو ما يؤدّي أخيراً إلى إنعاش الاقتصاد عبر توفير فرص عمل للأيدي العاملة، الأمر الذي يعني سدّ حاجات الشعوب المحتاجة إلى الطعام، وإشباعها.

إذن فالتوجّه عند هذه الدول هو إنتاج تلك الأسلحة الفتّاكة التي يمكن أن تمحو الوجود، وأن تزيل كلّ ما يدل على الحياة عن سطح هذه الأرض وعن باطنها. وبهذا فإن الجانب الحربي دائماً مأخوذ بنظر الاعتبار دون أن يكون هناك أدنى نظرة إلى الجانب الإنساني والسلمي أو إلى إيجادهما.

وهكذا فإننا نعرف أن المشكلة ليست هي في عدد السكّان المتزايد والمتنامي، وإنما هي في سوء استعمال الثروات والنعم التي أنعم الله علينا بها، وبالتالي فإنه يحصل القصور من جهة الإنتاج، أو من جهة التوزيع. وإلّا فالمدبّر الخالق هو مدبّر قدير، ومخطّط حكيم، يضع الشيء في مواضعه، وليس هناك من نسمة تستنشق الوجود إلّا ورزقها معها[1].

---

(١) قد مرّ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

المبحث السادس: آية المقام والتشريعات الدولية

يقول هذا المقطع الشريف: ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾، وهذا يعني أنّ الأرض وما فيها وما عليها من خيرات ونعم ومزروعات ومعادن وخامات وغيرها قد جعلها الله تبارك وتعالى كلّها لعباده الذين خلقهم عليها، ولم يقصرها على جنس منهم دون جنس آخر، فهم فيها سواء. وكلمة ﴿سَوَاءً﴾ في هذا المقطع الشريف هي حال من قوله تعالى: ﴿أَقْوَاتها﴾، وهذا يعني أن الحقّ يجب أن يوزّع بصورة متساوية على كلّ أطياف الجنس البشري الموجودة على سطح الكرة الأرضية دون أن يكون حكراً على جنس دون جنس آخر، ودون أن يكون ملكاً لطائفة دون طائفة أُخرى، فهم متساوون فيها، ولا يحقّ لأحد أن يستولي عليها جميعها، أو أن يتصرّف فيها دون باقي أبناء الإنسانية.

أزمة الإعلام في دول العالم الثالث

هذا هو المفروض، وهو التشريع الإلهي الذي يجب أن يتّبع، غير أنّ الذي يحدث هو أن دول العالم الثالث[١] تعيش التخلف؛ لأن الدول الأُخرى المتقدمة

---

(١) يقسم العلماء دول العالم بلحاظ التطور وعدمه إلى ثلاثة أقسام:
ـ دول العالم الأول، وهو أمريكا، وأوروبّا الغربية.
ـ دول العالم الثاني: وهو الاتحاد السوفيتي سابقاً، ودول أوروبّا الشرقية، وبعض الدول المتطوّرة، لكنّها لا ترقى في تطوّرها إلى التطوّر الحاصل عند أوروبّا وأمريكا.
ـ دول العالم الثالث، وهي الدول الفقيرة التي تعتاش على غيرها، والتي تستورد كلّ حاجاتها من دول العالم الأول، أو دول العالم الثاني.
وهناك تقسيم آخر هو:
الأوّل: دول الشمال ويراد بها الدول الغنية التي استطاعت أن تسخّر كلّ طاقاتها، فتستثمر بها كلّ الثروات التي أودعها الله تبارك وتعالى عندها لتصل إلى مرحلة التطوّر والازدهار.
الثاني: دول الجنوب، وهو اصطلاح يطلق على الدول الفقيرة، أو الدول التي تملك ثروات

لا تمنح ما توصّلت إليه من حقائق علمية، ومن تطور تكنولوجي إلى هذه الدول. كما أن هذه الدول تعيش حالة من التخلّف حتى على مستوى الإعلام فيها، ففي الوقت الذي يركّز الإعلام في الدول المتطوّرة على الاختراعات وعلى التطوّر العلمي والتكنولوجي ـ مع أننا لا ننكر أن هناك إعلاماً داعراً، لكن هناك إلى جانبه إعلام هادف وموجّه ـ فإننا نجد إعلامنا لا يتناول إلّا قضايا تافهة لا ترقى بالمجتمعات ولا بالأُمم، بل إنها قضايا تهبط بتلك المجتمعات إلى حضيض التفكّك والتخلّف. مع أن الدنيا من حولنا تعيش في بؤرة من المشاكل، وفي منظومة متراصّة من القضايا العالقة التي يجب علينا أن نساهم في وضع حلول لها عبر استخدام قواعد العلم واستلهام إيحاءاته.

إن هذا يعني أن علينا أن نحاول، وأن نسعى إلى أن نطوّر أنفسنا لنصل إلى ما وصلت إليه تلك الدول الغنية، والمتطوّرة تطوّراً علمياً هائلاً. إن علينا أن نستفيد من كلّ النظريات العلمية المطروحة، وأن نستثمر كلّ ما يمكن أن يمنحنا إياه خالق الوجود، وأن نعتبر بكلّ السنن الإلهية الموجودة في الكون، والتي أودعها الله فيه ليتّعظ بها من يريد أن يتّعظ، وليستثمرها، وليسلك عبرها المسالك الصحيحة والطرق الواضحة.

وهكذا فإن كلمة ﴿سَوَاءً﴾ في الآية الكريمة تعني جميع ما في الدنيا من خيرات، وأن هذه الخيرات لا تقتصر على أُمة دون أُخرى، ولا على مجموعة دون أُخرى، بل إن الجميع فيها متساوون؛ سواء كان الإنسان فقيراً أم غنياً، متعلّماً أم جاهلاً. وعليه فلا ينبغي لفئة أن تستحوذ وأن تسيطر على كلّ تلك الثروات

لكنها لا تستطيع استثمارها؛ لعدم توفر الأيدي العاملة أو الخبرات الفنية أو التكنولوجية العلمية لاستثمار تلك الثروات، ولإحداث الثورات العلمية والتكنولوجية فيها.

والطاقات والخيرات، وأن تمنع غيرها منها. أما أن يأتي أحدهم فيصوّر نفسه على أنه الجنس الأعلى، كأبناء الجنس الأشقر الذين يرون أنه من صنع الحضارة، وأن غيره لا يعدو أن يكون إنساناً عادياً لا يملك لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ثم يمنحون أنفسهم وظيفة الوصاية على تلك الشعوب وإدارة شؤونها بعد أن يصادروا إرادتها ووجودها؛ بحجّة أنها لا تزال بحاجة إلى من يسوسها، وإلى من يضع لها قوانينها، فإن هذا أمر مرفوض وفق منطوق الآية ومفهومها حيث تقول: ﴿سَوَاءً﴾: فإن الله تبارك وتعالى هو رب العالمين، والعالمون جميعاً عباده، وعطاؤه سواءٌ لهم لا فرق بين أحد منهم[1].

المراد من «السائلين»

أما قوله تعالى: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾، فنقول: هناك نوعان من الناس الذين يمكن أن ينطبق عليهم هذا الوصف:

النوع الأول: من يسأل بلسان الحال

ومن هذا النوع الأشجار مثلاً، فإنها ليس عندها لسان تطلب به ما يغذيها، وما تنمو به، ولكن لسان حالها يطلب ذلك؛ فهي تحتاج إلى النمو باستعمال الماء والهواء والضوء والتربة، وما إلى ذلك من عوامل إنبات النبات، فكلّ هذه الأشياء يطلبها النبات بلسان حاله. وكذلك الحيوانات، فإنها وإن كانت عندها ألسنة لكنها لا تستطيع أن تطلب بها لنفسها فتقول: إننا جياع مثلاً، وإنما حالها يطلب ذلك من الله تبارك وتعالى الذي يهيّئ لها ما تشبع به جوعها.

---

(١) أما الاعتبارات الأخرى والعقوبات وغيرها فإنها تختص بعالم الآخرة وعالم ما بعد الموت، فهنالك دار عقاب وحساب، أما هنا فدار عمل.

النوع الثاني: من يسأل بلسان المقال

أي أنه ذو لسان حقيقي، كالإنسان مثلاً، فهو ذو لسان يستطيع أن يتكلّم به، وأن يطلب من الله ما يريد، ويقول: أنا بحاجة إلى الشيء الفلاني، أو أنا بحاجة إلى ثياب أو طعام، أو إلى غير ذلك. فهو بهذا اللسان يستطيع أن يعبر عن إرادته، ويملك القوة على ذلك التعبير، بخلاف الكائنات الأُخرى التي لا تستطيع أن تطلب لنفسها شيئاً بلسانها، لكن لسان حالها يطلب لها ذلك.

وهكذا فإننا نجد أن البارئ تبارك وتعالى لا يبخل بالعطاء على أحد من مخلوقاته؛ لأنها جميعاً تحت رعايته ولطفه؛ سواء سألته بلسان مقالها أو بلسان حالها؛ فهو تبارك وتعالى سوف يعطيها كلّ ما هي بحاجته وما تفتقر إليه. وبهذا فإنه جلّ شأنه حينما يقول: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ فإنه عزّ وجلّ لا يقصد الذين يسألون الله بلسان مقالهم فقط، فيستثني النباتات والجمادات والكائنات الحية الأُخرى، بل إنه تعالى يريد بـ ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾: السائلين بلسان مقالهم كالإنسان، والسائلين بلسان حالهم كالحيوانات والنباتات والجمادات؛ فهو تبارك وتعالى كريم جواد لا يبخل على أحد من مخلوقاته بشيء من نعمه وخيراته: «يا من أعطىٰ من سأله، يا من أعطىٰ من لم يسأله ولم يعرفه؛ تحنّناً منه ورحمة»[1].

أهل بيت النبوّة مثال العطاء السماوي

إذن فالبارئ تبارك وتعالى يعلّمنا كيف يجب أن نكون متخلّقين بأخلاق السماء، وكيف يجب ألّا نمنع سائلاً عطاءً، وألّا نمنع طالب حاجة حاجة. ولنا فيما وقع لأمير المؤمنين ولزوجته الطاهرة الصدّيقة السيّدة فاطمة الزهراء

---

(١) مصباح المتهجّد: ٣٥٢، الصحيفة السجاديّة: ٥٧٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٢١١.

ولولديه الحسنين عليهما السلام ولخادمتهما فضة (رضي الله عنها) خير مثال على ذلك؛ حيث مرّ السائلون وهم المسكين واليتيم والأسير على بيت العطاء.. بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام يطلبون من أهل هذا البيت طعاماً فيجودون عليهم بطعامهم، ويظلّون جائعين مع أنهم صائمون، ولا يفطرون إلّا على ماء.

وقد خلّدت السماء هذه المواقف الكريمة التي امتدت ثلاثة أيام على مساحة سورة مباركة كاملة نزل بها جبرائيل يحمل بها البشرى لهم على النبي الكريم صلى الله عليه وآله.

ونحن هنا نخاطب أهل هذا البيت الكريم.. أهل العطاء والكرم فنقول لهم: يا رسول الله، يا أمير المؤمنين، يا أهل بيت النبوّة، يا من انبريتم لإشباع الجياع؛ مساكينهم، وأيتامهم، وأُسرائهم، ليتكم ترون عيالكم كيف مرت بهم أيام وليالٍ، وكيف اجتازت بهم الساعات وهم لا يجدون ما يأكلون ولا ما يلبسون! وليتكم حضرتم تلك القافلة الكريمة من النساء اللاتي سار بهنّ أعداؤهن من كربلاء إلى الكوفة ومن الكوفة إلى الشام وهم يسومونهن الخسف!

يقول بعض المؤرخين: إن عائلة الحسين عليه السلام لم تذق الطعام في الأسر لثلاثة أيام، لكنها لم تكن تشتكي من الجوع؛ ولذا فإن أطفال الإمام الحسين عليه السلام حينما جيء بهم إلى الكوفة راح بعض النساء والأطفال يناولونهم شيئاً من الطعام يسدّون به جوعهم، فلمّا رأتهم أُخت الإمام الحسين عليه السلام اختنقت بعبرتها، ثم راحت تأخذ الطعام من أفواههم وتلقيه على الأرض، وتقول للناس: «ويلكم إن الصدقة محرمة علينا أهل البيت».

كما يروي المؤرخون مقولة للإمام السجاد عليه السلام وقد نظر ليلة، فوجد عمّته تصلّي من جلوس، حيث قال لها: «ياعمة، هذا خلاف عادتك، فأنت صلّيت واقفة حتى

في الليلة الحادية عشرة من المحرم؟». قالت: «يابن أخي، من الضعف الذي ألمّ بي». ذلك أن آسريهم كانوا يعطونهم رغيفاً من الخبز لكلّ شخص، وكانت عليها السلام تعطي رغيفها للأطفال الجياع لعدم كفاية الطعام، وتظلّ طاوية جائعة، وبقيت كذلك ثلاثة أيام حتى أقعدها الجوع عن الحركة:

خذي يا قلوب الطالبيّين قرحة تزول الليالي وهي دامية القرفِ

فإن التي لم تبرح الخدر أُبرزت عشية لا كهف فتأوي إلى كهفِ

لقد رفعت عنها يد القوم سجفها وكان صفيح الهند حاشية السجفِ

وقد كان من فرط الخفارة صوتها يغضّ فغضّ اليوم من شدّة الضعفِ[1]

---

(١) ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٩.

﴿٢٤﴾

حَمَلة العرش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: حول ظاهر القرآن وباطنه

إن الحقائق التي يجب الإقرار بها والإذعان لها تأخذ برقابنا إلىأن نلجأ في كثير من الأحيان إلى حمل البعض من آيات القرآن الكريم ـ بل حتى الأحاديث النبوية الشريفة (على قائلها وآله أفضل الصلاة والتحية) ـ على غير ظاهرها؛ ذلك أن حملها على ظاهرها ربما يؤدّي بنا إلى ألّا نصل إلى المراد منها، أو إلى أن نصل إلى المعنى المضادّ لما هو مراد منها. وهذا يعني أننا يجب ألّا نأخذ بظواهر

---

(١) غافر: ٧.

الألفاظ على إطلاقها؛ لأن الله تبارك وتعالى قد تعبّدنا بالعقل، فهو جلّ وعلا حينما وهبنا هذه الهبة العظيمة، وهبنا إياها، وأمرنا بأن نتعقّل الأشياء بها، وأن نخضعها لقوانينها، فمتى ما وافقت الأشياء تلك القوانين كان علينا الأخذ بها وإلّا فلا، إلّا فيما يتعلّق في الأُمور الشرعية الواردة إلينا بنصّ في القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهّرة، فإن الأمر حينئذٍ يختلف؛ لأن الأُمور الشرعية الثابتة بالنصّ مقدّمة على الأُمور العقلية.

لكن هنا يبقى مجال للتحرّك، وهو محاولة مراجعة ما يأتي من الشارع المقدّس عبر عرضه على العقل، ومعالجته عن طريقه، فالله تبارك وتعالى إذ خلق فينا هذه الجوهرة وتعبّدنا بها فإن هذا يعني أنه إذا وردت آية كريمة أو رواية شريفة، وكانت تصطدم بقاعدة من قواعد الشرع العامّة وثوابته التي لا نقاش فيها، أو قواعد العقل، فإنه حينئذٍ علينا ألّا نأخذ بظاهرهما مباشرة؛ لأن ذلك مخالف للعقل الذي تُعبِّدنا به، وجُعل مناطاً للتكليف. وهو أمر واضح؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى لم يكلّف الحيوانات، بل إنه جلّ شأنه رفع التكليف عنها؛ لأنها لا عقل لها.

إذن ففي مثل هذه الحالة ينبغي معالجة الأمر عن طريق إحداث حالة من التوافق بين الآية الكريمة أو الرواية الشريفة، وبين ضوابط العقل وقواعده وقوانينه حتى لا يحصل ذلك التصادم الذي يمكن أن يحصل لو أننا أخذنا بظاهرهما.

الأثر السلبي لحظر العقل عن ممارسة وظيفته

وهنا فإنه لابدّ من أن ننظر إلى ما وراء الظاهر الذي سيتّفق حتماً مع قوانين العقل وقواعده عبر وجود علاقة ما في البين. فالعقل مِلاك التكليف ومناطه؛

ولهذا فقد رفع الله التكليف عن الإنسان إذا كان مجنوناً أو إذا كان صبياً لا يعقل ما حوله، كما رفعه عن الحيوانات؛ ذلك أن مِلاك التكليف مفقود، ومناطه غير موجود عندها، وهذا المناط هو ما تعبدنا الله تبارك وتعالى به، وأمرنا بالعمل وفق قواعده.

وعليه فمن غير المعقول أن يأمرنا الله تبارك وتعالى بالتعبّد بالعقل، ثم ينزل علينا آية، أو تأتينا رواية عن رسوله الأكرمﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وهما تصطدمان مع العقل ومع قواعده وقوانينه؛ لأن هذا يعني أحد أمرين لا ثالث لهما، وكلاهما باطل بالضرورة:

الأول: أن تكون الآية أو الرواية ليستا بحجّة، وهذا غير مقبول؛ لأن كلام الله تعالى وكلام رسوله الأكرمﷺ حجة.

الثاني: أن العقل ليس بحجّة، وهذا غير مقبول أيضاً؛ لأن ما ليس بحجّة لا يمكن أن يكون مناط التكليف ومِلاكه، كما أنه إن كان كذلك فإنه لا يمكن أن يأمر الله تبارك وتعالى عباده أن يتعبّدوا به.

العقل العامّ

إذن فكلاهما حجّة، لكن كيف يمكن أن يتمّ التوفيق بينهما؟ وأي عقل هو المقصود هنا، والذي أمرنا الله سبحانه بالتعبد به؟ ولتوضيح الأمر نقول: إن من أقسام العقل عندنا ما يسميه الفلاسفة «العقل العامّ»، وهو المبادئ العقلية التي يتّفق عليها العقلاء. ونحن نستفيد من ذلك عدّة قواعد عقلية نذكر منها على عجالة:

الأولى: قاعدة قبح العقاب بلا بيان

فهذه القاعدة قاعدة عقلية تنصّ على أن الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يعاقب

عباده يوم القيامة ما لم يبيّن لهم ما سوف يعاقبهم فيه وعليه.

وإذا كان الحال كذلك فلابدّ من إرسال رسول، وإنزال كتاب يوضّح للناس ما سوف يعاقبون عليه إن تركوه، أو إن فعلوه.

إذن بيان الأحكام، وبيان موارد العقاب والحساب لابدّ منها كي يمكن أن يقال: إن الله تبارك وتعالى سوف يعاقب عباده يوم القيامة أو يحاسبهم أو يثيبهم، أو يدخلهم الجنّة أو يدخلهم النار بما فعلوا؛ لأنه ما لم يكن قد جاءهم منه نذير ولا بيان ولا هداية؛ كي يسيروا وفقها ويهتدوا بهديها في أمر ما ارتأى تحريمه عليهم، لا يمكن معاقبتهم على مخالفتها.

إذن فما لم يبيّن الحكم الشرعي فلا ينبغي معاقبة الإنسان الذي يتخلّف عنه. وهذه القاعدة العقلية تسندها وتعضدها آية كريمة تقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1].

وكمثل تقريبي على هذا المعنى نقول: لو أن رجلاً كان يقود سيارته، ثم ولج في شارع معين لم توضع عليه يافطة أو إشارة تشير إلى حظر الولوج فيه أو إلى منعه، فإنه حينئذٍ لا ينبغي لشرطي المرور أن يحاسب ذلك السائق بحجّة أن الولوج في هذا الطريق ممنوع أو محظور؛ لأنه لم يكن هناك من أمارة أو علامة تدلّ على ذلك، أما مع وجود تلك الأمارة والعلامة، فإن السائق حينئذٍ يكون قد خالف قانوناً، وبهذا فإنه يسوّغ للقانون أن يحاسبه أو أن يعاقبه مثلاً، فيعمد شرطي المرور إلى تدوين مخالفة له أو تثبيتها عليه.

وكما أن الأمر هنا بهذه الصورة فكذلك الأمر مع الله تبارك وتعالى؛ فإنه حينما

---

(١) الإسراء: ١٥.

يشرع حكماً من الأحكام ولا يبلغ الناس به فإنه سبحانه حينئذٍ ـ عدلاً منه ـ لا يعاقبهم عليه.

الثانية: مقدّمة الواجب

وهذه القاعدة الفقهية تقرّر بأن كل فعل لا يتمّ الواجب العبادي إلّا به، فهو واجب مثله.

وكمثال مبسّط على ذلك أن من يرد أن يذهب إلى الحج لزيارة بيت الله الحرام فإن الإعدادات لهذا الحجّ تصبح واجبة، وإلّا فإنه لن يتحقّق له. ومن هذا إعداد الراحلة والزاد، وما إلى ذلك.

ومن هذا أن المشي إلى بيت الله واجب على الحاجّ؛ لأنه حتى يتمكّن من أن يحقّق الواجب الأصل ـ وهو الحج ـ يجب عليه أن يمشي، وإلّا فإنه سوف لن يصل إلى بيت الله تعالى، ولن يحقق هذا الواجب الذي أمره الله تبارك وتعالى بتحصيله وإيجاده[1].

كما أن هنالك الكثير من القواعد العقلية التي ألزمنا الله تبارك وتعالى بالتعبد بها. وهي قواعد مصدرها العقل، وسنادها الشرع الذي أعطاها تلك الحجية. فالعقل العامّ هنا هو من يتصدّى لمثل تلك الأُمور، ويضع لها حلولاً ـ عبر عرضها على قواعده ـ بشكل لا يتنافى مع الشرع والدين.

وعليه فإنه لا يمكن أن نجد آية أو رواية إن كانت صحيحة السند صادرة عن المعصوم وهي تصطدم مع القاعدة العقلية، وإن حصل أن هناك نوعَ تصادمٍ بينهما فهذا يعني أن المراد من الآية أو من الرواية هو غير الظاهر؛ الأمر الّذي يعني

---

(١) وكذلك وجوب الوضوء بالنسبة إلى الصلاة، وما إلى ذلك.

أن علينا العدول عن الظاهر إلى الباطن؛ لكي نحقّق عدم التصادم بين هذين الطرفين اللذين قلنا: إنهما كليهما حجة؛ فالعقل الذي أعطانا الله إياه وأمرنا بالتعبد به حجة، والآية الكريمة والرواية النبوية أو المعصومية الشريفة كذلك حجة، فلا يمكن أن يتصادما.

المبحث الثاني: المراد من حمل العرش

تقول الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، واستناداً إلى ما قررناه في المبحث السابق فإننا نصل إلى نتيجة هي أن المراد من كل من الحمل والعرش هنا هو غير الظاهر الذي يمكن أن يتبادر إلى ذهن الإنسان.

نحو فهم قرآني صحيح

وعليه فإننا حتى نتعرّف الصور الحقيقية للقرآن الكريم، ونفهمها الفهم الصحيح، فإن علينا أن نفهم جلّ أُمور منها:

أولاً: المراد من ألفاظ القرآن الكريم

ونقول هنا: إن المراد من العرش في هذه الآية الكريمة هو غير المراد به ممّا يتبادر إلى الأذهان؛ لأن العرش الذي يتبادر إلى الأذهان هو سرير الملك، وبهذا فإننا إذا حملنا المعنى على ظاهر اللفظ كما يفعل السلفية الآن فإنه يصبح العرش الذي يجلس عليه تبارك وتعالى هو الكرسي. وهذا ممتنع بحقّه تبارك وتعالى، ويجب تنزيه ساحته جلّ شأنه عنه. ولهذا فإننا نجد أن هؤلاء يمنحون الله جلّ وعلا صفات جسمية، فيقولون: له يد، وله رجل، وله وجه، إلى آخره، بل إن أحدهم تمادى وتطاول حتى وصل به الأمر إلى أن قال: اعفوني عن الفرج فإني لا أعرف إن كان ذكراً أم أنثى[1].

---

(١) انظر في كل ذلك: السيف الصقيل: ١٥٤، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣، نور البراهين ١: ٢٥٠.

وهذا المعنى غير مقبول وغير معقول؛ لأنـه يـتنافى مـع صـفات الله تـبارك وتعالى، ومنها قيّوميته وأحديته.

إذن فنحن نقول: إذا اصطدم ظاهر القرآن مع الظواهر العقلية، أو مـع الأُسس المنطقية فإننا لا يمكن أن نقبل بهذا الظاهر حينئذٍ؛ لأن القبول به ربما يأخذ بنا إلى الكفر؛ ذلك أننا إذا فسّرنا العرش هنا بأنه الكرسي الذي يجلس عليه الله تـبارك وتعالى فهذا يؤدّي بنا إلى أمرين كلاهما ممتنع عليه تعالى:

الأول: التجسيم

إننا يجب أن نلتفت هنا إلى أننا حينما نقول: إن الله سبحانه وتعالى يجلس على العرش، فهذا يعني أنه جلّ شأنه قد تجسّد وأصبح جسماً، وهذا لا يليق به تعالى، ولا يتناسب مع قيّوميته.

الثاني: احتياجه تعالى إلى غيره

وبناء على الإشكال السابق نقول: إننا إن قلنا بجسميته تعالى، فإن هذا القول يأخذ بنا إلى الكفر كذلك بلحاظ أن الجسم يحتاج إلى كلّ شيء؛ فهو يحتاج إلى مكان يتحيّز فيه، ويحتاج إلى ما يقوم به، ويحتاج إلى ما يتطلب منه كلّ مقوّمات وجوده. وهذا هو معنى الفقر المنفي عنه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1].

إذن فنحن حينما نفسّر العرش كذلك، فانما نكون قد جعلنا منه جلّ شأنه إلهاً

صحيح البخاري ٧: ٢٢٥، صحيح مسلم ٨: ١٤٩، سنن الدارمي ٢: ٣٢٥، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٩٠، المصنف (الصنعاني) ١: ٥٥٦، ٥: ١٦ - ١٧، الدعـاء (الطـبراني): ٥٩٧، عمدة القاري ٧: ١٩٨، دفع شبه التشبيه: ١٥١، المواقف ٣: ٣٨ - ٣٩.

(١) فاطر: ١٥.

محتاجاً إلى مكان يجلس فيه، وهذا يعني أنه فقير مع أنه تبارك وتعالى هو الغني كما وصف نفسه. فاحتياجه للكرسي يعني احتياجه إلى المكان، وذلك كما يحتاج الإنسان الثوب أو الخبز.

إذن فالإنسان هو الفقير، والله تبارك وتعالى ليس بالفقير بل هو الغني كما قرّر ذلك جلّ شأنه في الآية الكريمة السابقة. وإذا كان كذلك فإنه لا يمكن أن يراد من العرش هنا الكرسي، بل لابدّ من حمل اللفظ القرآني على خلاف ظاهره، وطرح ذلك الظاهر؛ لأنه يؤدّي بنا إلى الكفر بصفاته تبارك وتعالى.

ثانياً: معرفة ما يترتّب على ما نقوله في القرآن

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنه تبارك وتعالى إذا كان جالساً على كرسي فهذا يعني أنه موجود في مكانٍ دون مكان آخر؛ لأن الجسم لا يمكن أن يكون في أكثر من مكان في الوقت نفسه، وهذا يعني أن هناك بعض الأمكنة التي تخلو منه سبحانه وتعالى، وتنزه عن هذا المعنى.

وهذا التوجّه يتنافى مع القرآن الكريم الذي يقول: ﴿**وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً**﴾[1]. فالإحاطة بشيء لا تتحقّق ما لم يكن المحيط موجوداً في كلّ مكان، ومنها ذلك المكان أو الظرف الّذي يوجد فيه الشيء متعلّق الإحاطة. وعليه فلا ينبغي أن يحصر البارئ في مكان ضيّق مع أن الكون متّسع، والإحاطة به والقيومية عليه تستدعيان أن يكون المحيط والقيوم موجوداً في كلّ مكانٍ وفي كلّ زمان دون أن يتخلّف عن مكانٍ ما في زمان ما.

---

(١) النساء: ١٢٦.

عظمة الله تبارك وتعالى جلّ شأنه

إن العلماء قد اكتشفوا حتى الآن أعداداً هائلة لا تحصى من المجرات الكونية، وبعض هذه المجرات من الضخامة بحيث إنها إذا وضعت الشمس وتوابعها[١] كلها في هذه المجرة فإنها تشكّل بالنسبة إليها مثل حبة رملٍ قياساً إلى هذه الأرض التي نحن عليها. فإذا كانت المجموعة الشمسية بهذه الضخامة، ثم نجد أنها تشغل حيّزاً بالنسبة إلى هذه المجرة التي هي من مجرات كثيرة لا تحصى كما تشغله حبة الرمل من الأرض فإننا حينئذٍ يجب أن نقف خاشعين أمام عظمة الله تبارك وتعالى وقدرته وقيّوميته على هذا الكون، وأن نقرّ له تعالى بالعبوديّة، وأن نخضع له جلّ شأنه ونعتقد بأنه لا يمكن أن يحدّه زمان أو مكان. فإذا صورناه على أنه جسم جالس على كرسي فإنه حينئذٍ لا يمكن أن يبسط سيطرته على كلّ هذا الكون المترامي الأطراف. فهذا الامتداد الواسع للكون[٢]، وهذه الموجودات الضخمة الهائلة، والأعداد الكبيرة التي لا تحصى ولا تعدّ فيه تستدعي قوّة جبّارة عظيمة حتى تسيطر عليها، ولا يمكن أن يسيطر عليها جسم جالس على كرسي هو في حدّ ذاته محتاج إلى ذينك الكرسي والمكان.

إن الله تبارك وتعالى قد خلق كلّ هذه الأكوان وهو الذي منحها هذه الحركة وهذا الوجود، وبالتالي فهو جلّ شأنه الذي يسيطر عليها ويحتويها بقدرته؛ وعليه فإن من المستحيل جداً أن يكون له جسم، أو أن يكون له كرسي يجلس عليه.

---

(١) علماً أن قطر دائرة الشمس والمجموعة الشمسية التابعة لها والتي تدور حولها هي أحد عشر ألف سنة ضوئية، والسنة الضوئية = ٩ × ١٠^١٢ كم.

(٢) فهو في توسّع مستمرّ حتى إن العلماء يقدّرون بأن حافّته حاليّاً تبعد عنّا مقدار عشرين مليار سنة ضوئية.

ومن غريب ما ينقل عن ابن تيمية أنه كان يقول من على منبره: إن الله تعالىٰ ينزل كل ليلة الجمعة إلىٰ السماء الدنيا كنزولي من علىٰ منبركم هذا. ثمّ ينزل من علىٰ ذلك المنبر[١].

إن هذا الكلام يعني أن هناك علامة ونقطة قاتمتين في تاريخنا الفكري ببالغ الأسف؛ لأن تاريخنا يقوم على العلم وعلى العقل، والدين الإسلامي هو الدين الوحيد الخالي من الخرافات والترّهات والخزعبلات، فإذا ما جاء أحدٌ ليدسّ فيه مثل هذه الخرافات فإنه لم يعد ديناً سماوياً صحيحاً بل إنه بفعل الدسِّ سوف يصبح ديناً تحكمه الأوهام والأساطير. فحينما تطاله تلك الأيدي بالتزوير والتزييف فإنه سوف يفقد هويته السماوية. وهكذا فإننا نجد أن الله سبحانه وتعالى رب العقل وربّ النظام ورب العظمة، وبناء عليه فإنه لا يمكن له أن ينزل لنا أو علينا شيئاً خرافياً حاشا لله.

الدليل الإنّي

سئل أحد علماء النبات المسيحيين وكان ملحداً: ما الذي حدا بك لتعود من الإلحاد إلى الإيمان بالله جلّ وعلا؟ ثم ما الذي حدا بك مع إيمانك بالله تبارك وتعالى أن تترك الكنيسة وقد كنت تتبعها وتسير على منهاجها؟

فقال: إن الإجابة على السؤال الأول هو أن الله تبارك وتعالى بما خلق وبما أوجد قد دعاني إلى الإيمان به؛ ذلك أني حينما أنعمت النظر بنظام الكون رأيت أنه يدلّ على وجود خالق مدبّر له. فنحن مثلاً حينما نرى ساعة معلقة على الجدار تقطّع لنا الوقت إلى ساعات ودقائق وثوانٍ، فإننا نعرف بأن هذه الساعة لم توجد

---

(١) انظر مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.

نفسها بنفسها ولم توجدها الصدفة، بل إنه لابدّ من وجود مهندس هناك قد هندسها وصنّعها، وجعلها بهذه الكيفية التي تسير بها على هذا النظام الدقيق الذي يقوم بحساب الوقت لنا. وإذا كان الأمر كذلك فكيف بهذا الكون الذي يقطّع الأوقات والفصول تقطيعاً منتظماً؟ فالخريف يأتي في وقته، والربيع يأتي في وقته، وكذلك الأمر مع الصيف والشتاء، وكذلك الأمر مع مواسم الزروع والأمطار والأعاصير والرياح وما إلى ذلك من ظواهر طبيعية، فهذا حتماً كلّه يدلّ على وجود مهندس عظيم جبّار يقف وراء هذا الكون ويسيّره ويدبّره.

وهذا هو الذي دفعني إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى.

أما الجواب على السؤال الثاني ـ وهو سبب تحوّلي عن الديانة المسيحية، وهو موضع الشاهد - فلأن المسيحية تصوّر الربّ على أنّه كائن مجسّم، وإذا كان كذلك فقد أصبح محتاجاً، أي أنه يحتاج إلى المرأة، وإلى الطعام، وإلى السكن، وإلى أُمور أُخرى تدخل في حيثيات وجوده، في حين أني أرى أشياء كثيرة لا حصر لها تدل على إحاطة الله بكل الموجودات، فإذا كان محيطاً بها كلها، فإنه لا يمكن أن يكون جسما فقيراً؛ لأن الفقير الذي يحتاج إلى غيره لا يمكن أن يحيط بكل شيء.

فقيل: مثل ماذا؟

فقال: أنا اُلاحظ مثلاً نوعاً من الورود تزهر في أشجارها، ثم بعد ذلك تصبح هذه الأزهار ثماراً، وذلك بأن تأتي الريح فتلقحها، وقسم آخر تلقّحه الفراشات والحشرات الاُخرى، فحينما تأتي الفراشة مثلاً إلى وردة ذكرية فإنها تقوم بنفض حبوب الطلح واللقاح على جسد تلك الفراشة، وإذا ما حاولت تلك الفراشة أن تطير عن الوردة فإني اُلاحظ أن جدرانها تنفتح انفتاحاً كاملاً؛ كيلا تحتكّ جدران

الوردة بأجنحة الفراشة وجسدها، فيقع اللقاح منه. حتى إذا ما خرجت الفراشة من تلك الزهرة الذكرية وجاءت إلى الزهرة الأُنثوية فإني أراها تنفتح انفتاحاً كاملاً، فإذا ما دختلها أطبقت عليها إطباقاً كاملاً ثمّ تروح تمتصّ حبوب الطلع منها حتى تموت الفراشة داخل الوردة، وكأن وظيفتها في تلك الحياة هي تلقيح هذه الورود أو الأزهار.

ثم يتابع هذا العالم قوله: وهذه عملية مدروسة ومنظّمة ودقيقة، فهذه الورود والأشجار في الأرض كلّها إنما يتمّ التلقيح فيها عبر هذه الطرق المشار إليها، فإذا ما ادّعى شخص ادعاء ما، أو تبنّى نظرية ما تجعل من الله جسماً محدوداً مقيّداً فإن هذا لا يمكن أن أتعقّله، ولا أن أقبله؛ لأن العقل البشري السليم يرفضه رفضاً قاطعاً. فهذا هو الذي دعاني إلى أن أخرج من الإيمان بالمسيحية وأصير إلى الدخول في دين الإسلام؛ لأنه يصف الله عزّ وجلّ لي بصفات أخرج منها بتصوّر على أنه إله مجرّد محيط بكلّ شيء، وأن كلّ شيء خاضع لسلطانه ولإرادته ولحكمته.

الموجودات وقانون الإحداث والإدامة

إذن فالعرش الذي يصوره أهل الظاهر لا يمكن أن يلتقي بحالٍ من الأحوال مع عمق الفكر الإسلامي ولا مع قواعده، بل إنه يتقاطع معها كلياً ولا يلتقي مع الواقع الوجداني الذي نعيشه ونراه متجسّداً في عظمة هذا الكون، وفي روعته، وفي نظامه، وفي إحاطة خالقه تبارك وتعالى به، وقيّوميته عليه. وإلّا فإننا إذ نلاحظ هذا الكون الشاسع المترامي الأطراف، ونلاحظ عناية الله تبارك وتعالى به إلى جانب كلّ ذرة من ذراته، فإننا لا يمكن أن نقول بأن يكون المحيط كذلك، إلّا إذا كان غنياً عن كلّ شيء، وليس بجسم؛ لأن كلّ شيء يحتاج إلى غيره وإلى إدامة

منه ما دام جسماً؛ فهو ليس محتاجاً إلى الحدوث فقط، بل إنه يحتاج حتى في ديموميته واستمراريته إلى موجِده ومنشئه، وهو الله تبارك وتعالى الذي لا يمكن أن يكون كما وصفوه؛ لغنائه عن الكلّ وافتقار الكلّ إليه.

فهذا الكون الفسيح المترامي محتاج إلى غيره في حدوثه وفي ديمومته، وكذلك كلّ جسم فقير محتاج، والله تعالى ليس بفقير ولا بمحتاج إلى غيره في كلّ ذلك، لكننا إن جسمناه فقد جعلناه كذلك، أي فقيراً محتاجاً إلى غيره في حدوثه وفي دوامه.

ونعني بالحدوث: أن الله تبارك وتعالى يخلق الإنسان أو الأشياء من العدم، لكن لا ينتهي الأمر هنا، فهو جلّ شأنه لا يخلقها ويتركها؛ ذلك أن العناية الإلهية لو فارقت تلك المخلوقات لحظة واحدة لمُحيت ولرجعت إلى العدم ثانية؛ وهذا يعني أنها بحاجة للموجِد في كل حالاتها، فهي بحاجة إليه في إدامتها، كما أنها بحاجة إليه في إحداثها وإنشائها.

وهذه هي حقيقة بقاء الأشياء التي تحتاج إلى رعاية من الخالق تبارك وتعالى على امتداد خطّ وجودها واستمرارها.

إذن فالله تبارك وتعالى خلق الخلق ولم يفارقه، بل إن إحاطته وإرادته تبقيان مع مخلوقاته، وإلّا فإن مصيرها سوف يكون العدم والتلاشي. وبهذا فإننا نعرف أن كلّ ذرة من ذرات الكون لابدّ أن يكون إلى جانبها قدرة بارئها وخالقها ومسيّرها ومسخرها، وهو الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) البقرة: ١١٥.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يدور في خلدنا مفهوم أن العرش هو كرسي المُلك، أي كالكرسي الذي يجلس عليه الملوك والسلاطين في هذه الدنيا؟

دائرة الأمر والنهي

فإن قال أحد: إننا نتعبّد بالظاهر، والظاهر يقول بهذا؛ وعليه فلابد من الصيرورة إليه، وإلّا فما هو العرش إن لم يكن كذلك؟

فإننا نقول: إننا نتعبّد بالظاهر أيضاً، ونقول: إن المراد من العرش: الكرسي، لكن بأي معنىً من معاني الكرسي يكون؟ هل هو الكرسي الذي يريده أهل الظاهر الذين يصوّرونه على أنه كالمنبر الذي يجلسون عليه هم، أم إن له معنىً آخرَ؟ طبعاً نحن لا نريد من الكرسي أو العرش ما يذهب إليه أُولئك، بل إننا نريد منه أمراً آخر وهو أمر معنوي نستوحيه من وظيفة الكرسي ومَن يجلس على الكرسي، ونريد به هنا: دائرة الأمر والنهي.

إن هذا يعني أن الله عزّ وجلّ قد يتعبّد بعض عباده بخلق شيء يصدر منه الأمر والنهي عنه سبحانه، فمثلاً النبي موسى‏ﷺ عندما جاءه الصوت آمراً إياه بالتبليغ فهو إنما جاءه عن طريق الشجرة، مع أن الصوت الذي جاء هو: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[1]. فهل معنى هذا أن الله تبارك وتعالى كان موجوداً حينها داخل الشجرة؟ طبعاً لا، لكن غاية ما في الأمر أن مشيئة الله سبحانه وتعالى قد ارتأت أن تكون الواسطة بينه جلّ شأنه وبين رسوله الكريم موسى بن عمران‏ﷺ تلك الشجرة المباركة. فالله تعالى قد تعبّد النبي موسى‏ﷺ بأن أخرج له الصوت من هذه الشجرة، وهي كائن مخلوق له تبارك شأنه وجلّ اسمه. وهكذا بالنسبة

---

(١) طه: ١٣.

إلى غيره من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)؛ فقد تعبّدهم بأن خلق لهم أشياء تدلّ على إعجازهم. وهذا اللون من التعبّد الذي يتعبّد الله به خلقه بشكل عامّ، أو أنبياءه بشكل خاصّ يسمى دائرة الأمر والنهي.

وهذا هو عين ما نستعمله نحن في هذه الأيام حينما نقول: صدر هذا الأمر عن البلاط الملكي، أو عن القصر الجمهوري، أو من العرش، أو من مركز الأمر والنهي، فما المراد به حينئذٍ؟ إن القصد أن هناك دائرةً تخرج منها الأوامر والنواهي، والتشريعات والأحكام، والإرادات التي يراد لها أن تنفّذ وأن تطبّق، وأن تدخل حيّز الواقع. وهكذا فإننا نعرف أن العرش هو دائرة الأمر والنهي، وهذا هو الذي تعبّد الله به عباده، وأمرهم بالقول به والأخذ بمضمونه، وليس المقصود به أن الله تبارك وتعالى موجود داخل ذلك المكان، أو داخل ذلك العرش، أو أنه سبحانه جالس عليه.

ومن خلال هذا التقريب فإننا نعرف أن العرش هنا كناية عن قدرة الله تبارك وتعالى وأمره ونهيه، وسيطرته على الموجودات، وإرادته التي يجب أن تكون نافذة وماضية في مخلوقاته وفي عباده. وهذا هو المذهب الذي نحن عليه، والاعتقاد الذي نعتقده؛ لأننا بخلاف هذا نكون قد وضعنا الله تبارك وتعالى في قالب من أوهامنا العليلة، ووحي أفهامنا القاصرة؛ إذ نجعل منه أداة طيّعة يحتويها ذلك الكرسي أو ذلك المكان (تقدّس وتنزّه عن ذلك). وكما نوّهنا أكثر من مرّة فإنه إذا كان الأمر على هذه الشاكلة، وبهذه الكيفية، فإننا إنما نجعل منه كائناً محدوداً، وجسماً له نطاق معيّن؛ ما يعني أننا إنما نسلب منه صفتي القيّوميّة والإحاطة بمخلوقاته، والغنى عن غيره.

وإذا لم يكن الله تبارك وتعالى فوق العرش، فلأحد أن يسأل ويقول: إذن

فأين هو جلّ شأنه؟

والجواب عن هذا هو أن يقال: إن الله تبارك وتعالى موجود في كلّ زمان ومكان؛ فلا يخلو منه مكان، كما أنه لا يحويه مكان؛ لأنه تعالى من غير سنخ عالم المادّيات. ذلك أن المكان الذي يخلو منه تعالى لا يمكن أن يكون مكاناً، لأنه سوف يتحوّل إلى حالة من حالات العدم المحض كما أشرنا.

إذن فلابد أن يكون إلى جانب كلّ مكان، وكلّ ذرّة من ذرّات هذا الوجود قدرة الله تبارك وتعالى.

ثم إن هناك حديثاً قدسيّاً شريفاً يقول: **«لن تسعني أرضي ولا سماواتي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»**[1]. وهذا يعني أن الله تبارك وتعالى لا يسعه شيء سوى قلب عبده المؤمن، فإذا كان الله تبارك وتعالى بهذه الفكرة التي وضّحناها وهو أنه لا يمكن أن يسعه شيء، فإنه يتّضح لنا أن المراد من العرش هنا: قلوب المؤمنين الذين يخضعون لحكمه ولإرادته، والذين يعترفون بوجوده، ويؤمنون به ويحبّونه، والذين ينقادون لأوامره ونواهيه، فيأتمرون بما يأمر به، وينتهون عنما نهى عنه.

إذن فعرش الله تبارك وتعالى في قلوب تلك الثلّة المؤمنة، وهذا يعني أن الله عزّ وجلّ لن يذهب عرشه ولن يبيد. وسيأتي من خلال البحث إن شاء الله تعالى أن العروش إذا خرجت من قلوب المؤمنين أو من القلوب عامّة، وأصبحت معادية لها، فإنها سوف تتحوّل إلى حطام، وستندثر وتموت دون أن يذكرها ذاكر،

---

(١) عوالي اللآلي ٤: ٦ / ٧، بحار الأنوار ٩٢: ٤٦٥، والظاهر أنه من مختصّات الصوفية. وقد ألّف العارف عبد الكريم الجيلي كتاباً حوله أسماه (لوامع البرق الموهن في معنى وسعني قلب عبدي المؤمن). هدية العارفين ١: ٦١١.

بل إن ذكرها ذاكر فإنما يذكرها بالسوء.

وهذا يعني أن عروش القلوب عروش خالدة لا يمكن أن تموت أبداً على الرغم من كلّ ما تواجهه من محنٍ وشدائد، وعلى الرغم من كلّ ما تقاسيه من تضييق ومحاربة[1].

قلوب المؤمنين عروش الصالحين

ولبيان هذا فإننا نقول: بما أن عرش الله تبارك وتعالى في قلوب المؤمنين، فقد جعل للأشخاص الذين اجتباهم واختارهم وانتجبهم عروشاً في تلك القلوب أيضاً، وإلّا ـ أي إن لم يكن الأمر كذلك ـ لم يكن لأهل التقوى وأهل الإيمان أثر يذكر في هذا الوجود مطلقاً. وكمثال على هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه (صلوات الله عليه) لولا أن الله سبحانه وتعالى جعل من قلوب عباده المخلصين مكاناً لأنبيائه ولأوليائه فإننا لم نكن نجد له عليه السلام، بل ولا لغيره من الأنبياء والأولياء مكاناً في هذه الدنيا التي حاربتهم ونابذتهم وتضافرت على الوقوف بوجههم ووجه دعوتهم.

وإننا إذ نجد لهؤلاء مكاناً في قلوب المؤمنين فإن هذا يعني أن الله جلّ شأنه قد أعطى هؤلاء الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ذلك المكان في قلوبهم.

وحينما نرجع إلى مثالنا ـ وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ـ الذي سوف

(١) وهذا الأمر يبدو لنا واضحاً دون لُبسٍ فيما تعرّض له الروّاد الأوائل من المسلمين الذين قاسوا شتى صنوف التعذيب دون أن يكفروا، ودون أن يتركوا الإيمان بالله تبارك وتعالى، كبلال وعمّار وأبويه، وكذلك فيما يقاسيه المؤمنون وما يعانونه في هذا الوقت الحاضر من طواغيت العصر وحكّامه وظلمته الذين حاولوا أن ينتزعوا الإيمان من قلوبهم انتزاعاً دون نفعٍ أو جدوى، فكلّوا وكلّت أساليبهم، وبقي الله سبحانه وتعالى في عروش قلوب هؤلاء المؤمنين.

نكتفي به دليلاً على صحّة ما نذهب إليه فإننا نجد أنه قد طورد على الأصعدة كافّة، وموُرست ضدّه كل وسائل التهميش والتغييب في محاولات يائسة وبائسة من أجل تحجيم وجوده على ساحة الإسلام. وهكذا كانت قلوب معاصريه وقلوب من جاء بعدهم قد انطوت على حقدٍ فظيعٍ، وحنقٍ شديد عليه، لا لشيء إلّا لأن السماء اختارته، وإلّا لأن النبي الأكرم‌ﷺ قد استخلفه. وإن من حقّ أي إنسان أن يأخذه العجب حينما يرى مثل هذه الأُمور تحصل له‌عليه السلام، لكن إرادة السماء المقدّسة اقتضت أن تكون قلوب المؤمنين عروشاً له‌عليه السلام، ولحبّه، وللذوبان فيه، مع أن هناك قلوباً مريضة يعتمرها الحقد الذي يغلي فيها، بل إنها إذا مرّت به‌عليه السلام فإنها تتحوّل إلى تنّورٍ يسجره ذلك الحقد المودع في صدور أصحابها، وذلك لبغضهم الكامن فيها له‌عليه السلام.

فهذه الشخصية الفذّة العظيمة لو لا أن الله تبارك وتعالى ضمن لصاحبها‌عليه السلام مكاناً في قلوب المؤمنين، لاندثرت، ولعفا عليها حقد من حقد، وضغن الذين تأججت صدورهم ناراً تحرق أصحابها حنقاً عليه. يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه ممثلاً لهذه الحالة بمثل، وهو قوله: «فالأحاديث الواردة في فضله‌عليه السلام لو لم تكن في الشهرة والاستفاضة، وكثرة النقل إلى غاية بعيدة، لانقطع نقلها؛ للخوف والتقية من بني مروان مع طول المدّة، وشدّة العداوة. ولولا أن لله تعالى في هذا الرجل سرّاً يعلمه من يعلمه لم يُروَ في فضله حديث، ولا عُرفت له منقبة. ألا ترى أن رئيس قرية لو سخط على واحد من أهلها، ومنع الناس أن يذكروه بخير وصلاح، لخمل ذكره، ونُسي اسمه، وصار وهو موجود معدوماً، وهو حي

ميتاً؟»[١].

وفعلاً فإن علي بن أبي طالبعليه السلام قد طاردته كلّ العروش، ونصب له العداء كلّ الحكام الذين حكموا باسم الإسلام بل وحتى غير الحكام، وكذلك نصبوا لمحبّيه العداء، وأضمروا لهم الأذى، بل أعلنوا ذلك فيهم تقتيلاً وتنكيلاً وتشريداً وتجويعاً وترهيباً، وما إلى ذلك من أساليب القهر التي يمكن أن يتّبعها هؤلاء الحكّام وأزلامهم وأعوانهم من وعّاظهم. فأمير المؤمنينعليه السلام منذ أن ولج الدنيا وحتى خرج منها، بل وحتى الآن نجده مطارداً متعقَّباً في محاولة لوأد تراثه وفضائله ومناقبه، حتى طورد كل من مال إليه، ومن أحبّه، ومن تشيّع له واعترف به إماماً وخليفة.

ونحن مع كلّ هذه الأساليب والمحاولات نجد أنهعليه السلام يسمو في سماء الخلود يوماً بعد يوم، ويتغلغل في عروش القلوب، ويتوغّل في ولاء أصحابها آناً بعد آن، وكأن تلك المعاول التي أرادت أن تنال من عظمته لا تهدم إلّا نفسها[٢]. فالمعاول لم يجدِها نفعاً ما أرادت أن تفعله في هذا الطود الهائل، وهذه الشخصية الإلهية، بل إنها إنما كانت تهدّ بنيانها وتهدم عروش أصحابها، فارتدّت عليهم خاسئة حسيرة وهي تطأطئ لعظمة ذلك الكيان الضخم والهيكل العظيم. والسرّ في ذلك أن الله تبارك وتعالى لم يبنِ شيئاً واستطاعت الدنيا أن تهدمه، فما بناه الله لا يمكن أن تهدمه الدنيا أبداً[٣]، وقد بنى الله تبارك وتعالى لهعليه السلام عروشاً لا تعدّ ولا تحصى

---

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٧٣.

(٢) قال الأعشى:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَها ... فلم يضرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

ديوان الأعشى: ١٤٤.

(٣) كما صرّح بذلك بعض من أنطقه الله تبارك وتعالى بفضلهعليه السلام وإن كان من أعدائه

في قلوب الثلّة الخيّرة من المؤمنين، وأسكنه فيها، فكان زادها محبته منهم، وتضحيتهم من أجله، وتفانيهم فيه، وتماهيهم في ولائه، وهم يرتشفونه رحيقاً مختوماً مزاجه مسك الولاء العاطر.. الولاء الذي ادّخره الله سبحانه وتعالى له عنفواناً ومجداً وخلوداً، ولمحبّيه شفاعة ورضاً وقرباً من الحضرة المقدّسة يوم القيامة، وألبسه إياه على لسان رسوله الأكرم رداء فخر، وإكليل مناقب، وتاج فضائل لا تعدّ ولا تحصى، ولا يحصرها أحد إلّا الله جلّ شأنه، إضافة إلى ذلك تماهيهم في مبادئه، وفي أهدافه وولايته.

هذا من ناحية ومن ناحية أُخرى فإننا نلاحظ أن العروش التي شيدت من الذهب، وتلك التي شيدت من الصخر الأصمّ، وزُيّنت بالجواهر والزخارف، وحُلّيت باللآلئ الثمينة والأحجار الكريمة، وبكل ما في الدنيا من أسباب الترف والرخاء، ولم يكن لله فيها مكان فإنها قد ذهبت وولّت واندثرت، ولم تعد موجودة، بل ولم يعد يذكرها ذاكر، أما عروش القلوب فلا تزال قائمة حتى الآن، لا يمكن أن تفنى أو تزول وإن فنيت الدنيا أو زالت.

فوربّك لو أنّك قرأت ما يسطره التاريخ لوجدت عجباً ممّا يذكره المؤرّخون عن الرصافة التي بناها هشام بن عبد الملك في الشام، وكيف أنها كانت تحفة من تحف الدنيا، وكيف أن مداد لبنها كان صهارة الذهب، وكذلك ما احتوته فيها من

اللدودين، قال الرياشي: انتقص ابن حمزة بن عبد الله بن الزبير علياً فقال له أبوه حمزة: يا بني، إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلّا هدمه الدين، وما بنى الدين شيئاً فهدمته الدنيا. أما ترى علياً وما يُظهر بعض الناس من بغضه ولعنه على المنابر فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء، وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس فكأنما يكشفون عن الجيف؟ جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ٢٢٩. وقريب منه ما في المحاسن والمساوئ: ٤٠، البيان والتبيين ٢: ١٧٣.

معلّقات وتحف، إضافة إلى القصر الأُموي، وكذلك لو قرأنا ما كتبه المؤرّخون عن قصور العباسيين التي أشادوها في بغداد وغيرها على مرّ التاريخ، وعن ذلك الترف والنعيم الذي كانوا يتكفّؤون فيه حتى رووا أن أحد قصور الرشيد كان فيه أحد عشر ألف مراسل للبريد.

ولنا أن نسأل الآن عن هذه القصور الضخمة التي شيدت على حبّ الدنيا والاغترار ببهرجها، وأُسّست على البعد عن الله تبارك وتعالى: أين أضحت؟ لقد تلاشت وأصبحت تراباً، حتى يخال المرء أنها لم تكن موجودة من قبلُ أبداً، ولم تكن قد بنيت أو قد أُنشئت وأُوجدت، ولم يغنَ فيها أهلها. أما ذلك الكوخ الصغير الذي بناه علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد أصبح علماً يهتدي به السائرون، ومناراً تستضيء به سفن طلاب الحقيقة؛ فلقد كان عبارة عن نهج حياتي مستقيم ومتكامل، مع أنه كان مبنياً من الحصر على قطعة من الأرض كانت لابن أُخته جعدة بن هبيرة، فسكن فيها، لكنها مع ذلك ـ كما ذكرنا ـ قد أصبحت مناراً وعلماً ومنيراً لكل القيم والمبادئ، ولكلّ من أراد أن يتمسّك بهذا الدين الحنيف. يقول أحد الشعراء:

وبتاريخنا علي وكوخ ... خير عقبى أفادها التعقيبُ
فأبو الكوخ سيد ملأ الدنـ ... ـيا وذيّاك الكوخ صرح مهيبُ
وقصور الطغاة ما عدن إلّا ... متحفاً فيه جرّة أو كوبُ
بينما كوخنا منابع نور ... ورسالات تجتليها الشعوبُ

أي أنه لو لم تكن هنالك عناية من الله تبارك وتعالى بهذا الرجل العظيم؛ أو رعاية منه جلّ شأنه له صلى الله عليه وآله فإنه لا يمكن أن يعيش كلّ هذه الفترة الطويلة التي حاولت الأقلام المأجورة، والقلوب الحاقدة، والعروش الظالمة، والطغاة

المتجبّرون المستبدّون على مرّها أن تنال منه، وأن تعفي ذكره وتخفي شخصه وأثره من الوجود، وأن تستر كلّ مناقبه وكلّ فضائله وتاريخه وجهاده، وكل ما يمتّ إليه بصلة؛ سواءً فيما يخص أهل بيته‌عليهم السلام ، أو شيعته ومحبّيه عبر سياسة التهميش والتحجيم.

وهكذا فإن عرش علي بن أبي طالب‌عليه السلام المعنوي هو قلوب محبّيه وأفئدتهم التي تهواه وتماهت في فكره ومبادئه، وآمنت بولايته‌عليه السلام ، لكن ـ كما ذكرنا ـ فإن التاريخ حاول جاهداً عبر الأقلام العفنة، وسلاطين الجور ووعّاظهم أو يذوّبوا هذه الشخصية وما لها من مناقب ومن فضائل، مسخّرين كلّ طاقاتهم من أجل أن يركنوها في هامش الحياة الفكرية للإسلام والمسلمين؛ لتضمحلّ قيم الإسلام والرسالة المحمدية في محاولة يائسة لنفخ الروح في عادات الجاهلية وتقاليدها وإعادتها إلى الحياة، بعد أن قضى عليها الإسلام بدعوة الرسول الكريم‌صلى الله عليه وآله ، وبسيف علي بن أبي طالب‌عليه السلام .. علي الذي قدم ذلك العطاء الضخم، والتراث الثرّ في سبيل الإسلام، والدفاع عنه وعن نبيه‌صلى الله عليه وآله .

رجع

إذن فالمراد من عرش الله تبارك وتعالى في آية المقام الكريمة ليس الكرسي الذي يجلس عليه السلطان؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن تسعه سماء أو أرض، بل يسعه قلب عبده المؤمن وفق الحديث الشريف المارّ. وهذا يعني أنّ برد الرضا الذي يجده المؤمن في قلبه إذا أذعن لله عزّ وجلّ يدلّ على أنّ قلبه قد أصبح عرشاً لله تبارك وتعالى.

ثم إن أُولئك الذين اختارهم الله عزّ وجلّ من الأنبياء والأولياء‌عليهم السلام ، بما أعطاهم سبحانه من تلك المكانة الراسخة، والعروش الكبيرة في قلوب محبّيهم،

فإنهم حينئذٍ سوف يقتنعون تمام الاقتناع بأن دعوتهم سوف تـعيش إلى الأبـد، وسوف تبقى وتخلد، وأن ما يدعون إليه باقٍ وإن حاربتهم الدنيا، بل إنها دعـوة باقية حتى لو تهدمت الدنيا كلها؛ لأن قلوب معتنقيها لا يمكن أن تتهدّم أبداً. وهذا يعني أنهم ﷺ سوف يبقون خالدين بخلود تلك القلوب، ووأبدية تلك العروش وسرمديتها ما دامت الدنيا قائمة.

المبحث الثالث: في معنى الإضافة في آية المقام الكريمة

وبناءً على أن المراد بالعرش هنا هو عرش الله تبارك وتعالى، فإننا نقول: إذا كان العرش عرش الله جلّ شأنه، وقد أُضيف إلى الله تبارك وتعالى، فإن لأحـد أن يسأل عمّا هو مراد من الإضافة هنا، فنقول: إن المراد من هذه الإضـافة هـو التشريف، بمعنى تشريف المضاف؛ فتصبح إضافة تشريفية. ومثل هذا ما يتعامل به الناس حينما يطلقون مثلاً على مؤسسة أو مدرسة أو شارع ما اسـم شـخصٍ معيّن، فيقال: مدرسة فلان، وشارع فلان، مع أن بـين بـناء تـلك المـؤسسة أو المدرسة، أو إنشاء ذلك الشارع وبين من سمّيت باسمه ألف سنة أو أكثر. فهذا إنما هو من باب تشريف تلك المؤسّسات أو المدارس أو البنايات بإضافتها إلى أسماء شخصيات معروفة أو مشهورة.

إذن فالإضافة الواردة في آية المقام الكريمة هـي إضـافة تشـريفية، وليست إضافة استعمال، أي ليس معنى أننا حينما نقول: هذا شارع فلان، أو هذه مدرسة أو مؤسّسة فلان أن فلاناً وفلاناً يسكنان في ذلك الشارع، أو في تلك المدرسة أو يستعملانهما. وكذلك الحال هنا مع العرش، فإضافة العـرش إلى الله سـبحانه وتعالى ليست إضافة استعمالية، فهي أنها لا تعني أنـه تـبارك وتـعالى فـي ذلك العرش، أو يستعمله، أو أنه جالس عليه، بـل إنـها إضـافة تشـريفية، فـلشرف

المضاف إليه يكتسب المضاف شرفاً مثله ومنه.

المبحث الرابع: المراد ممّن حول العرش

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾، يقول المفسّرون: إن مَن حول العرش هم أشراف الملائكة. وهذا التعبير موجود عند كلّ المفسرين، لكن يبقى السؤال قائماً: ما المراد بأشراف الملائكة؟ إننا نعرف بشكل قطعي أن الملائكة ليس فيهم من هو غير شريف، فكان لابدّ من توجيه عبارتهم هذه بأن نقول: صحيح أننا نعرف أن الملائكة ليس فيهم من هو غير شريف، لكننا نعرف أيضاً أن فيهم من هو أقدم، أي أنه أكثر عبادة من غيره؛ وبالتالي فهو أكثر شرفاً منهم. فجبرئيل﵇ مثلاً مميّز على سائر الملائكة، وكذلك هناك جملة منهم متميّزة عن غيرها بكثرة العبادة لله تبارك وتعالى والقرب إليه، وبنمط الرسالات والأعمال التي توكل إليهم، والتي يقومون بها وبقضائها. وهذا أمر طبيعي؛ فالإنسان مثلاً إنما تحدّد مكانتَه في هذه الحياة وظيفتُه التي يؤدّيها ويقوم بها، فهؤلاء الذين هم حول العرش وظيفتهم أنهم رسل الله تبارك وتعالى سيّما جبرئيل﵇ الذي هو رسول الله إلى الأنبياء﵈؛ وبهذا يتميّز هؤلاء على غيرهم.

التقابل في الآية الكريمة

والآية الكريمة كأنما هي في مقام بيان أنّ أولئك الذين يلحدون في آيات الله، وينكرون وجوده يقابلهم أُولئك الذين يحملون عرش الله في قلوبهم، والذين هم حول العرش، وهم جميعاً ـ الطائفتان ـ المؤمنون به، وأن أولئك الذين يلحدون بالله وفي آياته لا وجود لهم، ولا قيمة في نظر الحقّ سبحانه، وفي نظر أتباعه؛ فهم لا قيمة لرأيهم؛ لأنهم لا قيمة لهم هم أنفسهم، كونهم أُناساً شبه معدومين، وليس لهم من حظّ أو نصيب من الوجود أمام أُولئك الذين يؤمنون بالله تعالى، وبآياته،

وبأنبيائه ورسله ﷺ.

إذن فالإنسان المؤمن بالله جلّ وعلا هو الإنسان ذو المكانة العالية وذو القيمة الرفيعة؛ لأنه يذعن إلى الله سبحانه وتعالى، ويصدّق بكلماته وبكتبه، يقول الشاعر:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضباناً عليَّ لئامها[1]

فحملة الفكر، وحملة العلم والعقول النيّرة هم الذين يحملون عرش الله عزّ وجلّ ويؤمنون به، وهؤلاء هم أهل لتلك الصفات التي أعطتهم إياها الآية الكريمة: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ**﴾، بخلاف أُولئك الذين يلحدون بآيات الله جلّ شأنه، فإنهم لا خلاق لهم عند الله وأوليائه، ولا وزن؛ سواء في الدنيا، أو في الآخرة.

المبحث الخامس: صفات حملة العرش

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وهي هنا في مقام منح حملة العرش الذين هم أشراف الملائكة كما مرّ قبل قليل صفات تشرّفهم، وترفعهم، وتسبغ عليهم لازم ذلك، وهو رضا الله جلّ اسمه عنهم. وهذه الصفات ثلاث، هي:

الصفة الأولى: التسبيح والتحميد

تقول الآية الكريمة: ﴿**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**﴾، إن أول صفة أعطتهم إياها هذه الآية الكريمة هي صفة التسبيح، فهم يسبحون بحمد ربهم جلّ شأنه وتبارك اسمه كلّ حين. ومعنى ﴿**يُسَبِّحُونَ**﴾: ينزّهون الله عزّ وجلّ عن كلّ صفة من صفات

---

(١) البيت لأبي العيناء، أمالي المرتضى: ٢١٨، شرح نهج البلاغة ٩: ٦٣.

النقص، أو عن كلّ أمر يعود عليه جلّ شأنه بالنقص أو الحاجة، تنزّه عن ذلك ربّنا. فهؤلاء يعرفون الله تبارك وتعالى، ومن يعرفِ الشيء يعطِه قيمته الحقيقية، بخلاف الذي لا يعرفه فإنه لا يعطيه قيمته بشكل صحيح، ولا يمنحه وزنه الحقيقي الذي هو أهل له.

فهؤلاء لمعرفتهم بالله تبارك وتعالى يسبحونه منزّهين إياه عن كلّ شائبة النقص. فهم يدركون عظمته؛ ولذا فإنهم إذ ينزّهونه عن النقص والمعائب، فإنهم إنما ينزّهونه وهم يوقنون بأنه تعالى كذلك، وعن كلّ الصفات التي يمكن أن تؤدّي إلى نسبة النقص إليه تبارك وتعالى والافتقار، كالتجسيم بأن يقال: إن الله جسم، أو إنه شيء يحلّ على كرسي ككرسي السلاطين والملوك في الدنيا، أو على عرش كعروشهم.

إننا نرى في حياتنا العملية كلّ يوم أن الجاهل عندما يمرّ بالله تبارك وتعالى فإنه يتعامل معه ويعبّر عنه كما يتعامل مع أي إنسان، وكما يعبر عن أي شيء آخر عادي في الدنيا، أو في حياته من الناس أو غيرهم؛ ذلك أنه لا يعرف الله تبارك وتعالى حقّ معرفته، ولا يعطيه مكانته الحقيقية التي هو جلّ شأنه عليها[1]. أمّا المؤمنون الذين يعرفونه سبحانه حقّ معرفته فتخشع قلوبهم[2] بمجرّد ذكره، كان الإمام زين العابدين عليه السلام حينما يتوجّه إلى الوضوء، يصبح شديد الاصفرار، فيسأله أحدهم: ما بالك يابن رسول الله قد اصفرّ وجهك؟ فيجيبه: «ويلك، أتدري بين

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الأنعام: ٩١، الحج: ٧٤، الزمر: ٦٧.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الأنفال: ٢، وقال جلّ شأنه: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الحج: ٣٥.

يدي من أقف أنا؟»[1].

إن هذا السائل إنما سأل الإمامعليه السلام هذا السؤال؛ لأنه لا يعرف مدى عظمة الله سبحانه وتعالى، مع أنه جلّ شأنه قد وصف نفسه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[2]، الأمر الّذي يعني أن على المؤمن أن يلتفت إلى هذه الحقائق القرآنية، ويضعها نصب عينيه، ويجعلها منطلقاً له في حياته، وفي تعاملاته في الواقع.

فالملائكةعليهم السلام هنا لإدراكهم ومعرفتهم بالله تبارك وتعالى يسبّحونه وينزّهونه ويقدّسونه عن كلّ نقص وعيب، وعن كلّ ما يعود عليه من الصفات العجيبة الغريبة التي يحاول البعض جاهداً إلصاقها به تعالى، والتي تؤدّي نتيجتها إلى نسبة النقص إليه. وهذا الأمر موجود فعلاً في تراث المسلمين، فإننا مثلاً نجد عندهم من يروي عن رسولنا الأكرمصلى الله عليه وآله قوله: «إن الله ضحك حتىٰ بدت نواجذه»[3].

ومثل هذا الذي ينسب هذا الكفر إلى الله تبارك وتعالى فإن شأنه إن كان عن قصور عُذر عليه؛ لأن الله تبارك وتعالى قد رفع عنه القلم، لكنه إن كان عن تقصير فإنه سوف يحاسَب عليه حساباً عسيراً، وسوف لن يعذر؛ لأنه سبحانه قد أعطاه العقل، وجعله له علامة وميزاناً لتمييز الحقّ من الباطل، وتعبّده بذلك، وأمره بأن يستعمله، لكنه غيّبه عن موقعه ووظيفته في تمييز باطل الأقوال من صحيحها، وترك نفسه تجري وراء التقليد الأعمى، أو وراء الإيمان بأقوال لا تتّسم

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٣٢٤ / ٦٣، الطبقات الكبرىٰ ٥: ٢١٦، تاريخ مدينة دمشق ٤١: ٣٧٨، تهذيب الكمال ٢٠: ٣٩٠، سير أعلام النبلاء ٤: ٣٩٢، البداية والنهاية ٩: ١٢٣.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) انظر نور البراهين ١: ٢٥٠، مؤتمر علماء بغداد: ٢٣.

بالعقلانيّة، ولا تنسجم مع الدين، دون أن يُعمل فكره وعقله في مناقشتها وتصحيحها، وإثبات صحيحها وإبطال الباطل منها. جاء بعض المسلمين إلى النبي ﷺ فسألوه وقالوا: يا رسول الله، لا تسمح لبلال أن يؤذن. فقال ﷺ: «لماذا؟». قالوا: لأنه لا يقول: «أشهد»، بل يقول: أسهد. فقال ﷺ: **«إن سين بلال عند الله شين»**[1].

فهذا هو مقدار قابلية بلال، وكذلك هو الحال مع غيره ممّن يتّصف بهذه الصفة، والله تبارك وتعالى يقول: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾**[2].

إذن فالقاصر معذور، أما المقصّر فينبغي عليه أن يطّلع ويقرأ، وأن يبحث، وأن يستعمل عقله في مقارنة الأشياء مع بعضها للخروج بنتيجة صحيحة حيث يتّبع الحقّ أينما ظهر له، ويترك الباطل وإن كان يعيش فيه. إن الدنيا التي نعيش فيها اليوم هي دنيا العلم، وليست دنيا الخرافات أو دنيا التخلّف، ومصادر العلم كثيرة ومتوفّرة ومنبثّة؛ فالمكتبات تملأ الدنيا، وهي مكتبات تعمرها الكتب، ومن يرد العلم يجده أينما التفت، وأينما مدّ بصره ويده.

فالآية الكريمة تذكر أن أول صفة لحملة العرش أنهم يسبحون بحمد ربّهم، وينزّهونه، ويقدّسونه عن صفات النقص والمعائب، وينسبون إليه سبحانه كلّ صفة من شأنها أن تعود عليه تعالى بالكمال.

الصفة الثانية: الإيمان ودلالته على عدم التجسيم

ثم قالت الآية الكريمة: **﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** وفي قوله تعالى هذا إشارة واضحة،

---

(١) عدّة الداعي: ٢١، السيرة النبويّة (ابن كثير) ٤: ٦٥٧.
(٢) البقرة: ٢٨٦.

ودلالة بيّنة على عدم التجسيم؛ ذلك أنه لو كان الله تبارك وتعالى جسماً يجلس على كرسي (تنزّه عن ذلك)، والملائكة يرونه أمام أعينهم، والناس كذلك، لما كانت هنالك حاجة إلى القول: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[1]، فما دام الناس والملائكة يرونه، فهم حتماً سوف يؤمنون به، ولا حاجة حينئذٍ لذكر هذا الأمر. أما والقول بأنهم يؤمنون بالله تبارك وتعالى ويصدّقون به، فإن في هذا دليلاً على أنه سبحانه وتعالى لا يُرى، وإنما تُرى آثاره في مخلوقاته؛ جماداتها، وأحيائها.

فكل شخصٍ يرى شيئاً فإنما يؤمن بوجوده، والرؤية التي تقع في العين ليس فيها معاناة أبداً؛ لأنها تقع بجارحة جسمية، لكن المعاناة في واقع الأمر تأتي من أن يعبد الإنسان ربّاً لا يراه بعينه ولكنه يراه بعقله وقلبه؛ حيث آثاره وقدرته وسيطرته وتحكّمه في الكون كلّه بما فيه من معادلات تحكم وجوده وتسيطر على نظامه، وهي أُمور كلها تدلّ عليه. مرّ النبي ﷺ يوماً ومعه الصحابة علىٰ عجوز بيدها مغزل، فسألها ﷺ: «بم عرفت ربّك؟». قالت: والله، عرفت ربي بهذا الدولاب. قال ﷺ: «كيف؟». قالت: رأيته إن وضعت يدي عليه راح يدور، وإن رفعتها وقف عن الدوران، وإني أرىٰ أن هذا الكون كلّه يدور في نظام، ففيه الشمس تطلع وتغرب في مواعيد محددة، وفيه مواسم الزرع في مواعيدها، والمدّ والجزر في مواعيده، فكيف تدور هذه لوحدها؟ فلابدّ إذن من وجود مدبّر وخالق، ومكون ومحرك لها.

ونحن حينما نتأمّل في هذا الجواب، فإننا سنجد فيه ومضة من ومضات العقل؛ حيث يتجسّد فيها الاستدلال بالأثر على المؤثّر ووجوده؛ بما أننا نجد هذا الكون

---

(١) لأنه يصبح حينئذٍ تحصيل حاصل.

المترامي الأطراف، وما يحكمه من نظام ومواقيت للزراعة، وشروق الشمس وغروبها، والليل والنهار، وطلوع النجوم وغروبها، وما إلى ذلك من الظواهر التي تحدث في هذا الكون فإننا لابدّ أن نذعن حتماً بأن وراءها حكيم قيّوم مدبّر يحرّكها ويسيّرها، ويديرها ويدبّرها، وينظّم شؤونها؛ لتسير بهذه الوتيرة الثابتة التي لا تتغير، ولا تنقطع.

فهؤلاء لا شكّ أنهم يؤمنون بالله الواحد الأحد جلّ اسمه وتبارك شأنه إيماناً واعياً؛ بما يرون من آثار قدرته سبحانه وتعالى، ولطائف صنعه، ودقائق حكمته في مخلوقاته.

الإيمان الواعي ضرورة بشرية

إن من الضروري أن يمتلك كلّ إنسانٍ إيماناً واعياً يتصرّف وفقه وعلى ضوئه؛ ليصل إلى الحقيقة المطلقة، وليس الإيمانَ التقليدي أو الموروث عن الآباء والأجداد الذين ربّما كانوا على صوابٍ، وربّما كانوا على خطأ.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى نحن كشيعة فإنني أُطالب كل شيعي بأن يكون إيماننا بعقيدتنا ومذهبنا وأيمّتنا ﷺ إيماناً واعياً بكل ما للكلمة واعٍ من معنى، وأن يكون مضموننا أعلى من مضمون غيرنا؛ لأننا من مدرسة الإمام جعفر بن محمّد الصادق ﷺ.. مدرسة الإسلام الضخمة التي ينبغي أن تكون مناراً لنا، ومشعلاً نهتدي به، وعن طريقها يجب أن نبتعد عن الإيمان التقليدي، أي لا ينبغي أن يكون إيماننا موروثاً فقط، بل يجب أن يكون إيماناً واعياً نعرف عبره وفق الضوابط العلمية والعقلية أن طريقنا الذي نحن عليه هو طريق الحقّ، بل هو الحقّ عينه بما أننا مع هذه المدرسة الشريفة المباركة، ويجب علينا أن نعي بأننا إنما اتّبعنا هذه المدرسة لا لأن آباءنا كانوا عليها، بل لأنها مدرسة الحقّ التي تمثّل

الحقّ سبحانه وتعالى.

فليس الأمر لأني ولدت في بيت موالٍ لأهل البيتعليهم السلام فأنا شيعي موالٍ، دون أن أعرف شيئاً عن أهل البيتعليهم السلام.. عن أخلاقهم وسيرتهم، وعن علمهم ومنهجيتهم في الحياة، وعن دورهم الريادي الذي اضطلعوا به، فكانت حياتهم وسيرتهم منهجاً حيّاً لطلاب الحقّ والحقيقة، ومعلماً بارزاً منيراً به يهتدي المؤمنون به، ويتفيّأ ظلاله السائرون عليه.

ولهذا فإن الواجب على كلّ شيعي هو أن يقرأ تاريخ أهل البيتعليهم السلام، وأن يعرف آدابهم وسلوكياتهم وأخلاقهم؛ ليتأدّب بها وليتخلّق؛ كي يتعامل بها مع نفسه ومع ربّه ومع غيره من أبناء مجتمعه؛ لأنهمعليهم السلام القدوة العليا، والمثل السامي في هذا المجال.. القدوة التي يجب أن تحتذى، وأن تتّبع، وأن يصار إلى ما صارت إليه. إن الإنسان في هذه الحياة ليس كائناً غريزياً فقط، أو أنه عبارة عن كيانٍ استهلاكي وظيفته التهام الطعام، وارتداء اللباس، وإشباع الغرائز الجسمية فقط دون أن يضع أمامه هدفاً سامياً يسعى لتحقيقه والحصول عليه، بل هو كائن سامٍ، يتحقّق وجوده الحقيقي بأن يلهث وراء العلم والمعرفة، ويركض حثيثاً خلف طلب الثقافة، ويتبنّى المفاهيم الأخلاقية التي توصله إلى الكمال، أو لا أقلّ من أن تضع رجله في الخطوة الأُولى على طريق الكمال ذاك؛ لأن كلّ ذلك هو الذي يخلّده وينفعه في دنياه وآخرته. أما الأعراض الدنيوية الأُخرى الفانية، فلا تنفعه في شيء من ذلك، بل إنها ربّما أضرّته فيما لو أنه لم يكتسبها عن طرقها المشروعة، أو كان يستخدمها في طرقها غير المشروعة.

وعليه فإنه يجب علينا أن نقرأ ونتعلّم كل ما له علاقة بمذهبنا وحياة أيمّتناعليهم السلام، بل حتى غير ذلك ممّا له علاقة بالثقافة؛ لنكون واعين بما يدور حولنا،

ومتيقّظين لما يحاك ضدّنا. فعلى كلّ فرد منّا أن يثابر في طلب المعرفة التي هي غاية كلّ إنسان ينشد الكمال، أو ولوج طريق التكامل، وسلاحه الذي يقف به في وجه كلّ من يريد النيل من معتقده ومبدئه ودينه، تقول الرواية الشريفة: «جالسوا العلماء، وزاحموهم بركبكم»[1].

وظيفة العالم وأمانة السماء

وفي مقابل هذا فإن على من ينصّب نفسه للإفتاء، ويجلس على كرسي أهل العلم أن يجيب على الأسئلة التي تطرح عليه بدقّة وأمانة بعيداً عن روح التعصّب والجاهلية، وقبل ذلك عليه أن يكون أهلاً للإجابة عليها، وإلّا فليترك ذلك الكرسي لغيره ممن هو أهل له؛ لأنه هو الّذي يكون أهلاً لأن يتصدّى للإفتاء والإجابة على جميع المسائل التي تطرح عليه في مجال اختصاصه. فالناس أمانة في أعناق العلماء، وما زالوا كذلك ـ أي أنهم أمانة في أعناقهم ـ فإن عليهم أن يحافظوا على تلك الأمانة التي أودعها الله تبارك وتعالى في أعناقهم؛ لأن حفظ الأمانة وأدائها من صفات المؤمن، وبخلافه فإنها تصبح من صفات المنافق الذي لا يستحقّ أن يكون في ذلك المجلس. يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «**مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا**»[2].

---

(١) لم نعثر عليه بهذا النص، وما عثرنا عليه بلفظ متفاوت: ففي (النوادر) عن رسول الله قوله: «سائلوا العلماء، وخالطوا الحكماء، وجالسوا الفقراء». النوادر: ١٥٥. وفي غيره عنه قوله: «جالسوا العلماء، وسائلوا الكبراء، وخالطوا الحكماء». نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ١٠، ميزان الاعتدال ٤: ٤٣٢ / ٩٧٢٢، لسان الميزان ٦: ٢٩ / ١٠٣٢، كنز العمّال ٩: ١٧٧ / ٢٥٥٨٣.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٧٨.

فخلق العالم إن كان ممّن يرقب الله تبارك وتعالى في تصرّفاته أن يهيّئ نفسه ما دام قد أجلسها في ذلك المجلس، وليس عليه من ضير، فيما إذا لم يكن يعرف الإجابة عن مسألة أن يقول: لا أعرف، بل لا أمر معيباً عليه في ذلك؛ لأن الاعتراف بذلك الجهل فضيلة إن كان في الحقّ؛ ذلك أنه خير من أن يجيب السائل إجابة مخطوءة تبتعد به عن جوهر المسألة، فيضلّه بها[1].

معضلة الجهل والجهل المركّب

جاءني شخص قبل أيام يسألني قائلاً: شيخنا؛ لقد سألت أحد الأشخاص عن رأي الإسلام في ظاهرة المدّ والجزر، وقلت له بأن العلماء يرون أنها بفعل القمر، وبتأثير جاذبيته على الأرض؛ فعند اقترابه من الأرض في دورانه حولها يحدث المدّ، وعند ابتعاده عنها يحدث الجزر. فقال لي: لا، إن هؤلاء مخطئون. وقلت له: كيف ذلك؟ قال إن سبب المدّ والجزر هو أن هناك ملكاً عظيماً يضع رجله في البحر ويخرجها منه؛ فإذا وضعها فيه فاض الماء وحصل المد، وإن أخرجها منه عاد الماء كما كان وحصلت ظاهرة الجزر.

إن هذا في واقع الأمر مأساة عظيمة؛ فالإنسان ليس عليه من ضير ولا عيب كما أسلفنا في أن يقول: إنني لا أعرف الإجابة عن هذه المسألة؛ لأن الإنسان غير المعصوم عادة يكون عرضة للخطأ، كما أنه بطبيعة الحال غير ملمّ بكل الثقافات والمعارف؛ ولذا فإن من الطبيعي جداً أن نجد إنساناً لا يستطيع أن يجيب على

---

(١) قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أُوصِيكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آبَاطَ الإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلاً... وَلا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا لا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لا أَعْلَمُ، وَ لا يَسْتَحِيَنَّ أَحَدٌ إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ». نهج البلاغة / القول: ٨٢.

وقال الباقر عليه السلام: «زكاة العلم أن تعلّمه عباد الله». الكافي ١: ٤١ / ٣.

الكثير من الأسئلة سيما إذا كانت في غير اختصاصه، أما في مجال اختصاصه فإنه كذلك لا يمكن أن يحيط بكل جزئيات وفرعيات ذلك الاختصاص حتى نقول: إن عليه أن يجيب على كلّ مسألة، بل إننا نقول: إن عليه أن يجيب على كلّ مسألة يعرفها، وأن يعترف بما لا يعرف من المسائل ويقول: لا أعرف. أما أن يتدخل إنسان في شيء ليس من اختصاصه، ولا من جوهر مجال معرفته، ثم يجيب على سؤال فيه بجواب خرافي، فإن هذا في واقع الأمر ما لا يمكن قبوله بحال؛ لأنه مأساة عظيمة تصطدم مع العقل، وتصطدم مع المعرفة الأكاديمية القائمة على القوانين والأُسس العلمية الدقيقة.

إن على من لا يعرف الإجابة على سؤال أن يقول: إن هذا السؤال ليس من اختصاصي ولا من مجال معرفتي؛ ولذا فإني لا أعرف الإجابة عليه، وعليك أيها السائل أن تسأل عنه صاحب اختصاصٍ فيه. فمثلاً حينما يأتي شخص إليّ ويسألني عن مسألة طبية، فإنني سوف أقول له: إنني لا أعرف الإجابة على هذه المسألة؛ والسبب واضح وبيّن وهو أنني لست مختصّاً بعلم الطب، ولا من دارسيه أو الذين يعملون في مجاله.

مقوّمات الأمانة العلميّة

فالعلم والمتعلّم كذلك كلاهما في واقع الأمر أمانة في أعناق العلماء المتصدّين له، وكذلك حال الناس الذين لا نصيب لهم من المعرفة مطلقاً أو في باب من الأبواب؛ فإنهم أمانة في أعناقهم؛ ولذا فإننا نقول: إن هذا العلم يحتّم على الإنسان أن يكون ذا سلوك علمي قويم، وذا منهج أكاديمي سليم؛ كي يتمكّن من أن ينال رضا الله تبارك وتعالى؛ فلا يجيب عمّا لا يعرف بما لا يعرف عناداً للحقّ وتعنّتاً بالباطل وله، بل يجيب عما يعرف بما يعرف، ويترك ما لا يعرف إلى من يعرف من

أهل الشأن والاختصاص.

إن السلوك العلمي والمنهج الأكاديمي أمران ضروريان لكل عالمٍ أو باحث متصدٍّ لأي مجال من مجالات المعرفة، وبخلافه فإن الأُمور سوف تختلط على السائل والمجيب معاً، وسوف لن يكون هناك تمييز بين الحق والباطل، وسوف لن يكون هناك معرفة حقيقية يمكن أن يرتقي بها الإنسان وينمو ويظهر على غيره. وهذا الذي نقوله أمرٌ مستمدّ من القرآن الكريم الذي أدّبنا على ذلك وأمرنا به، وأوجب علينا أن نتّبعه؛ حيث يخاطبنا بالقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[1].

نعم إن على الإنسان ألّا يتبع إلّا ما يعتقد أنه أمرٌ قائم على أساس من العلم والمعرفة، وإلّا فإنه سوف لن يرتقي إلى عالم التكامل بنفسه أو بغيره، بل إنه سوف ينزل بها وبهم إلى الحضيض.

الصفة الثالثة: الاستغفار للمؤمنين

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وفي هذا المقطع الشريف دلالة على أن نفوس هؤلاء الذين يحملون العرش هي نفوس طيّبة تحبّ الخير للمجتمع المؤمن بأجمعه، وتريد لكل من حولها أن ينعم بالنعم التي وهبها الله تبارك وتعالى لعباده، وتفضّل بها عليهم. وهذه صفة حميدة محبّبة إلى النفوس تدعو إليها الأديان السماوية على لسان الرسل وأوصيائهم عليهم السلام، دخلت إحدى جواري الإمام السجاد عليه السلام عليه وقالت له: سيدي، أرى لسانك لهجاً كلّ وقتك؟ فأجابها عليه السلام بأنه يستغفر لمن أحبّ أهل البيت عليهم السلام ووالاهم، فلسانه الشريف لهج

(١) الإسراء: ٣٦.

بالدعاء لهم والاستغفار.

فحب الخير للآخرين هو صميم كلّ دين، وصميم كلّ مذهب حقّ يدعو إلى الله تبارك وتعالى؛ ولذا فإننا نجد أن رعاة تلك الأديان من الأنبياء والأوصياء‏عليهم السلام يتخلّقون بهذا الخلق الكريم ويتجملون به، فيؤثرون غيرهم على أنفسهم[1]، دخل رجل في أحد الأيام على الإمام الرضا‏عليه السلام فقال له: إني أُحبّك. فالتفت إليه الإمام‏عليه السلام وقال له: **«لست من غنمي؛ إننا نرعى شيعتنا كما يرعى الراعي غنمه»**[2].

فهذه هي النفوس الطيّبة الكريمة التي تتحلّى بآداب السماء، وتتخلّق بأخلاق الله تبارك وتعالى؛ وأصبحت أهلاً لأن تنشر ظلّها على كلّ من يتّجه إليها ويلوذ بها ويقصدها طالباً للمعرفة وللهداية. إن كلّ من في الوجود يفتقر في وجوده إلى رحمة الله تبارك وتعالى؛ ولذا فإن حَمَلة العرش من الملائكة بما أنهم نفوس طيّبة وخيّرة فإنهم يدعون للذين آمنوا ويستغفرون لهم ويحبّون الخير لهم، فيدعون الله

---

(١) وفيما مرّ في هذا المجلد من قصّة إيثار أهل بيت الرحمة‏عليهم السلام المسكين واليتيم والأسير خير دلالة وشاهد على ذلك حتى نزل فيهم قرآن يشهد بفضلهم وبمناقبهم.

(٢) لم نعثر عليه بهذا السياق، وما في كتب الحديث أن ابن أبي سعيد المكاري دخل على الإمام الرضا‏عليه السلام فقال له: أبلغ من قدرك أن تدّعي ما ادّعى أبوك؟ فقال‏عليه السلام له: «مالك أطفأ الله نورك، وأدخل الفقر بيتك؟ أما علمت أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى عمران: إني واهب لك ذكراً. فوهب له مريم، ووهب لمريم عيسى‏عليه السلام، فعيسى من مريم ومريم من عيسى، ومريم وعيسى شيء واحد، وأنا من أبي وأبي مني، وأنا وأبي شيء واحد؟». فقال له ابن أبي سعيد: إني أسألك عن مسألة. فقال‏عليه السلام: «لا أخالك تقبل مني، ولست من غنمي، ولكن هلمها»... فخرج من عنده وافتقر حتى مات، ولم يكن عنده مبيت ليلة. الكافي ٦: ١٩٥ / ٦، عيون أخبار الرضا‏عليه السلام ٢: ٢٧٥ / ٧١، الفقيه ٣: ١٥٥ / ٣٥٦٤، تهذيب الأحكام ٨: ٢٣١ / ٨٣٥.

سبحانه وتعالى لهم بذلك، وأن يمنّ عليهم به؛ لأنهم يعون حقيقة احتياج الكل وافتقاره إلى الله تبارك وتعالى.

مع أننا نرى في واقع الحال الذي نعيشه أن هناك الكثير من النفوس التي تتّصف بالأنانية، فلا تحب الخير لغيرها، بل تريده لأنفسها فقط، وهؤلاء يتّصفون بصفة ذميمة يكرهها الإسلام وينبذها، ويدعو إلى خلافها[١]. فهذه النفوس المطبوعة بطابع حب النفس وحبّ الذات فقط، وعدم الرغبة في أن ينال غيرُها الخيرَ الذي تريده لأنفسها هي نفوس جبلت على معصية الله جلّ شأنه وعدم طاعته؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أمرها بحبّ الخير لغيرها، وهي لا تفعل ذلك. قدّم رجل خدمة للنبي ﷺ في أمر ما، فلما دخل على النبي الأكرم ﷺ بعد حين أكرمه ﷺ على خدمته تلك، وأمر له ﷺ بغنيمات. ويبدو أن هذا العطاء كان كثيراً عند الأعرابي، فقال: اللهم اغفر لي ولمحمد، ولا تغفر لأحد معنا. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «لقد احتظرت واسعاً»[٢].

فهذا الرجل قد هزّه الموقف، واستكثر العطاء، فاستخفّه الفرح، فكان أن رفع رأسه ليقول ما قال. وهذه الحالة ليست فردية، بل إن هذا الشخص يمثل شريحة عريضة موجودة بين الناس وتعيش معهم، وهي لا تحبّ الخير لهم، بل تريد أن

---

(١) حتى ورد في بعض الأحاديث القدسية الشريفة قوله عزّ من قائل: «ادعوني بألسنة لم تعصوني بها». تفسير الآلوسي ١: ٢٧٤. وقد حمل على ألسنة الغير، أي أن الله تبارك وتعالى قد أمر المؤمنين بأن يدعوا لغيرهم وليس لأنفسهم فقط، ويحثّهم على ذلك بترغيبهم بأنهم إنما يدعون بألسنة لم يعصوا بها حتى تتحقق الإجابة فيما إذا دعا كلّ إنسان إلى غيره. وهذا واضح لا غبار عليه، ولا يحتاج إلى مزيد بيان.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ١٧٦ / ٥٢٩، صحيح ابن حبان ٣: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، وليس فيه ذكر المناسبة، وقريب منه في مسند أحمد ٢: ١٧٠ ـ ١٧١، ١٩٦، ٢٢١، ٥٠٣.

تستحوذ عليه لأنفسها فقط، بل إن هؤلاء ربّما إذا رأوا أحداً قد أنعم الله عليه بنعمة فإنهم سوف يرون تلك النعمة عليه مدعاةً لحسدهم إياه عليها، بل انتقامهم منه، فتثير في نفوسهم مكامن الحسد والغيظ وإلحاق الأذى به. والحال أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون، إذ المفروض بهم أن يقولوا: اللهم زده من فضلك، وأعطنا من فضلك كما أعطيت؛ لأنهم إنما يدعون غنياً لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلّا جوداً وكرماً.

إن على الإنسان أن يسأل نفسه عن الأسباب التي تؤدّي به إلى أن يحسد الناس أو أن يحقد عليهم؛ لأنه يجب أن يعرف وأن يعلم بأن هؤلاء الذين حصلوا على تلك الأموال والأرزاق التي امتنّ الله بها عليهم -إن كانت من حلّ طبعاً- أنهم لم يزاحموه في شيء هو عندهم ممّا هو من فضل الله تبارك وتعالى عليهم، ولم يسلبوه شيئاً هو له، ولم يغتصبوا منه حقّاً هو من اختصاصه؛ لأن الله تبارك وتعالى جواد كريم، واسع العطاء جزيلهُ، كثير النوال، لا تنقص خزائنه مهما أعطى وكيف أعطى ولأيٍّ أعطى. ومعنى هذا أنه يجب على كلّ إنسانٍ تسوّل له نفسه أن يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ألّا يحسدهم، وأن يسأل نفسه قائلاً: لماذا أحسد هؤلاء وأحقد عليهم، وهم لم يزاحموني في شيء مما امتنّ الله وتفضل به عليهم؟

إننا يجب أن نعرف أن كلّ الناس إنما يأكلون ويشربون بفضل من الله سبحانه وتعالى، وهو فضل واسع لا ينضب معينه، ولا تنقص خزانته، ولا ينتهي مداده؛ لأنه فضل الله تبارك وتعالى الواسع، ورزقه اللّا منتهي، وعطاؤه الذي لا ينقص أبداً مهما كان العطاء وأيّاً كان المُعطى.

وهكذا فإننا نرى أن النفوس الطيبة الكريمة هي التي تحبّ الخير، ولذا فإنه

ليس هناك من إنسان ذي نفس كريمة طيبة خيرة وهو يحمل الحقد على الآخرين أو يضمر الحسد والشرّ لمن وهبه الله من نعمه ومن فضله، بل إننا نجده على العكس من ذلك؛ فهو يفرح إن أصاب غيره خير، ويترفّع عن الحسد لأُلئك الذين أنعم الله عليهم، بل يدعو لهم أن يزيدهم الله من فضله، وأن يمنّ عليهم برزق أكبر، وأن يرزقه هو كذلك؛ لأنهم إنما يطلبون ممن هو أهلٌ لأن يطلب منه، ويسأل من عطائه ونواله.

إذن فالله تبارك وتعالى إنما يريد منّا عبر هذا المقطع الكريم من آية المقام الشريفة أن نتخلّق بأخلاق هؤلاء الذين حملوا العرش، فهم يحملون العرش، وزيادة على ذلك يستغفرون لغيرهم بدافع حبّ الخير المطبوع في نفوسهم لغيرهم، وبدافع أنهم ليس عندهم أنانية تدعوهم إلى التفكير بأنفسهم، أو الاستغفار لأنفسهم هم فقط والدعاء لها دون غيرهم.

المبحث السادس: الرحمة الإلهية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً﴾، إن الذي يؤدّي إليه هذا المقطع الشريف هو أن علمه ورحمته سبحانه وتعالى قد وسعا كلّ شيء في الوجود، فلا موجود إلّا وهو في علم الله جلّ شأنه، ويرفل في تلك الرحمة الإلهية. لكن لأحد أن يطرح سؤالاً هنا فيقول: إن الأمر إذا كان كذلك، فأين تكون رحمة الله تبارك وتعالى بالإنسان حينما يتعرّض إلى البلايا والمحن والنوائب والكوارث، كالأمراض وغيرها؟ وأين تكمن؟ وهو ما يعبّر عنه الفخر الرازي في تفسيره الكبير حول هذه الآية الكريمة بقوله:

«**فإن قيل: قوله**: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه سؤال؛ لأن العلم

وسع كل شيء، أما الرحمة فما وصلت إلى كل شيء، لأن المضرور حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة.

ثم قال: وهذا السؤال أيضا مذكور في قوله[1]: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]...».

ثم يجيب الرازي على هذا السؤال بإجابتين هما:

الأولى: أنها رحمة الخلق والإيجاد

فيقول في الإجابة الأُولى:

«**قلنا**: كلّ وجود فقد نال من رحمة الله تعالى نصيباً؛ وذلك لأن الموجود إما واجب، وإما ممكن، أما الواجب فليس إلّا الله سبحانه وتعالى، وأما الممكن فوجوده من الله تعالى وبإيجاده، وذلك رحمة. فثبت أنه لا موجود غير الله إلّا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله».

الثانية: أنّ هذا الضرر وسيلة لنفع أكبر

أمّا في الإجابة الثانية، فهو يقرّر بأن هذا الضرر الذي يراه الإنسان ضرراً كبيراً ربّما هو ضررٌ صغير قياساً إلى غيره، أو إلى ما سوف يترتّب عليه من جزاء يوم القيامة؛ وذلك ليمتنّ الله تبارك وتعالى عبره عليه بنفع كبير أو أكبر منه، وهذا الجزاء الكبير على الضرر الصغير هو بحد ذإنه رحمة؛ لعدم التناسب بين الضرر والثواب من جهة أن الأخير أكبر من الأول، وهذا بفضله ورحمته تبارك وتعالى[3]. أمّا لماذا هذه العملية المعاوضية، فلأنه ما لم يغرم الإنسان فلن يغنم[4].

---

(١) أي يرد حوله قوله تعالى. (٢) الأعراف: ١٥٦.

(٣) التفسير الكبير ٢٧: ٣٥ ـ ٣٦.

(٤) كما في القاعدة الفقهية المشهورة: «من عليه الغرم، فله الغنم». الروضة البهية في شرح

رحمة الله وقاعدة الجزاء من جنس العمل

إذن فهذا الضرر هو وسيلة وطريق يحصّل الإنسان عبره نفعاً أكبر يكمن وراءه. وهذا أمر طبيعي؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يأخذ شيئاً إلّا بعد أن يضحّي بشيء آخر؛ فالعامل الذي يخرج إلى العمل إنما يقبض أجره في نهاية العمل بعد أن يكون قد بذل جهداً وطاقة ومشقّة، وبعد أن ناله التعب والإعياء والإرهاق، وربما الألم في سبيل أن يحصل على الأجر. فهو يضحّي براحته من أجله؛ لأنه يريد أن يأخذ ما هو أكبر من تلك الأتعاب التي قدمها، وهو أجر يستطيع أن يقوّت به نفسه وعياله؛ ويكفل لهم جميعاً عوامل الاستمرار والعيش بكرامة، وكلاهما أكبر من المال المبذول إزاء متعلّقهما، أعني الأجر.

وهكذا فكلّ تضحية من التضحيات، وكلّ ضررٍ أو أذى يصيب الإنسان إنما هي وسائل لما هو أسمى وأكبر، فما يمرّ به المرء من ابتلاءات؛ كالأمراض، والفقر، والألم، وتقييد الحريات، أو ما إلى ذلك، فالله تبارك وتعالى سوف يعوّضه عليه أجراً أكبر، ونفعاً أعظم، وفائدة أجلّ وأضخم. وبناء عليه فإن هناك قاعدة عقلية يذهب إليها العلماء مؤدّاها أن الله تبارك وتعالى إذا ما ابتلى إنساناً بابتلاء مهما كان نوعه؛ فإنه سوف يعوّضه بما هو أكبر تحقيقاً للرحمة المشار إليها؛ ذلك أن الاحتمالات في المسألة ثلاث:

فهو تعالى إما أن يعطيه مقابل هذا الابتلاء ما يساويه.

أو أن يعطيه ما هو أقلّ منه.

أو يعطيه ما هو أكثر منه.

اللمعة الدمشقية ٨: ١٣٠، مئة قاعدة فقهية: ٢٨٤ ـ ٢٨٧. ومعنى هذه القاعدة هو التلازم بين الخسارة والربح أو الفائدة.

فإذا أعطاه أجراً يساوي ذلك الابتلاء فإن العملية إذن أصبحت عبثاً؛ لأنه تبارك وتعالى قد أخذ منه شيئاً وأعطاه ما يساويه في القيمة، فليس هناك من فائدة تذكر، أو من ثمرة تظهر في مثل هذه المعاملة.

وإن أعطاه أقلّ مما أخذ منه فهذا خلاف رحمة الله تبارك وتعالى التي تقتضي قبول اليسير، وإعطاء الجليل والكثير، وخلاف رفقه بعباده ورأفته بهم؛ لأن المعادلة تنعكس حينئذٍ؛ فهو تعالى يكون حينها قد أخذ منه الكثير وأعطاه القليل. وهذا ما لا يمكن أن يكون في قانون الرحمة الإلهية.

وإن أعطاه أكثر مما أخذ منه، فهذا هو مقتضى قانون الرحمة الإلهية الذي أشرنا له؛ ذلك أن الهدف حينئذٍ يتحقّق، وتظهر الثمرة في هذه العملية المعاوضية، وهو العَود بالنفع الأكبر على الإنسان من جراء الابتلاءات المتعددة التي تناله في الدنيا.

إذن فلابدّ من أن الله تبارك وتعالى حينما يبتلي عبده بابتلاء أن يمنّ عليه بما هو أكثر من ذلك الابتلاء وأكبر منه أجراً، وإلّا فإن الأمر سوف يصبح حينئذٍ إما عبثاً، أو على خلاف ما هو مألوف منه تعالى تجاه عباده، وهو الرحمة بهم (تنزّه سبحانه عن كلّ ذلك، وعلا علوّاً كبيراً).

بقي أن نشير إلى أن هذا الذي نوهنا إليه من أنّ العطاء هو أكبر من الابتلاء، وأن الضرر هو ابتلاء صغير ووسيلة لنفعٍ كبير إنما هو أمر يجسّد لنا مفهوم الثواب والرحمة الإلهيين اللذين أشار الله تبارك وتعالى إليهما في كتابه العزيز بقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1].

(١) الأنعام: ١٦٠.

النبي عيسى عليه السلام والرجل المقعد

وبهذا فإننا نعرف أن الإنسان حينما يتعرّض إلى ضرّ فإنه حاشا لله تبارك وتعالى أن يتركه وشأنه دون أن يثيبه، أو دون أن يمنّ عليه بنعمة أكبر من ذلك الضرّ. يروى أن نبي الله عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بالفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه. فقال له النبي عيسى عليه السلام: «يا هذا، وأي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟». فقال: يا روح الله أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل لي في قلبي من معرفته وحبّه، وأنساني جميع ما عداه. فقال عليه السلام له: «صدقت». ثم قال له: «وهل لك حاجة؟». قال: نعم يا روح الله، إن لي ولداً يتعاهدني بالطعام والشراب، وقد مضى يومان دون أن يأتيني بشيء، وأنا أُريد أن أعرف مأحلّ به.

فذهب النبي عيسى عليه السلام يتفقّده، فوجد الوحوش قد أنحت عليه وأكلته، فلمّا عاد إليه لم يحبب أن يفجأه بذلك الخبر، لكن الرجل لمّا رأى سكوته قال له: يا روح الله ما الذي حلّ به؟ فأخبره بحاله، وأن عليه أن يحتسبه عند الله تعالى، فرفع الرجل رأسه إلى السماء وقال: الحمد لله الذي لم يُبقِ في قلبي شيئاً من حبّ هذه الدنيا. ثم شهق شهقة مات على إثرها[1].

الإمام الحسين وعلي الأكبر عليهما السلام

وهذا موقف طبيعي من أبٍ إزاء ولده؛ ولذا فإننا نقول: ساعد الله قلبك يا أبا عبد الله.. يا أبا الشهداء، ويا سيد الأحرار؛ فقد وقفت على مصارع الفتية من آل

---

(١) مسكن الفؤاد: ٨٧، بحار الأنوار ٦٨: ٣٣، ٧٩: ١٥٣، وما عثرنا عليه ليس فيها ذيل الرواية، بل فيه أنه عليه السلام قال له، «هات يدك». فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وأفضلهم هيئة، قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب النبي عليه السلام، وبقي يتعبّد معه.

بيتك ومن أصحابك، وأشدّ مصرع وقفت عليه هو عندما سقط ولدك علي الأكبر شبيه رسول الله ﷺ على وجه الأرض، يقول المؤرّخون: لما نزل علي الأكبر إلىٰ الساحة، أخذ الإمام الحسين ﷺ يطيل النظر إليه.. ونظر إليه نظر آيس منه، فأرخىٰ عينيه بالدموع، ثم شخص ببصره إلىٰ السماء وقال: **«اللهم اشهد علىٰ هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس بنبيك خلقاً وخلقاً ومنطقاً، وكنا إذا اشتقنا إلىٰ رؤية نبيك نظرنا إلىٰ وجهه. اللهم امنعهم قطر السماء وبركات الأرض»**[1].

وأخذ ﷺ يلاحقه بعينيه إلىٰ أن نظر إليه وقد سقط علىٰ وجه الأرض، فأقبل إليه، حتىٰ إذا صار عنده، سقطت رجلاه من ركاب فرسه، وسقط زمام فرسه من يده، فألقىٰ بنفسه عليه، ثم احتضنه وصاح: **«بني علي، علىٰ الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وأبقيت أباك لهمّها وغمّها. وما أسرع اللحاق بك»**[2]:

ومحا الردى يا قاتل الله الردىٰ ... منه هلال دجىً وغرةَ فرقدِ

يا نجعةَ الحيّينِ هاشم والندىٰ ... وحمى الذمارين العُلا والسؤددِ

فلتذهبِ الدنيا على الدنيا العفا ... ما بعد يومِك من زمانٍ أرغدِ

---

(١) بحار الأنوار ٤٥: ٤٣.

(٢) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

﴿٢٤﴾

التجارة الرابحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

تتضمّن هذه الآية الكريمة مجموعة من الأبحاث السامية والمضامين العالية، وسوف نعرض لها ونتناولها تباعاً واحداً واحداً إن شاء الله تعالى بحسب ما يتّسع له المقام:

---

(١) التوبة: ١١١.

المبحث الأول: في سبب النزول وأثره

يروي المفسّرون حول السبب في نزول هذه الآية الكريمة أن الأنصار الذين بايعوا رسول الله ليلة العقبة عندما أرادوا أن يبايعوه قالوا له: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم**». قالوا: فإذا فعلنا ذلك، فما لنا؟ قال: «**لكم الجنة**». فقال عبد الله بن رواحة: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. فنزلت هذه الآية الكريمة تباركُ ذلك الموقف، وتمدح من اتّخذ منه شعاراً وعبرة في حياته[1].

المبحث الثاني إشكالية خطاب المؤمن بعدم الشرك وتوجيهه

إن سبب النزول الذي ذكرناه آنفاً يوحي لنا بشيء يثير في النفس تساؤلاً، ألا وهو أن النبي -كما هو واضح -كان يخاطب ثلّة مؤمنة من الناس تريد أن تبايعه، بل إنها هي التي طلبت منه أن يشترط لربّه تعالى ولنفسه، فما هو الداعي إذن والمبرّر لأن يخاطبهم مشترطاً عليهم بقوله: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً**»؟

أقسام الشرك

إن معرفة المراد الحقيقي من الشرك هنا معرفة صحيحة يحلّ لنا هذا الإشكال، أي أنّ فهم هذا الإشكال، والتوصّل إلى حلّه يعتمد اعتماداً مباشراً على معرفة المراد واقعاً من الشرك هنا.

---

(١) جوامع الجامع ٢: ٩٧ ـ ٩٨، جامع البيان ١١: ٤٩، الكشاف ٢: ٢١٦، تخريج الأحاديث والآثار ٢: ١٠٤ / ٥٧٥.

وبناء على هذا فإننا نقول: إن علماء الأخلاق يقسمون الشرك إلى قسمين رئيسين، هما:

الأول: الشرك الظاهر

وهو الشرك بالله تبارك وتعالى على صعيد اُلوهيته جلّ شأنه، فيجعل الإنسان له تعالى شريكاً في الخلق والعبادة.

الثاني: الشرك الخفي

وهذا اللون من الشرك ـ بحسب الظاهر الذي يتبادر إلى الأذهان ـ هو المراد من الشرك في هذا المقطع من آية المقام الكريمة، وليس هو الشرك في الاُلوهية، أو الشرك في الخلق، بمعنى أنه ليس الشرك الذي يراد به أن يجعل الإنسان مع الله تبارك وتعالى إلهاً خالقاً غيره له إرادة مستقلّة في ذلك، أو أن يعبد غيره جلّ وعلا، كأن يعبد شاخصاً أو صنماً أو وثناً، أو أي معبود من المعبودات التي كانت شائعة بين الناس آنذاك ـ أي عند العرب وغيرهم من أبناء الجاهلية ـ حتى يقال في مقام الإشكال: كيف يشترط النبي الأكرمﷺ لربّه على ثلّة مؤمنة بالله تعالى عدم الشرك به، إذ أن المراد منه هنا هو الشرك الخفي. وهو شرك ربّما يتجسّد ويتمثّل بكثير من الاُمور التي نذكر منها:

أولاً: الرياء

وبناءً على هذا الرأي والتوجيه فإن الرسول الأكرمﷺ يخاطب هؤلاء بالقول: إني أشترط لربّي أن تعبدوه عبادة خالصة دون أن تشوبوها بالرياء، أو بأي شبهة منه ـ أي دون أن تشركوا معه أحداً في القصد ـ كأن تعبدوه وتصلوا له

ليقال فيكم: إن هؤلاء عـابدون مـصلّون، أو أن تـصوموا له ليـقال: إن هـؤلاء صائمون. ذلك أن الرياء في واقعه شرك في العبادة، وهو يمحقّ العمل، ويأتـي عليه، فيهدّ بنيانه من أساسه.

ثانياً: عبادة القيم الاجتماعية

وهذا أيضاً لون من ألوان الشرك، ويمكن التمثيل له بعدة أمثلة، منها:

١ ـ الحقوق الشرعية

إننا نجد أن الله تبارك وتعالى يؤكّد على بعض القيم العامّة أو الخاصّة؛ تشديداً، أو إنكاراً، في محاولة لترسيخها أو انتزاعها في نفوس الناس أو منها، ومن هـذا مثلاً ما يتعلّق بموضوع المقام، حيث يقول جلّ شأنـه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[1]. فالإنسان حينما تصبح الأموال الزكوية عنده أموالاً ضخمة، ولتكـن مليون دينار مثلاً، وهو مبلغ ضخم من الصعب على الإنسـان أن يـعطيه لمـجرد الدعوى بأنه زكاة، خصوصاً أنّ هذه الأموال اكتسبت عـبر المـخاطرة بـالنفس وبرأس المال، وقد بذل صاحبها إزاءها كـثير تـعب، وكـبير ألم وعـظيم جـهد؛ فأصبحت بذلك عزيزة عنده، أثيرة لديه، وبالتالي فمن الصعب عليه أن يفرّط فيها بسهولة لمجرد أن يقال له: إن فيما تملك مبلغاً من المال حقوقاً كزكاة أو كخمس قدره كذا.

وهنا يصبح الإنسان متزلزلاً متردّداً بين أمرين: أمر الأموال، وأمر ربّه: فـإن أطاع هوى الأموال وهوى نفسه فيها، فقد عبدها؛ وبذلك يكون قد أشرك بـالله تبارك وتعالى شركاً خفياً. أما إذا أطاع الله سبحانه، فحينئذٍ يكون قـد أخـلص

---

(١) البقرة: ٤٣، البقرة: ١١٠، النساء: ٧٧، النور: ٥٦، وغيرها.

العبادة له جلّ وعلا، ولم يشرك به شيئاً.

٢ ـ الانقياد وراء العصبية

ومثال آخر على ذلك أننا نجد أنفسنا نعيش في مجتمع ومحيط مليئين بالعصبية والصراع على الباطل، وبالموروث القبلي الذي لم يفارق أذهان الكثير من الناس، وهذا الموروث يأسر أغلب هؤلاء حتى إنهم ليصبحوا عبّاداً له. إن مثل هذا المحيط غالباً ما تتحكّم به وبالإنسان الذي يعيش فيه القيم الاجتماعية لذلك العصر؛ سواء منها ما يتعلّق بالمحيط أو بالإنسان، وتتسلّط الموروثات الاجتماعية على رقابهم، فيظلّون يعيشون أُسراء لها، وينقادون إليها دون أن ينقادوا إلى الله تبارك وتعالى؛ وبهذا فإنهم يكونون قد أشركوا بالله شركاً خفياً من حيث لا يدرون.

٣ ـ تجاوز الحدّ الشرعي في القصاص

ومن هذا أيضاً ما لو اعتدى شخص على آخر مثلاً، وكان المعتدي من قبيلة ضعيفة والمعتدى عليه من قبيلة قوية، فإن المعتدى عليه أو وليّه سوف لن يكتفيا بأن يقتصّا من الجاني نفسه، بل إننا نجدهما يأخذان إزاء ما اعتدي عليه أضعافاً مضاعفة من أبناء تلك القبيلة الضعيفة. أي أن أنهما يعدّيان الأمر إلى أهل القاتل أو الجاني، وإلى إخوانه وأعمامه، بل وحتى قبيلته:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا[1]

وهو خلاف الآداب والقيم الإسلامية التي تقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـ

---

(١) البيت لعمرو بن كلثوم من معلقته. آمالي السيد المرتضى ١: ٤٢، ٢: ٨، شرح نهج البلاغة ١٦: ١٠١، ١٩: ٢٢١، الجامع لأحكام القرآن ١: ٢٠٧، ٢: ٣٥٦، المستطرف في كل فن مستظرف ٢: ١٣.

﴿أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

إذن على المرء أن يأخذ حقّه الشرعي والمعقول فقط دون أن يعتدي على الآخرين فيأخذ حقوقهم بما يأخذ من حقّه؛ حيث يأخذ أكثر منه[٢]، وحينما يفعل ذلك فإنه يكون قد أطاع القيم والموروثات الاجتماعية، وعبدها دون أن يطيع الله سبحانه ويعبده.

خلاصة المبحث

إذن فهنا صراع بين عبادتين: بين عبادة المال وعبادة الله تبارك وتعالى، وبين عبادة العادات والقيم والموروثات الاجتماعية وبين عبادة الله سبحانه وتعالى. وكلّ هذا ألوانٌ من الشرك، وهو ما تصوّره لنا هذه الآية الكريمة تصويراً واضحاً مجسماً بيناً حيث تقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٣]، وهي آية ربما تثير الاستغراب عند البعض؛ لأنها تجمع بين الإيمان والشرك في محلٍّ واحد وزمان واحد، وهذا ما لا يمكن أن يكون إلّا على ما ذكرنا من التوجيه الذي وجّهنا به موضوع المقام، حيث يزول به التعجّب والاستغراب.

إذن فالإنسان عادة يعبد العصبية والأموال والقيم والعادات الاجتماعية من خلال تصرّفاته وانعكاساتها التي تبرز موضوع انعكاس تلك الموروثات القبلية عليها، مبتعداً بذلك عن عبادة الله تبارك وتعالى بوعي منه أو دون وعي؛ لوقوعه

---

(١) البقرة: ١٧٩. أي أن يكون القصاص وسيلة للحياة بقطع دابر القتل بقتل القاتل، لا لنشر الموت والإفساد في الأرض. يقول عزّ من قائل: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التغابن: ١٤.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ النحل: ١٢٦.

(٣) يوسف: ١٠٦.

تحت تأثيرها وإيحاءاتها.

المبحث الثالث: اشتراط النبيﷺ لنفسه والطبيعةُ البشرية

إذن فالشرط الذي اشترطه الرسول الأكرمﷺ لربّه تبارك وتعالى هو امتثال الأوامر، والابتعاد عن الرياء، وعن كلّ أمر فيه شبهة عبادة لغير الله سبحانه وتعالى وإن كان تعالى هو المقصود به أصلاً. أي أيها المؤمنون الذين يعبدون الله تبارك وتعالى، لتكن عبادتكم خالصة له جلّ شأنه.

أما ما اشترطه (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) لنفسه بقوله: «**وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم**»، ففيه تصوير حقيقي، وتجسيم رائع لما تنطوي عليه بعض النفوس البشرية التي يدفع أصحابها إنساناً ما لقيادتهم إلى أمر ما، ثم بعد ذلك يخذلونه عند حاجته الفعلية إليهم. إن الطبيعة البشرية تقرّر لنا أنه حينما تقع مجموعة من البشر في مشكلة معيّنة، أو في أزمة مهما كانت طبيعتها، فإنهم يصرّون على انتخاب رجل منهم؛ ليقودهم في مسيرة خلاصهم من تلك الأزمة، ويدفعونه إلى ذلك دفعاً، لكنهم ما إن يروا العذاب، أو العقاب، أو الأذى نتيجة هذا التحرّك، ونتيجة مسيرتهم خلف ذلك القائد الذي انتخبوه هم ورشّحوه، حتى يتفرّقوا عنه، ويتركوه وحيداً فريداً.

أهل الكوفة ومسلم بن عقيلؑ

وكتب التاريخ ملأى بمثل هذه الحالات والأنماط التي هي مفارقات مأساوية وعلامات سوداء تزخر بها صفحات تاريخ الإنسانيّة، ومن ذلك موقف أهل الكوفة من الإمام الحسينؑ الذي كاتبوه ودعوه إلى نصرتهم، لكنهم تخاذلوا عنه، وكذلك موقفهم من رسوله ومؤتمنه مسلم بن عقيلؑ.

طبيعة المجتمع الكوفي

لقد اتّصف المجتمع الكوفي في ذلك الوقت بظاهرة غير صحية وغير سليمة، وهي أنهم يدعون إلى انتخاب قائدٍ ويبايعونه، ثم بعد ذلك يخذلونه وينسحبون من ورائه، ويسلمونه إلى الموت، أو إلى السلطات، أو إلى الشدائد، من غير أن يذبّوا عنه، بل من غير أن يحاولوا ذلك، أو أن يدافعوا دونه ويموتوا بين يديه.

لقد تحرّك مسلم بن عقيل عليه السلام إلى الكوفة بأمر ابن عمه الإمام الحسين عليه السلام، على ضوء الكتب التي وردت إليه عليه السلام؛ ليأخذ منهم البيعة، وليستقرّ الوضع في الكوفة على هذا الأساس. حتى إذا ما قارب مسلم أن يصل إلى هدفه الذي جاء من أجله نجد أن كلّ من بايعه وصلّى خلفه من الكوفيّين قد سعى إلى هدم ذلك البناء الذي حاول مسلم بن عقيل عليه السلام أن يرسي قواعده في الكوفة؛ ممهداً لمجيء الإمام الحسين عليه السلام، ولدولة الإسلام التي آلى على نفسه الشريفة ووطّنها على بنائها وتكوينها هناك. لكن هؤلاء -بما عندهم من طبع في ذاك- قد تخلّوا عنه، وراح كل واحد منهم يتخاذل عنه فيندسّ منسحباً من بين الصفوف، مغادراً إياه، تاركاً له وحده، حيث لا ناصر له ولا معين، ربّما لأن مسلماً عليه السلام قد مرّ بظرف شديد أو ربّما لسبب غير ذلك.

وعلى أية حال فهؤلاء قد تخلّوا عن مسلم بن عقيل، وتخلّفوا عن البيعة التي بايعوها للإمام الحسين عليه السلام عن طريقه، فبقي مسلم بن عقيل عليه السلام في الكوفة وحيداً لا ناصر له، مع أن التاريخ يحدّثنا بأن عدد من بايعه -كما تقول بعض الروايات- ثمانية عشر ألف شخص. حتى إنه لما دخل إلى مسجد الكوفة ليصلي بعد دخول ابن زياد الكوفة، التفت فلم يجد خلفه سوى ثلاثمئة رجل، وبعد أن أنهى صلاته التفت فلم يجد خلفه أحداً يدلّه على الطريق.

فهؤلاء الذين بايعوه ودفعوه إلى أن يتسنّم ذلك المنصب القيادي تخاذلوا عنه عند الشدائد، وتركوه عند المهمات ليلاقي مصيره وحده بمجرد أن أحسّوا بابن زياد قد دخل إلى الكوفة، واستولى على قصر الإمارة فيها.

وهذا هو الذي كان يتخوّف منه النبي ﷺ على الإسلام؛ ولذا فإنه اشترط عليهم لنفسه ما اشترط؛ لأنه ﷺ قد بيّن لهم أنه إنما جاء ليقارع الظلم، وجاء ليجاهد الدنيا، وأنه لم يأتِ لأجل أمرٍ سهلٍ يسير، وأن هذا دونه خرط القتاد؛ لأنه أمر ينطوي على مخاطرة في الأرواح والدماء والأموال، ويتطلّب رحلة طويلة تكتظّ بالمصاعب، وتحفّها الأخطار والمتاعب، وتكتنفها وعورة طريق سالكي سبل الحقّ، وتقوم في طريقها الدسائس، ومحاولات الوقوف بوجه دعوة الحقّ سبحانه؛ لأنها دعوة تتعارض مع رغبات سادة المجتمع الّذي نزلت فيه، وتتقاطع مع مصالحهم ومنافعهم.

وبهذا فإنه ﷺ كان يريد أن يبين لهؤلاء الذين بايعوه بأن أمامهم وأمامه صعوبات كثيرة، وعقبات كؤود، تحاول أن تحول دونه ودون بلوغه الهدف الذي تريد منه السماء تحقيقه، فحدّدت تحرّكه على ضوء ذلك الهدف، وهو نشر هذا الدين الحنيف، وخلق المجتمع الصالح.

إننا نعرف بأن الرسالة التي جاء بها الرسول الأكرم ﷺ إنما هي لأجل أن يغيّر مجتمعاً برمّته، وأن يبني حياة جديدة، ويخلق مجتمعاً جديداً صالحاً نظيفاً ومبتنياً على أساس القواعد الأخلاقية للسماء، والضوابط الشرعية لها؛ ولذا فإنه ﷺ أراد أن يبيّن لهذه الثلّة الخيّرة التي بايعته بأن الأمر سوف لن يتوقّف عند هذه البيعة، بل إن جماعة من المشركين، ومن يحذو حذوهم من أصحاب المطامع، وأصحاب الثارات سوف يقفون بوجهه، وبوجه دعوته المباركة. وكلّ هؤلاء

سوف تتضارب مصالحهم وتتعارض مع مصالح هذا الدين الجديد، ولذا فإنهم سوف يقاومونه بكل ما أُوتوه من قوة.

فكأنه ﷺ يريد أن يقول لهم بأن هذا هو السبب الّذي دعاني إلى أن اشترطت عليكم لنفسي ما اشترطت؛ لأني أردت من خلاله أن أرى ما إذا كنتم على استعداد تامّ للوقوف معي بكل ما تستطيعون من أجل مناضلة هؤلاء الذين يحاولون أن يقفوا بوجه الدعوة السماوية الجديدة، ولأرى ما إذا كان عندكم الاستعداد الكامل للتضحية والمنع دوني، أي تمنعونني كما تمنعون أنفسكم فيما لو أراد أحد أن يصيبكم بالضرّ، أو أن يعتدي عليكم.

هل كان النبي ﷺ حريصاً على نفسه؟

وهنا يتبادر سؤال إلى الأذهان وهو: هل إن النبي الأكرم ﷺ كان خائفاً على نفسه من الموت أو القتل في سبيل هدفه، حريصاً عليها دون مبدئه، ضانّاً بها عليه؛ كي يطالبهم بهذا الذي طالبهم به، وأنه لا يحبّ أن يموت دون الرسالة والمبادئ والقيم التي أرسلته بها السماء؟ وهل إنه ﷺ لا يرغب في أن يستشهد في سبيل الله أو يجرح في سبيل دينه؟

والجواب هو النفي طبعاً؛ لأنه ﷺ قد نذر نفسه من أجل هذه الدعوة وتبليغها ونشرها وإيصالها إلى أهل الأرض كافة[1]، فهو ﷺ لم يكن ليخاف على نفسه،

(١) ودليل ذلك قوله ﷺ لكافله وعمّه أبي طالب عليه السلام بعد أن حاول المشركون في مكّة المكرّمة شراء دعوته؛ ظناً منهم أنها يمكن أن تكون خاضعة للمساومة والمعاوضة الدنيوية: «والله ياعمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت». وفي رواية: «أو أموت دونه». انظر: بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

أو ليصونها دون هدفه الرسالي، بل إنه نذر تلك النفس الشريفة، وذلك البدن الطاهر من أجل هذا الهدف السامي، لكنهﷺ كان يريد أن يقول للأنصار: إنكم إذا ما فرّطتم فيّ، ولم تقفوا إلى جانبي، فهذا يعني أنكم قد فرطتم في حامل الرسالة وصاحبها.

إن هذا الأمر يعني بالنتيجة الحتمية شيئاً واحداً هو أنكم قد فرّطتم بالرسالة نفسها، وضيّعتموها، ولم تكونوا حينئذٍ أهلاً للحفاظ عليها، أو للائتمان على وجودها، والقيام على حمايتها، ومساعدة صاحبها في حركته الرسالية التي تقتضي إيصالها إلى الناس كافّة. وكذلك فأنتم لستم لأن تكونوا أهلاً للاضطلاع بأعباء الدفاع عن مقدّساتكم.

إن تاريخ الإنسانيّة والناس كلهم جميعاً يعرفون بأن النبي الأكرمﷺ شخص فوق شبهة أنه يحّب نفسه على حساب رسالته ومبادئه. فهوﷺ لا يهمه أبداً أن يجرح، أو أن يقتل في سبيل الله، ما دام ذلك في مرضاة الله تعالى، وطاعته، ومادام في ذلك مرضاته جلّ شأنه وطاعته؛ فقد كانﷺ بين آونة وأُخرى يباشر حروبه غازياً بنفسه الشريفة إلّا من بعضها التي كان يسيّر إليها السرايا، وإلّا فإن كثيراً من حروبهﷺ قد باشرها بنفسه. بل إن هناك تسعة من الحروب نزل فيها النبيﷺ بنفسه يقاتل فيها، ولم يكتفِ بالاشتراك الروحي والإشراف الميداني فيها فقط.

وهذا دليل واضح على أنهﷺ لم يكن ليخشى على نفسه الموت، أو الجرح، أو القتل، وإنما كانﷺ يحرص على ذلك الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه في الأرض، وعلى تلك الرسالة التي عمل جاهداً وبشكل دؤوب لإحقاقها، فكان يواصل الدرب من أجل نشرها، ولا يكون ذلك إلّا عبر حمايته ومنعه، والوقوف

إلى جانبه، ومساعدته في هذا الدرب الشاقّ الطويل.

إذن كان كلّ همّه (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله) هو أن يؤدّي تلك الرسالة التي أمره بها الله تبارك وتعالى كما أُمر، وأن ينشرها بين الناس كما طُلب منه نشرها.

المبحث الرابع: المتاجرة مع الله

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، إن لفظة (اشترى) من الأضداد، مثلها مثل لفظة جون التي تطلق على الأبيض والأسود، فهذه اللفظة ـ اشترى ـ تطلق على البيع وعلى الشراء. لكن المراد منها هنا في آية المقام الكريمة هو الشراء فقط، أي أن الله تبارك وتعالى قد عاوض هؤلاء المؤمنين.. هذه الثلّة الطيّبة الصالحة التي تملك تلك النفوسَ الخيّرة المجبولة على حبّ الخير وحبّ الله سبحانه، وعلى الدفاع عن دينه ومقدّساته ومبادئه التي أرسل أنبياءه من أجل نشرها، فاشترى منهم تلك النفوس الطاهرة، وما يملكون من أموال بعوضٍ منه تعالى خالدٍ، هو الجنة الباقية.

إذن فالمثمَّن هنا هو الأنفس والأموال وكما سيأتي في المبحث القادم إن شاء الله فإن الثمن هو الجنة.

والقرآن الكريم هنا قد استعار معنى الشراء إلى المبادلة، وفعلاً فإن في الأمر مبادلة ومعاوضة؛ لأن هؤلاء المؤمنين يبدّلون الحياة الآخرة بالحياة الدنيا، أي أنهم يبيعون هذه الأيام القليلة الفانية من أعمارهم المحدودة في هذه الدنيا ليحصلوا على الخلود والبقاء الدائم بين يدي الله تبارك وتعالى، وفي رفقته عزّ وجلّ في الآخرة. والاستعارة هنا للمبالغة بالتشبيه؛ فنحن تارة نشبه شيئاً بشيء، وتارة نريد أن نبالغ بذلك التشبيه، فإذا ما أراد أحد أن يصف إنساناً غيره بأنه

شجاع فإنه يشبهه بالأسد، فيقول: فلان كالأسد، أو فلان مثل الأسد، أما إذا أراد أن يبالغ بالتشبيه، ويستعير المعنى المشبّه به للمعنى المشبّه، فحينئذٍ يقول: فلان أسد. فهذه هي المبالغة في التشبيه[1]. فالقرآن الكريم يريد أن يقول لنا: إن هؤلاء قد اشترى الله عزّ وجلّ منهم أنفسهم بعملية معاوضية بحيث إنهم يجاهدون في سبيله على أن يكون العوض الجنّةَ.

المبحث الخامس: طبيعة العوض

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، أي أن الله تبارك وتعالى قد جعل العوض أو الثمن في هذه العملية المعاوضية والمبادلية عوضاً كبيراً لا يمكن أن يحيط به علم إنسان ولا تصوّره؛ فالجنة خالدة، والنفس التي هي المثمّن فانية، ووضع الثمن الدائم الباقي الذي لا يصيبه فناء إزاء المثمّن الفاني هو بحدّ ذاته

---

(١) إن التشبيه ينقسم باعتبار إلى قسمين:
١ ـ مؤكّد، وهو ما حذفت فيه الأداة، نحو قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ النمل: ٨٨، أي مثل مر السحاب.
٢ ـ مرسل، وهو ما لم تحذف فيه الأداة، وهو كثير واضح
وقد اختلفوا فيما حذف منه الأداة؛ فقال بعضهم: إنه تشبيه بليغ، وقال غيرهم: إنه استعارة. وأمّا الفرق بين الاستعارة والتشبيه البليغ المحذوف الأداة نحو الآية الكريمة السابقة، ونحو قولنا: «زيد أسد». فقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ البقرة: ١٨، ١٧١: فإن قلت: هل يسمى ما في الآية استعارة؟ قلت: مختلف فيه، والمحققون على تسميته تشبيهاً بليغاً لا استعارة؛ لأن المستعار له مذكور، وهم المنافقون. وإنما تطلق الاستعارة حيث يطوى ذكر المستعار له، ويجعل الكلام خلواً عنه صالحاً لأن يراد المنقول عنه والمنقول له لولا دلالة الحال أو فحوى الكلام... وعلّله السكاكي بأن من شرط الاستعارة إمكان حمل الكلام على الحقيقة في الظاهر، وتناسي التشبيه، و«زيد أسد» لا يمكن اعتبار كونه حقيقة؛ فلا يجوز أن يكون استعارة.
انظر: الإتقان في علوم القرآن ٢: ١١٧ ـ ١٢١.

عطاء كبير لا حدود له. فالكلّ موقن أن الله تبارك وتعالى قد جعل الجنة خالدة خلوداً لا حدود له، وهذا هو العطاء الكبير، والفضل العميم الذي يتفضّل الله به على عباده؛ حيث إنه تبارك وتعالى يعطي الكثير، ويقبل القليل واليسير. وهذا من موارد تفضّله سبحانه، وتمنّنه وإنعامه علينا.

لماذا شراء النفوس وليس الأرواح؟

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، وهنا لابدّ أن ننبّه ونشير إلى نكتة في آية المقام الكريمة، وهي السبب الكائن والكامن وراء التأكيد على الأنفس وليس على الأرواح، فالقرآن لم يقل: اشترى منهم أرواحهم، فما السرّ الكامن وراء ذلك؟ إن الجواب هنا يعتمد هنا على معرفة المراد من كلمة (الأنفس)، والتي ذكرتها آية المقام الكريمة، فالمقصود بالأنفس هنا كما يذهب إليه جملة من محققي المفسّرين: الأنفس النامية. وبيان ذلك أن الإنسان حينما يموت، فإن روحه لا تموت، وإنما تموت نفسه النامية، فيفقد فعّالياتها الحياتية، فلا يستطيع حينها أن يأكل، أو أن يشرب، أو أن يتحرك، أما روحه فباقية؛ لأنها ليست من جنس ما يموت، أو ما يعتريه الاضمحلال والفناء، بل إنها من عالم أبدي هو عالم المجرّدات الخالدة، فهي باقية خالدة، الأمر الّذي يعنى أنه تعالى قايضهم بباقٍ خالد عنده على فانٍ عندهم؛ وبه تتجلّى ضخامة العطاء الإلهي، وسعته التي لا حدود لها.

دليل خلود الأرواح

ونحن في هذا المقام يمكن أن نذكر أكثر من دليل على أن الأرواح خالدة، لكننا نكتفي بذكر بعض منها:

الأول: إهداء ثواب بعض العبادات للموتى

فلولا أن تكون الأرواح خالدة فإن هناك جملة من الأعمال التي يمارسها الإنسان الحيّ تجاه الإنسان الميّت لا يمكن أن يكون لها مبرّر مقبول أو معقول، ولا يمكن القبول بهذه الأعمال إلّا مع القول ببقاء الأرواح وخلودها، وعدم اضمحلالها أو انعدامها. فالإنسان المؤمن مثلاً يقرأ شيئاً من القرآن الكريم ويهديه إلى أرواح الموتى من المؤمنين والمؤمنات، أو أنه يصلي ويصوم لهم، أو يحجّ عنهم، فلولا أن تكون الروح باقية لما ساغت تلك الأعمال من جهة الشرع، أو من جهة العقل على حدّ سواء أبداً؛ لأنها حينئذٍ سوف تعتبر لغواً.

إذن فلو لم تكن للميّت روح خالدة تنتفع بما يهدى إليها، وتلتذّ به مما يصل عندها، فلماذا نصنع نحن هذه الأشياء تأسّياً بالنبي الأكرم محمدﷺ الذي كان يخرج إلى قبور شهداء أُحد، ويزورهم، ويقرأ لهم شيئاً من القرآن الكريم[1]؟

---

(١) في كنز العمّال ١٠: ٣٨٢ / ٢٩٨٩٦ عن نبيّنا الأكرمﷺ قوله: «أيها الناس زوروهم وائتوهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم مسلم إلى يوم القيامة إلّا ردّوا عليه السلام». يعني شهداء أُحد.

وقال الشيخ محمد بخيت الحنفي: «ويدلّ على التسليم على أهل القبور ما جاء من السنة... وقد أتى النبيﷺ قبور شهداء أُحد فسلّم عليهم، ودعا لهم». تطهير الفؤاد: ٧٤.

وبنصّه في شفاء السقام (السبكي): ١٩٣ ـ ١٩٦، وفيه كذلك: عن مالك أنه سئل عن زيارة القبور، فقال: قد كان النبيﷺ نهى عنه، ثم أذن فيه، فلو فعله إنسان ولم يقل إلّا خيراً، لم أرَ به بأساً. وقال ابن القرظي: وإنما أذنﷺ في ذلك ليُعتبر بها... ويؤتى قبور الشهداء بأُحد، ويُسلم عليهم، كما يسلم على قبرهﷺ... وجهة القربة فيها على أنواع: منها الاعتبار، وهو مستحبٌ لكلّ أحد، ومنها الترحّم والدعاء، وهو مؤكّد لمن مات قريبه في غيبته.

وحين انصرف رسولنا الأكرمﷺ من أُحد مرّ على مصعب بن عمير هو مقتول على طريقة، فوقف عليهﷺ ودعا له، ثم قال: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة =

وكذلك الحال مع الشهيدة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام التي كانت تخرج أيضاً إلى شهداء أُحد، وتقرأ لهم ما تيسّر من القرآن الكريم. وهذا إنما يدل على أن الروح لا تموت، وإنما تموت النفس. ومن هذا نعرف أن النفس هي لا غيرها قد أصبحت طرف المعاوضة والمبادلة المقصودة في آية المقام الكريمة.

إن الأرواح خالدة على خلاف ما رأيناه من أمر النفوس، وقد ورد عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام أنه سئل عن الميت: يزور أهله؟ قال: «نعم». فقيل له: في كم يزور؟ قال: «في الجمعة، وفي الشهر، وفي السنة على قدر منزلته». فقيل له: في أي صورة يأتيهم؟ فقال عليه السلام: «في صورة طائر لطيف يسقط على جدرهم، ويشرف عليهم؛ فإن رآهم بخير فرح، وإن رآهم بشرّ وحاجة حزن واغتمّ»[1].

وفي رواية: «إن الموتى يأتون في كلّ جمعة من شهر رمضان، فيقفون، وينادي كلّ واحد منهم بصوت حزين باكياً: يا أهلاه، ويا ولداه، ويا قرابتاه، اعطفوا علينا بشيء يرحمكم الله، واذكرونا ولا تنسونا بالدعاء، وترحّموا علينا وعلى غربتنا؛ فإنا قد بقينا في سجن ضيّق، وغمّ طويل، وشدّة؛ فارحمونا ولا تبخلوا بالدعاء والصدقة لنا؛ لعل الله يرحمنا قبل أن تكونوا مثلنا. فوا حسرتا؛ قد كنا قادرين مثلما أنتم قادرون، فيا عباد الله اسمعوا كلامنا ولا تنسونا؛ فإنكم ستعلمون غداً،

فائتوهم، وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلّا ردّوا عليه». المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٤٨، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. الجهاد (عبد الله بن المبارك): ١١٠. الطبقات الكبرى ٣: ١٢١، تفسير الثعلبي ٣: ٢٠٥، تفسير البغوي ١: ٣٧٢، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٦٠، الدرّ المنثور ٥: ١٩١، أُسد الغابة ٤: ٣٧٠، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧، البداية والنهاية ٤: ٥١، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٨٩، شرح نهج البلاغة ١٥: ٤٠، كنز العمّال ١٠: ٣٨١ / ٢٩٨٩١ ـ ٢٩٨٩٨، وغيرها كثير.

(١) الكافي ٣: ٢٣٠ / ٣.

فإن الفضول التي في أيديكم كانت في أيدينا، فكنا لا ننفق في طاعة الله، ومنعنا عن الحقّ فصار وبالاً علينا ومنفعته لغيرنا، اعطفوا علينا بدرهم، أو رغيف، أو بكسرة. ثم ينادون: ما أسرع ما تبكون على أنفسكم ولا ينفعكم، كما نحن نبكي ولا ينفعنا! فاجتهدوا قبل أن تكونوا مثلنا»[1].

الثاني: أن وادي الغري مأوى أرواح المؤمنين

إضافة إلى ذلك فإننا نجد أنه قد ورد في بعض الروايات التعبير عن وادي الغري بأنه مأوى أرواح المؤمنين[2]، وهذه الأرواح لو لم تكن حية، فكيف يمكن أن تجتمع، ويكون لها مأوى؟ وما هي الفائدة من اجتماعها حينئذٍ؟ إن في هذا دلالة على أن هذه الأرواح حيّة خالدة تسمع وترى.

الثالث: أنها من عالم المجردات

فالروح كما هو معلوم من عالم المجردات، وهي في عالم ما بعد الحياة، أو العالم المسمّى بالعالم الميتافيزيقي تتجرّد عن الأجسام المادّية وتتخلّى عن الجزء الفاني من الإنسان، فتعود إلى سابق عهدها وتجرّدها.

حقيقة احتياج الروح إلى الجسم في عالم الآخرة

وهنا مسألة لابدّ من التنويه إليها، وهي أنه ليس من المعلوم أن الروح تحتاج في بقائها، واستفادتها، واستمتاعها بما يهدى إليها إلى أعضاء السمع، أو أعضاء النطق، أو ما إلى ذلك من أعضاء الجسد في عالم ما بعد الحياة أو عالم الموت.

---

(١) منازل الآخرة: ١٦١ ـ ١٦٢، مستدرك وسائل الشيعة ٢: ١٦٢ ـ ١٦٣ / ١٦٩٧.

(٢) انظر الكافي ٣: ٢١٤ / باب في أرواح المؤمنين، الغارات ٢: ٤١٥، بحار الأنوار ٨٠: ٣٦٠، وانظر كذلك الحدائق الناضرة ٧: ٣٢٢.

فهي إن كانت تفتقر إلى تلك الأعضاء في الحياة الدنيا؛ فتفتقر إلى اللسان لتتذوّق، وتفتقر إلى الأُذن لتسمع بها، وتفتقر إلى جملة من الأعضاء والأجهزة والحواسّ الأُخرى لتؤدّي عبرها بعض الفعاليات، فهذا لا يعني أنها كذلك في عالم الغيب واللّامحسوس، فلا يمكن الجزم فيه بذلك؛ ذلك أنه ليس معلوماً أو ثابتاً أنها إذا انفصلت عن الجسد فإنها تتوقّف عندها كلّ تلك الفعاليات، وتظلّ بحاجة إليها لتسمع وترى وتحسّ.

وبما أنها من عالم المجردات كما ذكرنا فإنه لا يمكن التكهّن بما هي عليه، أو ما ستكون عليه، وبما تحتاجه وبما لا تحتاجه. ولو أننا رجعنا إلى تراثنا وموروثنا الحديثيين، فإننا نجد فيه ما يؤكّد هذا حيث إننا نخاطب الإمام في زيارتنا له بالمأثور الشريف: «أشهد أنك تسمع كلامي، وتقدر على ردّ جوابي»[1]. يقول أحد الأدباء:

بعدْتَ عن المرمى رويدَك فاتّئد ... إلى أين تجتاح الرُّبا والفيافيا

أثِر رهجَ النادي إذا اكتظّ جنبه ... وإن وجم الشادي فكن أنت شاديا

فما هو إلّا أن يعجّ مدائحاً ... بذكرى عليّ أو يعجّ مراثيا

فكم حمحمت حول الغري وأنشدت ... تقدّست يا وادي ابن عمران واديا

ترابك أكباد تداف وإنما ... نسيمك أرواح تهبّ عواديا

فهذا علي فوق كرسي مجده ... يرتّل صوت الحمد سبعاً مثانيا[2]

فالواقع أن أرواح المؤمنين تلوذ إلى جانب هذا البطل الطاهر، والإمام الفذّ الذي عجزت النساء أن تلد مثله. فالبارئ تبارك وتعالى كرّمه بأن جعل مثواه

---

(١) رسائل المرتضى ١: ٤٠٧، المزار (المشهدي): ٢١١، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ١٣٤.

(٢) الأبيات للشيخ حميد السماوي. شعراء الغري ٣٠: ٣٢٣.

المقدّس مجمع أرواح المؤمنين بعد موتهم، فهم يجتمعون حلقاً في هذا الوادي الشريف المقدّس مهما كان مدفن أصحابها، وأينما كان، يستنشقون عبير القدس، ويُراحون عَرف النعيم؛ ذلك أن هذه الأرواح تنتمي إلى هذا الوادي الطاهر المقدّس برابطة العقيدة والولاء، وحفظ عهد رسول الله ﷺ وذمامه ووصيّته في أهل بيته عليهم السلام بحبّهم وتولّيهم، كما أنها تحتمي به من عالم القبر وتلوذ؛ لتنعم بالراحة والهدوء، يقول أحد الأُدباء:

أيا رملة الوادي على أيمن الحمى ... سلام على رمل الحمى وشعابِهِ

على منزل حطّ الأحبّة رحلهم ... به وأراحوا الخدّ فوق ترابِهِ

وعهدي بأن القبر صمت ووحشة ... فلا منشد لا سامع لخطابِهِ

وقبر عليّ بالغري طلاقة ... وبشر وأُفق ضاحك برحابِهِ

فديت حمًى فيه شدوت مشاعري ... وأهلي ثووا في ممرع من جنابِهِ

وغشّاه مطلول الخزامى بطيبه ... وغذّاه نوء مغبط بسحابِهِ

وهكذا نعرف أن الروح خالدة لا يعتريها فناء ولا اضمحلال ولا تلاشٍ، بل هي باقية خالدة لا تموت ولا تعدم، والذي يموت هو الجسد بما يتّصف به من حالات جسمانية، وما يطرأ عليه من متعلّقات ذلك، كالنمو وغيره. وهذا ما أكّده القرآن الكريم في آية المقام الشريفة حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، أي أنه تبارك وتعالى قد اشترى منهم ما يموت.. اشترى منهم ذلك الشيء الزهيد الفاني الذي لا قيمة له؛ لفنائه، وأعطاهم مقابله الجنة التي لا تفنى ولا تبيد.

وهذا هو عطاء الله تبارك وتعالى، فإنه كما نوّهنا عطاء غير محدود ولا مجذوذ، بل هو عطاء يفوق كلّ حدٍّ وكلّ تصوّر.

المبحث السادس: حقّ الاختصاص في الآية الكريمة

ثم إن هنا نقطة هامّة لابدّ من الإشارة إليها والتنبيه إلى كامنها، وهي أن التبادل عبر عمليّة البيع والشراء عادة إنما تتمّ بين طرفين كليهما يملك ما يعاوض به، أو يبادله حتى تكون المعاوضة شرعية وصحيحة، وبخلافه تصبح معاوضة باطلة غير واقعة ولا نافذة من وجهة نظر المشرع الإسلامي الأقدس. وفيما نحن بصدده نجد أن هذا الأمر غير متحقّق؛ فالثمن والمثمّن كلاهما يملكهما الله تبارك وتعالى وحده؛ أي الجنة والخلود من جهة، والنفس التي اشتراها الله من المؤمنين من جهة أُخرى، أمّا الإنسان فلا يملك ما يعاوض به أبداً؛ فهو لا يملك هذه النفس مطلقاً. وهذا هو واقع الأمر، فالمؤمنون هنا قد عُووِضوا على ما لا يملكون؛ بما أن المالك الحقيقي لها هو الله تبارك وتعالى، فكيف يمكن لهم أن يبيعوا ما لا يملكون؟ وما هو الشيء الذي يشتريه الله تبارك وتعالى منهم إن لم يكونوا يملكون تلك النفوس؟

لا بيع إلّا في ملك

يقول الفقهاء: إن الله تبارك وتعالى يشتري منهم هنا حقّ الاختصاص؛ فصحيح أنه جلّ شأنه هو المالك الحقيقي للنفس التي يشتريها من المؤمن، لكنه سبحانه وتعالى قد اختصّ هذا المؤمن بهذه النفس، فأصبحت من مختصّاته. وبهذا فإن الشراء في هذه العملية يقع على حقّ الاختصاص هذا، ومَثَل هذا المستعير الذي يملك من وجهة نظرهم حقّ الاختصاص، أو حقّ الاستعمال. فالمستعير حينما يستعير شيئاً من غيره، فإنه يصبح له حقّ استعماله وفق الإذن الذي منحه إياه صاحبه بإعارته إياه، وبهذا يصبح عند المستعير لون من ألوان الاختصاص الذي يسوغ له وفقه أن يستعمله وينتفع به.

وخلاصة القول هي أن القاعدة الفقهية تقول: «لا بيع إلّا في ملك»[١]، فالإنسان لا يمكن أن يبيع نفسه على الله سبحانه؛ لأنه ليس مالكاً لها، بل كلّ شيء هو ملك حقيقي لله تبارك وتعالى، ونحن لا نملك شيئاً، وإن ملكنا شيئاً فبالتخويل، أو الاختصاص. وهكذا ـ بناء على القاعدة المارة ـ نعرف أن البيع الشراء لابدّ أن يكونا في ملك للبائع والمشتري، وإذا صحّ بيع الإنسان هنا على الله تعالى فهذا يعني أنه يقع على حقّ الاختصاص، وليس على الملك نفسه[٢].

وبهذا نعرف أن الإنسان لا يملك شيئاً بل المِلك والمُلك كلاهما لله تبارك وتعالى؛ فالإنسان في حركته في هذه الحياة يحتاج إلى قدرة على تلك الحركة، أو على المشي، ونحن نعرف أن تلك القدرة على الحركة هي من الله تبارك وتعالى وليست من الإنسان. وكذلك التفاعل مع المجتمع والتعامل معه يحتاج إلى قوّة وإلى قدرة وقابلية على تجاوز ما يمكن أن يحصل أثناء المعاشرة بين الناس من تشنجات وخلافات واحتكاك، والإنسان بمفرده لا يملك تلك القوة أو القدرة على ذلك، بل إن الله هو الذي يملكها وهو الذي أعاره إياها بإعارته تلك النفس، أو كلّ ما يحقّق له حيثيات وجوده هنا.

---

(١) هي قاعدة مستمدّة من قوله ﷺ: «لا بيع إلّا فيما تملك». عوالي اللآلي ٢: ٢٤٧ / ١٦.

(٢) أي أن الله تبارك وتعالى قد قدّر لهذا المؤمن مثلاً بما سوف يعيره إياه من نفس أن يعيش (٧٠) سنة فبعد أن أعاره هذه النفس كان للإنسان أن يعيش وفق حقّ الاختصاص الممنوح له بهذه الاعارة سبعين سنة. ولكنه تعالى حينما يأمره بالجهاد وهو في سن قبل ذلك السن – وهي سن ربما تكون أصغر من سن أجله بخمسين سنة أو أقل أو أكثر – فمعنى هذا أن هذا المؤمن قد اشترى منه الله تبارك وتعالى حقّ الاختصاص المتعلّق بهذه الخمسين سنة المتبقية من عمره والتي سوف يستشهد دون أن يعيشها؛ لأنه ربّما يستشهد وهو في سن العشرين. فهذا الاختصاص المتعلق بهذه الخمسين سنة هو الذي يشتريه الله تبارك وتعالى منه.

وبصريح عبارة أُخرى فإن كلّ ما نحصل عليه إنما هو من الله سبحانه وتعالى وبعطاء منه ونعمة:

وما ثَـمَّ إلّا اللهُ في كُلِّ حَـالَةٍ فَـلا تَـتَّكِلْ يَومَاً عَلىٰ غَيرِ لُطْفِهِ[1]

فالله تبارك وتعالى هو المالك الحقيقي لكلّ شيء، وبهذا التوجيه والتقريب نعرف أنه جلّ شأنه إنما يشتري من المؤمنين حقّ الاختصاص الذي يملكونه بما ملّكهم إياه بتلك الإعارة، وليس المباع هو النفس ذاتها. وكذا الحال مع الأموال والممتلكات؛ فإن المؤمن إذ يجود بنفسه ويبذل أمواله في سبيل الله في ساحة الجهاد والدفاع المقدّس، وفي غيرها من سوح الحياة، فإنه إنما يبيع على الله تبارك وتعالى حقّ الاختصاص الممنوح له، ثم بعد ذلك يأخذ عوض هذا الحقّ فيهما الجنة بما تمثّله من عطاء لا حدود له.

المبحث السابع: ظرف العطاء

كما أن عطاءه تعالى لا يقتصر على العالم الآخر فقط، ولا يقف عند هذا الحدّ، بل إنه سبحانه يجعل للمجاهدين في سبيله عطاءً آخر في الدنيا وهو الذكر الحسن، والخلود في أذهان الناس وعلى ألسنتهم؛ لأن الشهيد وهو يصارع الظلم، فإنما يصارعه ويقارعه لكي يحقّق العدل للناس في هذه الأرض، وكلّ ذلك بدمه الذي وطّن نفسه على أن يسفكه في سبيل الله تبارك وتعالى، وفي سبيل إرساء دعائم الحقّ، فهذا هو الذي تحرّك من أجله، وسفك دمه دونه. وبهذا الدم الذي سفكه يكون قد مات من أجل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى التي هي العدل بعينه، ومن أجل أن تعمّ المحبّة والخير والحقّ بين أهل الأرض، وأن يسودهم العدل،

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف ١: ١٥٤.

وأن يملأ نفوسهم الكمال وكلّ صفة حسنة في هذا الكون.

سلاح الدم

ومعلوم أنه ليس هناك سلاحٌ أمضى ولا أبلغ من الشهادة التي يرفعها أصحابها في وجوه الظالمين والطغاة؛ ليؤكّدوا لهم وجودهم على هذا الخطّ الرسالي، وإصرارهم على أن يعيشوا أحراراً، وليوصلوا إليهم عزمهم على مواصلة درب الكفاح، ونشر العدل وإثباته؛ وليثبتوا لهم أن للحقّ جنوداً في كلّ زمان وفي كلّ مكان يموتون دونه:

ارفع السيف ان أردت دعاء فدعاء النعاج لا يستجابُ

تجارب الشهادة عند المقاومة الإسلامية في لبنان

ثم إن حياتنا ملأى بالتجارب الجهادية، وهي تجارب ثرّة وغنية بالمواعظ والحكم، وحافلة بالقيم والمبادئ بما تضمه من مواقف مشرقة، وتجارب خلّدت لنا هذا الوجود وهذه الحياة.. تجارب تجعلنا نستشعر العنفوان عزّاً وكرامة وأنفة تجري في دمائنا، وتعيش معنا في كلّ ذرة من ذرّات حياتنا. ومن هذه التجارب الثرّة المشرّقة ما نلاحظه من فعل تلك البراعم المفعمة بالحياة والحبّ في الجنوب اللبناني مثلاً وهي تصارع الظلم والعدوان، وتقارع الباطل؛ فتبارك هذا الوجود بذلك الدم الطاهر الذي تضفيه على جنباته، وتساهم به في ذلك العطاء الثرّ الذي لا حدود له.. البراعم التي أرادت أن تعيش الحياة بشكل آخر حافل بالعزّة، وبأُسلوب آخر مفعم بالكرامة، فأعطت من دمائها في هذه الحياة الفانية لتعيش الحياة الخالدة الباقية.

ولهذا فإنها ـ من منطلق إيمانها بعدالة قضيتها، وحقّ الدفاع عن حقوقها

ومقدّساتها ـ قد تصدّت إلى أُولئك العتاة السفاكين والسفاحين، والقتلة الذين استولى عليهم الشعور بالحقد والكره للآخرين، فاستولوا على مقدّرات الشعوب وحرّياتهم وأرضهم. فحقّقت تلك البراعم النصر عليهم، وطردتهم من تلك الأرض لا بالأسلحة الفتاكة الضخمة، وإنما بالأوردة والشرايين والدم الذي يعدّ أمضى من كلّ أسلحة العتاة الفتاكة.. لقد طردتهم لتثبت للطغاة والقتلة أنه حقاً لا سلاح أمضى من الدم، ولا قوة أشدّ من الشهادة في سبيل الله؛ كي يحقّق الإنسان اُمنيته وهدفه الذي يسعى إليه. فكان أن حقّقت المقاومة اللبنانية الباسلة بتلك الدماء الطاهرة أهدافها، وطردت الغزاة اليهود من أرضهم.

عروش الطغاة

وأنا من على هذا المنبر اُؤكد على أن العروش التي استولت على رقاب الناس ومقدّراتهم ووجودهم بالقهر والظلم والاستبداد كلّها قُهرت مؤخّراً، وتهاوت وسقطت دون أن يبقى منها شيء؛ فعروش القياصرة قد تهاوت، وكذلك عروش الأكاسرة سقطت على يد ثلّة صغيرة من رجال مؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، جاؤوهم من الجزيرة العربية يحملون أرواحهم على أكفّهم، متوّجين إياها بما يحملون من مبادئ وقيم، وما يستبسلون دونه من عقيدة وفكر مشعلاً ينير ظلمة طريق السائرين، فحقّقوا كلّ هذه الإنجازات الضخمة بالتضحية بالدماء، وبالتصميم والعزم على الشهادة في سبيل الله جلّ شأنه.

وهكذا أسقطوا تلك العروش المتكبّرة ـ مع أنها كانت تعدّ آنذاك دولاً كبرى ـ بظرف زماني قصير جداً قياساً إلى استراتيجية المعارك الاُخرى التي تمتلك مواصفات تلك المعارك نفسها، مع أنهم لم يحملوا سلاحاً ولا عتاداً، ولا عدة كتلك التي كان عليها تانِك الدولتان الكبريان، بل إنهم حملوا سلاحاً من نمط

آخر.. سلاحاً لم يحمله غيرهم إلّا وظفر وغلب وملك.. سلاحاً هو في حقيقته سلاحٌ فتّاك بل أشد فتكاً من كلّ الأسلحة المعروفة بفتكها وبشدّتها.. إنه سلاح الإيمان بعدالة القضية التي يدافعون عنها، ويبذلون دماءهم من أجل نشرها بين الشعوب المقهورة والمستضعفة.. سلاح الشهادة الذي لم يتسلّح به إنسان إلّا وهزم قبيله.

تفاني خلّص الصحابة في الدفاع عن الإسلام

وإننا بالرجوع إلى تاريخ الصحابة المؤمنين (رضوان الله عليهم)، فإن العجب والاستغراب سوف يأخذاننا من الطريقة التي كانوا يتبارون فيها إلى نيل الشهادة بين يدي الرسول الأكرمﷺ، ومن مبادرتهم السريعة إلى تلبية ندائهﷺ للجهاد، ولنيل تلك الحسنى العظيمة، حتى وصل الأمر بمبادرتهم إليه إلى حدّ أنهﷺ كان يستعرض المسلمين مرّة قبل أن يذهبوا إلى الجهاد؛ لكي يرى هل إن المقاتلين يصلحون للجهاد أم لا، فكان أن أتى صبي ووقف على مرتفع وتطاول برقبته؛ لكي يراه النبيﷺ كبيراً فلا يمنعه من الجهاد[1].

فلنتأمل هذا الأُنموذج الرائع من التدافع إلى الجهاد والشهادة، وهذا اللون العالي من التزاحم والتبادر والتسابق إلى نيلها بين يدي الله تبارك وتعالى ويدي رسولهﷺ. وهذه الروح العالية التي كانوا يحملونها في الواقع هي التي

---

(١) ومثلها قصّة حنظلة غسيل الملائكة الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور: ٦٢ إلى آخره.

انظر: تفسير القمّي ١: ١١٨، بحار الأنوار ٢٠: ٥٧، أُسد الغابة ٢: ٢٤١، الإصابة ٢: ١١٩ / ١٨٦٨.

استطاعت أن تحقّق لنا أهداف الإسلام، فينتصر على جميع الملوك والطغاة المعروفين في ذلك الوقت.. النصر الذي أوجده التصميم على الشهادة أو عليه، والعزيمة الماضية في سبيل تحقيق ذلك عبر التباري إلى الجهاد وتحقيق هذا الركن الهامّ من أركان الإسلام.

إن المؤمن الحقّ يعرف أنه ليس له في هذه الدنيا إلّا أيام قليلة مهما طالت، ثم بعد ذلك يغادرها إلى حيث يلقى حسابه عند الله تبارك وتعالى، فمهما طالت الدنيا فهي قليلة وقصيرة نظراً إلى حال الكون والوجود والحياة الآخرة، وكذلك المال مهما كثر ومهما ازداد فإن صاحبه سوف يتركه لغيره وسوف يذهب عنه مخلفاً إياه وراءه. فهذا هو حال الدنيا، أما حال الآخرة فلا يمكن أن يتصوّر، ولا أن يحيط به تفكير إنسانٍ، أو نظره، أو قابليته على تصور الأشياء. وما دام الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي فإننا لا يمكن أن نحيط علماً بذلك العطاء؛ لأنه تبارك وتعالى واسع العطاء، ولا حدود له؛ فلا حدود لعطائه. فهو جلّ شأنه إذ يعطي فإنه يعطي ما لا ينفد، ويمنح ما لا نهاية له ولا حدّ؛ فبمقدار ما هو تعالى واسع وكبير، فإن عطاءه واسع وغير محدود كذلك: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[1].

فكلّ ما عندنا هو منتهٍ، وفانٍ غير باقٍ، أما ما عند الله فهو العطاء الخالد والباقي الذي لا نفاد له ولا انتهاء:

إنما الدنيا عوارٍ والعواري مستردّه
شدّة بعد رخاء ورخاء بعد شدّه[2]

---

(١) النحل: ٩٦.
(٢) شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٦.

المبحث الثامن: الجهاد؛ موارد وجوبه وسقوطه

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾. والمتمعّن في هذا المقطع الشريف يكتشف من أول وهلة أنّه يقرّر أن هناك لوناً من القتال ليس في سبيل الله تبارك وتعالى وإن كان ربما يقصد به ذلك، كالخروج مع الحاكم المسلم الذي نصب نفسه بنفسه حاكماً دون أن تضفي عليه السماء مشروعية ذلك المنصب أو الوظيفة. كان الإمام السجادعليه السلام يطوف، فقال له رجل: تركت الجهاد وخشونته، ولزمت الحجّ ولينه؟ فقالعليه السلام له: «أقرأت هذه الآية الكريمة، والتي بعدها؟»[١].

مشيراًعليه السلام إلى آية المقام، والآية التي بعدها[٢]. أي أنهعليه السلام يطلب منه أن يتمعّن في تلك الآيات المذكورة، وينعم النظر فيها؛ ليرى كيف أنها تصف من يجب الجهاد معهم بأنهم تائبون، عابدون حامدون، سائحون، راكعون ساجدون، آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر، حافظون لحدود الله، كما وصفتهم الآية الكريمة، وأن هؤلاء هم الذين يجب الجهاد معهم، أما إذا كان الإمام الذي يخرج للقتال

---

(١) لم نعثر عليه بهذا النصّ، وفي الكافي ٤: ٢٥٨ / ٢٤ أنهعليه السلام قال له: «ويحك، أما بلغك ما قال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم في حجة الوداع؟ إنه لما وقف بعرفة، وهمّت الشمس أن تغيب قالصلى الله عليه وآله وسلم: يا بلال، قل للناس فلينصتوا. فلما نصتوا، قال رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: إن ربكم تطوّل عليكم في هذا اليوم فغفر لمحسنكم وشفّع محسنكم في مسيئكم. فأفيضوا مغفوراً لكم إلّا أهل التبعات؛ فإن الله عدل يأخذ للضعيف من القوي. فلما كانت ليلة جمع لم يزل يناجي ربه ويسأله لأهل التبعات، فلما وقف بجمع قال لبلال: قل للناس فلينصتوا. فلما نصتوا، قالصلى الله عليه وآله وسلم: إن ربكم تطول عليكم في هذا اليوم فغفر لمحسنكم، وشفّع محسنكم في مسيئكم. فأفيضوا مغفوراً لكم، وضمن لأهل التبعات من عنده الرضا».

(٢) وهي قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ١١٢.

إمام جورٍ، أو حاكماً غير عادل، أو أنه لم يستمدّ مشروعية حكمه من السماء، فإنه حينئذٍ لا يجوز الجهاد معه.

عوامل الحروب عند أهل الجور

فالجهاد إذن لا يجب إلّا مع الإمام العادل الجامع للشرائط الذي نصبته السماء، أمّا أُولئك الذين يقودون الناس إلى الجهاد ولم يكونوا كذلك، فيدفعون الناس إلى الحرب والقتال لمجرّد غطرستهم، أو لمجرد مصالحهم الدنيوية، فإنهم حينئذٍ لا يجب الجهاد معهم، بل لا يجوز؛ لأنهم حينما يحاربون فإنهم إنما يحاربون لا لأجل الحقّ أو حماية له، بل لأجل مصالحهم الدنيوية، وبالتالي فإنهم لا مانع يمنعهم، ولا رادع يردعهم من شنّ تلك الحروب بالباطل، ثم يبرّرونها باسم الحقّ كذباً وافتراء.

أُولئك قوم نشدوا غير ضالّتهم[1]

والطامّة الكبرى في مثل هذه الحال أن الذين ينالون الفخر عند تحقّق النصر هم غير أولئك الذين يصنعونه من الجنود الذين يضحّون في ساحة المعركة بدمائهم وأنفسهم في سبيل الوصول إلى هدفهم المنشود وإعلائه. إن التاريخ المزوّر ينسب تلك الفتوحات وذلك الفخر إلى أُولئك الطغاة الذين يترنّحون على عروشهم ثملاً

---

(١) هذه العبارة مستمدّة من كلام للإمام أمير المؤمنين‌ﷺ، وهي فيمن يأخذ حقّاً ليس له. كتب‌ﷺ إلى معاوية كتاباً جاء فيه: «أما بعد: فإنا كنا نحن وأنت على ما ذكرت من الأُلفة والجماعة، ففرّق بيننا وبينكم بالأمس أنا آمنّا وكفرتم، واليوم أنا استقمنا وفتنتم. وما أسلم مسلمكم إلّا كرهاً، وبعد أن كان أنف الإسلام كلّه لرسول الله حزباً... والأولى أن يقال لك: إنك رقيت سلماً أطلعك مطلع سوء عليك لا لك؛ لأنك نشدت غير ضالّتك، ورعيت غير سائمتك، وطلبت أمراً لست من أهله، ولا في معدنه، فما أبعد قولك من فعلك!». الاحتجاج ١: ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

دون أن يروا ساحات القتال، وتتمايل أعطافهم من السكر ونشوة الخمر، أو تعبث بهم الأهواء الباطلة والميول الضالّة، فتأخذهم يميناً وشمالاً مبتعدين عن صراط الله وعن نهجه، فيعيشون الدنيا بكلّ متعها ولذّاتها الفانية، تاركين الآخرة وما يوصل إليها.

إن هذا لظلم كبير؛ لأن الجندي هو الذي يصنع النصر بدمه من أجل هدفٍ سامٍ نذر له نفسه ودمه إن كان ممّن يؤمن بضرورة الجهاد، وبالتالي فهو يعني الاستيلاء على حقّه ومصادرته.

ومن خلال هذا الطرح نصل إلى نتيجة هي أن هناك عوامل عدّة وكثيرة يمكن أن تكمن وراء إثارة هؤلاء الطغاة لتلك الحروب، أو افتعال ذلك القتال مع ما هم عليه من مصادرة النصر من أصحابه الحقيقيين الذين يصنعونه بعقائدهم، وإيمانهم، ودمائهم دفاعاً عن المعتقد. ونحن نذكر منها هنا ما يتّسع له المقام:

العامل الأول: دافع الأحقاد الشخصية

فهذا الأمر الذي عليه أُولئك الجنود الخارجون للقتال في سبيل الله تعالى يختلف عنه عند أُولئك الذين يزجّون بهم من أجل غطرستهم وغرورهم، وربّما أحقادهم التي يبتني عليها واقع حروبهم. فالبعض منهم ينطوي صدره على حقد لا يستطيع أن يعبرّ عنه بشكل طبيعي، بل إنه يعبّر عنه تعبيراً مفرطاً فيصبّه على غيره، كما يعبّر عنه علماء النفس؛ حيث يخرج بكامل عدده وعدّته لسفك الدماء، ولإثارة الحروب والقتال، وللاعتداء على حرمات الله وعلى عباده من أجل إشباع شهوته إلى الدم، وريّ تعطّشه إلى إراقته.

العامل الثاني: المطامع الدنيوية وإشباع الرغبات الشخصية

ومن العوامل التي تدفع هؤلاء إلى شنّ الحروب عامل إشباع رغباتهم الدنيوية

وأطماعهم الدنيئة في هذه الحياة، بما تدرّه عليهم هذه الحروب من أموال وغنائم وتحف. فهؤلاء يريدون أن يقاتلوا ويثيروا الحروب من أجل أن يسلبوا رغيف الخبز من أفواه الشعوب الأُخرى المستضعفة أو الفقيرة، والسيطرة على ثرواتهم وممتلكاتهم ومقدّراتهم.. يقاتلون من أجل طاعة الشيطان، وإشباع الرغبات النفسية ومشتهيات الجسد[١].

العامل الثالث: الأهواء الباطلة

كما أن بعض الحروب التي اختُلقت وأُثيرت هي في واقع الأمر حروب باطلة يُقصد من ورائها إبطال حقّ وإحقاق باطل من أجل الأهواء الضالة المضلّة؛ ولذا فإنهم يسمون باطلهم حقّاً، وحقّ غيرهم باطلاً. ومن الحروب المندرجة تحت هذا العامل الحروب الصليبية، فهذه كلّها حروب فيها طاعة للشيطان، وليس فيها من طاعة الله شيء، بل إنها كلّها حروب في معصية الله سبحانه دون أن تكون في سبيله أو الجهاد بين يديه.

أهداف الجهاد في سبيل الله وشروطه

ومن هنا فإننا نلاحظ أن المشرّع الإسلامي الأقدس إذ شرع الجهاد فإنه اشترط فيه جملة شروط ربّما يعدّ بعضها غريباً عند البعض لمراعاتها للجنبة الإنسانيّة. وهذه الشروط تكون على ثلاثة أنواع:

الأول: ما يختصّ بمرحلة الإعداد للقتال.

الثاني: ما يختصّ بمرحلة القتال.

---

(١) ولا ننسَ هنا قول هارون الرشيد وهو يخاطب سحابة قد رآها: امطري حيث شئت، فسيأتيني خراجك. نقش خواتيم النبي‌ﷺ والأئمة‌ﷺ: ٥٨، عن مآثر الإنافة ١: ١٩٤.

الثالث: ما يختصّ بمرحلة ما بعد القتال، بما تنطوي عليه من نمط التعامل مع الأعداء، ومع الأسرى، والجرحى.

وهذه الضوابط التي يضعها المشرّع الإسلامي على فريضة الجهاد عند تناولها بعين التأمّل، وعند إنعام النظر فيها نجد أنها ضوابط تفيض بالإنسانية وبالرحمة، وبالأخلاق وبالقيم والمبادئ والآداب.

إذن القتال في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته السامية والخالدة هو قتال ينشد من ورائه إنشاء مجتمع سعيد، وبناء مجتمع متكامل تحكمه كلمة الحقّ تعالى، وتربطه إرادة الحقّ جلّ شأنه، ويعيش على كلمة السماء، ويتصرّف وفق كلمة الله تبارك وتعالى؛ كي تحكم علاقات المجتمعات السعادة والهدوء، والاستقرار والسلامة، وكي يسودهم الأمن والعدل، ويُحكم فيهم بالحقّ، دون أن يحيف أحد على أحد، أو دون أن يظلم أحد أحداً. فهذه هي أهداف الحرب في الإسلام، وهي أهداف مفعمة بالرأفة، وتتدفّق رحمة، وتفيض إنسانية، لا تلك التي يروّج لها أصحاب الباطل ممّن ذكرنا.

إذن خلاصة القول أن كلمة الله هي نشر السعادة في الأرض، ونشر السلام في ربوعها؛ كي يعم الحقّ وإن كانت الحرب في بعض الأحيان طريقاً وسبيلاً ووسيلة لتحقيق ذلك السلام، وإلّا فإنه لو لم تكن تلك الحروب، فربما لم يقم مجتمع تحكمه الأخلاق والقيم والمبادئ، وكلمة السماء الخالدة. ونحن لم نعرف الإسلام في يوم من الأيام قد تصرّف في حياة النبي ﷺ على غير هذا النهج، أو أنه قد تخطّى هذه القواعد والضوابط؛ فالقتال يكون أحياناً وسيلة لتحقيق السلام، وأحياناً أُخرى يكون وسيلة للدفاع عن النفس، وهي الوسيلة التي يقرّرها الإسلام الحنيف بقوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ**

الله لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١]. ومن مفهوم هذه الآية نعرف أن الإسلام لا يتعرض لمن لا يقاتل أتباعه ولا يعتدي عليهم[٢].

هذا هو منهج الإسلام، وهذه هي فلسفته في حياة السلم والحرب، وهذا هو النمط الأوسط الواضح الذي يسير عليه، وهو نمط لا لُبس فيه ولا غبار عليه. ولكننا مع ذلك نجد أُولئك الذين يدّعون لأنفسهم التقدّم والتحضّر يمارسون التقتيل الجماعي ضد الناس، ويحتفلون بإقامة الإبادات والمجازر العرقية أو القائمة على أساس التباين المذهبي أو الاختلاف الديني بعد أن يثملوا بجماجم أصحابها. وينبغي أن يُعلم أن هذه الإبادات والمجازر تمارس حتى بعد توقف الحروب وانتهائها، وهذا ما نراه واضحاً في حروب أوروبا التي شهدت أحداثاً مرعبةً ومواقف مهولة مروّعة من هذا النمط. فبعد أن تلقي الحرب أوزارها، وينتهي كلّ شيء، تُعمل الجيوش المنسحبة أسلحتها الفتاكة تقتيلاً في الناس بالجملة، وبأعداد هائلة تتجاوز حد التصوّر.

وفي مقابل هذا النمط من التصرف الأهوج البعيد عن القيم الإنسانية نجد موقفاً إسلامياً إنسانياً بحتاً تنطق به السنّة الشريفة، ومنها ما جاء على لسان خليفة رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث يقول مخاطباً قادته وجنده: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم؛ فإنكم بحمد الله على حجّة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجّة أُخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله، فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أُمراءكم؛ فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا

---

(١) البقرة: ١٩٠.

(٢) وقد نصّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾.

لنؤمر بالكفّ عنهن وإنهن لمشركات»[1].

وهو موقف ينمّ عن النبل بكلّ ما في كلمة نبل من معنى.. موقف يطفح بالإنسانية، ويفيض بالرقّة والرحمة والأخلاق.. الأخلاق التي يجب أن تحكم هذا العالم، وتحكم تصرّفات من فيه من بني البشر؛ لتقنّن للإنسان مواقفه وعلاقاته بالآخرين. ومن هنا نعرف أن هناك حدّاً فاصلاً بين الاعتداء على الآخرين ممّن لا يستحقّون أن يُعتدى عليهم، وبين الدفاع عن الحقّ والمبادئ والقيم. وهذا الحدّ يجب على الإنسان أن يقف عنده في مرحلة الجهاد، وهو يؤدّي هذه الفريضة المقدّسة. وهذا الحدّ الذي وضعه الإسلام الحنيف يقضي بعدم قتل الأسير أو الجريح، وتحريم الإجهاز عليهما، بل حتى بعدم تتبّع الفارّ الذي يريد أن ينجو بنفسه.

فهذا الموقف الأخلاقي السامي على النقيض تماماً من مواقف أصحاب المصالح في إشعال نار الحروب.. المواقف التي تنمّ دوافعها وأهدافها عن البغي والرغبة في سفك الدماء، وإهدار حقوق الإنسان سيّما في تلك الدول الأوروبية المتقاتلة، وقادتها الذين كانوا يقودون حملاتهم الحربية، فيقودون معهم البغي، والتشوّق إلى إراقة الدماء وسفكها بغير وجه حقّ.

شبهة حول الإسلام

ومع هذا فإننا نجد أن هؤلاء يعيشون مفارقة هي قولهم: إن الإسلام هجمة بدوية قبلية، تحكمه روح القبيلة والعرق، ولا همّ له سوى قطع الرقاب، والاعتداء على الشعوب.

---

(١) نهج البلاغة / الوصية: ١٤، وصيته عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدوّ بصفين.

الرد على هذه الشبهة

إن الإسلام حاشا له أن يكون كذلك؛ فهو دين الرحمة ودين الكرم والخلق، والقرآن الكريم يبين لنا هذا الأمر بقوله: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾. فهؤلاء إنما يقاتلون في سبيل الله وفي سبيل رسوله، ومن أجل إعلاء كلمة الحق، ومن أجل رفع رسالة السماء ونشرها بين الشعوب والأُمم، ولم يقاتلوا في سبيل الأهواء أو الأحقاد أو الأطماع وإيحاءات النفس الأمّارة بالسوء. ولذا فإن كل ما كان يستولي عليه الجيش الإسلامي فإنه يرجع به إلى الأُمة جميعها وعليها؛ لإعالة فقيرها ومحتاجها، وهو خلاف ما كان عليه أهل الجور وما يزالون من أخذ الغنائم والأسلاب لهم، فيختصون بها أنفسهم دون سواهم ممّن قاتل، والذي يعود من المعركة بخفّي حنين.

إن الواقع الإسلامي يفرض علينا أن نعمل جاهدين على تحقيق هذا الهدف، وعلى إثبات هذا الأمر وترشيده. وليس هناك من قائد إسلامي يتقيّد بدين الله، ويمتثل لأوامره، وهو يستأثر لنفسه من الغنائم أكثر مما فرض الله له، وأكثر مما رسمته له شريعة السماء.

أمير المؤمنين يصطفي لنفسه جارية

ومما يرويه المحدّثون في هذا المجال أن رسول الله بعث بعثين إلى اليمن؛ جعل على أحدهما أمير المؤمنين، وعلى الآخر خالد بن الوليد، وأوصاهم قائلاً: «**إذا اجتمعتم فعلي عليكم أجمعين، وإذا افترقتم فكلّ واحد على أصحابه**».

فأصاب القوم سبايا، فاصطفى أمير المؤمنين جارية لنفسه، فكتب بذلك

خالد بن الوليد إلى رسول الله، وأرسل بالكتاب مع بريدة الأسلمي، وأمره أن يخبر النبي ﷺ عن ذلك بلسانه، ففعل، فقال رسول الله: **«إن علياً منّي وأنا منه، وله ما اصطفى»**.

وتبيّن الغضب في وجهه ﷺ، فقال بريدة: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، بعثتني مع رجل وأمرتني بطاعته، ففعلت وبلّغت ما أرسلني به. فقال رسول الله: **«يا بريدة، إن علياً ليس بظلّام، ولم يخلق للظلم، وهو أخي ووصيّي ووليّ أمركم من بعدي»**.

قال بريدة: والله لو أن الناس سلكوا وادياً كثير الشجر والماء ـ وإنما حياة الناس الشجر والماء ـ وسلك علي وادياً ليس فيه شجر ولا ماء، لسلكت وادي علي، وتركت وادي الناس[1].

---

(١) دعائم الإسلام ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٣، مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام (محمد بن سليمان) ١: ٤٨٧ / ٣٩٤، وقد ورد هذا الحديث بصيغ أُخرى منها: فخرج ﷺ مغضباً، فقال: «ما بال أقوام ينتقصون علياً؟ من تنقّص علياً فقد تنقّصني، ومن فارق علياً فقد فارقني. ان علياً مني وأنا منه، خلق من طينتي، وخلقت من طينة إبراهيم، وانا أفضل من إبراهيم، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]. يا بريدة، أما علمت أن لعلي أكثر من الجارية التي أخذ، وأنه وليكم بعدي؟». فقلت: يا رسول الله، بالصحبة إلّا بسطت يدك فبايعتني على الإسلام جديداً. قال فما فارقته حتى بايعته على الإسلام. وصيغ أُخرى قريبة منها، انظر: مسند أحمد ٥: ٣٥٦، وقد تكرّر فيه قوله ﷺ: «وليكم بعدي» مرّتين، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٣٣ / ٨٤٧٥، خصائص أمير المؤمنين عليه السلام (النسائي): ٩٨، عمدة القاري ١٨: ٧، المعجم الأوسط ٦: ١٦٢ ـ ١٦٣. مجمع الزوائد ٩: ١٢٨، تاريخ الإسلام ٣: ٦٢٨، فتح الباري ٨: ٥٣، وغيرها كثير.

والغريب أن بعض المحدّثين يشكل علينا اعتقادنا بأن رسولنا الأكرم ﷺ قد استخلف أمير المؤمنين عليه السلام من بعده، وجعله صاحب الأمر والحكم بعد ارتحاله إلى بارئه، ويحتجّ علينا بما يروونه عن الحسن بن الحسن المثنى أنه قال لرجل ممن يغلو فيهم: لو كان الأمر كما

مع أننا نعرف أن أمير المؤمنين غالباً ما يضع هذا الحق الذي يأخذه من الغنيمة في سبيل الله، وينفقه في سبيل مرضاته؛ لأنه لم يكن ليقيم وزناً للدنيا ولمتاعها. فسيرته سيرة رائعة عطرة، ومدرسة تعجّ بالدروس التربوية والأخلاقية العالية، وبالقيم السماوية المثلى التي لا يمكن أن ترقى إليها مدرسة، وكذلك حال أهل بيته المطّهرين.

ومن هذه الدروس ما يروى مما له علاقة بحديث المقام من أن رسولنا الأكرم كان إذا أراد السفر سلّم على من أراد التسليم عليه من أهله، ثم يكون آخر من يسلم عليه ابنته السيّدة فاطمة، فيكون توجّهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها. وكان أمير المؤمنين قد أصاب شيئاً من الغنيمة، فدفعه إلى فاطمة الزهراء، ثم خرج، فاشترت به سوارين من فضّة، وبضعة أذرع من

تقولون: إن الله ورسوله اختارا علياً لهذا الأمر، والقيام على الناس بعدُ إن كان علياً لأعظم الناس في ذلك خطيئة وجرماً؛ إذ ترك أمر رسول الله أن يقوم فيه كما أمره، أو يعذر فيه إلى الناس. قال الراوي: فقال له الرافضي: ألم يقل رسول الله لعلي: «من كنت مولاه، فعلي مولاه». قال: أما والله، أن لو يعني رسول الله بذلك الإمرة والسلطان والقيام على الناس، لأفصح لهم بذلك كما أفصح لهم بالصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحجّ البيت، ولقال لهم: أيها الناس، إن هذا ولي أمركم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا. فما كان من وراء هذا شيء، فإن أنصح الناس كان للمسلمين رسول الله. انظر: جزء ابن عاصم: ١٢٥ ـ ١٢٧ / ٢٤، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٦٩ ـ ٧٠، تهذيب الكمال ٦: ٨٧، البداية والنهاية ٩: ١٩٣ ـ ١٩٤.

مع أن هذا الحديث؛ سواء كان برواية المتن، أو بصيغه الأُخرى: برواية أحمد، أو غيره ـ مع اختلاف الرواية ـ قد نصّ على قوله: «هذا وليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا». سيّما إذا أضفنا إليها قوله: «من تنقّص علياً فقد تنقّصني، ومن فارق علياً فقد فارقني. ان علياً مني وأنا منه، خلق من طينتي، وخلقت من طينة إبراهيم». علماً أن مورد احتجاج هؤلاء المحدّثين هنا بكلام الحسن هو قوله: ولقال ـ أي نبيّنا الأكرم ـ لهم: إن هذا ولي أمركم من بعدي.

قماش علّقتها على بابها ستراً.

فلما قدم رسول الله ﷺ من سفره تلك المرة دخل المسجد، فتوجّه نحو بيت السيدة فاطمة عليها السلام كما كان يصنع، فقامت إليه فرحة، فنظر ﷺ فإذا في يدها سواران من فضة وإذا على بابها ستر، فقعد ﷺ حيث ينظر إليها، ثم قال: «فاطمة بنت محمد تلبس لباس الجبابرة؟». ثم خرج من عندها، فبكت وحزنت وقالت: «ما صنع هذا أبي قبلها».

فدعت الحسنين عليهما السلام ونزعت الستر من بابها، وخلعت السوارين من يدها، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر، ثم قالت لهما: «انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام، وقولا له: ما أحدثنا بعدك غير هذا، فشأنك به».

فجاءاه عليهما السلام، وأبلغاه ذلك، فقبّلهما ﷺ، والتزمهما، وأقعد كلّ واحد منهما على فخذه، ثم أمر بذينك السوارين فكسرا، فجعلهما قطعاً قطعاً، ثم دعا أهل الصفّة ـ ولم يكن لهم منازل ولا أموال ـ فقسمه بينهم قطعاً، ثم جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستتر بشيء، وكان ذلك الستر طويلاً وليس له عرض، فجعل يؤزر الرجل، فإذا التقى عليه قطعه، حتى قسمه بينهم أُزراً، ثم قال ﷺ: «فعلت فداها أبوها، فعلت فداها أبوها، فعلت فداها أبوها، رحم الله فاطمة؛ ليكسونّها الله بهذا الستر من كسوة الجنة، وليحلّينها بهذين السوارين من حلية الجنة»[1].

فهذا درس عظيم ذو أثرٍ عظيم، أملاه رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء

---

(١) مكارم الأخلاق: ٩٤ ـ ٩٥، بحار الأنوار ٨٥: ٩٣ ـ ٩٤ / ٦٢، مسند أحمد ٢: ٢١، صحيح البخاري ٣: ١٤١، سنن أبي داود ٢: ٢٧٨، صحيح ابن حبّان ٢: ٤٧٠، ٤: ٣٦٦. وليس فيها: «فعلت فداها أبوها، فعلت فداها أبوها، فعلت فداها أبوها».

(سلام الله عليها)، مع أن هذا الذي قد تصرّفت فيه الزهراء ليس بحرام؛ لأنه قد عاد عليها من حصّة زوجها أمير المؤمنين من غنيمة الحرب، حيث كان عائداً من غزوة له مع رسول الله ، لكنها أخلاق السماء. وهذا لون من ألوان التربية العملية التي تأخذ بيد الإنسان إلى عالم رحبٍ فسيحٍ من الأخلاق، والقيم والمبادئ، والمثل التي تنشئ السماءُ المجتمعَ الإسلامي عليها، وتسعى حثيثاً من أجل تحقيق ذلك.

وهكذا فإننا نجد أن الآية الكريمة تقول: ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لا في سبيل أهداف دنيوية رخيصة، أو أهداف وقتية، أو مطامع أو مصالح آنية؛ فهم أسمى من ذلك، وأرفع وأعلى من أن ينظروا إلى حطام هذه الدنيا الفانية.

المبحث التاسع: الأهداف الرسالية لحروب الرسول

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، إن القتل والقتال حينما يكونان في سبيل الله فإنه لا مجال هناك لوجود دوافع حقد أو انتقام فيه؛ لأن هذه الدوافع إنما هي دوافع شخصية. ولهذا فإننا نعتقد اعتقاداً كاملاً بأنه قتل خالص لوجه الله تبارك وتعالى، وقتال خالص في سبيله عزّ اسمه، يُهدف منه إعلاء كلمة الله جلّ شأنه، لا إشباع الأحقاد الشخصية أو التِّرات القبلية أو العشائرية، أو ما إلى ذلك. فوفق هذا المقطع الشريف نجد أن هذه الثلّة المؤمنة تقاتل في سبيل الله، فتَقتل وتُقتل بدافع نشر الإسلام ونصرته ونصرة صاحبه رسول الله .

أمير المؤمنين أنموذج من الجهاد الخالص

وقد مرّ بنا أكثر من مرّة قصّة الإمام أمير المؤمنين مع مرحب حينما همّ بقتله، وذلك حينما برز إلى قتاله. وفي هذه القصّة دروس وعبر سامية يجب على

كلّ مؤمن أن يحذو حذوها، لقد كان من عادة أمير المؤمنينعليه السلام ألّا يتأخر في الإجهاز على أعداء الله تبارك وتعالى وقتلهم، ولكنهم هذه المرة ـ في قتله لمرحب ـ قد تأخر على غير عادته، وبعد ذلك عاد وهو يحمل رأس مرحب، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله فرحاً بذلك، وكبّر المسلمون لتكبيره، وهنا التفت إليه النبي صلى الله عليه وآله وقال له: «لقد أبطأت يا علي؟».

فأخبرهعليه السلام بما رواه لنا بعض المؤرخين من قولهم: إنهعليه السلام قعد على صدره ليحتزّ رأسه، فبصق في وجههعليه السلام، فقامعليه السلام عنه وتركه، فلما سئل عن سبب قيامه وتركه قتل الرجل بعد التمكّن منه قال: «إنه لما بصق في وجهي اغتظت منه، فخفت إن قتلته أن يكون للغضب والغيظ نصيب في قتله، وما كنت أُحبّ أن أقتله إلّا خالصاً لوجه الله تعالى»[1].

وهذا في واقع الأمر هو الأدب القرآني الذي رُبي عليه أمير المؤمنينعليه السلام بمباشرة من رسول الله صلى الله عليه وآله، والذي يريد القرآن الكريم للمؤمنين كافّة أن يتربوا عليه. وهذا هو علي بن أبي طالبعليه السلام الكتاب الناطق الذي تصدح كلّ تصرفاته وكلّ أفعاله بأنّه تلميذ القرآن، وبأنه ربيب القرآن، وبأنه شريك القرآن وعِدله، ولذا فإننا نجد كلّ حركة من حركاته، وسكنة من سكناته لا تتجاوز أهداف القرآن ولا سننه ولا أخلاقياته، وها هو في مثل هذه الواقعة يجسّد لنا القرآن بكلّ معانيه السامية، فهو يجاهد في سبيل الله وبين يدي رسوله صلى الله عليه وآله من أجل إعلاء كلمة الله

---

(١) شرح إحقاق الحق ١٨: ١٤٧ ـ ١٤٨، موسوعة الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام في الكتاب والسنة والتاريخ ٩: ١٥٤ ـ ١٥٥ / ٤١٧٦، عن الفخري: ٤٤، ولم يذكروا مرحباً، بل إنهم قالوا: إنهعليه السلام صرع رجلاً.

سبحانه وتعالى، وليس في سبيل الثأر، أو من أجل أخذ حقّ شخصي له[1].

المبحث العاشر: وعد الله المؤمنين

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾، وكلمة ﴿وَعْداً﴾ هنا مفعول مطلق، وهو مصدر مؤكّد لمضمون الجملة. ومعنى هذا أن الله يتعهّد بأن يعطي المجاهدين الذين يقاتلون في سبيله الجنّة مقابل أيامٍ معدودات متبقية من أعمارهم يأخذها منهم. فهذا الوعد قد جاء ليؤكّد هذا المعنى، فوعد الله تبارك وتعالى كأنما هو خطاب للمؤمنين المجاهدين مؤدّاه أنكم أيها المجاهدون، إذا ما جاهدتم، وأعطيتم الجهاد الذي افترضته عليكم حقّه، ونفذتموه بشروطه، فإن الله يعدكم بأن يجعل الجنة جزاءكم على هذا الجهاد. ومعلوم أن الجنّة هي عنوان دائم، وجزاء خالد وإن كانت بإزاء مثمّن فانٍ كما ذكرنا في المبحث الخامس.

الوفاء بالوعد

إننا نعرف أن من صفات الإنسان المؤمن وسمات المتخلّق منه بأخلاق السماء والمتأدّب بآداب القرآن وبآداب رسول الله ﷺ وعترته الطاهرين أنه يجب عليه أن يفي بوعده إذا ما وعد، وبهذا فإن خلف الوعد يعدّ أمراً مستهجناً وغير محبوب، فالوعد أمر يجب الوفاء به مهما كان، ومهما كلّف ذلك صاحبه؛ لأن هذا هو الخلق الذي تريده السماء، وبخلافه فإن الإنسان سوف يُذمّ في هذه الدنيا،

---

(١) كما قاتل يزيد الإمام الحسين عليه السلام ثأراً من رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

لست من خندف إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعلْ

الاحتجاج ٢: ٣٤، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧.

فسوف يذمّه الناس وتذمّه السماء؛ ولذا فإننا نجد أن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ينبّه إلى هذا المعنى، ويسعى إلى فكّ أسر الإنسان من إسار لسانه، فيقول: «وَ اعْلَمْ أَنَّ الْكَلامَ فِي وَثَاقِكَ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ صِرْتَ فِي وَثَاقِهِ؛ فَاخْزُنْ لِسَانَكَ كَمَا تَخْزُنُ ذَهَبَكَ وَوَرِقَكَ؛ فَإِنَّ اللِّسَانَ كَلْبٌ عَقُورٌ، فَإِنْ أَنْتَ خَلَّيْتَهُ عَقَرَ»[1].

وهذا يعني أنك تستطيع ألّا تلتزم بأي التزام إزاء الآخرين ما لم تفُه به، فإن فهت به فقد أصبحت موثوقاً إلى ما تفوّهت به ونطقت، وإلى ما حكمت به على نفسك؛ وبالتالي فإنه يجب عليك أن تنفّذ ذلك الكلام الذي نطقت به، أو العهد الذي عاهدت أو الوعد الذي وعدت الآخرين به وقطعته على نفسك. أما في حال أن ذلك الكلام لم يصدر منك، فإنك حينئذٍ تكون معذّراً عن أي شيء، وغير ملزَم للآخرن بشيء من هذه الأشياء؛ لأنك لم تلزم نفسك بها.

إذن بعد التفوّه بالوعد للآخرين فإن من العيب أن يتنصّل الإنسان من الوفاء به لهم، فهذا أمر معيب؛ يعيبه الناس، وتعيبه السماء من قبلُ على صاحبه.

وأراك تفعل ما تقول

يروى أن المنصور الدوانيقي كان في المدينة المنوّرة، وكان الهذليّ عنده، وهو أديب كبير، ونديم من ندمانه، فقال له المنصور: لقد طال عهدي بالمدينة، فهل لك أن نخرج ونتجوّل فيها؟ قال: نعم، نخرج. فخرجا وسارا حتىٰ مرّا علىٰ دار مبنية بناء ضخماً لفت نظر المنصور، فالتفت إليه الهذلي قائلاً: أصلح الله الخليفة، أتعرف لمن هذه الدار؟ قال: لا، قال: هذه لعاتكة التي يقول فيها الشاعر:

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٣٨١.

يـــا دارَ عـــاتكةَ الــتــي أتــغزَّلُ ... خـوفَ العِدىٰ وبـها الفؤاد مُوَكَّلُ

إنِّــي لأمــنحُكَ الصُّدودَ وإنَّـني ... قَسـماً إليكَ مـع الصُّدود لأمْيَلُ

فاستحسن المنصور هذين البيتين، ثم عادا من تجوالهما. فلما كان بعد حين، راح المنصور يفكّر بهذين البيتين، وسبب إنشاد الهذليّ لهما بين يديه؛ فهو يعرف أن الهذليّ من ندماء الملوك، وأنه رجل علىٰ علم وذكاء كبيرين، ولا يمكن أن يلقي الكلام على عواهنه جزافاً؛ لذا راح يسأل نفسه عن سبب استشهاده بالبيتين، فلمّا أعياه الأمر بعث خلف جمع من الأُدباء، وسألهم فيما إذا كان أحد منهم يحفظ هذه اللامية، فوجد من بينهم من يحفظها، فأمره بقراءتها، فقرأها له حتىٰ وصل إلى هذا البيت:

وأراكَ تـفعلُ مـا تـقولُ وبـعضُهُم ... مَـذِقُ اللسـانِ يـقولُ مـا لا يَـفعَلُ

فتذكّر المنصور حينها أنه كان قد وعد الهذلي بدار وجارية وأموال، وأنه إنما أراد ببيتي القصيدة هذين الإشارة إلى بيت القصيد فيها؛ ليذكّره بوعده له، فاشترى له داراً ، ووهبه جارية وأموالاً[1].

إذن فالأمر الذي حدا بالمنصور إلى أن يفكّر ويتأمّل ويتطلّع إلى معرفة السبب الذي من أجله قال نديمه هذا البيت هو معرفته بأن نديمه هذا أديب، وأنه ذو بعد ثقافي. وعليه فبما أنه ليس ممّن يطلقون الكلام على عواهنه دون هدفٍ أو دون غاية، فإن هذا كان داعياً لأن يتأمّل ردّه. حيث اهتدى إلى ما اهتدى إليه من إرساله خلف الأُدباء كما رأينا؛ ليطّلع على القصيدة التي تحتوى هذا البيت كاملة، ومن ثم ليعرف المراد منها كما رأينا.

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٤٠، وذكر أن القصة مع عمر بن عبد العزيز.

وهكذا فما إن سمع المنصور البيت الآنف الذي احتوته القصيدة حتى تعجّب؛ لأنه عرف أن نديمه هذا كان يريد أن يذكّره بوعد قد قطعه له بأن يشتري له بيتاً وأن يزوّجه وأن يُخدمه جارية، غير أنه قد نسي الوعد فما كان من النديم إلّا أن ابتكر هذه الحيلة ليذكّره بها.

لك يا منازل في القلوب منازل

وهذا الأمر ينمّ عن ذكاء ووعي ومعرفة، ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر نجد أن هذه الحادثة شبيهة بأُخت لها أُخرى وقعت بين أبي العلاء المعري وبين الشريف المرتضى (رضوان الله تعالى عليه)، فحينما دخل أبو العلاء المعري إلى مجلس المرتضى ﷺ سمع شخصاً يتنقّص المتنبّي، فقام أبو العلاء وقال: لو لم يكن له إلّا قوله:

لَكِ يَا مَنَازِلُ فِي القُلُوبِ مَنَازِلُ

لكفاه. فغضب الشريف ﷺ، وأمر بالمعرّي، فسحب وأُخرج، فتعجّب الحاضرون من ذلك، فقال لهم الشريف: أعلمتم ما أراد الأعمى؟ قالوا لا. قال: إنما أراد قوله في تلك القصيدة:

وَإذا أَتَتْكَ مَذَمَّتي مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كامِلُ[1]

إذن فنديم المنصور حينما أراد أن يذكّره فإنه ذكّره؛ لأنه كان يعرف أن إخلاف الوعد، وترك الوفاء بالعهد أمران معيبان، ولا ينبغي أن يكونا، فلا ينبغي لأحد أن يعد غيره بشيء ثم يخلفه أو ينساه أو يتناساه:

وأراكَ تفعلُ ما تقولُ وبعضُهم مَذِقُ اللسانِ يقولُ ما لا يَفعَلُ

---

(١) عمدة الطالب: ٢٠٥، الوافي بالوفيات ٧: ٦٤ ـ ٦٥.

الهدف من ذكر هذا المقطع الشريف

وبما أن الإنسان عادة يكون مجبولاً على إساءة الظنّ بالآخرين إلّا من رحم، وأنهم من الممكن أن ينسوا ما وعدوه به فإن القرآن الكريم ـ مع أن المؤمن لا يسيء الظنّ بربّه ولا بنبيّه، لكن هذا من باب التقريب ـ أراد أن يطرد الشكّ من أذهان الناس، وأن يبيّن لهم بأنه ذاكر لهم ما وعدهم به، فراح يخاطبهم بأنه قد وعدهم قاطعاً بذلك عهداً لهم عليه بأن يعطي الجنّة للمجاهدين والشهداء الذين يقتلون في سبيل الحقّ.

المبحث الحادي عشر: بشارة الله المؤمنين في كتبه

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿**فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾، إن الكتب السماوية كلّها وبأجمعها تؤكّد على حقيقة واحدة هي أن الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يخلف وعده؛ لأن خلف الوعد أمر معيب كما ذكرنا، وهو يستلزم النقص الذي يجب أن يُنزّه الله سبحانه وتعالى عنه. فكلّ ما يوجب النقص يجب أن ينزّه عنه الذات الأقدس، وعليه فإن الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يخلف وعده الذي وعد المؤمنين به.

بين الوعد والوعيد

هذا فيما يخصّ الوعد، أما فيما يخصّ الوعيد فانه بحسب المقتضى لا يجب الوفاء به، بل يجوز أن يخلفه صاحبه. وعليه فإن الله تبارك وتعالى يمكن أن يخلف وعيده إذا ما أوعد عباده بشيء من العذاب، فخلف الوعيد ليس عيباً البتّة بل إنه ربّما عدّ فضيلة؛ لأنه دفع للأذى عمّن أُوعد به. فمعلوم أن الوعد يكون بالخير أو بالثواب أو بالجنة، أما الوعيد فلا يكون إلّا بالشرّ والعقاب، أو بالنار،

أو بإيقاع الألم على من يُتوعّد به. وبناء على هذا فإن لكل أحد أن يخلف وعيده دون وعده، وكذلك الله تبارك وتعالى ربّنا؛ فإنه من رحمته يمكن أن يخلف وعيده فلا يوقعه على عباده(١).

فالله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللهِ﴾، أي أنه جلّ شأنه هو الذي يمكن أن ينتظر منه الوفاء أكثر من غيره؛ لأنه ربّ الوفاء، وهو الله خالق كلّ صفة حسنة، والآمر بها والناهي عن ضدّها.

المبحث الثاني عشر: النهضة الحسينية المباركة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، إننا نعيش هذه الأيام أجواء الحالة الاستشهادية والجهادية الراقية والسامية التي خلقها الإمام الحسين عليه السلام بنهضته المباركة، وركّزها في أذهاننا، بما تكتنزه من مفاهيم إلهية، وقيم مشحونة بدواعي طلب الرضا الإلهي، فكان أن أوحى إلينا عبرها بأن الحياة لا قيمة لها، وأنه ليس هناك من شيء يستحقّ أن يوليه المرء عناية واهتماماً إلّا الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى. ونحن اليوم على أعتاب أربعين الإمام أبي الشهداء وسيدهم، وأبي الأحرار، أبي عبد الله الحسين عليه السلام.. اليوم الذي أُرجعت به الرؤوس الكريمة إلى موضع العزّ والكرامة.. الرؤوس التي أبت أن تخضع للذّل وإلّا أن تسيح في ملكوت الشهادة وتسبح في فضاء القيم ومبادئ السماء.

---

(١) وقد مر مناقشة ذلك، ورأي صاحب الميزان فيما سلف من هذه الموسوعة الشريفة، حيث ذكر رحمه الله أنه إنما جاز خلف الوعيد دون الوعد؛ لأن خلف الوعيد في حقيقته هو تنازل صاحب الحقّ عن حقّه في إيقاع العقوبة على غيره ممّن يستحقّها، أما خلف الوعد، فهو إن وقع فإنه يعني سلب الآخرين حقوقهم التي وعدوا بها.

عطاء الله للامام الحسين وأصحابه

إذن فالذي ينبغي هو أن نعيش هذه الحالة مع هؤلاء الشهداء الذين اشترى الله عزّ وجلّ منهم أنفسهم، وفي طليعتهم أبو الشهداء وسيّد الأحرار؛ لنعرف مدى عطاء الله تبارك وتعالى لهم.

إننا نعرف ونعتقد بيقين كامل أن الله جلّ شأنه لم يعطِ الإمام الحسين وأصحابه الجنة فقط، فالجنة أمر مضمون له؛ ذلك أن الله جلّ وعلا قد ضمنها لهم بما أعطى من وعد، وبما قطع لهم من أمرٍ هو أنه سوف يعطي الجنة لمن يقاتل في سبيله. كما أنّ كتب السير تحدّثنا أن جدّه رسول الله قد ضمن له ذلك أيضاً، وأخبره به عبر تلقيبه إياه بسيد شباب أهل الجنة[1]. لكننا مع ذلك نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الإمام الحسين عطاءً لا حدود له غير الجنة التي وعده بها جزاء له على تضحيته بنفسه، وبأهل بيته، وبأصحابه، وبعياله، وبكل ما يملك في سبيله، فالله تبارك وتعالى قد أعطاه في الدنيا عطاء لا حدود له ولا نفاد، وذلك بأن منحه تلك المساحة العريضة التي جعلها له في نفوس المؤمنين وقلوبهم وعقولهم حيث تربّع على عروشها بما فرضه ولاؤهم له.. ذلك الولاء الذي فرضه عليهم إيمانهم بمشروعية حركته وعدالة قضيته، ودعم السماء لها على لسان سفيرها الأكرم نبيّنا محمّد، فكان بهذا يعيش في ضمائرهم، وفي مشاعرهم وعواطفهم. وكذلك كانت له تلك العروش عبر ذلك الحجم الهائل

---

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥: ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجة ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحيح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

من تقدير المؤمنين له، وتكريمهم إياه؛ لأنه ﷺ كان يمثّل الشعائر التي نُحرت بسيوف الجاهلية الأُموية، فأراد ﷺ أن يبثّ فيها الحياة، ويعيدها إليها من جديد بدمه الطاهر الذي أراقه دفاعاً عنها، وكان يمثّل المشاعر التي ضحّي لأجلها بعد أن عبثت بها أهواء الطواغيت تحت غطاء الخلافة، ويمثّل النفوس والعقول بما استأثر به من سمات البطولة والجهاد والشهادة.

وهكذا فإن لواءه الذي رفعه كان لواء يشير إلى المجاهدين، ويختطّ لهم درباً موصلاً إلى الله تبارك وتعالى، ومبيّناً لهم بأن دربهم هو درب السعادة والخلود والذكر الحسن، والحياة الحقيقية. إن الدماء التي أراقها ﷺ قد أخذت أثرها واضحاً بيّناً في هذه الدنيا بما لها من تأثير واضح الملامح على النفوس الخيّرة، وبما رفعته من شعار التحرّر من نَير الظلمة، كما أنها ألقت بنورها على تلك الدروب التي يريد أن يسلكها طالبو النصر أو الشهادة مشعلاً ينيرها لهم، يقول أحد الأُدباء:

الجراحات والدم المطلولُ ... أينعت فالزمان منها خميلُ

ومضت تنشئ الفتوح وبعض الـ ... ـدم فيما يعطيه فتح جليلُ

والدم الحرّ مارد يُنبئ الأحـ ... ـرارَ والثائرين هذا السبيلُ

وحديث الجراح مجدٌ وأسمى ... سِيَر المجد ما روته النّصولُ

ثم عذراً إن تهتُ يا دم يا جر ... ح فقد أسكر البيان الشمولُ

يا أبا الطف يا نجيعاً إلى الآ ... ن تهادى على شذاه الزُّمولُ

توّج الأرض بالفتوح فللرمـ ... ـل على كلّ حبةٍ إكليلُ

أرجفوا أنك القتيل المدمى ... أوَمَن ينشئ الحياة قتيلُ

كذبوا ليس يُقتل المبدأ الحـ ... ـرّ ولا يخدع النُّهى التضليلُ

كذبوا لن يموت رأيٌ ونور الـ ـشمس من بعض نوره تعليلُ
كذبوا كلُّ ومضة من سيوف الـ ـحق في فاحم الدُّجى قنديلُ
كلُّ عرق فرَوه لَهْوَ بوجه الـ ـظلم والبغي صارمُ مسلولُ
ويموت الرسول جسماً ولكن في الرسالات لن يموت الرسولُ
يا أبَا الطف ساحة الطف تبقى وعليها مَشاهدٌ لا تزولُ
فهنا والنبيُّ يرقب شلواً مزقته قناً وداست خيولُ
يزدهيه بأنه وحسين قصة الأمس والغد الموصولُ
وبأن الرُّوح الذي حمل السِّبـ ـط تراث من النبي أصيلُ
وهنا حشْد آل حرب وللخسّـ ـة في كلِّ ما به تدليلُ
يتهادى كأنه أحرز النصـ ـر ولم يدرِ أنه المخذولُ
وعليه من الجدود بقاياً هي لؤم وحطة ونزولُ
وهنا حشد هاشم وهو جذر ينتمي للشذا وطبع نبيلُ
وستبقَى الدُّنيا وللوضر النتـ ـن قبيل وللسموِّ قبيلُ[1]

إذن فالإمام الحسين﵇ قد أخذ المجد والخلود بما حصل عليه من عروش تربّع عليها في قلوب المؤمنين.. عروش نُحتت له في تلك القلوب من مشاعر أصحابها، ومن إيمانهم بولايته واعتقادهم بأنه﵇ ضرورة سماوية كان لابدّ أن تتحرّك لترفع مشعل السماء وعلم الحقّ، ومن عاطفتهم وحبّهم إياه؛ لأنه﵇ كان مثال العزّة ومثال التضحية ومثال الإباء ومثال الشهادة والجهاد.. أخذ تلك المساحة الكبيرة لأنه كان أهلاً لها بما قدم من دمه ودماء أهل بيته وأصحابه

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠. والوضر: وسخ الدهن واللبن، وغسالة السقاء والقصاع، وغيرها. العين ٧: ٥٤ ـ وضر.

وعائلته.

الأسى واللوعة في فاجعة الإمام الحسين عليه السلام

لكننا مع ذلك نقول: إن مع كلّ ما أخذه الإمام الحسين عليه السلام مما ذكرنا ومما لم نذكر فإنه عليه السلام أخذ مساحة أُخرى واسعة من الحزن والأسى واللوعة.. مساحة من كلّ ذلك نحتت له بأزميل الحبّ والولاء في قلوب محبّيه وأتباعه؛ لأنه قد نُحر كما نُحر أهل بيته وأصحابه نحر الأضاحي دون رحمة أو رأفة، وقد دُكّت تلك الأجساد الطيّبة الكريمة بسنابك الخيل، يقول محمد بن الحنفية مخاطباً إياه بالزيارة: «فطبت حياً وطبت ميتاً، غير أن قلوب المؤمنين غير طيبة لفراقك، ولا شاكة في الخيرة لك»[1].

فيا سيدي يا أبا عبد الله، لأنت حيّ في قلوب المؤمنين، بل أنت الحياة نفسها، فمن غير السهل أو اليسير على الإنسان أن يفارق من يمثّل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويمثّل رسالته وخطّه ومنهجه.

وهكذا فكما عندنا اليوم مساحة كبيرة للفخر؛ لأن هذا اليوم هو عنوان الشهادة وعنفوان الدم، فإن عندنا مساحة عريضة للّوعة والحزن والأسى.. اللوعة والأسى لأجل تلك العائلة الكريمة التي سبيت من غير ذنب ودون مراعاة لقرابتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها.. تلك العائلة التي رجعت إلى مضاجع القوم وما كاد بصرها يقع على تلك القبور المتناثرة حتى انبرت تلك النساء يتراكضن نحوها، فكانت إحداهن تقوم من قبر وتجلس عند قبر آخر. أما حال السيدة العقيلة زينب الكبرى عليها السلام، فكانت تتنقّل بين قبر أخيها أبي عبد الله

---

(١) كامل الزيارات: ١١٨، تهذيب الأحكام ٦: ٤١ / ٨٥، تنبيه الغافلين: ٩٠، بحار الأنوار ٦٥: ١٣١، ٩٨: ١٩٦.

الحسين وبين قبر أخيها أبي الفضل العباس، وبين قبور أولاد إخوتها وأبنائها، وهي تجرّ معها لوعتها وحسرتها، فكانت تتلفّت يميناً وشمالاً لتسأل الإمام السجاد: «لمن هذا القبر؟ ولمن هذا القبر؟ ولمن تلك المصارع؟».

يا نازلين بكربلا هل عندكم   خبر بقتلانا وما أعلامُها
ما حالُ جثةِ ميتٍ في أرضِكم   بقيت ثلاثاً لا يزار مقامُها
باللهِ هل واريتموها في الثرى   وهل استقرّت في اللحودِ رمامُها[1]

وما إن دلّها على قبر الحسين حتى ألقت بنفسها عليها وهي تحتضنه، وراحت تأخذ من ترابه وتقبّله، وراحت تشكو آلامها لأخيها، ثم جاءت إلى بقية القبور من أهل بيتها والشهداء تزورهم وتودّعهم. وأقامت على ذلك ثلاثة أيام، حيث جاءها الإمام السجاد وانتزعها من بين تلك المصارع انتزاعاً، فقد خشي عليها من أن تموت فوق تلك المصارع وقال لها: «عمّة قومي». قالت: «إلى أين؟». قال: «إلى المدينة». قالت: «ومن ذا بقي لي في المدينة؟».

يناعي اشبعد تدري شبكالي   وشخلّفت عندي الليالي
بيت وبگه من الزلم خالي

ثم جذبت نفسها وألقت بها مرّة ثانية على تلك القبور تودّعها، وتوزّعت النساء على القبور كذلك؛ فتوجّهت ليلى إلى قبر علي الأكبر، وتوجّهت رملة إلى قبر القاسم، وتوجهت كلّ امرأة منهن إلى قبر عزيزها، أما الحوراء زينب الكبرى، فقد طافت على القبور كلّها بأجمعها، ثم توجّهت ثانية إلى قبري أخيها الإمام

(١) وفيات الأئمة: ١٦٧.

الحسين وأبي الفضل العباس عليهما السلام؛ لتشكو إليهما ما قد ألمّ بها، ثم احتضنت قبر الإمام الحسين عليه السلام، وراحت تسكب عبراتها عنده:

مظلومة مقهورة مضروبة ... مسلوبة حتى الخمار وبرقعي

أُأخي ما عوّدتني منك الجفا ... فعلامَ تجفوني وتجفو من معي

أنعِم جواباً يا حسينُ أمَا ترى ... شمرَ الخَنا بالسوط ألهبَ أضلُعي

* * *

يخويه الشمر والله هضمني ... ضربني على متوني وشتمني

لا انكسر گلبه ولا رحمني

* * *

ثم أخذت حفنة من تراب القبر وشمّتها ثم قبّلتها:

خوية اجينه وعلى گبرك گعدنه ... ونخيناك يا عزنه وضمدنه

هذه المحامل گوم ردنه ... لعند المدينة مقام جدنه



﴿٢٤﴾

الإسلام والمشركون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[1].

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: نحو فهم صحيح لمفاهيم القرآن

إن من لا يملك إلماماً كافياً بجوانب القرآن الكريم ومواضيعه، وليس له أدنى فكرة عن كيفيّة رصد مفاهيمه بشكل يتناسب مع الإرادة الجدّية للسماء، فإنه سوف لن يستطيع أن يتعرّف أسرارَ تلك المفاهيم، أو الجوانب القرآنية والمعارف الإلهية المودعة فيه.

ومن هذا على سبيل المثال نزول السور؛ فمن المعلوم أن بعض السور نزولها مكي، وبعضها نزولها مدني، وهذا معنى أن يقال: هذه السورة مكية، أو: هذه

(١) الرعد: ٤٣.

السورة مدنية. لكن الأمر يجب ألّا يتوقّف عند هذا الحد؛ ذلك أن البعض ممن يلوّح للآخرين بأن هذه السورة هي سورة مكية، وبأن السورة الفلانية هي سورة مدنية ربّما يحسن الكثيرون الظنّ به بإعطائهم إياه ثقة مصدرها إبرازه نفسه لهم بصفة باحثاً قرآنياً يقوم بتصنيف هذه السور حسب مكان نزولها على أساسٍ من الواقع، فيطمئنّون إلى قوله ذاك، ويعملون به في أُمور دينهم، ويأخذونه على محمل الجدّ والاعتقاد الكامل.

والسبب في ذلك هو أن هذه الأغلبية من الناس ليس لديها الخبرة العلمية، والرؤية القرآنية الكافية في معرفة القول الصحيح حول نسبة بعض السور أو بعض الآيات إلى إحدى هاتين المنطقتين المشرفتين، أعني مكة والمدينة. أما إذا كان عند شخص ما الخبرة الضرورية لذلك، إضافة إلى أساسيات المعرفة التي يستطيع أن يميز بها بين القول الصائب من غيره، فإنه حينئذٍ لا يأخذ كلّ قول يقال في هذا المجال على أنه قول حقّ لا خطأ فيه، وبالتالي يعتقده ويدين الله به.

فعلى كلّ مسلم يريد أن يلج باب العلم أن يتوجّه إلى أن هناك أشياء كثيرة تتّضح له من خلال معرفة الجوّ العام للسورة، وأن يعرف ذلك، والمناخ الذي نزلت فيه لمعالجته، أو ما يختصّ بها من متعلّقات يمكن أن تفيد الإنسان العامي فضلاً عن الباحث في معرفة دقائق هذه السورة وحقائقها، ومعرفة جوانبها ومكان نزولها. وهذا الأمر سوف نوضّحه من خلال المباحث القادمة المتعلّقة بهذه الآية الكريمة إن شاء الله تبارك وتعالى.

المبحث الثاني: في مكان نزول السورة الشريفة

إن هذه السورة المباركة هي سورة مكية، أي أنها نزلت في مكة، لكن هناك ثلّة من أصحاب التفسير يذهبون إلى أنها سورة مدنية. والسبب في ذلك كما لا يخفى مما سوف نتطرّق إليه هو أن فيها قضية ترتبط بعلي بن أبي طالب ﷺ، وهؤلاء

يريدون أن يزحزحوها عنه ويقدّموها على طبق من فضة لغيره، فكان أن نعتوها بأنها مدنية لا مكية.

موقف المسلمين من علي بن أبي طالب عليه السلام

وهذا الأمر يحدو بنا إلى التساؤل عن السبب الذي من أجله يقف البعض من المسلمين هذا الموقف المتشنّج من أمير المؤمنين عليه السلام، فهؤلاء كلّما وجدوا شيئاً في القرآن الكريم يخصّه عليه السلام فكأنما تخنقهم تلك المنقبة، فكلّ منقبة له عليه السلام هي مورد لإثارة الحقد في نفوسهم[1]. ولتوضيح هذا الأمر لابدّ من أن نتناول أولاً وقبل كلّ شيء فصول آية المقام الكريمة فصلاً فصلاً؛ لنعرف المغزى من ذلك، والهدف منه، والأسباب الكامنة وراءه.

المبحث الثالث: التكذيب بالرسالة وأسبابه

تقول الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾، وهذا المقطع الشريف يبيّن لنا بأن مشركي مكة قد واجهوا الرسول صلى الله عليه وآله بإنكار رسالته وبتكذيبه، مدّعين بأنه ليس بنبي ولا مرسلٍ، وأن الله تعالى لم يبعثه إليهم. وعند الرجوع إلى المصادر المختصّة نجد أن هؤلاء إنما ادعوا هذه الدعوى لسببين:

السبب الأول: عدم تغيير معجزته صلى الله عليه وآله

ذلك أن هؤلاء قد طلبوا منه (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يغيّر معجزته من القرآن إلى كونها معجزة أُخرى غيره. وبديهي ومعلوم أن الذي جوبهوا به هو

---

(١) إن هناك شواهد كثيرة حول ما يتعلق في هذا الأمر نذكر منها على سبيل المثال مذهب ابن تيمية في أن سورة الدهر هي سورة مكية وليست مدنية. وقد مرّ بيان هذا الأمر وأقوال العلماء فيه في الأجزاء المتقدّمة من هذه الموسوعة الشريفة.

الرفض القاطع.

والسبب وراء طلبهم ذلك هو أنهم أدركوا خطر القرآن عليهم وعلى معتقداتهم، فالقرآن الكريم فيه حقائق كثيرة، وينطوي على معارف متنوّعة لا يتّسع لها عصرهم كما هو معروف، بل ولا حتّى تلك العصور التي تلته[١]. فأدركوا تلك الأهمية العظمى له، كما أدركوا ضخامة مضامينه وعظمة مفاهيمه ومعانيه ومحتواه[٢]، وهذا كان سبباً كافياً بالنسبة لهم للوقوف بوجهه، ومحاصرة تلك المفاهيم والمضامين لوأدها وهي لمّا تزل في مهدها.

وهنا هداهم تفكيرهم إلى أن يتوصّلوا إلى شيء يوقفون به المدّ القرآني، وهو مطالبة الرسول الأكرم بتغيير معجزته، بعد أن رأوا أن من الأفضل فعل ذلك، وتنحية هذا المعجز من طريقهم؛ لما يشكّله من خطر يحدق بهم وبمعتقدهم الباطل؛ إذ عرفوا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا أمامه، ولا أن يواجهوه أو أن يأتوا بمثله بعد أن ادّعوا ذلك، وجاءهم التحدّي من الله تبارك وتعالى. لقد رأوا أن هذا الكتاب عظيم في كلّ شيء، فقد كان يتوغّل إلى القلوب والأسماع، فيحدث ثورة داخل النفس، ومن هنا فقد استشعروا خطره المحدق بهم، وأحسّوا بامتداد ذلك الخطر يسري في مجتمعهم سريان النار في الهشيم؛ ولذا فإنهم عمدوا إلى أن يطالبوا الرسول الأكرم بأن يغيره إلى معجزة أُخرى. ونحن نعرف جواب هذا

---

(١) وهنا نستذكر قول ابن عباس: إن القرآن يفسره الزمن. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٦: .

(٢) حينما سمع الوليد بن المغيرة من النبي الأكرم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...﴾ [النحل: ٩٠] قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمونق وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما يقول هذا بشر. مناقب آل أبي طالب ١: ٤٩، مجمع البيان ٦: ١٩٢، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٦٥، ١٧: ١٥١، ١٩: ٧٤.

الطلب الّذي أدلوا به، وردّ به الرسول الأكرمﷺ عليهم حوله.

القنوات الصحيحة وبناء الإنسان المسلم.

وبعد أن عجز المشركون عن إقناع النبيﷺ بتغيير معجزته، راحوا يتّبعون معهﷺ أساليب أُخرى تهدف في النتيجة إلى الحدّ من تأثير القرآن الكريم وانتشاره، أو لا أقلّ من منع استماع الآخرين له، بل سماعه. ومن هذا أنهم حينما كان النبيﷺ يقرأ القرآن الكريم في المسجد الحرام أمام الناس لإسماعهم إياه، كانوا يثيرون ضجّة وجلبة وضوضاء عالية؛ لكي يمنعوهم من الاستماع إليه[1]. ونحن نعرف أن هذه كلّها أساليب فاشلة لا يمكن أن تمنع صوت الحقّ أن يزلزل عروش الطغاة، ويسارع ليقرع أسماع المقهورين والمضطهدين، ويناغي عقولهم، داعياً إياهم إلى الايمان به؛ لأن هذا يعني أن هؤلاء يريدون أن يغلقوا آذان الآخرين عن سماع المنفعة الفكرية، وعن العلم الإلهي الحقّ، وعن قسطاس الأخلاق وموازين القيم.

التاريخ يعيد نفسه

وعند التدقيق في الأُمور التي تحدق بنا الآن، فإننا نجد أن هذا الأمر لم يكن حكراً على قريش أو مقتصراً عليها، كما أنه لم يكن موجّهاً ضدّ القرآن الكريم فقط، بل إننا نجده أُسلوباً عامّاً، ومنهجاً متّبعاً ـ حتى في عصرنا الحاضر ـ ضدّ كلّ قناة من شأنها أن تنير للإنسان دربه، والتي يمكن أن يستفيد منها الفرد المسلم. فالقنوات النظيفة والسليمة من كلّ خطأ ومن كلّ رينٍ، وغير الملوّثة

---

(١) قال عزّ من قائل في كتابه الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فصلت: ٢٦.

بالأمراض التي يمكن أن تعتري العلم والأخلاق تحاول بعض الجهات الوقوف بوجهها وغلقها؛ محقّقة عبر ذلك النهج العدائي لها، والهدف الذي تسعى لتحقيقه، هو منع إيصال الإسلام الصحيح، أو الهدف الخيّر، أو المنفعة الدينية إلى كل إنسان، ووصولها إليه؛ مسلماً كان، أو غير مسلم.

وسائل الحجر على عقول الناس

وبهذا اللون من الممارسات التعسّفية ضد كلّ فكر حرّ نجد أن سياسة التعتيم على الحقائق، وتعويم المفاهيم والقيم عند كلّ من لا يستسيغ فكرة تخالفه في الرؤية هي سياسة واضحة وظاهرة، وتمارس بشكل عدائي صارخ على جميع القنوات التي تنحو منحى القرآن الكريم وتحذو حذوه، وتختطّ منهجه، وتسير على خطاه. ولذا فإننا نجد أن الأيدي العابثة، والأفكار الضالّة المضلّة والمنحرفة تسعى إلى تسميم أذهان الناس بإغلاق مثل هذه القنوات الحرّة، أو بقطعها والحؤول دون وصول ما فيها من حقائق، أو من علوم حقّة، أو من خير إلى من ينتظرون منها أن توصل إليهم تلك الحقائق والعلوم والمعارف الإلهية. ويمكن تصوير هذا الأمر على نحوين هما وسيلتان يتّبعهما هؤلاء للوصول إلى مبتغاهم في الحجر على الأذهان والعقول، وهاتان الوسيلتان هما:

الأولى: تحريم قراءة بعض المطبوعات

وكمثال على ذلك ما نجده من صيحاتٍ عند كثير ممن يتتبّع خطا هذه القنوات، ليحاول عرقلة مسيرتها أو إغراقها، فينادون مثلاً بأنه يحرم قراءة هذا الكتاب مثلاً، أو لا يجوز متابعة المجلة الفلانية، وهي المجلة التي تكون ذات طابع ديني عادة، لا لشيء إلّا لأنها لا توافقهم الرؤية والميول. والحال أن الفرد المسلم

يجب أن يكون متفتّحاً على الواقع، ومنفتحاً على المعارف والعلوم والأفكار ومعتقدات المذاهب الأُخرى؛ كي يتمكّن من أن يصون دينه ومذهبه وعقيدته ضدّ من يحاول أن يخدشها عنده، أو أن يردّه عنها، أو أن يصدّه عن الاستمرار في طريقها أو اتّباعها.

وبخلاف هذا فإننا نقول: ما المانع مثلاً من أن نقرأ كتاباً حتى وإن كان يحمل فكراً إلحادياً مثلاً ما دام هذا الكتاب يمنحنا المناعة ضدّ أفكار كاتبه؛ إذ تدلّنا قراءته على عوراته وعورات صاحبه، وتنتهي بنا إلى مواطن الخطأ ومكامن التهافت فيه، وذلك عبر معرفة الطريقة التي يفكر فيها، والكيفية التي تمتدّ أصابعه الآثمة فيها إلى عقول الناس لإضلالهم، وبالتالي مواجهتها ومحاربتها والقضاء عليها[1]؟

وهكذا فإن قراءة مثل هذه الكتب حتماً ستكون ذات منفعة تعود على الإنسان في دينه، ولا أقلّ من أن تكون منفعة سلبية بمعنى أنها تمنع صاحبها من الوقوع في شراك ذلك الإنسان بعد أن يعرف مواطن الخطأ عنده، والالتفاف على الحّق في أُسلوبه. وبعد أن يهتدي إلى ذلك يمكن أن تصبح المنفعة إيجابية عبر تعرّفه السبيل الصحيح لمواجهته، وتيقّظه إلى الكيفية التي يتمكّن بها صاحب تلك الأفكار من الوصول إلى أذهان الناس ليعيث فيها؛ كي يحاربه ويوقفه.

---

(١) وهذا يمثل له وفق متطلبات العلم الحديث باللقاحات المستعملة ضد الأمراض حيث يحقن الصحيح بلقاح مأخوذ من عيّنة من الجراثيم المسببة لذلك المرض، لكنها جراثيم ضعيفة كي يتمكن الجسم من مقاومتها والقضاء عليها، وبالتالي فإنه يتمكن من معرفة الكيفية التي يخطط بها ذلك المرض للقضاء على جسم الإنسان وقتل خلاياه، بمعنى أنه يعرف المنهجية أو الآلية التي تتبعها خلايا جرثومة ذلك المرض في مهاجمة الجسم الإنساني، وبالتالي يتمكن من مجابهتها ومكافحتها والقضاء عليها.

الثانية: منع الناس من دخول أماكن معيّنة بحجة أنها أماكن ضلال

كما أن من موارد محاربة قنوات الخير أن يعمد البعض إلى التصريح بتحريم قصد بعض الأماكن والتوجّه إليها؛ بدعوى أنها أماكن ضلال وفتنة، ولا يمكن أن تعود على صاحبها إلّا بخسران دينه؛ لأن المتبنّين لها، ولما يدور فيها من طرح للأفكار والمفاهيم، وما يحصل فيها من نقاشات هم أُناس كفّار في نظره. مع أننا لو نظرنا إليها بعين العدل بعيداً عن الأهواء الضالّة لوجدنا ما يعنيه هؤلاء ممّا يقصد البعض إنما هي مؤسسات دينية إسلامية تهتمّ بالفكر وبالثقافة الإسلاميّين، وتسعى إلى نشر الوعي الإلهي بين الناس وترغيبهم فيه. ومع أن المكفّر يعرف هذا جيداً إلّا إنه ـ ربما لأسباب تخفى أو لا تخفى ـ يحاول أن يموّه تلك الحقائق؛ ليصل إلى هدفٍ معين يبتغيه.

ولعلّ أبرز ما يتذرّع به هؤلاء المكفّرون أو المنادون بضلال الناس أن هذه المؤسسات تختلف معهم ببعض الأُمور؛ سواءً على مستوى الرأي، أو الفروع الفقهية، مع أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يفسد في الودّ قضية، ولا أن يؤدّي إلى هذا الاختلاف والتنافر، والتباعد والتباغض، وتفريق الكلمة، وهو ما نجده الآن سمة بارزة وعلامة قاتمة تشكّلان الجانب الأكبر من طبيعة المجتمع الإسلامي، والوجه البارز للروح التي تحكم العلاقات بين المسلمين، وكلّ ذلك كان ولا زال حاصلاً بين المجتمعات الإسلامية بفعل هؤلاء[1].

(١) الذين صرّح عن صفتهم رسولنا الأكرم ﷺ في بعض أحاديثه الشريفة بقوله: «دعاة على أبواب جهنم»، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشرّ؛ مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟ قال: «نعم». قلت: وهل بعد ذلك الشرّ من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن». قلت: وما دخنه؟ قال ﷺ: «قوم يهدون بغير

إن على هذا المكفر أن يستمع إلى أفكار الآخرين، وأن يناقشها بعقلانية ومنهجية علمية، وأن يجعل من نفسه شخصية تتّصف بعقلية منهجية أكاديمية لتّتسع لأفكار الغير ولمناقشتها، وتصويب ما هو صائب منها، وتخطئة ما هو مخطوء منها.

إن هذا يعني أن على كلّ إنسان ـ إن كان ينشد الحقّ ـ تحت أي ظرف أن يشغّل عقله، وأن عليه أن يستثمره في مثل هذه الموارد؛ لأنه الهبة التي تعبّدنا الله تبارك وتعالى، وأمرنا بأن نستثمرها في هذه المواقف؛ لنعرف الحقّ من الباطل، ولنعرف أن هؤلاء الذين يُنادى بتكفيرهم هل إنهم يعملون أشياء تنافي الإسلام، أو يقولون بمثل ذلك، أم أنها لا تنافيه؟

قولبة العقول

وهنا لنا أن نسأل هؤلاء ونقول لهم: لماذا تحجرون على الفرد المسلم، وتمنعونه من أن يغتسل بينبوع المعرفة؟ ولماذا تحجرون على عقله وتدعونه إلى التمسّك بأشياء ربما ـ إن لم نقل إنها كذلك ـ لم تكن صحيحة؛ فتخالف السماء، أو تخالف العقل؟ ولماذا تحاولون أن تفرغوا عقدكم عليه، وترسموا له الإطار الّذي ترون أنه يجب أن يكون فيه، والذي تريدونه أنتم له؟

إن عليكم أن تعرفوا بأن هذا المنهج الذي تتبعونه، وهذه الوسائل التي تختطّونها إنما هي مناهج ووسائل فاشلة لا تصمد أمام الحقّ وأمام انتشاره بين

هدى، تعرف منهم وتنكر». قلت: فهل بعد ذلك الخير من شرّ؟ قال ﷺ: «نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها». قلت: يا رسول الله، صفهم لنا. قال ﷺ: «هم من جلدتنا، ويتكلّمون بألسنتنا». صحيح البخاري ٨: ٩٢ ـ ٩٣، صحيح مسلم ٦: ٢٠، السنن الكبرى (البيهقي) ٨: ١٥٦.

الناس. ودليل هذا أن المشركين قد استعملوا هذه الوسائل كافّة مع الرسول الأكرم ﷺ كما أسلفنا، فلم يفلحوا فيها، ولم يتمكّنوا من أن يقفوا بوجه الحقّ، أو أن يحولوا دون أن يُسمع، ودون صوت السماء أن يدخل كلّ بيت من بيوت هذه المعمورة.

لقد كان من شأن القرآن الكريم أنه إذا ما سمع أحد شيئاً منه أثّر فيه تأثيراً كبيراً؛ مما يكون سبباً ووسيلة لهدايته وقربه إلى الله تبارك وتعالى.

إذن لقد أدرك المشركون هذا الخطر المحدق بهم، فراحوا في محاولة للوقوف بوجه المدّ القرآني، والامتداد السريع لكلمة السماء يغلقون الأبواب دون ذلك الصوت المجلجل، ودون الكلمة الصادقة الهادفة، ظانّين أنهم بذلك الأمر إنما يغلقون أبواب العقول دونه إلى الأبد، فيهدأ بالهم، ويلقون عن كاهلهم عبئاً كبيراً طالما رأوا أنه يقضّ مضاجعهم.

السبب الثاني: تغيير القبلة عن بيت المقدس

كما أن بعضاً من الكفّار ـ ومنهم اليهود ـ قد طلبوا من النبي ﷺ أن يرجع في صلاته مستقبلاً بيت المقدس، وأن يتخلّى عن القبلة التي تحوّل إليها عن بيت المقدس، وهي الكعبة المشرفة. ومعلوم أنه ﷺ قد توجّه إلى هذه القبلة المشرّفة بأمر من الله تبارك وتعالى في الفترة التي كان يتوجّه بها هو والمسلمون إلى بيت المقدس، فنزل قوله تعالى: **﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾**[1].

---

(١) البقرة: ١٤٤.

وعلى أثر نزول هذه الآية الكريمة، وبأمر منه جلّ شأنه نقل النبي الأكرمﷺ القبلة إلى الكعبة. فما كان من هؤلاء إلّا أن اعتبروا هذه العملية بمثابة طعن لهم؛ لأن كون النبي الأكرمﷺ يصلّي إلى بيت المقدس فهذا يعني أمرين:

الأول: الاعتزاز بهذا البيت المطهّر، وأنه بيت عظيم ومقدّس، وله مكانة وقيمة في قلوب الناس، وبالتالي فإن هذه المنزلة سوف تعود عليهم؛ لأنهم (اليهود) يظنون أنها قبلتهم هم.

الثاني: أن الدين الإسلامي تبع لدينهم؛ لأن المسلمين يصلّون إلى قبلة يرون أنها قبلتهم.

ولهذا فإنهم قالوا لهﷺ: ارجع إلى قبلتك الأُولى، واترك هذه القبلة الثانية التي تتوجّه إليها الآن.

أولى القبلتين وثالث الحرمين

والذي يتراءى لنا من هذا المقطع الشريف أن هؤلاء المعترضين كانوا إما يهوداً كما ذكرنا، أو نصارى، فكانوا يحاولون بكلّ وسيلة أن يشعروا المجتمعات الأُخرى بأنهم أصحاب الحقّ الوحيدون بهذا البيت الطاهر. وببالغ الأسف أقول: إن هذه القبلة المطهّرة.. القبلة الأُولى هي مكان مقدّس، لكنها ستبقى سبّة في أعناقنا إلى أن ننقذها من أيدي اليهود، ونحرّرها منهم بشكل كامل، وبخلافه فإنها ستظلّ تشكّل وصمة عارٍ على المسلمين جميعاً، يقول أحد الشعراء:

ولشدما يؤذي الكرامة أن نرى ... صوت المساوم بالكرامة يرفعُ

هذي رحاب القدس منذ ترنحت ... صرعى إلى زعقاتنا تتسقعُ

تصحو على نوء فتتلع جيدها ... وتراه من خدع السحاب فتهطعُ

عشرون كفّاً حرّة ما أوقفت ... مهوى يد مغلولة إذ تصفعُ

الشوط تغرقه السروج وإنه دون السروج لفارس يتطلعُ

كنا نهبّ على الزعيق ومذ طغى صرنا ننام على الزعيق ونهجعُ[١]

فهؤلاء كانوا يعربون بهذا الاقتراح عن ألمهم، وعن مبلغ أذاهم في ترك النبي ﷺ التوجّه إلى القبلة الأُولى وهي بيت المقدس المطهر، والتوجّه إلى القبلة الثانية وهي الكعبة المشرّفة. فكانوا ينكرون على النبي ذلك ويسألونه: لماذا رغبت عن هذه القبلة، وتركتها إلى غيرها؟ إن عليك أن تعود إليها، وأن تتوجّه في صلاتك نحو بيت المقدس. فما كان من النبي ﷺ إلّا أن بيّن لهم أن هذا الأمر ليس بيده، وإنما هو أمر يختصّ بالله تبارك وتعالى، فهو الذي يوجّه عباده، وهو الذي يأمرهم وهو الذي ينهاهم سيما فيما يتعلّق بالأُمور العبادية، وأنه ليس إلّا الرسول المبلّغ، وما عليه إلّا أن يتّبع أوامر السماء، وأن يبلّغها إلى الناس بأمانة وصدق وبشكل كامل كما هي دون تغيير قيد أنملة.

الأحكام الشرعية أحكام توقيفية

وعليه فإن جواب رسولنا الأكرم ﷺ لهم هو بما أن الله تبارك وتعالى هو الذى أمر بتغيير القبلة، فإنه ليس بيدي شيء أفعله، فأُغيّر القبلة التي أنا عليها. ومن هنا نستشفّ ونعرف بأن الرسول الأكرم ﷺ يريد أن يبين لهم بأن الأحكام والأوامر والنواهي كلّها أحكام توقيفية، بمعنى أنه يريد أن يقول: إن الله هو الذي أمر بها، وإني لم أضعها ولم أتصرّف على هواي فيها؛ فهي لم تكن من عندي بحال من الأحوال، وإنما هي كلها من الله تبارك وتعالى. وبناء على هذا فإنه لا سبيل إلى اتّباع قولكم، أو إلى إجابة طلباتكم في هذا الخصوص، ولا يمكن لي أن

---

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٩.

أُخالف أمر ربي تلبية لرغباتكم ونزولاً عند مقترحاتكم؛ ولذا فإنه لا عودة إلى بيت المقدس أبداً ما لم يأمر الله تبارك وتعالى بذلك.

والواقع أن هذا هو جوهر دين الإسلام الذي لا يمكن أن يغيّره نبي أو رسول، أو أن يخالفه بحال من الأحوال أبداً. فخطاب رسولنا الأكرمﷺ يبيّن لهؤلاء بأنه ليس كلّ ما يطلبونه منه في مضمار الأحكام والتبليغات يمكن أن يُنفّذه لهم، وأن يوافقهم عليه؛ لأن تغيير هذه الأُمور ـ بناء على توقيفية الأحكام ـ مختصّ بالأوامر التي تصدر عن السماء، والتي تصله عن طريق الوحي.

خلاصة المبحث

إذن فالرسول الأكرمﷺ أجابهم بأنه لا يستطيع أن يغيّر الأُمور التي طلبوها منه. فلا يمكنه أن يغير القرآن كمعجزة، ولا أن يغيّر الكعبة المشرفة كقبلة؛ لأنه ليس إلّا مبلّغاً عن الله، ولا شيء له في التشريع أو في إصدار مثل هذه الأوامر، بل إنه رسول السماء، ووظيفته أن يتلقّى الأوامر من الله تبارك وتعالى ثم يوصلها إلى الناس.

ثم إن القرآن الكريم ككتاب سماوي لا يمكن تغييره بهذه السهولة لمجرّد رغبة ساذجة عند هؤلاء الكفّار في تغييره، فهو كتاب قد أُنزل بشكل مدروس وواعٍ، وهو يحمل دستوراً حياتياً كاملاً للناس، يتّسع للحياة كلّها منذ عصر الرسالة وإلى قيام الساعة. ولذا فإن جواب النبيﷺ لهم كان أنه لا يمكن أن يحصل ذلك؛ لأن تنفيذه يتنافى مع خلود الرسالة. فضلاً عن أنهﷺ ليس له من مهمّة سوى تبليغ هذا الكتاب الكريم، وإيصال ما فيه من دستور وقوانين للناس؛ حتى يكمل ذلك التبليغ الذي أراده الله تبارك وتعالى. فأمر التغيير هو أمر ممتنع تماماً، ولا يمكن حصوله مطلقاً، بل إنه ليس من صلاحياته ولا في نطاق اختصاصهﷺ.

المبحث الرابع: محاولات تحريف القرآن بتحريف مفاهيمه

وهنا نقطة هامة أود أن أُلفت الأنظار إليها، وهي أن هؤلاء ـ أهل الكتاب ـ حينما عجزوا عن تغيير القرآن الكريم من الخارج أو ككلّ، عمدوا إلى تغييره من الداخل عبر تفسيره بما ليس منه ولا فيه، أو نسبة آياته إلى غير ما وضعت له أو إلى ما إلى ذلك من موارد التغيير والتحريف في المعنى. وهذا يمكن أن يشبّه بمن يريد أن يهزم خصمه بأي صورة كانت، فهو يحاول فعل ذلك على صعيدين:

الصعيد الأول: هزيمته من الخارج

بمعنى أن هذا العدو يهزم عسكرياً أو سياسياً؛ فيخسر المعركة العسكرية، أو المعركة السياسية، ويحقّق خصمه الانتصار فيهما عليه، وبالتالي فإنه لا يبقى لذلك العدو وجود يذكر.

الصعيد الثاني: الصعيد الداخلي

وهذا الصعيد يعمد الخصوم إلى العمل عليه بعد أن يعجزوا عن هزيمة عدوّهم على الصعيد الخارجي، فيعمدون إلى زعزعته من الداخل، وإلى تقويض أُسسه ودعائمه عبر تشويه أفكاره وآرائه ومواقفه، أو إظهارها للناس على أنها عقائد باطلة وغير سليمة أو غير صحيحة، وأنها تدعو إلى الضلال أو الخسران، أو أنها تأخذ بيد صاحبها ومعتقِدها إلى الهاوية، وما إلى ذلك من وسائل يملكونها للتعبير عن تلك المعركة، أو عن ذلك الهجوم الذي يستهدف البنية التحتية لفكرٍ ما، أو لقواعد نظام ما.

ولتقريب المعنى أكثر فإننا نضرب هذا المثال وهو أنه حينما يريد شخص أن يسحق خصمه، فإنه يعمد إلى أحد أمرين:

الأوّل: أنه يصوب رصاصة إليه فيقتله بشكل واقعي، أي أنه يوجد فعل القتل ويوقعه عليه في الخارج.

الثاني: أنه يقوم بنفث بعض السموم أو الجراثيم في جسمه أو جسده عبر طعامه أو شرابه، أو الهواء الذي يتنفّسه، وهي سموم أو مسبّبات مرضية تروح تعمل معاول الهدم في جسد عدوه حتى تأكله كلّه من الداخل، وبالتالي فإنها سوف تؤدّي به إلى الموت.

ونحن الآن نجد مثل هذا الأمر في كثير من الكتب والمؤلّفات التي يجدها المدقّق والمتمعّن في مجموعة من حملات مركّزة ومنكرة تهدف إلى تزييف القرآن الكريم وآيات الله تبارك وتعالى، وتغييرها وحرفها عن مسارها الذي وضعت له.

محاولة تشويه الكلمات التي ابتلى بها الله إبراهيم

ومن ذلك أننا نجد في كثير من كتب التفسير لمفسّرين معروفين مرموقين؛ سواءً من الشيعة أو من السنة من يعطي الآيات الكريمة ما هو أقلّ من حقّها وأصغر من شأنها وحجمها الحقيقيين، ففيما يختصّ بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1]. فبعض هؤلاء المفسرين حينما يتناول هذه الآية الكريمة ليفسرها فإنه يقول: إن المراد بهذه الكلمات: التكاليف العشرة التي كلّف الله تبارك وتعالى بها النبي إبراهيم عليه السلام، وهي قسمان:

---

(١) البقرة: ١٢٤.

الأول: خمسة في الرأس

وهي:

١ ـ المضمضة؛ لتطهير الفم.

٢ ـ الاستنشاق؛ لتطهير المجاري التنفسية.

٣ ـ السواك.

٤ ـ قصّ الشارب.

٥ ـ فرق الرأس.

الثاني: خمسة في البدن

وهي

١ ـ قصّ الظفر.

٢ ـ إزالة الشعر من مواضعه.

٣ ـ الختان.

٤ ـ الاستجمار بالماء أو بالحجارة، حسب موضوع الحكم.

٥ ـ الغسل من الجنابة.

والغريب هنا أن هذا المعنىٰ ترويه المذاهب الإسلامية كافّة! خصوصاً أن هذا التفسير يوجد عند العباقرة من المحدّثين والمفسّرين[1].

---

(١) انظر: مجمع البيان ١: ٣٧٤ ـ ٣٧٥، جامع البيان ١: ٧٣٠ / ١٥٧٧ ـ ١٥٧٩، تفسير القرآن العظيم ١: ١٧٠، المستدرك علىٰ الصحيحين ٢: ٢٦٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ٩٨، باختلاف فيها في هذه السنن العشرة.

وقد ذكر المحاضر فيما سبق من هذه الموسوعة الشريفة أنها من رواية عن ابن عباس برواية عكرمة عنه، وأن عكرمة هذا معروف بالكذب كما حقّقناه في موضعه من حاله هناك؛ حيث

فهل هذا كلام معقول؟ إن الإنسان ذا المكانة العلمية يجب عليه أن يعرف ما الذي يتفوّه به، كما أن عليه أن يضع كلامه في الموضع الصحيح، لا أن يدّعي بأن الله تبارك وتعالى قد ابتلى نبيه إبراهيمعليه السلام بقصّ الأظافر، أو إزالة الشعر، وما إلى ذلك؛ بحيث إنها تكون مقدّمة لنيل رتبة الخلافة في الأرض، مع أنها رتبة عظيمة لها وزنها وثقلها في جميع التشريعات السماوية إلى درجة أن السماء أمرت الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم بالوقوف تحت حرّ الهاجرة ليبلّغها إلى الناس.

وهكذا فإننا نجد أن هناك محاولات فجّة متهافتة لاحتواء المضامين القرآنية الكريمة، ولتزييفها وتشويه حقيقتها، وتفريغها من محتواها الإلهي، وإظهارها إلى

ذكرنا هناك جملة من آراء علماء القوم فيه، نذكر منها على نحو الاختصار:

١ ـ قال ابن قتيبة: روي عن علي بن عبد الله بن عباس أنه قال عن عكرمة: إن هذا يكذب على أبي. المعارف: ٢٠١.

٢ ـ قال ابن سعد: ليس يحتجّ بحديثه. الطبقات الكبرى ٥: ٢٩٣.

٣ ـ وذكر ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير أن رجلاً سأل سعيد بن المسيب عن آيات من القرآن، فقال له: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء! يعني عكرمة. مقدمة أصول التفسير: ٣٩.

أما ابن حجر في مقدمة (فتح الباري)، فقد ذكر كلّ ما قيل فيه من مدح وذمّ، ثم دفع جميع الطعون عليه، وصحّح مدحه وعدالته، مع أن الصحيح هو أن الجرح مقدّم على كلّ حال، كما نصّ عليه ابن الصلاح. مقدمة ابن الصلاح: ١٩٢ ـ ١٩٤.

٤ ـ ومما نقل ابن حجر فيه أنه كان خفيف العقل. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧.

٥ ـ وأن المسلمين قد نبذوه وجفوه، وقد توفّي هو وكثيّر عزّة في يوم واحد، فشهد الناس جنازة كثير ولم يشهدوا جنازته. تهذيب التهذيب ٧: ٢٤٠.

٦ ـ وأن ابن المسيّب قال لمولاه برد: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس. تهذيب التهذيب ٧: ٢٣٧ ـ ٢٣٨، وانظر ميزان الاعتدال ٣: ٩٣ ـ ٩٧، إكمال الكمال ١: ٢٥٥، تهذيب الكمال ٢٠: ٢٧٩.

٧ ـ ونقل الذهبي أن مالكاً ومسلماً تركاه. ميزان الاعتدال ٣: ٩٣.

الآخرين على غير النمط الذي يريدها الله تبارك وتعالى لها، أو أن تكون عليه، كما سيمرّ بنا إن شاء الله تعالى خلال هذا المبحث. وكذلك فإننا سوف نرى إن شاء الله تعالى من خلال المبحث السابع أن هناك قراءة أُخرى في هذه الآية الكريمة الهدف منها محاولة الالتفاف عليها من الداخل، وتشويهها، وعدم السماح لمضمونها الحقيقي بالخروج إلى حيّز الواقع، والوصول إلى الأفكار والعقول التي يمكن أن تستوعبها، وتعمل بها، وتسير على ضوئها.

دور الإسرائيليات في تشويه الحقائق القرآنية

إذن فالنبي الكريم عندما أبى أن يغير القرآن الكريم كمعجزة خالدة عمد اليهود إلى تشويه مفاهيمه، فأدخلوا فيه الكثير من الإسرائيليات عبر التلاعب في تفسيره، وحرف آياته وصرفها عن مسارها الّذي وضعت فيه إلى مسار آخر يتماشى مع أهوائهم؛ ولذا فإننا نرى الكثير من النظريات العجيبة والغريبة في التفسير، والكثير من الآراء التي لا تبتني على دليل أو برهان، وهي نظريات وآراء تملأ كتب التفسير ومناهجه عند المسلمين.

ولهذا فإننا حينما نتأمّل الكثير من كتب التفاسير عند المسلمين فإننا نجد ببالغ الأسف أن الإسرائيليات تغزو كلّ نقطة من نقاط تلك الكتب، وهي كالأخطبوط، تمدّ أذرعها؛ لتبثّ سمومها بين سطور تلك الكتب وحنايا النظريات المختصّة بالتفسير والآراء المتعلّقة به. والأمرّ والأدهى أنها سريعة التصديق عند السذّج ومن لا يخضع لقوانين النقد المنطقي؛ ولذا فإننا نجد أنها تسري في عقول الناس ـ ممّن يقتنع بتلك الآراء والنظريات، ويأخذ بها دون تأمّل أو تعمّل، أو دون أدنى مستوى من إعمال الفكر، وإخضاعها لقوانين العقل ـ كما تسري النار في الهشيم بناء على أنها موجودة في كتب لا يمكن المساس بها.

ونحن لا ننكر أن بعض العلماء قد بذل مجهوداً جبّاراً، وحاول محاولات كبيرة وضخمة لغربلة هذه الكتب والنظريات والآراء المتعلّقة بالتفسير للتخلّص منها، ومنع ضررها عن أن يلحق بعقول الناس، وأن يسمّم لهم أفكارهم. لكنها تبقى محاولات متواضعة؛ لأن تلك النظريات كما هو معروف كثيرة جداً، وتأخذ حيّزاً من كتب الحديث والتفسير بما هي عليه من كمّ كبير وهائل إلى درجة يصعب معها التخلّص منها جميعها، أو القضاء عليها كلّها.

كما أن تلك الآراء والأفكار من جهة أُخرى متجذّرة في تلك الكتب ومتشعّبة فيها، بل هي متجذّرة في نفوس الناس الذين يرزحون تحت إسارها؛ ونتيجة لهذا التشعّب والتجذّر في عقول الناس بناء على تقديسهم لتلك المؤلّفات، فقد أصبح من الصعب التخلّص منها وإزاحتها عن طريق الباحثين وطالبي الحقّ.

غير أنه لابدّ من القول بأنه لا يمكن إلّا أن نستمرّ في مواجهتها ومعالجتها، ولابدّ من القضاء عليها عبر التنبّه إلى ما فيها من أضرار فكرية، والتيقّظ لمخاطرها ومساوئها، وتنبيه الناس لكلّ ذلك قبل أن تُغرق لهم أفكارهم، وتستولي على عقولهم، وتستحوذ عليها.

دفاع عن الباطل

والغريب أننا حينما نجد إنساناً يُعمل فكره في مثل هذه الأُمور، ويخلص إلى نتيجة تمليها عليها قواعده العقلية وأُسسه المنطقية، فيصرّح مثلاً بأن النظريات الكذائية في التفسير هي نظرية إسرائيلية لا تلتقي مع الخطوط الإسلامية العامّة، ولا تتماشى مع مفاهيمه، ولا تتجاوب والأُسسَ الدينية للإسلام، فإننا نجد من ينبري من هنا وهناك ليدافع عن تلك النظريات الإسرائيلية الهدّامة؛ بحجّة أنها من صميم الإسلام؛ لأن راويها فلان، متّهماً الآخرين بشنيع التهم، ومدّعياً بأنهم

حينما يطلقون هذه الصرخة التصحيحية، في محاولة لإسقاط تلك النظريات الغريبة التي لا تتماشى مع الطبيعة الإسلامية، ومع القوانين الإلهية، ومع الخطوط العامّة للأديان كلّها، فإنهم يفعلون ذلك لا لشيء سوى أن ناقل تلك الروايات هو أبو هريرة مثلاً أو فلان أو فلان.

فهم إنما يصوّرون هذه المسألة، وهذه المواقف التي تهدف إلى الدفاع عن الإسلام الحنيف ـ لسبب لا يخفى على عاقل ـ على أنها عداء شخصي من النقّاد لذلك الراوي، أو الرواة، وموقف يتّخذه هؤلاء المصلحون والمنادون بمعالجة المفاهيم المغلوطة على ضوء القرآن الكريم منهم (الرواة)، وليس لأنها نظرية تنضح أخطاء في كلّ أبعادها.

الشيعة وفرية النيل من الصحابة

وهذه المسألة تنطوي على مؤاخذة ومغالطة في آن؛ ذلك أن الذي يحاول أن يغربل التاريخ الإسلامي، والتفسير والفكر الإسلاميين، والثقافة الإسلامية، وأن يخلّصها من شوائبها ومما يدنّسها من أفكار مخطوءة ومن نظريات مشوّهة فإنه إنما يفعل ذلك خدمة لهذا الدين، ومن أجل إعلاء كلمته وإرساء قواعده الصحيحة، وليس لأنه يحمل عداءً مبطّناً لفلان أو لفلان أو لغيرهما ممّن تبرّر محاولات تشويه نصوع الإسلام بما يسمونه الدفاع عنهم ضدّ من يريد أن يتنقّصهم، بل إن الأمر على العكس من ذلك؛ فإننا ليس عندنا أي عداء لأحد من صحابة رسول الله ﷺ أبداً؛ لأنه ليس عندنا عداوة مع الفكر الذي يمثل القرآن ويمثل السماء.

غير أننا نقولها وبصوت مرتفع يعيه من يسمعه: إننا نعادي كلّ فكر لا يتّفق مع الإسلام، ونعادي كلّ نظرية تحاول أن تشوّه الصورة البيضاء النقية له، وأن تشوّه

أحكامه وعقائده أو نظمه التي جاءت بها هذه الرسالة الخالدة، ونعادي كلّ شخص يحاول أن يفعل ذلك عن قصد أو عن غير قصد من أجل زعزعة إيمان الناس بالإسلام، وبقوانينه الريادية التي أنزلها الله تبارك وتعالى على نبيه الكريمﷺ.

وهكذا فإننا نلفت الأنظار إلى أننا إنما نحارب ونقف بوجه كلّ فكرٍ لا يلتقي مع القرآن، ولا يلتقي مع الثوابت الإسلامية، ومع الخطوط العامة لهذه الرسالة. غير أن هذا الموقف السليم والصحيح الذي نقفه يعتبر مسبّباً وموجباً لبلاءٍ مبرم نقع فيه؛ لأننا إنما عُودينا وكُفّرنا لأجل هذا الذي نقول به ونؤمن به ونصرح به انطلاقاً من عقيدة حقّه نتعبّد الله تبارك وتعالى بها، وحفاظاً على الدين وعلى بيضة الإسلام، وعلى قواعده وأُسسه وأخلاقياته.

إن كلّ من يملك غيرة على ديننا الإسلامي الحنيف، فإنه لابدّ أن يعمل جاهداً على أن يصحّح جملة من الانحرافات والآراء البعيدة عنه، والتي أُلصقت به وهو منها براء؛ من أجل أن تشوّه صورته من الداخل ومن الخارج، وتقوده إلى الابتعاد عن خطّ الرسالة، وتخرج به عن كونه ديناً سماوياً، وعلى ذلك الشخص الذي يملك غيرة على دينه أن يقف بوجه جميع النظريات الإسرائيلية المبثوثة فيه عن قصد يهودي للقضاء عليه؛ كي يخلّصه منها. لكن ببالغ الأسف نقول: إن هذه هي نقطة ارتكاز البلاء المبرم الذي يصبّه أُولئك على رؤوسنا في هذه المسألة؛ فمن يعمد إلى فعل هذا فإنه يوصف بأنه إنسان معادٍ للإسلام، وأنه ضالّ وكافر، وأنه إنما يقدح في صحابة رسول اللهﷺ.

المبحث الخامس: الإشهاد في التشريع الإسلامي

إذن فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾، فإنها من

الممكن أن تعبّر عن إرادة سليمة في خصوص مطالبة من يدّعي شيئاً بالدليل إن كان صاحبها يريد الحقّ، أي أن هؤلاء يطلبون من النبي ﷺ الدليل على صحّة نبوّته وعلى صدقه؛ ذلك أن من يدّعي شيئاً فإن عليه أن يأتي بالدليل الذي يثبت به صحّة دعواه، وصدق كلامه، وإلّا فإن كلّ شخص سوف يأتي ويدّعي ما ليس له؛ ولذا فقد جاء جواب السماء حاسماً معطياً إياهم ما طلبوا: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

ومن هنا فإننا نجد أنفسنا مأمورين بأن نوثّق كلّ فعل نقوم به مع الآخرين ويتطلّب دفع حصول النزاع والخصومة اللذين يحصلان في مثل هذه الموارد لو لم يكن ذلك التوثيق. فكلّ فعل يدخل في باب المعاملات وغيرها يتطلّب توثيق تلك المعاملات، أو التعاملات التي تقع بين الناس؛ ذلك أن التعامل مع الآخرين محفوف بالمخاطر سيما عند بعض ممّن لا حريجة له في دينه. وهذا التوثيق يكون على نحوين:

الأوّل: التكاتب

وهو أن يكتب طرفا المعاملة وثيقة بينهما، أو أن يحرّرا مستنداً في سبيل إثبات ذلك الحقّ عن أن يضيع.

الثاني: إشهاد الآخرين

أمّا الإشهاد فهو أن يحضرا شاهدين أو أكثر حسب المقتضي ليشهدا على ذلك الحقّ عندما يطالب به صاحبه، أو عندما يدّعي به.

إذن فصاحب الحقّ حينما يدّعي أن له حقّاً، وأن حقّه عند فلان، ويطالِب به، فإن الآخرين سوف يطالبونه بالدليل على أنه فعلاً صاحب ذلك الحق، فلو أن

شخصاً ادّعى على آخر بأن له ديناً في عنقه، أو بأن له مالاً في ذمّته، فإن من حقّ المدّعى عليه، أو من يحضر الادّعاء أن يطالبوا ذلك المدّعي بالبيّنة أو بالدليل على صحّة دعواه. وهنا يأتي دور البينة، أو الدليل اللذين يجب أن يبرزهما الطالب بالحقّ أو صاحب الدعوى؛ فيبرز الوثيقة التي حرّرها على غريمه المدّعى عليه، والتي تثبت له ذلك الحقّ عنده، أو أن يأتي بمن شهد له على ذلك ممّن كان حاضراً المجلس، فيشهدوا بأن له مالاً في ذمّة ذلك الشخص المدّعى عليه.

الإمام الصادق عليه السلام والديصاني

وهذه قضية عقلية يجب على الإنسان أن يلتزمها؛ لأن الذي يدعي يجب أن يأتي بدليل على صدق دعواه؛ كيلا يضيع حقّه أو يضيع حقّ الآخرين الذين ربما يكون قد افترى عليهم.

وهذا الأمر جارٍ حتى في باب النبوّات كما ذكرنا في صدر هذا المبحث، وفيما يتعلّق بها من مسألة الإمامة، يروى أن الديصاني دخل على الإمام الصادق عليه السلام وقال له: ألك ربّ؟ قال: «بلىٰ، الله عزّ وجلّ ربّ السماوات والأرض». قال: أربّك قادر قاهر؟ قال: «بلى، ربي يحيي ويميت». قال: أنا أُحيي وأُميت؛ فآخذ كائناً حياً وأقتله، فأنا أُميته، وأُحيي الميت هكذا، ثم أراه قارورة كان قد وضع فيها لحماً، وأمهله فترة حتىٰ تعفّن وتولّد منه دود، فقال له: هذا خلقي فأنا الذي أحياها. فقال له الإمام عليه السلام: «إذا كان خلقك فكم عدده؟ وكم فيه من ذكر وأُنثىٰ؟ وكم أوزانه ومقاديره؟ وكم فيه من جوارح وعضلات وأطراف؟ فإن من خلق شيئاً علمه، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[1]؟ »، ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[2]، فقال له الإمام الصادق عليه السلام:

(١) الملك: ١٤.
(٢) البقرة: ٢٥٨.

«لم سكتّ؟». قال: ما حسبتك تسألني هذا السؤال.

فالديصاني حينما جاء الإمام الصادق﵇ بما يعتقد أنه دليل على صحّة قوله ومدّعاه رأينا أن الإمام﵇ قد طالبه بالدليل على أنه يستطيع وحده أن يقوم بتلك الأفعال دون تدخّل قوّة أُخرى، وأنه قادر على إيجادها وإحداثها من العدم دون الاستعانة بشيء هو أساساً من غير خلقه، فدمغه مباغتاً إياه بسؤاله عن أعداد تلك الديدان التي أدّعى مخلوقيّتها له، وعن أجناسها، وعدد الإناث والذكور فيها. وهنا أعيا المدّعي الجواب، فثبت بعدم مقدرته على الإتيان بالدليل بطلان دعواه، وأنه لا يمكن أن يحيي أو يميت؛ ولذا فإنه قال للإمام الصادق﵇: ما ظننت أنك تسألني مثل هذا السؤال.

إن هذا الشخص في واقع الأمر إنما يعبّر بدعواه تلك عن جهله، وإلّا فإن عليه أن يعرف بأنه مجرد قناة مساعدة على حصول بعض الأشياء في هذه الحياة، وأن الأسباب الطبيعية التي يرى أنها من فعله فادّعى ما ادّعى من قابليته على الخلق بسببها إنما هي أسباب جعلها الله تبارك وتعالى قناة تمرّ منها إرادته جلّ شأنه، وتجري عبرها مشيئته، فهي التي تفعل فعلها بأمر منه سبحانه وتعالى، غير أن ذلك الشخص لم يدرك هذا المفهوم، فكان أن طالبه الإمام﵇ بالدليل الذي أخزاه وأبطل مدّعاه، وأظهر عدم صحّة دعواه، وأنه لا يمكن أن يحيي شيئاً ولا أن يميت شيئاً ممّا ادّعى إلّا بإرادة الله تبارك وتعالى، وبإذن منه عزّ اسمه؛ فهما أمران منوطان به تعالى وحده.

ما قال أحد: سلوني إلّا افتضح غير الإمام﵇

ومما يروى في هذا المجال أيضاً أن قتادة جاء من الشام إلى الكوفة، فصعد

يوماً على المنبر وقال: إن علي بن أبي طالب قال في مسجدكم هذا: «سلوني قبل أن تفقدوني»، وأنا أقول مثل قوله أيضاً. فقام إليه رجل فسأله عن النملة التي كلّمت سليمان: كانت ذكراً أم أُنثى؟ فأُفحم ولم يردّ جواباً[1].

إذن فعلى المرء أن يعي بأنه عندما يدّعي دعوى فإن عليه أن يكون حاضراً لإبراز الدليل والحجّة على صحّتهما حينما يطالب بهما، وعليه أن يعي بأنه يجب أن يكون بمستوى تلك الدعوة التي يدّعيها، وإلّا فإنه سوف يخزى أمام الناس، وسوف يناله الذلّ. كما أن عليه أن يكون عالماً بمحتوى تلك الدعوة التي يدّعيها، وبدقائقها وجزئيّاتها ولطائفها؛ حتى يتمكّن من الإجابة عن كلّ ما يتعلّق بها فيما لو طولب ببعض البيانات حولها، أو ببعض الظروف المحيطة بها.

إذن فأول شيء يطلبه الناس ممن يدّعي دعوى معينة هو تقديم الدليل على تلك الدعوى؛ كي يروا أنه صادق أم غير صادق، وكي يعرفوا أن تلك الدعوى صحيحة أو ليست صحيحة؛ حتى لا يضيع حقّ، ولا يحقّ باطل. كما أن فيه زيادة اطمئنان بصحّة قول المدّعي حينما يباغتهم بالدليل الناصع.

---

(١) شجرة طوبى ١: ٦٧، قال الشيخ محمد مهدي الحائري: «اتفق أهل العلم على أن قول: «سلوني قبل أن تفقدوني» من خصائص أمير المؤمنين عليه السلام، وما قالها غيره إلّا افتضح».
وعن سفيان قال: قال مقاتل بن سليمان يوماً: سلوني عما دون العرش. فقال له رجل: يا أبا الحسن أرأيت النملة، أمعاؤها في مقدمها أو مؤخرها؟ قال: فبقي الشيخ لا يدري ما يقول له. وقيل: قام إليه قيس فقال: من حلق رأس آدم في حجّته؟ فبقي ساكتاً. تاريخ بغداد ١٣: ١٦٧. ثم نقل عن إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني أنه قال: مقاتل بن سليمان كان دجّالاً جسوراً.
وقال عنه ابن عدي في كامله: «مقاتل بن سليمان... حدثنا عباس عن يحيى قال: مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشيء. وسمعت ابن حماد يقول: قال السعدي: مقاتل بن سليمان كان دجّالاً جسوراً. الكامل ٦: ٤٣٥ / ١٩١٤، ونقل حديث «سلوني».

الحكمة من جعل شاهدين في التشريع الإسلامي

وهنا نقطة هامّة يجب أن نتوقّف عندها وهي أن الشهادة كما هو معلوم تكاد تكون علّة واضحة لإثبات الحقّ، فلماذا إذن جعل الله تبارك وتعالى في بعض القضايا شاهدين اثنين، وأمر بتحصيلهما فيها؟ إن علّة الشهادة هي زيادة الاطمئنان عند المدّعى عليه والمدّعى عنده فيما لو لم يكونا يعرفان عدالة المدّعي أو صدقه، أو أنه لا يقول إلّا الحقّ، فهي شهادة بصحّة قوله.

الشهادة في قضية فدك

فإن كان المدّعي ممن يشهد له الله تبارك وتعالى بالصدق، ويشهد له النبي ﷺ بالصدق كذلك فإنه حينئذٍ لا داعي لأن يطالب بشاهد بعد شهادة الله وشهادة رسوله له. ومن هذا ما حصل في قضية فدك حينما طالب الخليفة الأول السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين بأن تحضر شهوداً على صحّة دعواها أنها تملك فدكاً نحلة من رسول الله ﷺ، وشرعية مطالبتها به، مع أن رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى وإنما ينطق عن وحي عن الله تبارك وتعالى يقول هو نفسه ﷺ: «فاطمة سيّدة نساء العالمين»[1]، ويقول ـ وقد قرأ: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[2] ـ: «يا علي، خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بنت مزاحم»[3]، ويقول ﷺ: «فاطمة بضعة مني، من آذاها فقد آذاني»[4]، ويقول

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١٥٦، فتح الباري ٧: ٨٢، ١٠١، ٩: ٢٦٦، مسند أبي داود: ١٩٧.

(٢) آل عمران: ٤٢.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٠٤، وانظر: شرح الأخبار ٣: ٢٠ ـ ٢١ / ٩٥٣، الاستيعاب ٤: ١٨٢٢.

ويقول[1].

كما أن القرآن الكريم يصرّح كذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[2]. وفي خصوص هذه الآية الكريمة فإنه حتى أُولئك الذين يقولون بأن هذه الآية نزلت في نساء النبي ﷺ فإنهم يذكرون أن فاطمة الزهراء عليها السلام كانت موجودة مع نسائه ﷺ، فضلاً عن القائلين بأن هذه الآية الكريمة قد نزلت في أهل البيت عليهم السلام خاصّة، وإن فاطمة عليها السلام هي من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس.

إذن فمن خلال هذه الأحاديث وغيرها مضافاً إلى الآية الكريمة نجد أن الله

---

(٤) الإمامة والسياسة ١: ٢٠، وانظر: مسند أحمد ٤: ٥، صحيح مسلم ٧: ١٤١، الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(١) فقد قال ﷺ فيها:

«فاطمة روحي التي بين جنبي». الأمالي (الصدوق): ١٧٥ / ١٧٨.

وقد لقّبها ﷺ بـ«أم أبيها». مقاتل الطالبيّين: ٢٩، المعجم الكبير ٢٢: ٣٩٧، أُسد الغابة ٥: ٥٢٥.

وقال ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: «بارك الله لك في ابنة رسول اللّه. يا علي، نعم الزوجة فاطمة». الأمالي (الطوسي): ٤٢ ـ ٤٣، مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣١.

وقال ﷺ: «أبشر يا علي، فإن الله قد زوّجك بها في السماء، قبل أن يزوّجك بها في الأرض». مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢٣، بحار الأنوار ٤٣: ١٠٩.

وجاء ﷺ بعسّ فيه لبن، فقال لفاطمة: «اشربي فداك أبوك». مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣٢، وقد تكرر منه ﷺ قوله لها عليها السلام: فداك أبوك». انظر: الثاقب في المناقب ١: ٢٢٢، ٢٩٥، كفاية الأثر: ٣٦، فتح الباري ١٠: ٤٧٠.

وقال ﷺ: «لولا علي بن أبي طالب لم يكن لفاطمة كفء». المحتضر: ٢٣٤ / ٣١١، بحار الأنوار ٤٣: ١٤١ / ٣٧، ٤٣: ١٤٥.

إلى غير ذلك ممّا يضيق المقام عن حصره.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

تبارك وتعالى يشهد للسيدة الزهراء على لسان نبيه وعبر كتابه الخالد بأنها منزّهة عن الرجس، والكذب ـ كما هو معلوم ـ قسم من أقسام الرجس؛ أي أن الكذب منفي عنها بحكم الآية الكريمة، وبحكم الأحاديث النبوية الشريفة الواردة فيها خاصّة، أو الواردة في أهل البيت عامّة، وهي من ضمن أهل بيت النبوّة.

وبناء على هذا فإنه لا حاجة حينئذٍ إلى أن تطالب بشهود لإثبات صحّة مدّعاها ـ وهو الحقّ ـ في قضية فدك عند الخليفة الأول.

ومع كلّ هذا فإننا نقول: إن الزهراء (صلوات الله وسلامه عليها) عندها من الأمارات التي تثبت صحّة دعواها في إثبات حقّها ما يكفي، ولكنها مع ذلك حينما جاءت بها إلى الخليفة الأول جبهها، وردّها، ورفض الاستماع إلى مطالبتها إياه بحقّها. وحتى حينما طالبها بشهود يشهدون على صحّة دعواها أن النبي قد أنحلها فدكاً، وجاءت إليه بهم، ردّهم كلّهم كما سنرى.

فقد بيّنت له السيّدة الزهراء أن هذه القضية كانت في بيت رسول الله، وأنه لم يكن في بيت رسول الله آنذاك إلّا أُم أيمن (رضي الله عنها) وعلي بن أبي طالب، والحسن والحسين. لكن العجب هنا هو أن الخليفة الأول قد جابهها بأن رفض الشهود الذين حضروا الواقعة جميعهم والذين ذكرتهم له، وقال: الحسن والحسين فرعان، وشهادة الفرع للأصل لا تجوز، وعلي زوجها؛ فهو ذو منفعة بها، وأما أُمّ أيمن فهي امرأة أعجميّة لا تفقه ما تقول[1].

إذن فعلي بن أبي طالب متّهم لأنه من وجهة نظرهم بتلك الشهادة إنما يجرّ

---

(١) انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١ / ٢، السقيفة وفدك (الجوهري): ١٠٤، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٢، ٤٣: ١٩٨.

النار إلى قرصه[١].

خزيمة ذو الشهادتين

وهنا لنا أن نتساءل حول هذا الموقف الّذي وقفه الخليفة الأوّل من السيدة الزهراءعليها السلام، وعن أسبابه والدوافع له، ضامّين إلى تساؤلنا ما ينقله المؤرّخون من أن النبيصلى الله عليه وآله كان راكباً على فرس له، فجاءه أعرابي وقال له: هذه فرسي بعتك إياها ولم تدفع لي الثمن. فقال النبيصلى الله عليه وآله: **«بل اشتريت وأعطيتك الثمن»**. فقال الأعرابي: بل لم تسدّد، هات الشهود. فانفعل الصحابة من الأعرابي، وانتظروا أن يسمح لهم النبي أن يدفعوه أو يقتلوه، فقال النبيصلى الله عليه وآله: **«دعوه؛ إن لصاحب الحقّ مقالاً»**.

ثم التفتصلى الله عليه وآله إلى بعض أصحابه ممّن كان معه، وقال: **«من منكم يشهد لي؟»**. فلم يشهد له أحد. فجاء خزيمة بن ثابت الأنصاريرحمه الله، فلما رأى الجمع سأل عنه، فقيل له: أعرابي يطلب من النبيصلى الله عليه وآله ثمن فرس، وقد حبسه في الشمس يطالب بحقّه، والنبيصلى الله عليه وآله يطلب الشهود، فلم يشهد له أحد. فقال خزيمةرحمه الله: أنا أشهد.

فقال له النبي الأكرمصلى الله عليه وآله: **«كيف تشهد وأنت لم تكن معنا، ولم تسمع ولم ترَ؟»**. فقال خزيمةرحمه الله: يا رسول الله، صدّقناك على الوحي وأخبار السماء، وما تنقل عن الله سبحانه وتعالى، وجئت بالقرآن الكريم وقلت: إنه يأمركم بأن تعطوا من أموالكم، وأن تحجّوا، وأن تعبدوا، فصدّقناك في ذلك كلّه، ثم لا نصدّقك في

---

(١) وهذا اعتداء صارخ على أمير المؤمنينعليه السلام الذي شهدت له السماء، وشهد له الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله كذلك بالنزاهة والتقوى.

شراء هذه الفرس؟

أي أنه يقول له: إننا إذ صدقناك فقد صدقناك في كلّ شيء باعتبار أنك صادق، فأنا أعلم أنك صادق من حيث أعلم أنك نبي. وهنا قال النبي الأكرم ﷺ: «قد أجزت شهادتك، وجعلتها بشهادتين». فاستحقّ خزيمة من ذلك اليوم هذا اللقب الذي شرّفه به رسولنا الأكرم ﷺ، وهو ذو الشهادتين[1].

ومعلوم أن هذه الحادثة تشبه الحادثة التي وقعت لسيّدتنا ومولاتنا فاطمة الزهراء عليها السلام؛ ذلك أن المسلمين جميعاً يعلمون أنها صادقة لا تكذب؛ لأنهم سمعوا ووعوا قول الله تبارك وتعالى، وقول رسوله الكريم ﷺ فيها، فكانوا يعلمون بأنه لا يجوز لأحد من المسلمين أن يدّعي ويقول: إن فاطمة الزهراء تكذب (تنزّهت عن ذلك) وإلّا خرج عن الملّة. وبناء عليه كان تساؤلنا عن معنى ذلك، وعن السبب والمغزى اللذين من أجلهما طولبت عليها السلام بالشهود؛ ولذا فإن المحقّقين المحقّين يعتبرون أن هذه القضية نقطة سوداء، ووصمة عارٍ في تاريخ المسلمين، وثغرة في حفظهم حقّ نبيّهم الأكرم ﷺ، وإلّا كيف يُطلب شاهد ممّن شهد له الله بالنزاهة؟ وهل بعد شهادة الله شهادة؟

إذن فالآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾، فهي تريد أن تقرّر أن هؤلاء الكفّار قد خاطبوا النبي ﷺ بقولهم: إنك إن كنت نبياً حقّاً، فعليك أن تبرهن لنا على صدق قولك ومدّعاك.

المبحث السادس: في أقسام الشهادة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وهذا

---

(١) سنن أبي داود ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧ / ٣٦٠٧.

المقطع الشريف منها يتضمّن إجابة الرسول ﷺ لهم حينما سألوه الشاهد على صدق قوله، والدليل والبرهان عليه، فأخبرهم بأن الله تبارك وتعالى شهيد له بينه وبينهم. أي أنّ أول من يشهد له بصدق مدّعاه هو الله عزّ وجلّ.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن الشهادة عادة تكون على قسمين:

الشهادة اللفظية

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[1]، كما أن القرآن الكريم قد عبّر عن النبي ﷺ بقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**﴾[2]. وهاتان الآيتان وغيرهما من الآيات ذات الدلائل اللفظية[3] التي تشهد بنبوّة النبي الأكرم ﷺ هي شهادة لفظية تثبت صحّة مدّعاه ﷺ.

الشهادة الفعلية

ولبيان هذا القسم من الشهادة نذكر في المقام أُنموذجين، هما:

الأول: قصّة حنظلة غسيل الملائكة

وهو حنظلة بن أبي عامر الفاسق، وأبو عامر هذا كان قد جيّش الجيوش ضدّ النبي ﷺ لمحاربته وللقضاء على بذرة هذا الدين الجديد، فلم يدع وسيلة إلّا سلكها والتجأ إليها لأجل القضاء عليه، فكان يقصد الروم يدعوهم لغزو بلاد

---

(١) التوبة: ٣٣. (٢) الفتح: ٢٩.

(٣) كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ الأعراف: ١٥٨، وقوله عزّ من قائل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ الأحزاب: ٤٠، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ المنافقون: ١، وغيرها كثير.

الإسلام، وكان يجمع الأموال ليحارب بها الإسلام ونبي الإسلام، وكان يجمع الأنصار من أجل ذلك، لكنه فشل في كلّ تلك المحاولات؛ حيث أراد الله سبحانه وتعالى لهذا الدين الحنيف أن ينتشر وأن يعمّ هذا العالم كلّه[1]. ومع ذلك فقد خرج منه هذا الولد المؤمن الطاهر الذي استشهد في سبيله، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[2].

وعلى أية حال فالشهادة الفعلية التي نريد أن نذكر حنظلة هذا مثالاً عليها هو أنه قد غسّلته الملائكة، وتغسيل الملائكة له فعل فيه أمارة واضحة، ودلالة بينة على أنه مرضي عنه، وإلّا فإنه لو لم يكن كذلك فإن الملائكة حينئذٍ سوف لن تغسّله، وإذ غسلته فهذا دليل على أنه مرضيّ عنه.

وقصّة تغسيل الملائكة له التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا ٱسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، هي كما يرويها المؤرّخون وكتّاب السير وأسباب النزول أنّه كان قد عُقد له على ابنة خاله جميلة بنت عبد اللّه ابن أُبيّ، وأراد أن يبني بها، فلمّا كانت الليلة التي وقع في صبيحتها القتال في معركة أُحد، استأذن من رسول اللّه أن يدخل المدينة؛ ليبني بزوجته، فأنزل اللّه علىٰ نبيّه هذه الآية الكريمة، وعلىٰ إثر نزولها أذِن له رسول اللّه واستغفر له.

فدخل المدينة، وبنى بابنة خاله، فلما حضر وقت صلاة الفجر صلّاها فتعرّضت

---

(١) قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ التوبة: ٣٢.

(٢) الأنعام: ٩٥.

(٣) النور: ٦٢.

له زوجته، فنال منها، ثمّ قام؛ ليغتسل، فسمع المنادي ينادي بالخروج إلى أُحد، فعجّل عن الغسل وخرج، فتبعته زوجته، وأشهدت عليه أربعة من مارّة الطريق بأنه قد بنىٰ بها البارحة.

ولما سئلت: لم فعلتِ ذلك؟ قالت: إني رأيت في نومي كأن السماء قد انفرجت، وكأنه قد رفع إليها فانضمّت عليه، فعلمت أنها الشهادة، وقد كرهتُ أن أُتَّهَمَ فعملت ذلك.

فلما نزل إلى المعركة تمكّن من أبي سفيان، وأوشك أن يقتله لولا أن تداركه أحد المشركين بعد أن رأى حنظلة قد تمكّن منه، فجاءه وضربه غيلة في ظهره، فاستشهد رضي الله عنه. ولما مرّ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أطال الوقوف عنده والنظر إليه، وبدا عليه التأثّر الشديد، فلما سأله أصحابه قال صلى الله عليه وآله وسلم: **«رأيت الملائكة تغسّله، إن صاحبكم خرج وهو جُنب فغسّلته الملائكة»**.

فلم يعرف المسلمون الغرض من كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حتى سألوا زوجته فأجابتهم بما مرّ[1].

الثاني: معاجزه صلى الله عليه وآله وسلم

وفيما يتعلّق بهذا القسم أيضاً ممّا يختصّ بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ما يذكره المؤرّخون وأصحاب السير عن تلك المعاجز الكثيرة والضخمة التي كانت تجري على يديه الكريمتين صلى الله عليه وآله وسلم ممّا هو خارق للعادة، وخارج عن الناموس. ونحن

---

(١) تفسير القمّي ١: ١١٨، بحار الأنوار ٢٠: ٥٧، أسد الغابة ٢: ٢٤١، الإصابة ٢: ١١٩ / ١٨٦٨.

نعلم يقيناً أن حياته ﷺ كانت مليئة بالإعجاز، وهذه المعاجز التي نحن بصدد ذكر شهادة السماء له بها على أنه نبي وعلى أنه مرسل هي معاجز كثيرة كما أسلفنا، نذكر منها على سبيل المثال:

الأولى: إخباره ﷺ بالمغيّبات

لقد أخبر نبيّنا الأكرم ﷺ بكثير ممّا هو في عداد علم الغيب، ومنه:

١ ـ أنه ﷺ قال لعمّه العباس بن عبد المطلب يوم بدر وقد أُسر: «**افدِ نفسك وابني أخويك**». فقال: يابن أخي، إن القوم استكرهوني، ولا مال لي. فقال ﷺ له: «**فأين المال الّذي استخبيته عند أُمّ الفضل، وقلت: إن أُصبتُ في سفري، فللفضل كذا، ولقثم كذا، ولعبد الله كذا؟**»[1].

٢ ـ إخباره ﷺ المسلمين بأنهم سيفتحون بعده بلاد كسرىٰ وقيصر[2].

٣ ـ قوله ﷺ لفاطمة الزهراء عليها السلام: «**إنك أوّل أهل بيتي لحوقاً بي**»[3].

وغيرها كثير جدّاً، ولا يتّسع المقام لذكره وحصره.

الثاني: نمو الأشجار ببركته ﷺ

فقد حدّثنا المؤرخون أنه ﷺ غرس نخلة بيده الشريفة، ثم سقاها بشيء من الماء، فنمت وكبرت، وأثمرت بشكل لافت للنظر، وفي وقت قياسي[4].

---

(١) قرب الأسناد: ١٩، الكافي ٨: ٢٠٢ / ٢٤٤، مسند أحمد ٣: ٣٥٣.

(٢) صحيح البخاري ٣: ١٣١٦ / ٣٤٠٠.

(٣) العمدة ٣٨٧ / ٧٦٥، صحيح البخاري ٣: ١٣٢٧ / ٣٤٢٦.

(٤) تقول إحدى الروايات التي تتناول هذا الموضوع: جاء سلمان إلى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة بمائدة عليها رطب، فوضعها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما هذا يا سلمان؟**». قال: صدقة عليك وعلى أصحابك. فقال ﷺ: «**ارفعها؛ فإنّا لا نأكل الصدقة**». فرفعها، فجاء من الغد بمثله يحمله، فوضعه بين يديه ﷺ، فقال: «**ما هذا يا سلمان؟**».

الثالث: تسبيح الحصى بيده الشريفة

فقد أخذ ﷺ قبضة من الحصى، فسبّحت وهي في يده الكريمة[1].

الرابع: إرجاعه عين قتادة بن ربيع

ومنها ما حدث لقتادة بن ربيع الذي فُقئت إحدى عينيه بسهم في معركة أُحد، حيث أخذها بيده ثم أتى بها إلى النبي ﷺ، وقال له: يا رسول الله، إن عندي امرأة أُحبّها، وإني أخشى إن هي رأت عيني أن تستقذرها. فأخذها رسول الله ﷺ من يده، ثم وضعها مكانها، فاستوت ورجعت سليمة كما كانت، بل وأحسن مما كانت، فقد كانت أقوى عينيه وأصحّهما[2].

إذن فهذه المعاجز الكثيرة التي كانت تجري على يدي رسول الله ﷺ كلّها ـ ومن غير طلبٍ من أحدٍ تقدّم به ـ إنما هي شهادة من الله جلّ شأنه له ﷺ على أنه رسول السماء وسفيرها، وعلى أنه نبي قد اختاره الله سبحانه وتعالى ليبلّغ رسالاته إلى الناس، وليقوم ﷺ بدوره في إيصال قوانينه وأحكامه إليهم؛ لأن هذه الأعمال أو المعجزات التي كانت تجري على يديه جميعها إنما هي أعمال

فقال: هدية لك. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ابسطوا». ثم لمّا نظر إلى الخاتم الذي على ظهر رسول الله ﷺ ورآه، آمن به.

وكان سلمان مملوكاً عند اليهود، فاشتراه رسول الله ﷺ بدراهم، وعلى أن يغرس لهم نخلاً، فيعمل سلمان فيها حتى يطعم، فغرس رسول الله ﷺ النخل إلّا نخلة واحدة غرسها عمر، فحملت النخل من عامها، ولم تحمل نخلة عمر، فقال رسول الله ﷺ: «ما شأن هذه؟». قال عمر: أنا غرستها يا رسول الله. فنزعها رسول الله ﷺ، ثم غرسها فحملت من عامها. مسند أحمد ٥: ٣٥٤، الشمائل المحمدية (الترمذي): ٢٨ ـ ٢٩ / ٢٠.

(١) مدينة المعاجز ١: ٤١٨ / ٢٧٧.

(٢) انظر: الاحتجاج ١:٣٣٢ ـ ٣٣٣، الثاقب في المناقب: ٦٤ ـ ٦٥ / ٤١، المستدرك على الصحيحين ٣: ٢٩٥.

يعجز البشر عنها أو عن الإتيان بما هو أدنى منها. فليس لأحد أن يدّعي بأنه يقوى على القيام بها أو بمثلها؛ ولذا فإن آية المقام الشريفة تصرّح بقولها: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[1].

وفي قوله تعالى ﴿شَهِيداً﴾ التي هي صيغة مبالغة لاسم الفاعل شاهد تأكيد على تلك الشهادة التي يروم الله تبارك وتعالى أن يشهد بها لنبينا محمد ﷺ على أنه رسوله، وأنه مبلّغ دينه ورسالاته إلى أهل الأرض.

فالآية إذن تقول: إن الله تبارك وتعالى يشهد للنبي الأكرم ﷺ بأنه نبي مرسل، وبأنه مرضي عند الله تبارك وتعالى، وأن السماء قد اختارته لهذه الرسالة الخالدة، ولهذه السفارة المقدّسة، وليس بعد شهادة الله شهادة كما يوحي به هذا المقطع الشريف.

طبيعة الإعجاز في حياة النبي ﷺ

ثم إننا حينما نتتبّع حياة النبي الأكرم ﷺ، فسنجد أن كلّ جانب من جوانب حياته الشريفة هو بحدّ ذاته معجزة خالدة؛ فكان ﷺ معجزة في خلُقه، ومعجزة في سجاياه الكريمة، ومعجزة في عطفه ولطفه وصفاته، بل إن كلّ ذرة من ذرات كيانه الشريف ووجوده العظيم هي معجزة لا تعلو عليها معجزة؛ لأن الله تبارك وتعالى قد منحه هذه الجوانب كلّها؛ كي تكون دليلاً على صدقه في كلّ شيء؛ من إخباره عن السماء حتى أدنى مفردات حياته اليومية، ووسيلة لالتفاف الناس من حوله. ولهذا فإننا نقول: إن هذه الصفات قد بلغت عنده إلى حدّ الإعجاز، فصفاته

---

(١) أي بما شهد له سبحانه وتعالى من شهادات لفظية كما في الآيات الكريمة المارّة. أو بما أجرى تعالى على يديه من معاجز لا يقوى البشر على أن يأتوا ولا بمعشارها.

كلها كريمة بما كان ﷺ عليه من عطف ورقّة وشفقة على أصحابه وأتباع دينه[1].

المبحث السابع: في أن أمير المؤمنين عليه السلام عنده علم الكتاب

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، وهذا المقطع الشريف من آية المقام الشريفة يتمركز حوله ثقل البحث في هذه المحاضرة المباركة؛ لأنه يمثّل مركز ثقل هذه الآية الكريمة، ونقطة ارتكازها؛ حيث يكمن ميزان الحقّ.

محاولات حرف الآية عمّن نزلت فيه

ولأجل هذا المقطع الشريف أيضاً حاول بعض المرجفين حرف مسار هذه الآية الكريمة عن واقعها الذي تريد السماء أن تحفره في أذهان المؤمنين عبر تركيز مفهوم ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ والمراد منه، وتحديد من هو الذي ﴿عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ حقيقة ودون تلاعب بالألفاظ والمفاهيم في قلوبهم، وعقولهم ودفعهم إلى الإيمان به. وقد اتّبع المغرضون والمرجفون في سبيل تحقيق هذا الهدف ـ تحريف معنى الآية الكريمة ـ عدّة محاولات، نذكر منها محاولتين اثنتين بحسب ما يتّسع له المقام:

الأولى: أنّ هذه السورة مدنية وليست مكية

وقد مرّ الكلام حول هذه المحاولة في المبحث الثاني، وهي أن هذه الآية الكريمة تقع ضمن سورة مدنية، وليست مكية.

---

(١) قال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ آل عمران: ١٥٩.

الثانية: تغيير القراءة لهذه الآية الكريمة

إن مكمن الخطر بالنسبة لهؤلاء هو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾، وهذا ما دعا البعض إلى التلاعب به، حيث حاول تغيير قراءته من ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ إلى «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ»[1]، مع أن هذا بعيد تماماً عن الذوق وعن السياق القرآني؛ لأنه إن قلنا بأن هذه هي القراءة فيه، فإننا إنما نثبت أنه ليس هنالك من نظم بين هذا المقطع الشريف، وبين المقطع السابق لها، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، فعلى مشهور القراءة يكون السياق: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَ﴾ كفى بـ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. وهو سياق واضح لا غبار عليه، ولا إشكال فيه.

تعدّد الشهود

إذن فهذه محاولة سقيمة وفاشلة كان يهدف من ورائها تزييف هذه الآية الكريمة وصرفها عمّن نزلت فيه ومن أجله. ثم إن من ينظر بعين البصيرة إلى هذه الآية الكريمة يجدْ أنها تريد تعدّد الشهود،أي أنها تريد أن الله جلّ شأنه يشهد بذلك،كما أن هناك شخصاً آخر يشهد هذه الشهادة، وهذا الشخص هو الذي عنده علم الكتب السماوية[2].

---

(١) جامع البيان ١٣: ٢٣١، تفسير السمرقندي ٢: ٢٢٣.

(٢) في خبر سليم قال: جلست إلى علي عليه السلام بالكوفة في المسجد والناس حوله، فقال: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله إلّا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها». فقال ابن الكواء: فما كان ينزل عليه وأنت غائب؟ فقال عليه السلام: «بلى، يحفظ علي ما غبت عنه، فإذا قدمت عليه قال لي: يا علي، أنزل الله بعدك كذا وكذا، فيقرئنيه، وتأويله كذا وكذا، فيعلمنيه». كتاب سليم بن قيس: ٣٣١ ـ ٣٣٢ / ٣١.

﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ في رؤية المفسرين

إن المفسرين من العامّة والخاصّة قد انقسموا إلى ثلاثة فرقاء إزاء هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة، وهؤلاء الفرقاء هم:

الفريق الأول: من يقول بأنه علي عليه السلام خاصّة

ويرى أتباع هذا الفريق الذي يضمّ مجموعة كبيرة من مفسّري علماء الشيعة، وعلماء أهل السنة أن المراد من قوله تعالى: ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ شخص بعينه هو أمير المؤمنين عليه السلام[1].

الفريق الثاني: من يقول بأنه علي وأهل بيته عليهم السلام

وهذا الفريق يضمّ مجموعة من المفسّرين كذلك، ويذكر روّاده في مدوّناتهم

وعن الأصبغ بن نباتة قال: لما جلس علي عليه السلام في الخلافة، وبايعه الناس، خرج إلى المسجد معتمّاً بعمامة رسول الله صلى الله عليه وآله، لابساً بردة رسول الله صلى الله عليه وآله، متنعلاً نعل رسول الله صلى الله عليه وآله، متقلداً سيف رسول الله صلى الله عليه وآله، فصعد المنبر، فجلس عليه السلام عليه متمكّناً... ثم قال: «يا معشر الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله، هذا ما زقّني رسول الله صلى الله عليه وآله زقّاً زقّاً. سلوني؛ فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي الوسادة فجلست عليها لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة فتقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟ ولولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان، وبما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، سلوني قبل أن تفقدوني...». التوحيد: ٣٠٤ / ١، تفسير الثعلبي ٥:١٦٢، شرح نهج البلاغة ٦:١٣٦، ١٢: ١٩٧، ٢٠: ٢٨٣، شواهد التنزيل ١: ٣٦٦.

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٢٠ ـ ٢٢١ / ٧٧ ـ ٧٨، زاد المسير ٤: ٢٥٢الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٣٦، تفسير الثعلبي ٥: ٣٠٣ ـ ٣٠٤، شواهد التنزيل ١: ٤٠٠ ـ ٤٠٥.

روايات واردة عن النبي الأكرم ﷺ، أو عن أئمة أهل البيت ﵈ حول أن الذي عنده علم الكتاب ليس هو الإمام علي ﵇ وحده، بل إن معه أهل بيت النبي الأكرم ﷺ كافّة.

الفريق الثالث: من يرى أنه عبد الله بن سلام وعلماء أهل الكتاب

أمّا أصحاب هذا الفريق فيرون أن ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ هو عبد الله بن سلام، ومعه جملة من علماء أهل الكتاب الذين كانوا يرون أنهم أعلم من غيرهم بكتاب الله تبارك وتعالى.

مناقشة الفريق الثالث

ونحن سوف نحاول هنا أن نرى إلى أي مدىً يمكن أن يصمد هذا الرأي وأصحابه الذين يستميتون في محاولة إثباته والدفاع عنه وتركيزه في أذهان العامّة من الناس أمام النقاش حينما تضعه على محكّ الموازين العلمية والعقلية. وفي مناقشة أصحاب هذا الرأي فإننا نقول: إن لنا مؤاخذات عدّة على ما يذهب إليه روّاد هذا الفريق، وهي تتمثّل بما يلي:

الأولى: تاريخ إسلام عبد الله بن سلام

إن هذا الرجل كما يذكر المؤرخون قد أسلم في المدينة المنورة سنة (٩) من الهجرة؛ ولذا فإن هنالك من المفسّرين من يذهب إلى أنه ليس المعنيّ بهذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة، ومنهم القرطبي الّذي يروي في تفسيره الجامع عن سعيد بن جبير أنه سأله أبو بشر عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: «وكيف يكون عبد الله بن سلام، وهذه السورة مكية، وابن سلام ما أسلم إلّا بالمدينة؟». ثم قال القرطبي: «وقال القشيري: قال ابن

جبير: هذه السورة مكية، وابن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة، فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام»[١].

إذن فهذه السورة مكية، وأهل الكتاب حينما أسلموا فإنهم إنما أسلموا بالمدينة المنورة وليس في مكة المكرمة، وعليه فإنه لا يمكن أن يكون ابن سلام هو المعني بهذه الآية الكريمة.

الثاني: ضآلة المستوى العلمي لابن سلام

إن الآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، فإنها تعني إما أن هذا الشخص عنده علم القرآن الكريم، أو علم الكتب السماوية الأُخرى، لكن عبد الله هذا الذي ينسبون إليه هذه الآية الكريمة هل يمكن أن تكون عنده تلك القابلية التي تخوله أن يعلم علم القرآن كلّه، مع أنه قد أسلم في السنة التاسعة من الهجرة كما ذكرنا؟ كما أنه ينبغي ألّا يغيب عن أذهاننا أمر هو أننا حينما نقول: إن هؤلاء قد ذكروا بأنّ عبد الله هذا قد أسلم سنة (٩) من الهجرة فهو يعني أنه قد عاش مع النبي الأكرم ﷺ سنة واحدة، فهل هذه السنة الواحدة تخوله لأن يعلم علم الكتاب كله؟ وهل إنها كفيلة وكافية لأن تعطيه القابلية على إدراك جميع ما يحيط به القرآن الكريم من معارف وعلوم؟

إذن فالنتيجة هي أن علم الكتاب كله لا يمكن أن يحيط به إنسان في سنة واحدة صحب رسولنا الأكرم ﷺ فيها كما يحاول هؤلاء أن ينسبوا مثل هذا الأمر إلى عبد الله بن سلام.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٣٦. وانظر: جامع البيان ١٣: ٢٣٢، تفسير البغوي ٣: ٢٥.

الثالث: شطحات علماء أهل الكتاب، نماذج من الفكر الإسرائيلي

ثم إن هؤلاء المدّعون إذ يقولون: إن علماء أهل الكتاب ـ أي علماء اليهود والنصارى ـ هم الذين عندهم ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، فإننا نريد أن نسألهم، ونقول لهم: هل ترضون أن تنسبوا الآية إلى هؤلاء الذين يقولون ما يقولون، والذين دسّوا في تراثنا الفكري من إسرائيليّات لا حصر لها، عجيبة في بابها، غريبة في مجالها؟ ونحن نذكر بعضاً منها كدليل على صحّة هذه الدعوى:

الأولى: أن النبي موسى فقأ عين عزرائيل

فهل يمكن أن نقبل منهم ما ينسبونه مثلاً إلى النبي موسى من تطاول على الله تعالى، وتعدٍّ على أوامره، وتحدٍّ لرسله، فيقولون: إن الله تبارك وتعالى حينما بعث عزرائيل ليقبض روح موسى، ونزل لأجل ذلك ممتثلاً أمره جلّ شأنه، فإنّ النبي موسى قد تأذّى منه وضربه على عينه، ففقأها له كما تقول الرواية التي يروونها؛ حيث قال له: «جئتني زائراً أم قابضاً؟». قال: «جئتك قابضاً». قال: «أتقبض روحي؟». ثم ضربه على وجهه، فلطم عينَه، فرجع عزرائيل إلى ربّه أعور بعين واحدة[١].

الثانية: أن النبي موسى كان آدر

أم هل يمكن أن نقبل منهم ما كانوا ينسبونه إلى النبي موسى من عيوب في جسده الشريف؛ حيث إنهم يروون أن بني إسرائيل اتّهموه بأنه آدر، فأراد الله أن يبرّئه أمامهم من هذا العيب، فوضع ثيابه مرّة على صخرة حينما أراد أن يغتسل، فأوحى الله للحجر أن طرْ. فطار مبتعداً، فما كان من النبي موسى إلّا

---

(١) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

أن انطلق خلفه، متبعاً له في أثره، وهو عارٍ من غير ثياب، ويقول له: «يا حجر، ألقِ ثيابي». فلم يُطعه الحجر في ذلك ولم يسمع له، حتى أتى به إلى بني إسرائيل وهو ﷺ على تلك الحال، فرأوه مستوياً، حسن الخَلْق[1].

الثالثة: قصة تميم الداري صاحب خبر الجسّاسة

ومن هذا أيضاً خبر تميم الداري صاحب خبر الجسّاسة الذي يرويه مسلم في صحيحه[2]، وغيره[3]. وهي خرافة عجيبة غريبة حمل عليها بعض المسلمين، ومن جملتهم رشيد رضا في تفسيره (المنار).

وغيرها من الأخبار أو الروايات[4] التي يرويها هؤلاء مما تخرج عن سياق

(١) مسند أحمد ٢: ٣٢٤، تفسير مجاهد ٢: ٥٢١، جامع البيان ٢٢: ٦٣ / ٢١٨٨٢.

(٢) صحيح مسلم ٨: ٢٠٤ ـ ٢٠٧.

(٣) مسند أحمد ٦: ٤١٨، سنن أبي داود ٢: ٣١٩ ـ ٣٢١ / ٢٣، مسند أبي داود الطيالسي: ٢٢٩، مسند الحميدي ١: ١٧٧، مسند ابن راهويه ٥: ٢٢٠، الآحاد والمثاني ٦: ٥ ـ ٦، السنن الكبرى (النسائي) ٢: ٤٨١، صحيح ابن حبّان ١٥: ١٩٤، تفسير البيضاوي ٤: ٢٧٨، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٢٣٥، ٢٣٦، تفسير النسفي ٣: ٢٢٣، وقصَّة الجسَّاسة هي أن رسول الله ﷺ جمع الناس بعد الصلاة، ثُمَّ قال: «إني ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدّثني حديثاً وافق الذي كنت أُحدّثكم عن المسيح الدجّال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم ارفؤوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس... فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابّة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك، ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسة... فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً، وأشدّه وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك، ما أنت؟... قال: أنا المسيح الدجّال، وإني أُوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلاّ هبطتها في أربعين ليلة غير مكّة وطيبة؛ فهما محرّمتان عليّ كلتاهما...».

(٤) كخبر ابن صائد، انظر: سنن أبي داود ٢: ٣٢١ ـ ٣٢٢ / ٢٤.

العقل أو قوانينه، فهل من يروي مثل هذه التفاهات ويلصقها بأشرف المخلوقات عند الله تبارك وتعالى، هو ﴿مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؟

خلاصة عوامل رفض الرأي الثالث

إذن هذه الإسرائيليات هل يمكن أن نعتبر أصحابها والقائلين بها، والمدّعين لها، والمتشبّثين بها، وهي التي حاولوا تشويه صورة الدين الإسلامي عبرها، والتي نشط بعض المسلمين (المحقّقين والمنصفين منهم) لإخراجها من الموروث والفكر الإسلاميين أنهم هم مَن عندهم ﴿عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، أي علم القرآن الكريم، وعلم الكتب السماوية الشريفة الأُخرى، وأنهم هم الذين يشهدون للرسول الأكرم في إثبات نبوّته ومعجزته؟

والجواب طبعاً هو النفي المطلق، بل إننا نقول: كلّا وألف كلّا؛ فإن هذا لا يمكن أن يكون أبداً.

إذن فهذا الرأي الذي يذهب إليه أصحاب الفريق الثالث هو رأي ضعيف جدّاً، ولا يصمد أمام النقد والواقع العلميين. وأهمّ ما في المسألة هو ما فيها من تهافت، سيما إذا ما نظرنا إليها من ثلاث زوايا، كل واحدة منها تؤكّد صحة ما نحن فيه، وهذه الزوايا هي:

الأولى: أخذهم العلم بالشكل الطبيعي

إن هؤلاء الذين ينسبون الآية الكريمة إلى علماء أهل الكتاب يرون أنهم إنما يأخذون العلم بالطريق الطبيعي[1]، وإن كان كذلك فإن هذه الفترة من المعاصرة

---

(١) وليس إلهاماً من الله تبارك وتعالى، أو زقّاً من رسوله الكريم لمن يختاره الله سبحانه، كما هو الحال مع أمير المؤمنين كما مرّ قريباً، أو مع أهل بيت النبوّة.

غير كافية لأن يكتسبوا علم الكتاب كلّه من الرسول الأكرمﷺ خلال هذه الفترة الوجيزة.

الثانية: قصر فترة إسلامهم

أن هؤلاء كما ذكرنا قد أسلموا في المدينة المنورة، والسورة مكية كما يذهب إلى ذلك الكثير من المفسرين. كما أن إسلامهم في المدينة المنوّرة يوحي بنقطة هامّة مرّت الإشارة إليها، وهي أنهم لم يعاصروا النبي سوى سنوات قلائل إن لم نقل: أياماً، أو كما هو الحال مع عبد الله بن سلام الذي عاصر النبيﷺ لمدة سنة واحدة، وهي غير كافية لتحصيل ذلك سيما بلحاظ الزاوية الأُولى.

الثالثة: أنهم أهل أُسطورة

فهؤلاء هم أهل أُسطورة في النقل، وافتراء في النسبة؛ فلا يمكن الركون إلى أقوالهم ونظرياتهم.

تهافت ابن العربي ومواقفه تجاه أهل بيت النبوّةعليهم السلام

وهنا نقطة أود الاشارة إليها، وهي ما يرتئيه ابن العربي في أهل البيتعليهم السلام، وما يقفه منهم؛ سواء حول هذه الآية الكريمة أو حول غيرها. ولذا فإننا سوف ننقل رأيه في الإمام الحسينعليه السلام، فقبل أن نلج في موضوعنا هذا سوف نذكره كتمهيد أو توطئة لنعرف عبرهما من هو ابن العربي هذا الذي سوف ننقل رأيه في آية المقام الكريمة. لقد كان هذا الرجل عبارة عن كتلة ملتهبة من المواقف السلبية التي كان يجاهر من خلالها بالعداء لأهل بيت النبوّة، ومختلف الملائكة، ومعدن الرسالة، ومنتهى العلم، ومهبط الوحي، وعيبة السماء، وصدور محلّ التنزيل. وهي مواقف كثيرة آثرنا أن نقتصر منها على ذكر موقفين: أحدهما من الإمام

الحسين، وهو كتوطئة كما ذكرنا، والثاني عن الإمام أمير المؤمنين فيما يختصّ بهذه الآية الكريمة، وهما:

الأول: موقفه من الإمام الحسين

إن ابن العربي هذا يذهب إلى أن الإمام الحسين قد قتله يزيد بسيف جدّه، أي بسيف الرسول الأكرم؛ لأنه كان قد نهى عن الخروج على أيمّة المسلمين، ويزيد هذا إمام المسلمين؛ فيكون قد خرج على إمام زمانه؛ فاستحقّ القتل بسيف جدّه[1]. وهذا ناشئ طبعاً إمّا من ضحالة معرفته بمفهوم الإمامة، وعدم توفّر دواعي الاحترام لهذا المفهوم عنده، أو من حقده على أهل هذا البيت الطاهر، وهو التفسير الأوفر حظّاً في المصداقية من الأول وإن كان للأوّل حظّ من المصداقيّة كذلك؛ لتعنّت ابن العربي عن طلب الحقيقة.

وهذه النظرية التي يطرحها ابن العربي حول مقتل الإمام الحسين تبيّن لنا مدى احترامه لأمر رسولنا الأكرم بحبّ أهل بيته، وكم كان عنده من ولاءٍ لهم، وهم الذين أُمر كما أُمرنا جميعاً بموالاتهم، وبمحبّتهم، وبمشايعتهم ومتابعتهم.

الثاني: موقفه من أمير المؤمنين ونفيه هذه الآية الكريمة عنه

وعلى أية حال فإننا نرى أن هذا الرجل في تفسيره لهذه الآية الكريمة ـ بل في غيرها أيضاً ـ يتهالك تهالكاً عجيباً غريباً في سبيل نفيها عن الإمام علي، ولإلصاقها بغيره، فالرواية المشهورة التي تروى عن الإمام الباقر عن النبي تقول: إن عبد الله بن عطاء سأل الإمام أبا جعفر الباقر قائلاً: هذا

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ١: ٢٦٥ ـ ٢٦٦، ٥: ٣١٣.

ابن عبد الله بن سلام يزعم أن أباه الذي يقول الله تبارك وتعالى فيه: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. فقال له الإمامعليه السلام: «كذب، هو علي ابن أبي طالبعليه السلام »[١].

وهذا ما يرويه كثير من أهل التفسير من المسلمين، غير أنَّ ابن العربي هـذا يدّعي بأن هؤلاء الذين يقولون: إن هذه الآية قد نزلت في علي بن أبي طالب هم مخطئون؛ يقول: وأما من قال: إنه علي بن أبي طالب، فعوّل على أحد وجهين:

أولاً: البناء على أن علياًعليه السلام أعلم الصحابة

يقول ابن العربي: إن أصحاب هذا الرأي إنما يذهبون إليه؛ لأنهم يرون أن علي ابن أبي طالبعليه السلام هو أعلم الصحابة، لكن من قال بأنه هو كذلك؟ بل إن أبا بكر وعمر وعثمان أعلم منه حسبما بيّناه في أُصول الدين في ذكر الخلفاء الراشدين. فالإمام علي بن أبي طالبعليه السلام ـ من وجهة نظره ـ ليس هو الأعلم بين الصحابة، بل إن فيهم من هو أعلم منه.

ونقول: إن لم يكن عليعليه السلام أعلم الصحابة، فمن هو الذي أعلم منه؟ هل هـو الذي أجنب وترك الصلاة لأنه لا يعرف التيمّم[٢]، أم ذاك الذي يُسأل عن معنى

---

(١) تفسير العياشي ٢: ٢٢٠ ـ ٢٢٢ / ٧٧، تفسير فرات الكوفي: ١٢٣ ـ ١٢٤ / ١٣٤، تفسير الثعلبي ٥: ٣٠٣، الجامع لأحكام القرآن ٩: ٣٣٦.

(٢) فعن ابن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنبت، فلم أجد ماء. فقال عمر: لا تصلِّ. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا، فلم نجد ماء. فأما أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعّكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبيصلى الله عليه وآله وسلم، فذكرت ذلك له فقال: «إنما كان يكفيك»، وضرب النبيصلى الله عليه وآله وسلم بيده إلى الأرض، ثم نفخ فيها، ومسح بها وجهه وكفيه؟

مسند أحمد ٤: ٢٦٥، صحيح مسلم ١: ١٩٣ ـ ١٩٤، سنن النسائي ١: ١٧٠، صحيح ابن خزيمة ١: ١٣٥، سير أعلام النبلاء ١٣: ٤٩٩ ـ ٥٠٠. وانظر صحيح البخاري ١: ٨٧، غير

الأبّ فيقول: «أي سماء تظلّني؟ وأي أرض تقلّني؟ أم أين أذهب؟ أم كيف أصنع إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟»[1]. والحال أنّ الآية نفسها توضّح معنى الأب إذ تقول: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾[2]، فالفاكهة طعام لنا، والأبّ ما تأكله الأنعام، وهو الحشيش[3].

أم هل إن الذي هو أعلم من علي بن أبي طالب ذاك الذي يروّج لفكرة الصلاة بالمسلمين في السفر أربع ركعات، مؤيّداً بذلك من صلّى بهم كذلك. وحينما اعترض عليه بالقول: إن النبي كان يقصر الصلاة في السفر، والقرآن الكريم أمره أن يجعل الصلاة الرباعية صلاة ثنائية، قال: إن هذا غير ذاك؛ فالعلّة هنا غيرها هناك، فإن الرسول الأكرم إنما قصر الصلاة في سفره لأن القرآن

أن البخاري لم ينقل الحديث كاملاً كما نقله الرواة الآخرون جميعهم، فأسقط جواب الخليفة عمر، وهو قوله: «لا تصلِّ». وهذا هو دأبه وعادته، فمن هذا أنه لم يجد فضيلة أو منقبة لأمير المؤمنين إلّا بادر إلى تعتيمها حتى وإن كانت ذات دلالة صريحة على أفضليته لأمر الخلافة، وتقدّمه على الآخرين فيها. مع أن هذه المناقب والفضائل قد ورد ذكرها في سائر الصحاح الأُخرى، والمدارك المعتبرة لدى أهل السنة، وهي من يقينيات الحوادث التاريخية ومسلّماتها، بل مما أجمع عليه علماء السنة والشيعة، مثل حديث الغدير، وآية التطهير، وحديث الطائر المشوي، وحديث سدّ الأبواب، وحديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وغيرها ممّا لا مجال لذكره هنا.

(١) عين العبرة في غبن العترة: ٩، فتح الباري ١٣: ٢٢٩، قال: وهذا الحديث منقطع بين النخعي وأبي بكر.

وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣٢]، فقال: كلّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ؟ ثم نقض عصا كانت في يده، وقال: هذا لعمر الله التكلّف، اتبعوا ما تبيّن لكم من هذا الكتاب. المستدرك على الصحيحين ٢: ٥١٤، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٢) عبس: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) فهو هنا لفّ ونشر مرتّب.

الكريم أمره بذلك، أما هذا الذي صلّاها أربعاً في السفر؛ فلأنه أبو المسلمين، والأب دائم الحضور عند أهله، والمسلمون في كلّ مكان أولاده، وعليه فإنه لا قصر عليه؛ لأنه أينما كان فهو ليس على سفر.

ولست أدري هل إن المسلمين ليسوا أولاداً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

إذن فهل هؤلاء أعلم من علي بن أبي طالب عليه السلام الذي يقول: «**سلوني سلوني، فوالله لا تسألونني عن آية من كتاب الله إلّا حدثتكم عنها بمن نزلت بليل أو بنهار، أو في مقام أو في سهل أو في جبل، وفيمن نزلت؛ أفي مؤمن أو منافق، وما عُني بها؛ أخاصّ أم عامّ. ولئن فقدتموني لا يحدّثكم أحد حديثي**»[1].

وكان عليه السلام يذكر ذلك ويكرّره بأعلى صوته متحدّياً فيه من يريد أن يأخذ تلك المنزلة بغير حقّ. فهل من الإنصاف أن يقال عن غيره بأنه أعلم منه، وغيره لا يكاد يفقه من كتاب الله آية، ولا من الأحكام شيئاً؟

ثانياً: الاعتماد على حديث: «مدينة العلم»

ثم يقول ابن العربي مبرّراً ما يذهب إليه: أو لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنا مدينة العلم، وعلي بابها**»[2]، فهؤلاء الذين يقولون: إن علي بن أبي طالب أعلم الصحابة، إنما يستدلّون على ذلك أيضاً بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا. ويعقّب على ذلك

---

(١) سعد السعود: ١٠٩، شواهد التنزيل ١: ٤١ ٤٢ / ٣١.

(٢) انظر: الخصال: ٥٧٤ / ١، مسند أبي يعلى ٢: ٥٨ / ٦٦٩، المستدرك على الصحيحين ٣: ١٢٦، ١٢٧، المعجم الكبير ١١: ٥٥، الاستيعاب ٣: ١١٠٢، الفائق في غريب الحديث والأثر ٢: ١٦، شرح نهج البلاغة ٧: ٢١٩، ٩: ١٦٥، أُسد الغابة ٤: ٢٢، تهذيب الكمال ١٨: ٧٧، ٢٠: ٤٨٥، ٢١: ٢٧٦ ـ ٢٧٧، تهذيب التهذيب ٧: ٢٩٦، كنز العمّال ١٣: ١٤٧ ـ ١٤٨ / ٣٦٤٦٣.

بالقول: وهذا الحديث كذب وموضوع، ولا أصل له؛ فالنبي مدينة علم، وأبوابها أصحابه؛ ومنهم الباب المنفسح، ومنهم المتوسّط، على قدر منازلهم في العلوم[١].

نقض كلام ابن العربي

والحال إنني سوف أُرشد من يُريد أن يطّلع على هذا الحديث وعلى وجوده إلى عشرات المصادر التي ترويه عند المسلمين، ومن أراد فلينظر إلى كتاب (مناقب الخمسة في الصحاح الستة) للفيروز آبادي، ولينظر إلى أسانيد هذه الرواية فيه، وإليها في المصادر المتعدّدة التي ترويه من كتب السنة[٢]. ونقول لابن العربي: أليست هذه كتبك التي ترجع إليها وتعتمد عليها، أم إنك مصداق ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣]؟

فأن يلتوي إنسان ما أمام الحقائق الناصعة في واقع الأمر هو شيء مؤلم جدّاً، وأن يلتوي من يدّعي العلم أمام تلك الحقائق لهو أمر أشدّ إيلاماً؛ لأن هذا ينبئ عن أن فاعل هذا إنسان فارغ المحتوى، ليس عنده مبدأ، أو ليس عنده ميزان أو قاعدة يسير على ضوئهما، ويختطّ ما تقرّره تلك الموازين والضوابط والقواعد التي ينبغي أن تسيّره في حياته.

فاسألوا أهل الذكر

وهكذا فإننا نجد أن هذا الإنسان حينما يواجهه الحقّ ويصطدم به، ويرى أنه على خلاف معه، وأنه سائر في طريق هو غير طريق الحقّ والصواب، وأنه مغلوب

---

(١) أحكام القرآن ٣: ٨٦.
(٢) انظر مثلاً شرح إحقاق الحقّ ٤: ٣٧٧.
(٣) البقرة: ٨٥.

أمام الأدلّة والحقائق، فإنه يهرب من ذلك بأن يضع المبرّرات الكثيرة التي يحاول من خلالها تسييس الحقّ لصالحه، وتسويق أفكاره المتقاطعة مع الحقّ والصواب على حسابهما، مع أنه يعرف أنه غداً سوف يُسأل أمام الله تبارك وتعالى عن كلّ شيء.. عن اتّباع كتابه الكريم، وعن أن يأخذ بهذا المنهج القويم وامتياحه من النبع الصافي الذي أمرنا القرآن الكريم نفسه بأن نتبعه بقوله تعالى: **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**[1].

يقول الإمام محمد الباقر عليه السلام لأبي زرعة: **«نحن أُولو الأمر الذين أمر الله عزّ وجلّ بالردّ إلينا»**[2].

وقال له رجل: جعلت فداك، إن رجالاً من عندنا يقولون: إن قول الله عزّ وجلّ: **﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾**، أنهم علماء اليهود. فتبسّم الإمام عليه السلام، وقال: **«إذن والله يدعونهم إلى دينهم، بل نحن والله أهل الذكر الذين أمر الله بردّ المسألة إلينا»**[3].

وهذا هو الحقّ والذي أنزل الحقّ؛ فهم بيت علي عليه السلام وفاطمة (سلام الله عليها).. البيت الذي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمرّ به كلّ يوم، ويقف على بابه ويقول: **«﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[4]، يا أهل بيت النبوّة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة»**[5].

ويقول: **«أتأذنون لمحمد بالدخول»**. فتقول له: **«البيت بيتك، والحرّة ابنتك»**.

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) دعائم الإسلام ١: ٢٧، بحار الأنوار ٢٣: ١٧٢، تفسير الآلوسي ١٤: ١٤٧.

(٣) دعائم الإسلام ١: ٢٧.

(٤) الأحزاب: ٣٣.

(٥) تفسير فرات الكوفي: ٣٣٩ / ٤٦٣، بحار الأنوار ٣٥: ٢١٥ ـ ٢١٦ / ٢٠.

فيقول ﷺ: «هكذا أمرني ربي»[1].

وكان ﷺ يضع رأسه على رأسها، ويشبع رأسها لثماً وتقبيلاً، ويقول: «أشمّ منها رائحة الجنّة»[2].

ويقول ﷺ: «أثَمَّ لَكَع؟ أثَمَّ لكع؟»[3] (واللكع هو الطفل الصغير[4])، فتخرج له الزهراء ﵊ تحمل الحسنين ﵉، فيأخذهما ويقبلهما، ويقول ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»[5].

ويقول ﷺ: «أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً، وأبغض الله من أبغض حسيناً»[6].

---

(١) لم نعثر عليه أنه مع رسول الله ﷺ إلّا في كتاب التجلّي الأعظم: ٣٥١، دون ذكر مصدره، وما هو موجود في كتب الحديث أنه مع أمير المؤمنين ﵇، فقد ورد أن الزهراء ﵊ لمّا مرضت أراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، فاستأذن لهما الإمام علي ﵇ منها، فقالت ﵊ له: «البيت بيتك والحرة زوجتك». انظر: كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٣، ٤٣: ١٩٨.

(٢) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ / ٤.

(٣) العمدة: ٤٠٣، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، فتح الباري (المقدمة)، ١٧٩، ثم قال ابن حجر: قوله: «أثم لكع؟». قال الهروي: هو الصغير في لغة بني تميم، وقيل: الجحش الراضع، وقال ذلك للحسن على سبيل الإشفاق والرحمة.

(٤) لسان العرب ٨: ٣٢٢ ـ لكع.

(٥) كتاب سليم بن قيس: ٢٧٥، شرح الأخبار ٣: ١٠٠ / ١٠٣٠، صحيح البخاري ٤: ٢١٧، ٧: ٧٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٢، قال فيه: هذا حديث صحيح، مسند أبي داود الطيالسي: ٢٦٠ ـ ٢٦٠، مسند أبي يعلى ١٠: ١٠٥ ـ ١٠٧ / ٥٧٣٩، تاريخ الإسلام ٥: ٩٩ ـ ١٠٠، سير أعلام النبلاء ٣: ٢٦٦، ٢٨٢، وفيه: وقد قتلوا ابن رسول الله ﷺ، ٣: ٢٨٢، وفيه: «كيف لا أحبّهما وهما ريحانتاي من الدنيا؟»، الإصابة ٢: ٦٨، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٢٣، ٣٩: ٢٠٢، وفيها جميعاً أن ابن عمر سئل عن المحرم: يقتل الذباب؟ فقال: أهل العراق يسألون عن الذباب، وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا»!

(٦) مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجة ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، وغيرها كثير.

ويقول ﷺ: «اللهم إن هؤلاء أهلي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً»، ثلاث مرات[1] ويقول ويقول[2].

المبحث الثامن: فاجعة كربلاء

وهكذا كان ﷺ يدني ذلك الصدر إلى صدره ويمطر فمه لثماً ويشبعه تقبيلاً،

---

(١) شواهد التنزيل ٢: ١١٥ - ١١٠ / ٧٤١. فقد روى أن رسولنا الأكرم ﷺ أجلس الحسنين عليهما السلام في حجره وأجلس أمير المؤمنين عليه السلام على يمينه وفاطمة عليها السلام على يساره، ثم اجتذب من تحت أُم سلمة - راوية الحديث الشريف - كساءً خيبرياً، فلفّه ﷺ عليهم جميعاً، وأخذ بشماله بطرفي الكساء، وألوى بيده اليمنى إلى ربّه وقال: «اللهم إن هؤلاء أهلي». تقول أُم سلمة: فقلت: يا رسول الله، ألست من أهلك؟ قال: «بلى».فأدخلني في الكساء بعدما قضى دعاءه لابن عمّه وابنيه وابنته فاطمة عليهم السلام.

(٢) منها ما عن وهيب قال: استقبل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه، فطفق هاهنا مرة وهاهنا مرة، فجعل رسول الله ﷺ يضاحكه حتى أخذه، ووضع إحدى يديه تحت قفاه، والأُخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه فقبله وقال: «حسين مني وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط». مسند أحمد ٤: ١٧٢ ، سنن ابن ماجة ١: ٥١ / ١٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢٤ / ٣٨٦٤، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٥١٥ / ٢٢، صحيح ابن حبّان ١٥: ٤٢٨ - ٤٢٩.

ومنها قوله ﷺ: «حسين سبط من الأسباط، من أحبّني فليحبّ حسيناً». تاريخ الإسلام ٥: ٩٩ - ١٠٠

ومنها ما عن أبي هريرة قال: كان الحسين عند النبي ﷺ، وكان يحبّه حبّاً شديداً، فقال: «اذهب إلى أُمّك». فقلت: أذهب معه؟ فقال ﷺ: «لا». فجاءت برقة، فمشى في ضوئها حتى بلغ إلى أمّه. سير أعلام النبلاء ٣: ٢٦٦، الإصابة ٢: ٦٨، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٢٣، ٣٩: ٢٠٢.

وما عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال كان الحسن والحسين عليهما السلام يصطرعان بين يدي رسول الله ﷺ، فجعل ﷺ يقول: «هي حسن». فقالت فاطمة عليها السلام: «لم تقول هي حسن؟». فقال ﷺ: «إن جبريل يقول: هي حسين». الإصابة ٢: ٦٨، فمن يشجّعه جبرئيل عليه السلام ما هي منزلته عند الله سبحانه؟ إلى غير ذلك ممّا يضيق المقام عن حصره ممّا روته كتب القوم.

ونحن نقول له: يا رسول الله، يا نبي الله، ليتك ترى الصدر الذي أدنيته إلى صدرك الكريم.. ليتك تراه يوم سقط سبطك وابنك الإمام الحسين على الأرض، حيث نادى المنادي: يا خيل الله اركبي، وبالجنّة أبشري. يأمر أصحابها ليحطّموا صدر ريحانتك الإمام الحسين.

لقد هرع الجيش من قبلُ محتدماً ليحيط بالإمام الحسين، ورأته زينب الكبرى يحيط بأخيها، وكان محتبياً بسيفه، وقد خفق برأسه على ركبتيه، فجاءته وربتت على كتفه، فأحسّ بهذه اليد الحانية، فقال: «أُخيّة زينب!». فقالت له: «فداؤك زينب يابن أُمّي، جاءك القوم وأنت تسبت نعاساً؟ أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟». فرفع الحسين رأسه فقال: **«إني رأيت رسول الله الساعة في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا»**[1].

فيا رسول الله لقد عدت تلك الخيول على ذلك الصدر الكريم الذي حوى علم السماء، والذي انطوى على حنانك وعطفك وشخصك، وعلى جودك ونجدتك، فكانت تدوسه رائحة وجائية. وهذا المعنى قد أقضّ مضجع السيد الشريف الرضي (رضوان الله تعالى عليه) فراح يصوّر لنا هذا الموقف الذي مرّ بالإمام الحسين يوم الطفّ حينما قال:

يا حُسَاماً فَلّتْ مَضَارِبُهُ الهَا ... مَ وَقَدْ فَلّهُ الحُسَامُ الصّقِيلُ
يوْمَ طاحَتْ أيدي السّوَابق في النّقْـ ... ـعِ وَفاضَ الوَنى وَغاضَ الصّهيلُ
أتُرَاني أُعِيرُ وَجْهِيَ صَوْناً ... وَعَلى وَجهِهِ تَجولُ الخُيولُ
أتُرَاني ألَذُّ مَاءً وَلَمّا ... يَرْوَ مِنْ مُهجَةِ الإمامِ الغَليلُ
قَبّلَتْهُ الرماحُ وانتصلت فيـ ... ـها المَنَايَا وَعَانَقَتْهُ النُّصُولُ
وَالسّبَايا عَلى النّجَائِبِ تُسْتَا ... قُ وقد نالت الجيوب الذيولُ

(١) الإرشاد ٢: ٨٩، تاريخ الطبري ٤: ٣٥١.

مِنْ قُلُوبٍ يَدْمَى بِهَا نَاظِرُ الوَجْـ ـدِ وَمِنْ أدمُعٍ مَرَاهَا الهُمُولُ
قَدْ سَلَبْنَ القِنَاعَ عَنْ كُلِّ وَجْهٍ فِيْهِ لِلصَّوْنِ مِنْ قِنَاعٍ بَدِيْلُ
وَتَنَقَّبْنَ بِالأَنَامِلِ وَالدَّمْـ ـعُ عَلى كُلِّ ذي نِقَابٍ دَلِيلُ[1]

فيا رسول الله، هذا ابنك الذي كنت تضع صدره على صدرك، وتشبه لثماً وتقبيلاً لقد احتُزّ رأسه، ورفع على رمح، في حين أن جسمه الشريف قد ترك على الرمضاء تحت وطء حرارة الشمس، وكان أعداؤه يجولون برأسه أمام أخواته وزوجاته وبناته اللواتي كنّ ينظرن إليه ودموعهنّ جارية:

يا رأس مفترس الضياغم في الوغى كيف انثنيت فريسة الأوغادِ
يا مخمداً لهب العدى كيف انتحت نوب الخطوب إليك بالإخمادِ
حاشاك يا غيظَ الحواسد أن ترى في النائبات شماتةَ الحسّادِ
ما خلت قبلك أن عاديّ الظبا يأوي الثرى بدلاً من الأغمادِ
أو تُحجب الأقمار تحت صفائح الـ إلحاد شر عصائب الإلحادِ
ما إن بقيت من الهوان على الثرى ملقى ثلاثاً في رُبا ووهادِ
لكن لكي تقضي عليك صلاتها زمر الملائك فوق سبع شدادِ
لهفي لرأسك وهو يُرفع مشرقاً كالبدر فوق الذابل الميّادِ
يتلو الكتاب وما سمعت بواعظ تخذ القنا بدلاً عن الأعوادِ
لهفي على الصدر المعظّم يشتكي من بعد رشّ النبل رضّ جيادِ[2]

---

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ١٣١٣.
(٢) الأبيات لأحمد بن الحسن الميثمي. أعيان الشيعة ٢: ٥٠٤.



فهرس العناوين الرئيسة



المحتويات